أحمد حمروش

قصة ثورة ٢٣ يوليو

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مجتمع جمال عبد الناصر

٢

قصة ثورة ٢٣ يوليو

مجتمع جمال عبد الناصر

آذار (مارس) ١٩٧٥

قصة ثورة ٢٣ يوليو

الجزء الثاني

مجتمع جمال عبد الناصر

أحمد حمروش

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠-١١ - تلفون ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

الى ولديّ عـلاء وهـــاني

وجيـــل مصر الجديـــد

مقدمة

كان الامر عندي مشكلة ...

عندما بدأت جلسات الحديث والمناقشة مع المسئولين عـن النظام في مصر من اعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الاحرار والسياسيين ، تبينت ان قصة ثورة يوليو اكبر من ان يضمها كتاب واحد .

وتبينت ايضا ان الحديث عن مصر والعسكريين لا ينتهي بوصولهم الى قمة السلطة ... ولكنه يبدأ .

واكتشفت ان سنوات الصدام التي انتهت كما ورد في الجزء الاول بالقضاء علـى الاحزاب القديمة واعتقـال الشيوعيين وحـل الاخوان المسلمين ، وضرب المحاولات الانقلابية داخل الجيش ، وعـزل محمد نجيب ... لا تظهر الدور الذي قام بـه العسكريون في بناء المجتمع ... ولكنها تؤجله بل وتخفيه .

ووجدت نفسي قد بدات مرحلة لا يمكن التراجع عنها او التردد فيهـا ...

وواصلت المسيرة باحثا ... ومحاولا تسليط الضوء علـى قضايا ... قد لا تكون جديدة ... ولكنها في زحمة الاحداث تبدو فرعية ... وهي رئيسية .

وفي هذا الجزء الثاني (مجتمع جمال عبد الناصر) اقدم هذه المحاولة .

لماذا ... مجتمع جمال عبد الناصر ؟

متابعة حركة السلطة العسكرية الجديدة في مصر يكشف انه بعد ان تغلب مجلس قيادة الثورة على اعدائه وخصومه ، بدأ الدور الذي يلعبه جمال عبد الناصر — القائد المنتخب للضباط الاحرار — يصبح اكثر بروزا وتميزا ... فهو بين زملائه القائد المفوض ... وعند الجماهير القائد الجديد الذي يخلف محمد نجيب صاحب الشخصية البسيطة ، بعد محاكمات الاخوان المسلمين التي وقف فيها بعض زعمائهم على المشنقة ونفذ فيهم الاعدام .

كانت مسئولية الانفراد بالسلطة ، والتوجه لحل المشاكل ، وكسب ثقة الجماهير ... هي العوامل التي تثقل كاهل القيادة الجديدة .

ولكن سرعان ما تبين ان قيادة وطنية ثائرة ، قد وجدت امامها فرصة متاحة للانطلاق .

وكانت الفترة التي اخترت لها اسم (سنوات الصعود) .

القيادة الجديدة تصعد خلف جمال عبد الناصر في سرعة خارقة الى قمة عالية ...

توالت المواقف الوطنية التي وحدت ارادة القيادة وارادة الجماهير ... والتي جعلت من جمال عبد الناصر زعيما شعبيا تلتف حوله الامة العربية على امتداد الوطن الكبير في المدن والقرى الصغيرة ونجوع الصحراء البعيدة .

وبعد تحرير مصر والسودان ، والانتصار في معركة الاحلاف العسكرية ، وتأميم القناة ، وانسحاب قوات العدوان الثلاثي ، بدأ تشكيل المجتمع الجديد .

أين يقف العسكريون من هذا المجتمع ؟

وما هو دور الجيش في هذه المرحلة ؟

اسئلة تحتاج الى بحث في ارجاء المجتمع وفي حشايا الجيش ... وفي موقفه من الطبقات المتصارعة .

كان زحف العسكريين نحو السلطة يتم في دأب وهدوء ... حتى كادت تصبح معظم المراكز القيادية ، والمواقع الحساسة في ايديهم ، بعد ان استبدلوا ثيابهم العسكرية بثياب مدنية .

هرم متماسك من العسكريين تكون في قمة السلطة ... وشخصية الزعيم تزداد ارتفاعا وتألقا .

ولكن الساحة ظلت خالية من التنظيمات السياسية والنقابية ذات التعبير الصحيح عن ارادة الجماهير .

وبدأ تشكيل المجتمع الجديد بالارادة الذاتية للزعيم - وبالوسائل التجريبية التي جعلت التكتيك يسبق الاستراتيجية .

غابت الايديولوجية كما غابت التنظيمات السياسية الحقيقية .

الجيش يدعم سلطته كقوة سياسية ... ولكن موقفه الطبقي غير محدد .

الحيرة تمزق الباحث ... كما تغلب على تصرفات الحاكم .

والاختيار صعب ... فتحديد الطريق وسط دوامة الاحداث المحلية والعالمية ... امر شاق وعسير .

واخيرا

يتحدد الطريق ... وتسجل الافكار ... ويبعث الميثاق – اول وثيقة مكتوبة للثورة – دليلا للعمل ... نحو تشكيل مجتمع جديد ... مجتمع جمال عبد الناصر .

الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة ... شعار النظام ومضمون الميثاق .

هل تحققت الاشتراكية ؟

هل مضى التطبيق في طريقه السليم ؟

اسئلة كثيرة نغوص فيها في مجتمع عبد الناصر ... لنصل الى الحقيقة .

ولا بد من كلمة شكر وتقدير لكافة الذين تفضلوا فمنحوني من وقتهم ساعات وساعات ولم يترددوا في اعلان آرائهم ومواقفهم ... عندما علموا ان الكلمات لن تضيع وتتبدد في الهواء ... ولكنها سوف تسجل لتكون تاريخا لمصر ... ولثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

احمد حمروش

البابُ الأول

سنوات الصعود

الفصل الأول

تحرير مصـر .. والسودان

خـرج جنـود الاحتـلال البريطـاني مـن السودان قبـل مصر .. وعندما خرجوا من مصر بعدها بشهور قال جمال عبد الناصر (والآن يبقى علينا اعادة بناء بلدنا) .

ما ان نجحت حركة ٢٣ يوليو في وصول الضباط الى السلطة وتحمل مسئولية الحكم حتى فرضت القضية الوطنية نفسها ، واصبح على الحكام الجدد أن يجدوا حلا لها بعد ان تعثرت طويلا في طريق المفاوضات ... وبعد ان كانت سوريا ولبنان قد جلت عنها القوات البريطانية والفرنسية فعلا عـام ١٩٤٦ .

والقضية الوطنية في ذلك الوقت لم تكن تعني تحرير مصر وحدها وجلاء القوات البريطانية عن ارضها فقط ، ولكنها كانت تشمل قضيـة السودان ايضا .

والسودان هو الصخرة التي تحطمت عليها معظم المفاوضات المصرية البريطانية وخاصة التي قامت بها الحكومات الوفدية ... يقول فؤاد سراج الدين (ان فكرة الاستفتاء كانت مستبعدة ومرفوضة ، لانه لا يمكن اقرار استفتاء لاسيوط مثلا) ... هذا يعني ان الاساس في النظـرة المصرية كان وحدة عضوية شاملة لمصر والسودان .

ويقول فؤاد سراج الدين ايضا ان محمد صلاح الدين وزير الخارجية فاجأهم قبل سفره الى باريس في يناير ١٩٥٢ لحضور اجتماعات عصبة الام بأنه يريد القاء قنبلة يتحدى بها البريطانيين على اساس قبول الاستفتاء اذا خرج الموظفون البريطانيون من هناك ... ولكن الحكومة لم توافق لمخالفة ذلك لسياسة الوفد ، وخشيتهم من التدحرج لقبول — مبدأ الاستفتاء ، وما قد يصحب ذلك من تعثر الضمانات المطلوبة لاستفتاء حر سليم .

تراجع محمد صلاح الدين عن رأيه ، ولكن الوزارة فوجئت بخطابه يوم ٢٣ يناير ٩٥٢ يكرر فيه ما سبق ان قاله ... واجتمع مجلس الوزراء فوراً لمناقشة خطاب صلاح الدين ... وانبرى بعض الوزراء لمهاجمته وفي طليعتهم الدكتور طه حسين ، الذي تحدث عن (الخيانة الوطنية العظمى) التي ارتكبها وزير الخارجية ... وكلف مصطفى النحاس استدعاءه على اول طائرة ... ولكنه وصل يوم ٢٧ يناير بعد اقالة الحكومة الوفدية .

مبدأ الاستفتاء الذي قبله محمد صلاح الدين بضمان خروج الموظفين البريطانيين قبل اجرائه ، كان محور اهتمام الضباط عقب وصولهم للسلطة .

كان ثلاثة من مجلس قيادة الثورة لهم صلات خاصة بالسودان ... محمد نجيب ولد فيالخرطوم ووالده وخاله خدما هناك فيالجيشالمصري ودفنا هناك .. وصلاح سالم ولد في سنكات احدى مدن السودان الجبلية التي تستخدم كمصيف ... وانور السادات من ام سودانية .

ولكن ذلك لم يكن يعني ارتباط الثلاثة بالسودان ... محمد نجيب هو الوحيد الذي كان له صلات شخصية بعدد كبير من السودانيين لخدمته هناك في مطلع حياته ، واعداده لكتيب خاص عن السودان ... اما انور السادات فقد شغلته اهتماماته بقضية مصر عن تجديد صلاته بالسودان ... وصلاح سالم كان بعيدا تماما عن مشكلة السودان .

يقول صلاح سالم في كتاب الدكتور محمد المعتصم (صلاح سالم) ... (لم اقرأ في حياتي قبل ٢٣ يوليو عن السودان سوى القدر اليسير ... لم اقرأ سوى كتابين — احدهما استخفني عنوانه عن الصيد والمغامرات في غابات جنوب السودان لعطا اثناسيوس احد المؤرخين المصريين والآخر لتشرشل بعنوان (حرب النهر) ... ولم يكن لي صديق سوداني واحد يحدثني واتحدث معه في شئون بلاده واهله ... لم اسمع شيئا عن السودان الا من والدي الذيامضى زهرةشبابه وحياته في ربوع هذا القطر .

وفرضت قضية السودان نفسها على مجلس القيادة بأسرع ما توقعوا ... ففي الايام الاولى للحركة كانت مسئولية الجيش موزعة على ثلاثة هم عبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين وصلاح سالم ... وتلقى الاخير مكالمة تليفونية من البكباشي عبد الفتاح حسن الياور المصري للحاكم العام في الخرطوم يبلغه فيه ان بعض الجنود السودانيين الذين جندوا بعد حريق القاهرة ثم سرحوا وارسلوا للسودان قد تظاهروا ضد مصر لانهم لم يحصلوا على مكافأة ترك خدمة . ورغم ان القانون لا يسمح بصرف هذه المكافأة فان صلاح سالم اصدر قراره بصرفها باعتباره قد كلف بمسئولية قوات الجيش في السودان .

وقد توافدت وفود الاحزاب السودانية على مصر للتعرف بقادة الحركة من ضباط الجيش ، وكان محمد نجيب معروفا لاغلبهم ، وكان صلاح سالم مؤيدا الاتصال بهم بعد ان كلفه المجلس بالاشراف على شئون السودان في الوقت الذي وزعت فيه مسئولية الوزارات المختلفة على اعضاء المجلس خلال شهر اغسطس ١٩٥٢ .

وكانت نقطة البدء هي توجيه الدعوة لممثلي كافة الاحزاب السودانية للحضور الى القاهرة لمناقشة الموقف والاتفاق على رأي موحد ... وخاصة ان السودانيين كانوا لا يعتبرون انفسهم غرباء عن سياسة مصر ... نشر محمد احمد محجوب قطب حزب الامة مقالا اعتبر فيه راي سليمان حافظ في تنحية النحاس مخالفا للقانون وحضرت وفود الاحزاب السودانية المؤيدة للاتحاد مع مصر والمعارضة له ايضا ... حضر السيد عبد الرحمن المهدي، واعتذر عن عدم الحضور السيد علي الميرغني لمرضه .

وبدأت المفاوضة مع مندوبي الاحزاب بوفد مصري شكل برئاسة اللواء محمد نجيب رئيس الوزراء ومعه علي ماهر وعبد الرازق المشهوري وصلاح سالم وحسين ذو الفقار صبري .

وناقشت الوفود خلال المفاوضات موقف بريطانيا ، حيث اعلن الحاكم العام في اوائل ١٩٥٢ مشروع دستور للحكم الذاتي للسودان منتهزا فرصة الغاء وزارة مصطفى النحاس لمعاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي السودان عام ١٨٩٩ .

وهذا ما دفع محمد صلاح الدين الى اتخاذ موقفه السابق ... وهو ما دفع وفد المفاوضة المصري ايضا الى مجابهة هذا الموقف باسلوب جديد .

واصبح تعبير (تقرير المصير) متداولا بين المصريين والسودانيين ايضا ، بعد ان كان سلاحا يشهده البريطانيون لعزل مصر عن السودان .

التنظيمات الوحيدة التي ايدت (حق تقرير المصير) للسودان قبل حركة ٢٣ يوليو ، كانت التنظيمات الشيوعية التي ورد ضمن برنامجها المنشور في ١٧ ابريل ١٩٥١ بمجلة روز اليوسف (حرية الشعب السوداني وحق تقرير مصيره بنفسه وتأييد كفاحه من اجل التحرر الكامل وجلاء جميع القوات الاستعمارية البريطانية والمصرية من اراضيه) .

ولم تستمر المفاوضات التي بدأت في نوفمبر ١٩٥٢ مع الاحزاب السودانية طويلا ، فقد توصلوا الى اتفاق يقبل به الجميع نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير ... وتوصلوا ايضا الى توحيد الاحزاب السودانية عدا حزب الامة عن طريق تفويض لجنة ثلاثية من الدرديري احمد اسماعيل وخضر حمد وميرغني حمزة لوضع ميثاق تأليف حزب واحد .

وافق الجميع ووقعوا تحت هذه العبارة (اقبل قيام الحزب الواحد بأي وضع يرتضيه الثلاثة) ووقع على هذا التفويض كل من محمد نور الدين وحماد توفيق ودرديري احمد اسماعيل ودرديري محمد عثمان والطيب محمد خير واسماعيل الازهري وخضر حمد ومبارك زروق وخضر عمر وعلي الشيخ بشير وميرغني حمزة ويحيى الفضلي ، ووقع معهم محمد نجيب وصلاح سالم وحسين ذو الفقار صبري .

وهكذا انبثق عن هذه اللجنة تكوين (الحزب الوطني الاتحادي) مع اختيار اسماعيل الازهري رئيسا ومحمد نور الدين نائبا له ... ونص دستور الحزب على جلاء الانجليز وقيام اتحاد مع مصر بعد تقرير المصير .

وهكذا أمكن للمصريين مواجهة البريطانيين بأسلوبهم مع ضمان توحيد الاحزاب السودانية في حزب واحد برأي موحد هو (الاتحاد مع مصر) ... ومع ضمان موافقة حزب الامة على نتيجة الاستفتاء ايا كانت ... وهذا مما يفسح الطريق للاتحاد مع مصر حيث كان حزب الامة يمثل الاقلية في راي مجلس القيادة .

وبعد ما وصلت المفاوضة مع الاحزاب السودانية الى هذه النتيجة في ٢٨ اكتوبر ، تشعب النشاط السياسي الى شعبتين ... سافر صلاح سالم الى السودان في نوفمبر ، وارسل محمد نجيب مذكرة الى البريطانيين اقترح فيها الآتي :

١ ــ تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتي الكامل .

٢ ــ تهيئة الجو الحر المحايد الذي لا بد من توافره لتقرير المصير .

وكان هذا التغير الجذري في ايديولوجية المفاوض المصري مفاجأة تامة للحكومة البريطانية التي لم تجد بدا من الموافقة .

بدأت المباحثات في ٢٠ نوفمبر ١٩٥٢ وتشكل الوفد المصري برئاسة محمد نجيب وعضوية صلاح سالم وحسين ذو الفقار صبري والدكتور محمود فوزي والدكتور حامد سلطان وعلي زين العابدين ، وكان الوفد البريطاني مكونا من سير رالف ستيفنسون ومستر كووزويل الوزير المفوض ومستر باورز السكرتير الاول بالسفارة .

وكانت هذه اول تجربة يخوضها الضباط المصريون في مباحثات سياسية هامة، يتعرضون فيها الى ديبلوماسية تخالف طبيعتهم، ويجابهون مواقف تحتاج منهم الى دراسة واطلاع .. خاصة وان بعضهم كان يجابه مشكلة غريبة عليه تماما مثل صلاح سالم حسب روايته .

الخلافات التي حدثت اثناء المباحثات امكن التغلب عليها بحيوية الشباب فقد سافر صلاح سالم مرة ثانية الى السودان حيث اجتمع مع ممثلي الاحزاب السودانية ـ الامة والوطن الاتحادي والجمهوري الاشتراكي ـ في ١٠ يناير ١٩٥٣ واتفقوا على توقيع وثيقة تؤيد وجهة نظر المفاوض المصري فيما يتعلق بموضوعات جنوب السودان واختصاصات الحاكم العام وسودنة الوظائف وجلاء الجيوش الاجنبية ... وان تكون هذه الوثيقة هي اساس دستور الحكم الذاتي ، والا فان الاحزاب تقاطع الانتخابات .

وعندما وضعت هذه الوثيقة امام المفاوضين البريطانيين سدت عليهم سبل المناورة ، ووصلوا الى توقيع اتفاقية السودان في ١٢ فبراير ١٩٥٣ ... هكذا لم تستمر المفاوضات الا فترة تقل عن ثلاثة شهور وانتهت مشكلة السودان بأمل كبير في الاتحاد مع مصر .

وهكذا كانت الصخرة التي تحطمت عليها معظم المفاوضات المصرية هي اول المشاكل التي امكن لضباط الجيش ان يصلوا فيها الى حل ارتضته الاطراف الثلاثة ... وكان ذلك راجعا الى المرونة التي تبناها المفاوض المصري ، بعد الرفض المطلق لمبدأ (الاستفتاء وتقرير المصير) .. واعتبار حق مصر في السودان حقا مقدسا لا يقبل الجدل .

ولا شك ان موقف حركة الجيش كان سليما تماما في وجهة النظر التي تقبل الاستفتاء في حق تقرير المصير وترفض اكراه شعب السودان على قبول امر لم يختره بارادته الحرة ... وكان لمحمد نجيب دور في تبني هذه الفكرة واقناع زملائه بها لصلاته الوثيقة بالسودان .

وقع الاتفاقية محمد نجيب ورالف ستيفنسون ونصت على تحديد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات يتم فيها تصفية الادارة الثنائية (الانجلو مصرية) ... ويكون للحاكم العام اثناء فترة الانتقال السلطة الدستورية

العليا وفقا لقانون الحكم الذاتي تعاونه لجنة خماسية مؤلفة من عضوين سودانيين ومصري وبريطاني وباكستاني ... مثل مصر فيها حسين ذو الفقـار صبري .. (وتقرر ايضا تأليف جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان على اساس :

أ ـ ارتباط السودان بمصر على اية صورة .

ب ـ او الاستقلال التام أي الانفصال عن مصر .

وان تنسحب القوات العسكرية المصرية والبريطانية مـن السودان فور اصدار قرار البرلمان السوداني رغبته في الشروع في اتخاذ التدابير لتقرير المصير .

كما شكلت لجنة لسودنة الوظائف خلال فترة الانتقال .

وكان توقيع الاتفاقية انتصارا لشعب السودان ... واملا لشعب مصر في اتحاد ديموقراطي مع البلد الشقيق .

يقول انطوني ايدن في مذكراته (اعرب بعض اعضاء مجلس العموم عن شكوكهم في أهمية هذا الاتفاق وكنت اخشى لو لم يصدق البرلمان علـى الاتفاق ان يلقي السودانيون اللوم علينا ويتهموننا بعرقلة الجهود المبذولة لاجراء الانتخابات في بلادهم تمهيدا لتمتعهم بحق تقرير المصير وبديهي ان مصر كانت ستغتنم الفرصة فتضاعف من حملتها علينا ، لهذا جاهدت في شرح الاتفاق ومزاياه لاعضاء المجلس الـى ان تمكنت من اقناعهم بسلامته ، وكنت في الواقع ارى ان استقيل لو لم يؤيد المجلس الاتفاق ويأخذ بوجهة نظـري) .

وفي سبيل ذلك قرر مجلس القيادة ايفاد صلاح سالم في زيارة الـى جنوب السودان حيث كان محرما على ابناء الشمال من السودانيين الذهاب الى الجنوب الا بتصريح خاص ، كما حرم على الجنوبيين الخروج الا باذن خاص ايضا ... ولكن صلاح سالم كسر هذه القاعدة ولم يحصل على اذن بالدخول ... ويقول يوزباشي محمد ابو نار مدير مكتبه لشئون السودان في ذلك الوقت ان الامريكيين قد ساعدوا في دخول البعثة المصرية الـى الجنوب عن طريق اتصالات مستر كانري السفير الامريكي ومستر سويني ضابط اتصال السفارة وكان اهتمام امريكا بالسودان مؤيدا محاولتها انشاء مكتب هناك كما نشرت المصري في ٦ اكتوبر ١٩٥٢ وتمت الزيارة في شهر اغسطس وهو خريف السودان وموسم الامطار هناك .

كانت رحلة صلاح سالم الى الجنوب ناجحـة تماما ... فقد زار المديرية الاستوائية ولبى دعوة المحافظ البريطاني الى العشاء حيث كانت

زوجة المحافظ على خدمتهم بنفسها... ولكن هذا لم يمنع «صلاحا» من اجراء مناقشة حادة مع المحافظ حول اسلوبه في معاملة الناس ... وكان لهذه المناقشة تأثير سحري على الجماهير التي كانت تنظر للمحافظ كمعبود لا يجرؤ احد على معارضته ، حيث كانت له سلطة العقاب وطرد المفتشين البريطانيين انفسهم .

وهكذا اهتزت صورة المعبود وتدفقت العرائض على صلاح سالم تحمل شكاوى وآلام الناس هناك ... وازدادت الزيارة نجاحا عندما زار صلاح سالم منطقة قبائل الدنكا واستقبلوه برقصة الحرب ، فشاركهم فيها عاريا ، ونشرت الصحف البريطانية صورته مطلقة عليه اسم (الصاغ الراقص) .

وخلال هذه الفترة اعتمد صلاح سالم على المساعدات والهبات المالية يقدمها الى الزعماء السياسيين ليضمهم الى جانب مصر ... وقد اثيرت شائعات كثيرة حول مجموع المبالغ التي صرفت هناك ، ولكن محمد ابو نار يؤكد انها لم تتجاوز نصف مليون جنيه .

وحدثت عدة مساجلات بين ايدن وصلاح سالم ... قال ايدن في مجلس العموم في اكتوبر ١٩٥٣ ان صلاح سالم يذهب الى السودان لاقناع السودانيين بتقسيم مقاعد البرلمان ، ولكنه لم ينجح ـ على حسب تعبير ايدن ـ .

ولم يتردد صلاح سالم في مهاجمة ايدن علنا ، مؤكدا هزيمة السياسة البريطانية في السودان ، كاشفا ان وزير الخارجية سلوين لويد كان يزور الخرطوم وقت وجود صلاح سالم هناك في محاولة لمنع مرشح الحزب الوطني الاتحادي الدرديري محمد عثمان من دخول لجنة الحاكم العام ولكنه فشل ... كما استدعى لجنة من الجنوب لتدلي برأي مناصر للاتجاهات البريطانية هناك ، ولكنها لم تنجح في تحويل التيار المؤيد لمصر هناك .

واجريت اول انتخابات في ظل الاتفاقية .

وفاز الوطني الاتحادي بأغلبية ساحقة ، وتولى اسماعيل الازهري رئاسة اول وزارة سودانية يوم ٩ يناير ١٩٥٤ .

وهكذا يمكن القول ان حيوية صلاح سالم واسلوبه الذي يتفق مع طبيعة تكوينه كضابط قد حقق نجاحا لا بأس به كان يمهد الطريق فعلا لوحدة وادي النيل .

الحزب الوطني الاتحادي الذي يملك الاغلبية مشكل من اعضاء مرتبطين

في نضالهم الطويل بالشعب المصري ، ووحدتهم كانت على اساس الاتحاد مع مصر ، ولكن الامور لم تمض في طريقها الطبيعي .

لم يسلك مجلس القيادة اسلوبا حكيما في التعامل مع السودانيين ... ولم يواجه زعماءهم بوجه واحد ... وانما ترك صلاح سالم يتصرف في الامر وحده بطريقته الخاصة ، دون مناقشة جماعية مشتركة ، وبغير حرص على الاستفادة من علاقـة محمد نجيب الطيبـة بكـافة الزعماء السياسيين .

كانت ظروف العمل في مجلس القيادة لا تسمح كثيرا بالمناقشة الهادئة او المتابعة الدؤوبة ، فقد كان انتقال اعضائه من اعمال محدودة معروفة لهم جيدا في صفوف الجيش ، الى مسئوليات متعددة متشعبة معظمها مجهول لهم في بحر السياسة والادارة المصرية ، هو امر يحتاج منذ البداية الـى تنظيم علمي هادىء وتخصص تنظيمي سليم .

تدفق الاعمال على مجلس القيادة فرض ظروفا ينفرد فيها البعض بمسئوليات تحتاج الى التشاور ... وظهور التناقضات بين محمد نجيب واعضاء المجلس عكس ذلك على اتصالاتهم الخارجية ومظهرهم امام الجماهير ... وخاصة في السودان .

ولذا فان الامور لم تمض في طريقها الطبيعي ... وتصرف صلاح سالم في معاملاته مع بعض زعماء السودان باسلوب الضباط وليس بأسلوب السياسيين ، كما ان تجمع بعض ضباط الصف الثاني الذين كونوا شللا خاصة لكل عضو من اعضاء المجلس حال بينهما وبين الرؤية الكاملة ... وسياسة توزيع الاموال على السياسيين كانت في اغلبها مفسدة .

وعندما زار عبد الحكيم عامر وصلاح سالم السودان في يناير ١٩٥٤ بعد ايام من تولي الازهري رئاسة الوزراء كان الاستقبال لهما طيبا ، وصرح الازهري قائلا (ان الاتفاقية سوف توضع موضع التنفيذ نصا وروحا) .

وقام الاثنان بزيارة كافة مناطق السودان ، زيارة احتج عليها سلوين لويد وزير الخارجية البريطاني .

ولكن الزيارة في مظهرها العلني لم تكن معبرة تعبيرا صادقا عـــن همسات بدأت تتردد عن خلافات في مجلس القيادة ، يبدو ان صلاح سالم قد خاض فيها بصراحته المعهودة ، فانعكس ذلك خشـية وترددا بين بعض الزعماء السودانيين .

كانت مصر قادرة حتى هذه اللحظة تحت قيادة محمد نجيب وبمجلس قيادة موحد ان تستوعب كل الآراء الوطنية في السودان لاقامة اتحاد على

اساس ديموقراطي لمصلحة الشعبين ... ولكن ظهور الخلافات فتح ثغرة مناسبة لاعداء الاتحاد مع مصر ينفذون منها .

والاتحاد بين الدول لا ينجح اذا تم على اساس فوقي بين الحكام وبعضهم وانما ينجح اذا تم على اساس جماهيري تدعمه تنظيمات واعيه قوية ، وكان لمصلحة البلدين فعلا ..

كان ظهور الخلافات بين محمد نجيب واعضاء المجلس بداية لانتكاسات واضحة في تنفيذ الاتفاقية ... وقد وصلت المشكلة الى الذروة عندما فوجئت الجماهير السودانية باستقالة محمد نجيب في فبراير ١٩٥٤ .

وكان لهذه الاستقالة وقع عميق في نفوس السودانيين الذين تطلعوا الى الاتحاد مع مصر في وجود محمد نجيب ـ نصف السوداني ـ والذين ادانوا اسلوب التناقضات الحادة بين اعضاء المجلس واعتبروا موقفهم من نجيب متسما بعدم الوفاء ، مما عكس عليهم هذه الصفة ، وخلق في نفوس السودانيين حذرا من الاتحاد مع اعضاء المجلس ، فقامت المظاهرات تهتف لنجيب في شوارع المدن السودانية .

وقد سافر الى القاهرة فور اعلان الاستقالة وفد سوداني في محاولة لرأب الصدع ولكن نجيبا كان قد عاد الى موقعه تحت ضغط المظاهرات في الشوارع وسافر بعد ذلك فورا الى السودان مع صلاح سالم يوم اول مارس ١٩٥٦ للمشاركة في احتفالات السودان بافتتاح اول برلمان ولكن مظاهرات حاشدة اطلقها حزب الامة حاصرت المطار تهتف (لا مصري ولا بريطاني ... السودان للسوداني) وحدثت اشتباكات دموية قتل فيها ٣٣ قتيلا وجرح ١٠٧ وعاد نجيب فجر اليوم التالي مع صلاح والمقابلة تشكل طعنة لا شك ، فيها ثم سرعان ما تفجر الموقف ضد نجيب مرة اخرى في شهر مارس كما سبق شرحه وانزوى نجيب في مكانه رئيسا للجمهورية بلا سلطة . حتى عين جمال عبد الناصر رئيسا للوزراء وصاحب سلطة مطلقة .

وانتهزت القوى المعادية للاتحاد مع مصر هذه الفرصة ، وعبرت عن نفسها تعبيرا صريحا ...

ولم يكن ذلك امرا شاذا ... فان وضع أي مواطن امام اختيارين فقط هما الاستقلال او الاتحاد مع مصر ، يدفعه الى اختيار الاستقلال الا اذا كان مطمئنا تمام الاطمئنان الى فوائد الاتحاد ومنفعته له وثقته في قيادته وخاصة ان هذا الاختيار يتم بعد مرحلة طويلة من الاستعمار لم ينعم فيها الشعب السوداني بحريته ويمارس فيها حكم نفسه بنفسه .

وهكذا وجد الازهري لنفسه فرصة التحول عن رأيه مدعيا انه كان يقصد بالاتحاد (اتحاد اقاليم وقبائل السودان) ، واتخذ عدة اجراءات اسفرت عن موقفه تماما .

١ ــ رفض هدية من الاسلحة الحديثة عرضتها مصر في اوائل عام ١٩٥٤ .

٢ ــ رفض ارسال ضباط سودانيين للتدريب في مصر على نفقتها واصر على تدريبهم في بريطانيا .

٣ ــ اوقف الصحف الاتحادية وسحب ترخيص بعضها .

٤ ــ لم يوافق على رصد مصر لمبلغ ٧٥٠ الف جنيه لتنفيذ مشروعات ثقافية وصحية واجتماعية في ارجاء السودان .

وسافر اسماعيل الازهري الى لندن يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٤ حيث استقبلته الملكة اليزابيث ، واقام له تشرشل حفل غداء ، وعقد اجتماعا مع لجنة الشئون الخارجية لحزب المحافظين كما نشرت صحيفة الاهرام يوم ٨ ، ٩ نوفمبر .

وعقب عودته من لندن ، اعلنت اقالة محمد نجيب وتحديد اقامته يوم ١٤ نوفمبر واشارت الصحف الى احتمال محاكمته لارتباطه بالاخوان المسلمين .

واسرع من جديد الى القاهرة وفد سوداني في محاولة لانقاذ نجيب من المحاكمة مشكل من نجل السيد علي الميرغني واسماعيل الازهري ومحمد نور الدين وعلي عبد الرحمن ويحي الفضلي وابراهيم المفتي ، واستقبل الوفد جمال عبد الناصر وصلاح سالم وتم الاتفاق بينهما على اصدار هذا البيان الذي نشر في الاهرام يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٥٤ وجاء فيه :

(اطلع وفد الحزب الوطني الاتحادي على دقائق الامور ، وكان متتبعا لسير الحوادث التي قادت الى الظروف الراهنة في مصر ، وهو مقتنع تماما بأن اجراء تنحية اللواء محمد نجيب عن منصبه ، كان اجراء لا مفر منه ، روعيت فيه مصلحة البلاد العليا اولا واخيرا في تلك المرحلة التي ما كانت لتتحقق للبلاد لو سارت الامور على ما كانت عليه ، ولقد تلاقت وجهات النظر مع الحسيب النسيب السيد علي الميرغني ووفد الحزب الوطني الاتحادي والمسئولين في مصر على قفل هذا الموضوع نهائيا بعدم تقديم اللواء محمد نجيب للمحاكمة حتى لا تعطى الفرصة لاعداء البلاد الذين يتربصون للنيل من وحدة الصفوف وتدمير اهداف البلاد) .

قفل هذا البيان موضوع محاكمة محمد نجيب . . . وقفل ايضا فرصة

الاتحاد مع مصر ، نتيجة عدة عوامل اساسية نتجت عن تصرفات مجلس القيادة وهي اقالة محمد نجيب ، وقسوة محاكمات الاخوان المسلمين الذين كانوا يفرخون في احضان حزب الامة ، واعتقال الشيوعيين الذين كان لهم نفوذ كبير في السودان خاصة بين المثقفين والعمال ... هذا الى جانب نشاط الانجليز والامريكان في محاولة احتواء اسماعيل الازهري ومبارك زروق .

وعندما سافر اسماعيل الازهري الى مؤتمر باندونج ... لم يقف مع الدول المتحررة ، ولكنه اتخذ موقفا التقى فيه مع اتجاهات بعض الدول الرجعية مثل العراق التي كانت تهيىء نفسها لدخول حلف بغداد ... كما انه كان قد الف لجنة من اعضاء الحزب الوطني الاتحادي قررت التخلي عن مسألة الاتحاد مع مصر ، ووافقت الهيئة العامة للحزب على ذلك .

واخذت بذور التناقض تنمو بين الازهري ومجلس القيادة ممثلا في صلاح سالم والذي كان قد فقد بعض شعبيته هناك لموقفه الحاد من محمد نجيب ، ولكنه دخل في تناطحه مع الازهري الى ابعد مدى ، فقد اثار ضده فريقا من الحزب الوطني الاتحادي بزعامة محمد نور الدين نائب رئيس الحزب ، واثار ضده الجنوبيين ايضا كقوة ضغط ...

وطفت المعركة الى السطح ... وخطب اسماعيل الازهري في الجماهير يقول (ان لحم اكتافي من مصر ، وقد دخلتها منتعلا حذاء كاوتش ... ولكن هل يرضيكم ان يحكمنا صلاح سالم والعسكريون في مصر ؟ وتصرح الجماهير بصوت عال (لا ... لا) .

واستخدم صلاح سالم في معركته ضد الازهري كل الاسلحة المتاحة له الى جانب انشقاق الحزب واثارة الجنوبيين ... فقد قرر التحالف مع الشيوعيين ايضا في معركته ضد الازهري التي تبلورت الى موقفين واضحين ... اما الاتحاد مع مصر ... واما الاستقلال الذي اصبح الازهري ينادي به علنا .

اتصل صلاح سالم بالشيوعيين السودانيين لما لاحظه من تأثيرهم السياسي في محاربة الوضع القائم كله ... واتصل في هذه المرحلة بالشهيدين عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي السوداني والشفيع احمد الشيخ سكرتير عام اتحاد العمال وعضو المكتب السياسي للحزب .

وعندما علم صلاح سالم ان الحزب الشيوعي السوداني هو نواة انفلقت من الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) وعملت لفترة

تحت اسم الحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو) ، قرر ان يتصل بالشيوعيين المصريين ليساعدوا في اقناع زملائهم في السودان وكان ذلك يوم اول سبتمبر ١٩٥٥ .

ولكن الشيوعيين المصريين كانوا معتقلين والبعض منهم قدم الى المحاكمة وصدرت ضده احكام بالسجن ... ومع ذلك لم يتردد صلاح سالم في استدعاء الدكتور يوسف ادريس وكان معتقلا في سجن القناطر ، والكاتب ابراهيم عبد الحليم ، والكاتب فتحي خليل والفنان زهدي وكانوا معتقلين في سجن ابي زغبل .

وصل الاربعة الى قصر عابدين – حيث كانت مكاتب وزارة الارشاد في ذلك الوقت – بثياب ممزقة واجسام هزيلة بعد معاملة بوليسية قاسية اعقبت اضرابا عن الطعام استمر ١٨ يوما من اجل مطالب انسانية خالصة .

دخل الاربعة على صلاح سالم في مكتبه ، فاستقبلهم استقبالا حارا وابدى استنكاره لمظهرهم ، واتصل تليفونيا – حسب رواية فتحي خليل – بزكريا محي الدين وزير الداخلية طالبا منه وقف المعاملة الشاذة للمعتقلين في سجن ابو زعبل .

وقدم لهم صلاح سالم تحليلا سياسيا استمر ثلاث ساعات ركز فيه على النقاط الآتية :

١ – المفهوم العام لقيادة الثورة وتصور خط سيرها مع تحفظ بعض العناصر على الاتحاد السوفييتي بتأثير دعاية الغرب .

٢ – ارجع غموض موقف الثورة من الشيوعيين الى خشية البعض من اتهام الحركة بأنها شيوعية .

٣ – ابرز نقاط الخلاف مع الولايات المتحدة وخاصة رفضها امداد مصر بالسلاح .

وخلص صلاح سالم من ذلك الى ان هناك تغييرا في الخط السياسي للثورة يتلخص في :

اولا ... في السياسة الخارجية . استقرار الثورة على توثيق العلاقة مع الاتحاد السوفييتي والصين والدول الاشتراكية .

ثانيا ... في قضية الديموقراطية . وضع دستور جديد واعداد انتخابات عامة وتشكيل برلمان .

واكد لهم صلاح سالم ان هذين الاتجاهين سوف ينطلقان بأقصى قوتهما في منتصف عام ١٩٥٦ ... ولعله كان يقصد بذلك تحديد موعد جلاء القوات البريطانية عن منطقة القنال .

وفاجأهم صلاح سالم بخبر لم يكن قد اعلن بعد ... وسرا لم يعرفه احد .. وهو تعاقد مصر مع الاتحاد السوفييتي على توريد صفقة سلاح ... كما وعدهم بالافراج عن جميع الشيوعيين قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٦ .

وعرض موقفه بعد ذلك في قضية السودان ، ونقد نفسه نقدا ذاتيا لاضطراره الى السير بأسلوب حكام ما قبل الثورة للزعماء وتردي الحال بعد ذلك حتى في صفوف حزب الوطني الاتحادي ، ومع اسماعيل الازهري خاصة .

ثم انتقل الى الحديث عن (الحزب الشيوعي السوداني) ... وقال اننا تجنبناه لموقفنا من الشيوعية في مصر ... وانه كان في التأييد والمعارضة حزبا مبدئيا شريفا ... وانه على حد تعبيره (حزب حقيقي وجاد وغير ملوث) . وقال لهم صلاح سالم انه عندما اتصل بالشهيدين عبد الخالق والشفيع وعرض عليهما مساعدات في حدود العمل الوطني مثل اقامة السرادقات او الامداد ببعض الاموال ، رفضوا في شدة .

وقال صلاح سالم انه تدور في صفوف الحزب مناقشة حول الموقف في مصر ويتأرجح الراي بين التأييد والمعارضة ، وموقف الحكومة المصرية من الشيوعيين المصريين يلعب دورا كبيرا في ترجيح جانب على آخر ... وانه لو تحول الموقف داخل قيادة الحزب الى التأييد فان هذا قد يخرج الموقف في السودان من دائرة اليأس ولم يخف صلاح سالم مرارته ويأسه نتيجة تغير موقف الازهري .

وصارحهم بأنه استأذن مجلس القيادة في الاتصال بهم فوافقوا ، وانه يطلب منهم اذا اقتنعوا بصدق تحليله السياسي ، فانهم عندئذ يصبحون مطالبين بالسفر الى السودان لاقناع قيادة الحزب هناك بتأييد القاهرة وخط الاتحاد مع مصر .

وتداول الاربعة على جانب ووجدوا انه لا بد من شيئين... الاستيثاق من حديث صلاح سالم ، والاتصال بزملائهم الهاربين خارج المعتقل .

واتفق صلاح معهم على الخروج لفترة محدودة مدتها اسبوع يعودون بعدها الى مكتبه .

ولكن الاربعة لم يعودوا الى مكتب صلاح سالم ... لان الصحف نشرت في اليوم الخاص للمقابلة خبر استقالته واعتكافه في منزله .

ولم تكن استقالة صلاح سالم مفاجأة للقريبين من مجلس القيادة ، فان سياسة صلاح سالم في السودان كانت موضع خلافات ومناقشات داخل المجلس ، وخاصة بعد حريق اشتعل في الجنوب بتدبير من الاستعمار ،

ومطالبة صلاح سالم بأن تطلق يده في العمل بصورة كاملة .

وقد حدث نوع من التحقيق مع صلاح سالم في تدهور العلاقة بين مصر والسودان في مارس ١٩٥٥ ، ولكن صلاحا كان عنيفا في مناقشاته ، وسفه اراء بعض الذين اشتركوا في المناقشة من غير علم كاف ، وانهى حديثه بتقديم استقالته ... ولكن المجلس لم يقبل الاستقالة .

وسافر صلاح سالم ضمن الوفد المصري الى باندونج ، والخلاف يثقل صدره ، ومعاملة جمال عبد الناصر له يتسرب اليها البرود ...

وكان صلاح سالم في وقت من الاوقات وبقوة اندفاعه وحيويته ، وبموقفه كوزير للارشاد ، وبقدرته على تلوين الحديث ، يتطلع الى رئاسة جمهورية الاتحاد ... ولم يكن ينظر الى جمال عبد الناصر كمنافس له وانما كان يخشى منافسة نجيب في الاستفتاء .

ولكن هذه التطلعات سواء كانت حقيقية او غير حقيقية ، تلاشت وذبلت بعد اقالة محمد نجيب ... وبدأ صلاح سالم نفسه يتعرض لهجمات زملائه ، بل وبعض ضباط الصف الثاني ، وهو الذي كان عنيفا في هجومه على محمد نجيب .

وبدا مجلس القيادة يحاصر صلاح سالم ... وخاصة بعد اتصاله بالشيوعيين المصريين ... زكريا محي الدين قال ان الفريق الذي يعتمد عليه صلاح سالم ليس هو القوة الاساسية في السودان .

وجمال عبد الناصر انتقد سياسة التعامل مع الزعماء السودانيين باسلوب غلبت عليه روح المنفعة الذاتية .

وحسين ذو الفقار صبري اضطر الى مسايرة حزب الامة لينقذ ما يمكن انقاذه .

ووصل الخلاف الى ذروته عندما تصادم صلاح سالم مع جمال عبد الناصر ... ولم يستطع صلاح ان يجتذب زملاءه الى صفه ، لانفراده بالعمل طوال الفترة الماضية وسخريته من بعضهم وتفوق جمال عبد الناصر في قدرته على اقناع زملائه برأيه .

وقدم صلاح سالم استقالته للمرة الثانية في سبتمبر ١٩٥٥ متصورا انها لن تقبل مثل استقالته السابقة ، ولكن المجلس قبلها فورا ، وكان شقيقه جمال سالم وقتها في زيارة خارج مصر .

وطويت صفحة صلاح سالم ايضا في تاريخ علاقات مصر والسودان ، بعد ان طويت صفحة محمد نجيب ... وتولى زكريا محي الدين مسئولية

السودان ... ونقل محمد ابو نار الى وزارة الخارجية حيث عمل مديرا للادارة الافريقية لشئون السودان .

واصبح واضحا بعد خلع صلاح سالم من موقعه ان الموقف السياسي بين القاهرة والخرطوم قد فقد كثيرا من نشاطه ، وانه دخل مرحلة جديدة تبدد منها الامل في انتهاء فترة الانتقال الى ظهور الاتحاد بين دولتي وادي النيل الغربيتين .

وبعد أن اخذت اجراءات السودنة مداها ، واوشكت ثلاث سنوات الاتفاق على النهاية ، ابلغت الحكومة السودانية برئاسة ازهري حكومتي مصر وبريطانيا برغبة الجمعية التأسيسية وطالبت بسحب جيش الاحتلال لاجراء الاستفتاء (في جو حر محايد) .

وسحبت مصر وبريطانيا جيوشهما ، وتركت مصر كل الاسلحة الثقيلة التي كانت تخص جيشها في السودان وتم الجلاء فعلا في نوفمبر ١٩٥٥ .

ووجدت حكومة السودان بعد الجلاء أن الامر لا يحتاج الى استفتاء بشأن شكل الحكم بعد اتفاق كل الاطراف الحاكمة على معارضة الاتحاد ... واعلنت قيام الجمهورية السودانية في ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ وتشكيل مجلس قيادة لرئاسة الدولة .

ولم يجد مجلس قيادة الثورة في مصر فرصة للمطالبة باتمام الاستفتاء ... واعلن استقلال السودان رسميا في اول يناير ١٩٥٦ ، وذهب صلاح سالم الى هناك مدعوا كشخص عادي ، ورفض ازهري اقتراحا بقبوله اول سفير مصري هناك .

وهكذا تحرر السودان بفضل اتفاقية ١٢ فبراير ١٩٥٣ ، وكما كانت السودان اول دولة عربية افريقية تستقل في القرن التاسع عشر بعد ثورة المهدي ، فانها كانت ايضا اول دولة عربية افريقية تجلو عنهـا قـوات الاحتلال ايضا .

واصبح السودان مستقلا وغير مرتبط بمعاهدات او احلاف عسكرية ولا توجد اية قواعد اجنبية ...

تم ذلك قبل مصر ذاتها ...

• • • • •

بل ان جلاء القوات البريطانية عن مصر كـان مشروطا بشروط معينة، وتم بعد جلاء القوات الاجنبية عن السودان بستة شهور كاملة .

وكان جلاء القوات البريطانية عن منطقة القنال هو القضية الرئيسية التي تحمل العسكريون مسئوليتها يوم وثبوا الى السلطة .

وكان نضال الشعب المصري قد وصل الى مرحلة الكفاح المسلح فـي القناة مما هدد الوجود الاستعماري في المنطقـة الـى ان توقف بحريق القاهرة .

وكما كان الوفد حريصا على اجلاء القوات البريطانية قبل انتهاء معاهدة ١٩٣٦ التي تمتد عشرين عاما ... ولما كان حريصا ايضا على عـدم ربط مصر باحلاف عسكرية .

كما كان الوفد ... كانت حركة الجيش ايضا وتصريحات اعضاء مجلس قيادة الثورة كانت تشير الى هذا الاتجاه ... اوضح التصريحات واكثرهما جراة كانت تصريحات جمال عبد الناصر ... قال في شبين الكوم في يناير ١٩٥٣ (الجلاء عن القنال او القتال حتى الموت) ونشرت صحيفة الاخبار يوم ١١ يناير ١٩٥٣ عنوانا رئيسيا في صفحتها الاولى تحت عنوان (اخطر تصريح لجمال عبد الناصر) قال فيه (لن تستطيع الدول الغربية ان تخدعنا بوعودها المعسولة اذا ما نشب صراع عالمي مسلح ثالث ونحن بعد غير معترف بحقوقنا المشروعة في الاستقلال التام) .

وقال محمد نجيب يرد على تشرشل عندما صرح بأنه يريد رؤية اسرائيل اقوى دولة في شرق البحر الابيض المتوسط (ان معاهدة ١٩٣٦ الملغاة فرضت على مصر تحت ضغط قوات الاحتلال) .

ولكن حركة الجيش لم تواصل الكفاح المسلح مباشرة ... آثـرت ان تمضي في طريق المفاوضات ، مستهدفة النجاح السريع كمـا حدث فـي اتفاقية السودان .

وتشكل الوفد المصري للمباحثات برئاسة محمد نجيب وعضوية جمال عبد الناصر وصلاح سالم والدكتور محمد فوزي والدكتور حامد سلطـان والدكتور علي حسن زين العابدين .

وظهر منذ اللحظة الاولى في المباحثات التي بدأت جلستها الاولى يوم ٢٧ ابريل ١٩٥٣ ان الموقف يختلف عن مباحثات السودان التي حوصر فيها الجانب البريطاني باتفاق الاحزاب السودانية على رأي موحد ، والتقاء وجهات نظر المصريين والسودانيين .

كان الجانب البريطاني يستهدف ربط مصر بحلف دفاعي للشرق الاوسط ، كما كان يستهدف بقاء قناة السويس قاعدة لقواته وعملياته العسكرية في المستقبل .

وكانت هذه الاتجاهات مرفوضة تماما من الجانب المصري ... ولم تعد السودان هي الصخرة التي تتحطم عليها المفاوضات ، ولكن اصبحت الاحلاف ومواثيق الدفاع المشترك هي الخطر الذي حاول العسكريون تحاشيه .

وظهرت سلامة الموقف الوطنـي للمفـاوضين المصريين بتصريحاتهم المتعددة المتلاحقة .

محمد نجيب قال لعضو البرلمان البريطاني ريتشارد كووسمان (قل لايدن ان صبر مصر اوشك ان ينفد وان فرصة الوصول الى اتفاق مشرف لن تظل سانحة الى الابد) .

وواصل جمال عبد الناصر خطبه الداعية الى الجلاء غير المشروط ، مهددا بعودة الكفاح المسلح .

ولم تستمر المفاوضات اكثر من ايـام فتوقفت في ٦ مايـو ونشرت الصحف قائلة ان مشكلة الخبراء البريطانيين هي سبب توقف المفاوضات، واصدر محمد نجيب رسالة للشعب يوم ١٩ مايو قال فيها أن قطع المباحثات كان نتيجة (محاولة البريطانيين العبث بالمبدأ الذي جعلناه اساسا للدخول في هذه المباحثات وهو جلاء جنود الاحتلال عن ارضنا جلاء كاملا دون قيد أو شرط) .

ولم تكد تقطع المفاوضات حتى توتر الموقف ... ونصحت بريطانيا رعاياها بالرحيل عن البلاد في شهر مايو ٥٣ في محاولة للضغط على مصر . ولم تجد حركة الجيش سبيلا الا العودة الى الكفاح المسلح ... ولكـن باسلوب آخر ، فقد ظهر تصريح في الصحف يوم ١٧ مايو يقول (ان كـل شيء في المعركة السابقة كان يجري ارتجالا ولم يكن هناك شخص مسئول، اما اليوم فكل شيء موضوع تبعا للخطة المرسومة) .

ولم يكن هذا التصريح موفقا ... اذ انه لم يكن هناك مبـرر لخلـق تناقض مفتعل بين حركة الكفاح المسلح للشعب في مراحلها المختلفة ... بل كان الواجب اظهار الامر كأنه حلقات في سلسلة متصلة ... ولكن حركة الجيش في ذلك الوقت كانت حريصة على سلب الفضائل من الاحزاب عامة والوفد خاصة حتى ولو كانت مفخرته الكبرى وهي سماحه بانطلاق طاقات الشعب في كفاح مسلح مساند من الحكومة ضد القوات البريطانية فـي القنـاة .

ويقول كمال رفعت الذي كان يعمل ضابطا في المخابرات ومسئولا

عن الكفاح المسلح بالقناة في ذلك الوقت (ما ان اعلن جمال عبد الناصر بيان توقف المفاوضات حتى تحركنا للعمل) .

وشهد شهرا مايو ويونيو ١٩٥٣ تحركا واسع النطاق للفدائيين ... وقال جمال عبد الناصر في رده على خروج الاسر البريطانية (ان الذين لا نريدهم في بلادنا هم جنود الاحتلال الانجليز وحدهم دون غيرهم ... امـا الرعايا البريطانيون المدنيون من افراد الجالية البريطانية فهم فـي حماية مصر) .

وفي ١٤ يونيو قال ايضا (اننا نكون جيشا كبيرا يضم ٢٢ مليونا من المصريين وهو جيش قادر على اخراج المستعمر من البلاد ، ولن نعتمد على فئة قليلة ، ولكننا نعتمد على المواطنين جميعا ... اننا نوزع السلاح في جميع انحاء البلاد) .

ولكن طبيعة الكفاح المسلح عام ١٩٥٣ ، كانت تختلف عن طبيعته عام ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ... تحول الكفاح المسلح بعد حركة الجيش الـــى عمل تنظيمي منضبط في يد ضباط المخابرات المصريين الذين انبثوا في مدن القنال ... وكان في مقدمتهم كمال رفعت وعبد الفتاح ابو الفضل وفؤاد هلال وعمر لطفي وغيرهم .

وكانوا جميعا يعملون تحت قيادة زكريا محي الدين الذي كان حتى ذلك الوقت مشرفا على كافة اجهزة الامن (وزارة الداخلية ـ المخابرات العامة ـ المخابرات الحربية) ... والذي قسم منطقة القناة الـى قطاعات عين لكل قطاع منها ضابطا مسؤولا وكان يعقد لهم اجتماعات دورية لتنسيق وتوجيه الخطط .

وكان لهذا الاسلوب الجديد في الكفاح المسلح سلبيات وايجابيات ... فقد كان تركيزه في يد الضباط يعطيه طبيعية عسكرية قادرة على التدريب والتوجيه وضرب المناطق المؤثرة ... ولكن لانهم منتمون الـى المخابرات فقد كان التصنيف السياسي للناس عندهم ذا اهمية تصـل الـى المرتبة الاولى ، مما عزل عن المعركة كثيرا من العناصر السياسية القادرة على توعية الجماهير وتعبئتها .

كانت المعركة تتحرك في خطوط مرسومة ، وتحقق عمليات نـاجحة ، ولكنها لم تلتقط حرارة الجماهير او تتحرك في احضانها ولم تعمل على بعث تربية قومية .

لم يكن مصرحا لكل واحد ان يحمل سلاحه ويختار كتيبته وقيادته، ويضحي بحياته في صفوف التنظيم الذي يؤمن به ... ولكنه كان ضروريا

ان يرتبط بالمخابرات ليحصل على جواز المرور الى التضحية والكفاح المسلح .

وكان كثير من الشباب والعناصر السياسية يرفض الارتباط بالمخابرات ويخشى اسمها فهي كفيلة بالاساءة اليه ، في وقت كانت يدها فيها مطلقة في اعتقال الزعماء السياسيين وافراد التنظيمات الشيوعية .

وهكذا اختفت اعلام كتائب الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين التي ارتفعت عام ١٩٥١ وجذبت اليها اعدادا متزايدة من المناضلين ... ولم يعد هناك سوى علم واحد وهو علم المخابرات وقيادة واحدة هي قيادة الضباط .

اما الاخوان المسلمون فانهم لم يسهموا في الكفاح المسلح ضد الانجليز رغم انهم كانوا القوة السياسية الوحيدة المصرح لها بالعمل علنا ... واثروا ان ينكمشوا على انفسهم ، تماما كما فعلت قيادتهم اثناء حكم الوفد عندما قال حسن الهضيبي انهم لا يعتبرون الكفاح المسلح هو الاسلوب السليم للنضال واعترض على جموح بعض شبابهم الذين اشتركوا في معارك القتال ... كما قال الشيخ فرغلي مسئول الاخوان في الاسماعيلية لكمال رفعت مما ورد في كتابه (حرب التحرير الوطنية) :

ـ احنا معندناش استعداد لتحمل تهور الناس ولا يمكن نضحي بأولادنا علشان خاطر الوفد ... الوفد عملها والوفد يتحمل نتائجها واللي حصل اليومين اللي فاتوا كانوا كلام فارغ .

وهكذا كانت سياسة الاخوان ايضا بعد الثورة ... لم يسهموا في حركة الكفاح المسلح ، في الوقت الذي عجزت فيه القوات الشعبية الاخرى عن المساهمة لوجود قادتها في المعتقلات والسجون .

واقتصر الكفاح على المتعاونين مع ضباط مخابرات الثورة .

اقترن نشاط الكفاح المسلح بالموقف السياسي وارتبط به ارتباطا وثيقا ... كلما تقدمت المحادثات هدأت منطقة القناة ، وكلما تعثرت انفجرت الاحداث في المنطقة .

ولذا كان شهرا مايو ويونيو ١٩٥٣ من الاشهر الساخنة بعد توقف المفاوضات واستمر تصاعد الكفاح المسلح حتى بلغ ذروته عندما اختفى الشاويش البريطاني ديجدن من السلاح الجوي يوم ٧ يوليو ، وارسلت القيادة البريطانية انذارا الى مصر فيه تهديد باتخاذ اجراءات عنيفة بالاسماعيلية وتحددت الساعة التاسعة من صباح ١٣ يوليو لتنفيذ ذلك .

رفض مجلس قيادة الثورة الانذار .

ورفض محمد نجيب مقابلة مستر هانكي الوزير المفوض البريطاني .

ونوقش موضوع اختفاء الشاويش البريطاني في مجلس اللوردات .

وقال لي صلاح سالم انهم رحلوا الشاويش البريطاني الى باريس حيث ظهر هناك . واستوقفت المباحثات نتيجة ذلك في ٣١ يوليو ١٩٥٣ .

ويشير كمال رفعت في كتابه (حرب التحرير الوطنية) الى ازدياد الحوادث التي تمت خلال فترة توقف المفاوضات ، ويشير ايضا الى انه بعد عودة المباحثات لم تتوقف الاحداث ، بل ان السفارة البريطانية قدمت احتجاجا في نوفمبر ١٩٥٣ احتجاجا على زيادة عدد الحوادث في المنطقة .

وقد امكن خلال هذه الفترة اعتقال عدد من الجواسيس الذين كانوا في خدمة القوات البريطانية ، وحاكمتهم محكمة الثورة واصدرت على بعضهم الحكم بالاعدام مثل محمود صبري علي المعروف بكنج صبري ، والفريد عوض ميخائيل ، محمد عزت محمد ، وبولس مكسيموس واصدرت الحكم على البعض بالاشغال الشاقة .

وخلال فترة انقطاع المفاوضات كان جون فوستر دالاس قد حضر لزيارة مصر يوم ١١ مايو ١٩٥٣ في محاولة لعقد صلح بين العرب واسرائيل ودعم سياسته في تطويق الاتحاد السوفييتي باحلاف عسكرية .

قدم دالاس الى محمد نجيب هدية من ايزنهاور عبارة عن مسدس بلا ذخيرة اثبتت الاحداث فيما بعد انه السلاح الوحيد الذي قدمته امريكا الى مصر ... بينما ارسل محمد نجيب الى ايزنهاور تمثالا من الذهب لاله الحكمة عند قدماء المصريين .

وقد صرح دالاس عند وصوله قائلا (ضرورة بناء قاعدة القناة لاستخدامها في حالة الحرب دفاعا عن العالم الحر) .

ولم تقابل تصريحات دالاس بأي تأييد من جانب الشعب ولا من جانب ضباط مجلس القيادة الذين التزموا بسياسة عدم الارتباط بأحلاف عسكرية .

وكتب احمد ابو الفتح في جريدة المصري يوم ١١ مايو مخاطبا دالاس مظهرا تناقضات موقف امريكا التي تؤيد اسرائيل التي تصرح بقيام حزب شيوعي فيها ، بينما مصر تعتقل الشيوعيين ومع ذلك تصر امريكا على مساندة انجلترا ضدها .

ولم تكن صورة الولايات المتحدة عند المصريين كما حاول ان يرسمها محمد حسنين هيكل في كتاب (عبد الناصر والعالم) بقوله (كانت الولايات المتحدة تحيط بها كل معاني النجاح والفتنة ، براقة متسامية على الفشل الذريع الذي مني به الاستعماريون القدامى ، وكان الناس متجاوبين مع

فكـرة قيـام الامريكيين بدور رئيسي في الشـرق الاوسط ومستعدين لقبولها) .

لم يكن هذا التصوير صحيحا ... فان كافة القوى الوطنية كانت ضد السماح للامريكيين باداء دور سياسي بديل لدور انجلترا ، ظهر ذلك في سياسة الوفد واحزاب مصر الفتاة والوطن الجديد والتنظيمات الشيوعية والجماهيرية ، فقد كشفت امريكا الستار عن موقفها اثناء عرض النقراشي لقضية مصر على مجلس الامن .

واذا استثنينا السراي التـي كانـت علـى علاقة طيبـة بالامريكيين والاخوان المسلمين الذين حرصوا على اثبات حسن نيتهم للامريكيين ، وبعض رجال احزاب الاقلية فان احدا من المثقفين او السياسيين المصريين الوطنيين لم يكن ينظر الى امريكا بنظرة محمد حسنين هيكل ، او نظـرة مصطفى امين في كتابه (امريكا الضاحكة) او نظرة حافظ عفيفي مؤلف (الانجليز في بلادهم) الذي كتب مقالا في الاهرام يوم ٢٥ اغسطس ١٩٥١ قال فيه (لا مانع مطلقا من ان نعقد مع بريطانيا ومع غيرها من دول المعسكر الغربي معاهدة تحقق اهدافنا وتضمن لنا ولها معونة عسكرية متبـادلة عند الحاجة ... وارى ان محالفة ثلاثية تحقق هذه الاغراض مع انجلترا وامريكا هي خير ما اطمع في الوصول اليه واتمناه لبلادي) ... وكـان اجره على ذلك تعيينه رئيسا للديوان الملكي .

والضباط ايضا لم يكونوا أقل التزاما بارادة الشعب من السياسيين الوطنيين قبل الثورة ... ولم يكونوا اكثر اقترابا من امريكا الا بالقدر الذي تساندهم في الضغط على بريطانيا .

ووضح من زيارة دالاس ان احتمال ضغطه على بريطانيا سراب لا يجوز التعلق به وكان نجيب وجمال عبد الناصر صريحين معـه تماما في عـدم الاستجابة لرغبته في الارتباط باحلاف غربية خوفا من الشيوعية .

وفي ذلك قال جمال عبد الناصر ، كما روى محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) :

(ان الاتحاد السوفيتي يبعد عنا ٥ آلاف ميل ولم نقم قط مشاكل معه كما انه لم يهاجمنا ابدا ولم يحتل ارضنا اطلاقا ولم يكن له قط قاعدة في مصر بينما لا تزال بريطانيا في مصر تمارس احتلالا استعماريا منـذ سبعين عاما) .

وزاد موقف امريكا وضوحا عندما استجابت الى قرار بريطانيا بحظر

توريد الاسلحة لمصر وفي ذلك يقول انطوني ناتج في كتابه (ناصر) معلقا على نتائج زيارة دالاس قائلا :

(ان الانعكاس المرير لحديث الامريكيين عن مساعدة شعوب الدول النامية لم يكن اكثر من افيون لتخديرها) .

ولذا فان خطاب ايزنهاور الذي ارسله الى محمد نجيب يؤكد فيه عزم امريكا على تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية كبيرة الى مصر اذا وصلت الى اتفاق مع بريطانيا كما ذكر ناتج في كتابه ناصر — غير ذي صدى عند اعضاء مجلس القيادة .

والحقيقة ان امريكا لعبت دور الوسيط في المباحثات ... حاولت اقناع بريطانيا بجلاء قواتها وحاولت اقناع مصر بالارتباط بحلف دفاعي غربي .

ولكنها وجدت من الضباط اصرارا على عدم التورط في احلاف دفاعية. ولذا فانه عندما عقد مؤتمر لاقطاب الغرب في جزيرة برمودا بالمحيط الاطلنطي في ديسمبر ٥٣ وحضر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وانطوني ايدن وزير الخارجية وجوزيف لانييل رئيس وزراء فرنسا واجتمعوا هناك بالرئيس ايزنهاور ودالاس وزير الخارجية ، ونوقش موضوع تنسيق جهود الدول الاستعمارية الثلاث ، اتفق رايهم جميعا على عدم الاستجابة لرأي مصر ، ومملاة بريطانيا في موقفها المتشدد .

اخذت المفاوضات اسلوبها التقليدي في المماطلة ... وانعكس ذلك على الشعب نقدا لاسلوب العسكريين في معالجة المشكلة باسلوب السياسيين .

لم يكن الكفاح المسلح في القناة مشتعلا كما كان عام ١٩٥١ بدرجة مقنعة للجماهير ، وبدات روح المعارضة تتحول من همسات الى مظاهرات قام بها الطلبة ، وعاد مجلس القيادة الى اعتقال عدد كبير من السياسيين وتقديمهم الى محكمة الثورة ، في الوقت الذي حوكم فيه الجواسيس .

وبعد انتهاء المحاكمات وخلالها لم تتوقف حوادث الكفاح المسلح في القناة ، وصرح سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا امام مجلس العموم في يناير ١٩٥٤ بعد تولي ايدن رئاسة الوزارة عقب تخلي تشرشل عن الحكم قائلا (ان من المستحيل الوصول الى اتفاق مع مصر ما دامت هذه الحوادث مستمرة) .

وفي يوم ٢٠ يناير ١٩٥٤ اطلق الانجليز الرصاص على سيارة جيش مصري تحمل ١٧ جنديا من سلاح الطيران ، اصيب اربعة منهم وقتل

واحد ... وكان هذا هو اول حادث من نوعه ... صدام بين القوات المسلحة وبعضها .

ورد المصريون على ذلك فورا ، وتصاعد القتال في المنطقة ... ولكنه ظل منعزلا عن الجماهير ... بل ظل منعزلا حتى عن ضباط الجيش انفسهم ... ولم يتأثر بالخلاف بين محمد نجيب واعضاء مجلس قيادة الثورة ...

وعندما تخلص مجلس القيادة من محمد نجيب وتولى جمال عبد الناصر رئاسة الوزارة في ١٧ ابريل ١٩٥٤ تفرغ لحل مشكلة الجلاء بعد ان وصلت الامور الى حد تهديد شعبية مجلس القيادة بعد ان لم تفلح العمليات العسكرية في القناة في تليين عناد البريطانيين .

واتخذ جمال عبد الناصر عدة خطوات ايجابية بناء على تقدير موقف شخصي .

قرر من ناحية المبدأ قبول عودة القوات البريطانية الى منطقة القناة اذا هوجمت تركيا ، وهو امر كان مرفوضا قبل ذلك من الجانب المصري ... وقرر ايضا بعد شهر واحد من توليه الوزارة دعوة البريطانيين الى عودة المباحثات مع وقف النشاط الفدائي بعد ان كان قد وصل الذروة كما ذكر انطوني ناتنج .

واستؤنفت المباحثات في يوليو ، بعد أن كان جمال عبد الناصر قد اعلن في ١٨ يونيو ان مفاوضات تجري بين مصر واندونيسيا ويوغسلافيا بشأن عقد المؤتمر الاسيوي الافريقي ، وبعد ان اضرب العمال المصريون في ٢٣ يونيو عن الذهاب الى معسكرات القناة ، وعقب قولته المعروفة في شبين الكوم (على الاستعمار ان يحمل عصاه على كتفه ويرحل) .

وفي ٢٥ يونيو انتقلت قيادة القوات البريطانية في منطقة قناة السويس الى قبرص ، واعلنت السفارة بيانا قالت فيه (ان انتقال قيادة القوات الى قبرص لا يعني اي تحويل في موقف بريطانيا من المفاوضات) .

تشكل وفد المفاوضات المصري بعد ابعاد نجيب برئاسة جمال عبد الناصر وعضوية عبد الحكيم عامر وعبد اللطيف بغدادي وصلاح سالم ودكتور محمود فوزي ومن الجانب البريطاني السفير البريطاني سير رالف ستيفنسون وميجربنسون قائد القوات البريطانية ومستر رالف موري الوزير المفوض في السفارة ، وحضر وزير الحربية البريطانية مستر انطوني هيد في المراحل الاخيرة .

لم تستغرق المفاوضات وقتا طويلا . بدأت في ١١ يوليو وانتهت في

٢٧ يوليو . حيث وقعت الاتفاقية بالاحرف الاولى في دار رئاسة مجلس الوزراء ووقعها عن مصر جمال عبد الناصر وعن بريطانيا مستر انطوني هيد.

قصر مدة المفاوضات بعد استئنافها ، وسرعة الاتفاق والتوقيع بالاحرف الاولى امر مثير للتساؤل ، وهو دليل على ان نقاط الخلاف قد سويت قبل الجلسات ، وان قبول جمال عبد الناصر عودة القوات البريطانية في حالة مهاجمة تركيا ، كان حرصا منه على انهاء المفاوضات للسيطرة على الموقف الداخلي بعد تصادم الثورة مع كل القوى السياسية عدا الاخوان المسلمين الذين كانوا يتربصون ويتحينون الوقت المناسب للانقضاض .

تأكد بعد ذلك ان هذه السرعة في توقيع الاتفاق كان نتيجة وساطة امريكية ، كما ذكر لي زكريا محيي الدين استهدفت حل المشكلة بين البريطانيين والمصريين لخلق جو مناسب لربط مصر بسياسة جديدة في المنطقة .

ويبدو ان جمال عبد الناصر كان يتطلع الى جلاء القوات البريطانية باعتباره هدفا رئيسيا ، يدبر بعده من الخطط ما يحمي الاستقلال الوطني ... واعتبر ان الاتفاقية لا تزيد عن كونها (حبر على ورق) يستطيع ان يفعل بعد توقيعها ما يشاء عقب جلاء جنود الاحتلال ، وهو لم يعتبر ادراج تركيا بمثابة ارتباط تحالفي مع بريطانيا .

خاطب جمال عبد الناصر الشعب يوم ٢٢ يوليو قائلا (اننا نعيش الآن لحظة مجيدة في تاريخ وطننا ونقف على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا ، لقد وضع الهدف الاكبر من اهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلي) .

ولكن هذا لم يكن رأي فئات كثيرة من الجماهير اعتبرت اتفاقية الجلاء اقل من طموحها واكثر تراجعا من ارادتها ... فهي تعني في مضمونها تحالفا مع البريطانيين قبله الوفد عام ١٩٣٦ ثم رفضه رفضا باتا بعد الغاء المعاهدة .

نصت الاتفاقية على انسحاب القوات البريطانية خلال عشرين شهرا من التوقيع النهائي ، وانهت معاهدة ١٩٣٦ وكافة ارتباطاتها ، واعتبرت قناة السويس جزءا من مصر تكفل حرية الملاحة فيه اتفاقية الاستانة في ٢٩ اكتوبر ١٨٨٨ .

ونصت الاتفاقية ايضا على بقاء اجزاء من القاعدة صالحة ومعدة للاستخدام تعود اليها القوات البريطانية اذا ما هوجمت دولة من دول

معاهدة الدفاع المشترك لجامعة الدول العربية او تركيا ايضا ... وفي حالة التهديد بالهجوم يجري التشاور فورا بين مصر وبريطانيا .

وبين توقيع الاتفاقية بالحروف الاولى وتوقيعها النهائي تبلورت المعارضة للاتفاقية عموما ولجمال عبد الناصر بصفة خاصة ... وظهرت بوادر ذلك في صورة نسف كوبري ابو سلطان بمنطقة القنال في ٢ اغسطس ١٩٥٤ عن غير طريق ضباط المخابرات المسئولين عن الكفاح المسلح .

ويقول كمال رفعت في كتابه (حرب التحرير الوطنية) ان (اصابع الاتهام اشارت الى الذين لا يريدون جلاء القوات الاجنبية عن بلادنا ... اشارت الى فئة لم تطلق ابدا رصاصة على الانجليز منذ الغاء معاهدة ١٩٣٦) .

ويدون كمال رفعت فقرة من تقرير المخابرات البريطانية يقول من الامور ذات المغزى ان المنطقة الواقعة شمال ابي سلطان مشهورة بأنها قلعة حصينة للاخوان المسلمين ، وترد انباء عن مستودعات اسلحة في تلك المنطقة من مصادر موثوق بها من حين الى آخر .

اذا صح ذلك فان هذا يعني سرعة تحرك الاخوان المسلمين من جديد ضد جمال عبد الناصر ، راكبين في ذلك موجة الرفض الشعبي لاتفاقية الجلاء ، منتهزين فرصة الهجوم العام على جمال عبد الناصر وشخصيته التي صورت في هذه الفترة بمظهر القسوة في معاملة محمد نجيب والزعماء السياسيين والشيوعيين ... واسيء اليها بقبول اتفاقية الجلاء ... وفي ذلك يقول جان لاكوتير في كتابه (عبد الناصر) (لم يبد البكباشي اكثر انعزالا بنظر الشعب المصري كما بدا في اليوم الذي حمل فيه الى الشعب اتفاقية الجلاء) .

وخطب جمال عبد الناصر يوم ٢١ اغسطس مهاجما الاخوان المسلمين مرددا اتصال الهضيبي بمستر ايفانز المستشار الشرقي السفارة البريطانية وهو ما ورد في بيان مجلس القيادة عند حل جماعة الاخوان المسلمين في يناير ١٩٥٤ .

وتم توقيع الاتفاقية يوم ١٩ اكتوبر ١٩٥٤ وقعها عن مصر جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادي وصلاح سالم ومحمود فوزي وعن انجلترا انطوني ناتنج وزير الدولة البريطاني وسير رالف ستيفنسون وميجر جنرال منسون كبير المفاوضين العسكريين .

ويروي ناتنج في كتابه واقعة طريفة حدثت وقت التوقيع عندما احتفظ ناتنج بقلم جمال عبد الناصر الذي استعاره منه التوقيع ...

فقال له جمال مداعبا (أظن انكم اخذتم الكثير مني في هذه الاتفاقية ... فهل تسمح باعادة قلمي !)

وكاد توقيع هذه الاتفاقية يودي بحياة جمال عبد الناصر .

لم يكد يمض اسبوع واحد على توقيع الاتفاقية حتى اعتدى محمود عبد اللطيف عضو الجهاز السري لجماعة الاخوان المسلمين على جمال عبد الناصر باطلاق الرصاص عليه اثناء خطاب له في ميدان المنشية بالاسكندرية ... وبدأت بعد ذلك حملة اعتقالات واسعة ومحاكمات عنيفة ضد الاخوان المسلمين .

وكانت بريطانيا قد رفعت حظر تصدير السلاح الى مصر في شهر اغسطس بعد ان كانت قد فرضته في عهد وزارة الوفد عام ١٩٥١ عقب اشتعال الكفاح المسلح في القناة .

وكان الهدوء قد عاد الى منطقة القناة في ظاهره ... ولكن ضباط المخابرات المصريين ظلوا يكلفون بأعمال تتصل بالقاعدة البريطانية والحصول على معلومات عنها .

واستمر الجلاء عن المعسكرات البريطانية واحدا بعد الآخر حتى تم جلاء البريطانيين عن آخر معقل كانوا يحتلونه في بورسعيد وهو مبنى البحرية الذي تسلمه الجيش المصري يوم ١٣ يونيو ١٩٥٦ .

يقول فتحي رضوان ان جمال عبد الناصر دخل عليه في ذلك اليوم وسأله عن موعد حادث دنشواي فقال له فتحي انه حدث يوم ١٣ يونيو ١٩٠٦ أي من نصف قرن بالضبط وابلغه جمال ان الانجليز قد تم انسحابهم سرا في هذا اليوم .

واقترح فتحي رضوان ان يخرجوا الى الجماهير ويشاركوها الفرح بالغناء والرقص في هذا اليوم البهيج .

ولكن جمال عبد الناصر ابتسم في هدوء قائلا له (روح انت غن وارقص لوحدك) .

(قال له ذلك كما لو كانت النتيجة التي وصلوا اليها طبيعية ، وليست نقطة نهاية وانما نقطة بدء) .

وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ ، الذكرى الثالثة لاعلان الجمهورية في مصر ، رفع جمال عبد الناصر العلم على مبنى البحرية في بورسعيد ، واعتبر هذا التاريخ منذ ذلك الوقت عيد الجلاء .

تحررت مصر والسودان من الوجود الاستعماري قبل ان تمضي اربع سنوات على قيام حركة ٢٣ يوليو .

ويقول جان لاكوتير انه يوم توقيع الاتفاقية كان وجه جمال عبد الناصر يشوبه العبوس وعندما سأله قائلا :

ـ والآن ؟

رد جمال عبد الناصر قائلا :

ـ والآن يبقى علينا اعادة بنـاء بلدنا .

وقال عبد الحكيم عامر عندما سئل عن توقعاته لتعزيز الجيش .

ـ لن نشتري دبابات ، بل سنشتري جرارات فهي اكثر فائدة لنا .

خرج الاحتلال البريطاني من مصر بعد ٧٤ عاما .

دخل بعد ان قهر ثورة قادها عسكريون .

وخرج بعد ان قهرته ثورة قادها عسكريون ايضا .

الفصل الثاني

مـــع الحياد ... ضد الاحلاف

(ان انتصـــار مصـــر في معركـــة الاحلاف
انتصار للهند ايضا) .
جواهر لال نهـــرو
اثناء زيارة القاهرة في فبراير ١٩٥٥

لم يكن توقيع اتفاقية الجلاء نهاية للصراع مع الاستعمار البريطاني ... ولكنه كان بداية لمرحلة جديدة : حاولت فيها بريطانيا بعد ان عجزت هي والولايات المتحدة عن اقنـــاع الحكـــام العسكريين الجـــدد في مصر بالارتباط بحلفها الدفاعي للشرق الاوسط ، ان تضم دولا عربية اخرى الى هذا الحلف .

كان اقصى ما امكن فرضه على اتفاقية الجلاء هو النص على عودة القوات البريطانية الى منطقة القناة في حالة الاعتداء على تركيا المرتبطة بحلف الاطلنطي الذي تشكل عـــام ١٩٤٩ وقد قبل جمال عبد الناصر هذا النص تفاديا لازمات داخلية ، ومحاولة لتهدئة الاستعمار حتى لا يلعب علـــى التناقضات الداخلية التي كانت قائمة ، الى جانب رغبته في عقد اتفاق ينهي قضية جلاء قوات الاحتلال ، ليتفرغ الى مشاكل بنـــاء المجتمع الجديد .

ولكن الشبهة التي احاطت بالاتفاقية باعتبارها نوعا من التحالف

عرضت حياة جمال عبد الناصر للخطر وجعلته يقول لايدن أثناء زيارته لمصر في فبراير ١٩٥٥ انه تكبد الكثير بسبب هـذه الاتفاقية الـى حـد التعرض لاطلاق النار عليه كما ذكر محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) .

في صباح اليوم التالي لاطلاق النار على جمال عبد الناصر ذهبنا اليه بعض ضباط الجيش في استراحة ستانلي وهي منزل صغير مـن دور واحد له حديقة خضراء منبسطة تشرف على البحر ، وكان هناك عبد الحكيم عامر يقول للضباط في صراحة بسيطة انه لا يعرف شيئا عما تحققه الثورة وان جمال هو الذي خطط ونفذ وهو الذي يعرف خطوات المستقبل ... وعندما دخلنا الى جمال عبد الناصر في غرفة جلوس صغيرة كـان وجهه شاحبا فلم يكن قد نام الا قليلا واستيقظ مبكرا لمقابلة الزائرين ... وقال وعيناه تلمع (الاخوان المسلمين عاملين وطنيين .. كانوا فين في معركة القناة) ... ثم استطرد يشرح للعدد القليـل مـن الضباط الحاضرين مفهومه لاتفاقية الجلاء ، واستبعاده الكامل لحدوث معركـة تسمح للقوات البريطانية بالعودة .

كان تنفيذ الاتفاقية يمضي في طريقه المرسوم بـلا تعقيدات مـن الجانبين ... القوات البريطانية تواصل انسحابها من المعسكرات واحدا بعد الآخر .. والحكومة البريطانية رفعت الحظر عن توريد السلاح الـى مصر في اغسطس ١٩٥٤ .

والحكومة الامريكية ايضا قدمت لمصر ٤٠ مليون دولار كمساعدة في شهر نوفمبر ١٩٥٤ .. أي بعد شهر واحد من توقيع الاتفاقية ... وكان قد حضر الى مصر ضابطان امريكيان موفدان من البنتاجون لتزويد مصر بالسلاح الذي تحتاجه للامن الداخلي ... وقد بذل هذان الضابطان جهدهما لاقناع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بأن العدو الحقيقي للعرب هـو الشيوعية العالمية وان هذا كاف لتحريك حوافز العرب لعقد تحالف يدفع خطر الغزو السوفييتي ... واجاب عبد الناصر علـى ذلك بالتفريق بين خطر التغلغل الشيوعي الذي هو مسألة امن لكل بلد علـى انفراد وبين خطر الغزو العسكري السوفييتي الذي لا تشعر به مصر التي تواجه عدوين هما بريطانيا واسرائيل .

وقد دهش مندوبا البنتاجون لموقف جمال عبد الناصر ... وردا على احتمال تشكيل عبد الناصر لجبهة من العرب ترفض الارتباط باحلاف الغرب العسكرية بقولهما (لقد تأخر كثيرا فلقد كسبنا لجانبنا كلا مـن

العراق ولبنان والاردن وتركيا وايران والباكستان كما ذكر مايلز كوبلند في كتابه « لعبة الامم ») .

ومع ذلك لم تفقد الحكومة الامريكية الامل في ربط مصر بحلف دفاعي يبقي قناة السويس قاعدة صالحة ... ولذا اعلنت عن تقديم مساعدة الاربعين مليونا لمصر في نوفمبر ١٩٥٤ ، واعطت تسهيلات بعشرين مليون دولار كمساعدة عسكرية لشراء معدات حربية .

وبدأت وزارة الحربية المصرية تعد قوائم بالاسلحة المطلوبة وتراجعها وتعد لها في مراسلات متبادلة مع المسئولين في وزارة الدفاع الامريكية ... ولكن ظلت المشكلة معلقة عدة شهور باعتبارها (تحت الدراسة) ... ولكن الواقع انه كانت هناك خشية من استخدام جمال عبد الناصر لهذه الاسلحة ضد اسرائيل .

وعلى قدر ما طالت مفاوضات التسليح ، على قدر ما انتهت في سرعة عملية تقديم ٣ مليون دولار منحة شخصية من المخابرات المركزية الى رئيس الدولة ... وهي قصة اثارت اهتمام الكثيرين لما احاط بها من جدل .

بدأت القصة باقتراح من عميل المخابرات المركزية الامريكية مايلز كوبلند والتي كشف اسرارها في كتابه (لعبة الامم) عندما قال انه لولا نشره لها لظلت خمسة آلاف عام تحير الباب علماء الآثار كما تحيرها اهرامات مصر ... ذلك انها انتهت الى بناء برج القاهرة في الجزيرة المواجهة للنيل والمطل على افخم فنادق العاصمة واكبر نواديها .

يحدد مايلز كوبلند تاريخ اعطاء المبلغ لضابط المخابرات حسن التهامي الذي اخذه واحصاه في منزله بالمعادي ووجده ناقصا عشرة دولارات في شهر نوفمبر ١٩٥٤ أي نفس الشهر الذي حصلت فيه مصر على الاربعين مليونا كمعونة اقتصادية .

وينفي هذا التحديد ما نشره محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) من القول بأن هذا المبلغ قد سلم الى اللواء محمد نجيب (وان جمال عبد الناصر عندما علم بذلك استشاط غضبا وطلب تفسيرا من محمد نجيب الذي كان انذاك رئيسا للوزراء ... واصر نجيب على انه فهم انه ليس للمخابرات الامريكية علاقة بذلك المبلغ وانه مرسل من الرئيس ايزنهاور الذي خصص اعتمادات مالية لبعض رؤساء الدول ليتمكنوا من تجاوز مخصصاتهم المقيدة بالميزانية من اجل الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ضد الشيوعية) ... وهنا طلب عبد الناصر على

حد قول هيكل ـ ايداع المال في خزينة ادارة المخابرات وامر بعدم صرف أي شيء الا باذن مجلس قيادة الثورة .

ينفي تحديد تاريخ تسليم المبلغ ذلك لسبب بسيط هو ان محمد نجيب لم يكن رئيسا للوزراء في هذه الفترة بل كان رئيسا للجمهورية بلا عمل حتى ١٤ نوفمبر ثم معتقلا في المرج بعد ذلك وكان حسن ابراهيم وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية يحضر كافة مقابلاته ويراقب كل تصرفاته ... مما يبعد تماما فكرة عدم معرفة جمال عبد الناصر بوقوع مثل هذا الحادث .

هذا من ناحية ... ومن ناحية اخرى فان الامريكيين ما كانوا ليعطوا مثل هذا المبلغ لمحمد نجيب وهو رجل معزول عن الحياة العامة تدفقت عليه الهجمات عقب اطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر وربطت بينه وبين الاخوان المسلمين وكان على وشك ان يحاكم معهم .

هذا اذا اردنا استبعاد رأي مايلز كوبلند كما ورد في كتابه .

وعندما قرأ محمد نجيب ما نشره هيكل في كتابه رفع عليه قضية امام محكمة الجيزة واضطر هيكل للاعتذار على صفحات الاهرام ، واثبت محمد نجيب امام المحكمة قوله بأن الواقعة موضوع الادعاء غير صحيحة على الاطلاق ... وصمت هيكل مؤثرا الانسحاب من خطأ اساء به الى سمعة الرجل .

ومثل هذه المبالغ كانت تدفع عادة لبعض رؤساء الدول ... البعض تقبلها في سكون ، والبعض يرفضها في صخب كما فعل رئيس وزراء سنغافورة عندما اعلن انها محاولة لرشوته ، والبعض لا يأخذها لنفسه وانما يستخدمها لخدمة مجتمعه كما فعل جمال عبد الناصر عندما شيد بها برج القاهرة ليكون مركزا للاتصالات اللاسلكية السرية مع سفارات مصر في الخارج .

هكذا كان موقف حكومة الولايات المتحدة مع جمال عبد الناصر بعد توقيع اتفاقية الجلاء ... امل في ربطه بالاحلاف العسكرية ، وحوار متصل حول ذلك ، واغراء بالمساعدات المالية وتقديم تسهيلات شكلية للتسليح وتوطيد للعلاقات الشخصية معه ببعض العناصر الامريكية القادرة على اجتذاب عاطفته .

وفي هذا السبيل استبدلت الحكومة الامريكية جيفرسون كافري بهنري بايرود الذي قدم اوراق اعتماده في ٨ مارس ١٩٥٥ وكان قبل ذلك وكيلا لوزارة الخارجية درس حضارة مصر القديمة وهو ضابط

سابق برتبة عميد ، عمره ٣٩ عاما يستطيع ان يكون اكثر تفهما لزملائه من الضباط المصريين الذين يجمعهم عمر واحد ومهنة واحدة .

ولكن كل هذه الظروف لم تضعف من اصرار جمال عبد النـاصر واعضاء مجلس الثورة علـى اتخـاذ موقف الحيـاد ومعاداة الاحـلاف العسكرية .

الرصاصات التـي اطلقـت علـى جمـال عبد الناصر فـي ميدان المنشية رغم انها عمل من اعمال الارهاب المقوت والمدان ، الا انها كانت صوتا من اصوات الاحتجاج على شبهة التحالف التي وردت في اتفاقية الجلاء ... ولذا لم يكن جمال عبد الناصر مستعدا للتورط فـي تحالفات عسكرية .

ليس هذا فقط ... بل ان جمال عبد الناصر بدأ معركة ضد الدول العربية التي اخذت تنجذب الى مغنطيس الاحلاف الغربية ... وكـان هذا جديداً في السياسة المصرية ... فمصر قبل الثورة كانت ترفض الاحلاف ولكنها لا تهاجم الدول العربية التي تروج الدعاية لها .

بل ان موضوع الاحلاف كان مجالا لوجهات نظـر مختلفـة داخـل مصر ... اسماعيل صدقي وقع بالاحرف الأولى مع اتورين بيفان وزير خارجية بريطانيا على مشروع معاهدة تقضي بالتحالف مع بريطانيا ، وكان يصحبه في المفاوضات وزير خارجيته ابراهيم عبد الهادي رئيـس الحزب السعدي فيما بعد ، وروج مصطفى امين لذلك بمقال كتبه في آخر ساعة تحت عنوان (اوقعها والعنها) .

ومحمود فهمي النقراشي خطب فـي واشنطن مهاجمـا الشيوعية والنظام السوفيتي متحدثا عن وجوب ثقة الغرب في مصر الديموقراطية وكراهيتها للشيوعية ، موافقا على مبدأ الامن الجماعي وهو شعار الاحلاف العسكرية الذي رفعه الاستعمار وقتها .

وعبد الرحمن عزام امين الجامعة العربية صرح في شهر يناير ١٩٥٢ بأنه على استعداد التحالف مع امريكا .

اما الوفد فقد اعلن رأيه صراحة في رفض استمرار التحالف، واقترح مصطفى النحاس اثناء مفاوضاته مع المارشال سليم ان تنتقـل القوات البريطانية عند القناة الى فلسطين بما يمكنها في حالة الحرب مـن العودة خلال اسبوع .

كان الوفد يطلب الجلاء اولا ثم النظر في موضوع التحالف بعد ذلك ... اما الاستعمار فكان يصر على توقيع التحالف اولا قبل اتمام الجلاء

... ولذا الغيت المعاهدة وبدأ الكفاح المسلح ، اما الاحزاب التقدمية فقد اتخذت موقف الرفض والمعارضة لفكرة الاحلاف العسكرية) .

وتغير الموقف بعد حركة ٢٣ يوليو ... اذ اخذت القيادة العسكرية ليس على رفض التحالف فقط ، بل على مقاومة الاحلاف التي ترتبط بها الدول العربية مع الاستعمار .

ودخلت الثورة بذلك معركة ضارية ضد الاحلاف العسكرية .

لم تستجب لاغراء ايزنهاور بامداد مصر بما تحتاجه من اسلحة اذا ارتبطت بحلف دفاعي مع الغرب ... كان هذا الاغراء اقل تأثيرا على العسكريين منه على المدنيين الذين ارتفعت بعض اصواتهم تطلب التحالف، مثل علي ماهر الذي صرح في جريدة الاخبار يوم ٢٥ مارس ١٩٥٤ ابان اشتداد الازمة بين محمد نجيب واعضاء المجلس بقوله (ان مصر لا تستطيع الوقوف موقف الحياد ويجب ان تنضم للغرب) ... وكأنما يناجي بكلماته قادة الغرب ليمدوا له ولامثاله يد المساعدة ، او لينظروا له بعين العطف من جديد .

ولم تتحول نظرة العسكريين عن موقفهم المبدئي في رفض الاحلاف ولو تدفق السلاح ، ... وكانت حكومة الولايات المتحدة قد عقدت اتفاقيات امداد بالسلاح لكل من العراق وباكستان عام ١٩٥٤ كمقدمة لحلف بغداد .

كما تشكل حلف جنوب شرق آسيا في مانيلا عاصمة الفيلبين في ٨ سبتمبر ١٩٥٤ وبدأ عمله في ١٩ فبراير ١٩٥٥ بالدول الآسيوية باكستان والفلبين وتايلند وبعض الدول البعيدة عن المنطقة المرتبطة بحلف الاطلنطي وهي امريكا وانجلترا وفرنسا .

ولكن كل ذلك لم يضعف من مقاومة مصر ... بل زادها اشتعالا وجعلها طليعة الدول العربية في هذا المضمار .

وعندما قام ايدن بزيارته الوحيدة لمصر في ٢٦ فبراير ١٩٥٥ لم تترك الزيارة اثرا في موقف جمال عبد الناصر الذي شرح له موقفه كما سبق ان شرحه لدالاس وعندما تساءل ايدن عن سر الهجوم على افراد الاسرة الهاشمية ونوري السعيد في العراق لرغبتهم في الانضمام لحلف بغداد قال له جمال عبد الناصر انه لا يهاجم هؤلاء الناس شخصيا ولكنه يعتقد ان فكرة حلف بغداد تؤدي الى تجزئة العالم العربي ، وانقسامه والى عزل مصر .

ويقول ناتنج في كتابه (ناصر) ان زيارة ايدن ومناقشاته قد غيرت

من الجو النفسي الذي حرص ناتنج على تحقيقه بعد توقيع اتفاقية الجلاء املا في تعاون مثمر بين الدولتين في المستقبل .

وكان مجلس قيادة الثورة قد اوفد صلاح سالم الى العراق في صيف ١٩٥٤ بعد توقيع اتفاقية الجلاء بالحروف الاولى للتعرف على حقيقة اخبار اقتراب العراق من الاحلاف العسكرية .

وكان الهدف من الزيارة اعادة الحرارة الى العلاقات الباردة بين مصر والعراق ومحاولة كسب ثقة نوري السعيد الذي انتهى مشروعه القديم (الهلال الخصيب) الذي يضم العراق وشرق الاردن وسوريا في دولة واحدة بعد تكوين الجامعة العربية في الاربعينيات .

ذهب صلاح سالم الى سرسنك مصيف الاسرة المالكة في شمال العراق ، وكان جو اللقاء مرحا ، اصر فيه نوري السعيد على مصاحبة صلاح سالم الى عرس كودي قبل أي مباحثات رسمية .

وفي المباحثات حرص صلاح سالم على كبت عواطفه المتفجره والتحدث بهدوء شديد عن امل مصر وتطلعها في الا يرتبط العراق بأي حلف اجنبي حتى تجلو القوات البريطانية تماما عن مصر وتجلو كافة القوات الاجنبية عن بقية البلاد العربية ، وذلك حتى لا ينفذ الاستعمار الى صفوف الدول العربية فيمزق وحدتها .

ولما اشار نوري السعيد الى ان الشيوعية تهدد العراق وانه يحتاج الى مساعدة لمقاومة هذا التهديد ، قال له صلاح سالم ان الارتباط بأحلاف اجنبية هو الذي يدفع العناصر الوطنية الى اعتناق الشيوعية .

ولما كان نور السعيد لم يحدد بعد موقفا نهائيا في مقترحات بريطانيا للارتباط بحلف معها فانه بعد ان ابدى لصلاح سالم تخوفاته من موقع العراق الجغرافي وقربه من الاتحاد السوفييتي ارجأ معه دراسة الموضوع ... ولكنه وهو السياسي العتيق خدع صلاح سالم في كلمات البيان المشترك الذي صدر بعد الزيارة .

كما ان صلاح سالم اجاب في مؤتمر صحفي اثناء الزيارة رداً على سؤال خبيث عن موقف مصر من رغبة الوحدة في بعض الدول العربية بقوله انه اذا كان هناك شعبان او اكثر يريدان الوحدة فان مصر لا تمانع في ذلك ... وقد ترجم هذا الرد على انه موافقة على مشروع الهلال الخصيب الذي تنطوي فيه سوريا تحت جناح العراق .

وقد كان لهذه الرحلة تأثير شديد على جمال عبد الناصر ، لعدم موافقته على اراء صلاح سالم ، فأبلغ السفير العراقي أن ما ورد في البيان

خاصا باستشارة مصر والعراق لبريطانيا والولايات المتحدة من اجل تقوية الجامعة العربية هو امر يتنافى مع استقلال الدولتين .

واسرع نوري السعيد الى القاهرة ليجابه جمال عبد الناصر بقوله انه لا يستطيع الاعتماد على الدول العربية وحدها للدفاع عن العراق وانه يعتبر ميثاق الضمان الجماعي العربي حبرا على ورق وانه يعتقد ان بريطانيا وحدها هي التي تستطيع ان تساعده في ذلك .

وكان نوري السعيد قد زار مصر قبل ذلك عام ١٩٥٣ والتقى بمحمد نجيب وجمال عبد الناصر واعضاء مجلس الثورة ، وحمل معه مشروعا يقضي باتحاد الدول العربية المتقاربة على هذا الاساس (السودان ومصر وليبيا) ثم (العراق وسوريا والاردن) ثم (تونس والجزائر والمغرب) واخيرا (السعودية واليمن والخليج) ... ولكن نوري السعيد لم يجد صدرا مفتوحا لمناقشة مشروعه فقد قال له محمد نجيب انه لا يريد ان يقفز لتحقيق مشروعات تبدو خيالية قبل ان يتم الجلاء عن مصر .

وحاول ان يفتح نوري السعيد ملف هذا الموضوع مرة ثانية ، ولكن جمال عبد الناصر ابلغه انه لا يمكن التفكير في وحدة الدول العربية مع بعضها الا اذا تحررت تماما من الاستعمار وجلت عنها قوات الاحتلال .

ووضح تماما ان هناك تصادما لا بد وان يحدث بين القاهرة وبغداد ... اذاعة صوت العرب تدعو كافة المواطنين العرب الى اتباع نموذج القاهرة والتحرر من القوات الاجنبية كما فعلت مصر بعد عامين فقط من ثورة ٢٣ يوليو ... وعواطف الجماهير على امتداد الوطن العربي تلتهب مع هذه الاذاعات المثيرة ...

واتبع نوري السعيد اسلوبا جديدا في مقاومة هذا الهجوم الاعلامي عندما اعلن وزير خارجيته موسى شهبندر ، في مؤتمر صحفي اثناء اجتماع لوزراء الخارجية العرب في القاهرة بأن العراق لن ينضم لحلف مع تركيا والباكستان وانما سيستبدل ذلك بعقد اتفاقية مع بريطانيا تشابه اتفاقية مصر معها على ان يسمح بعودة القوات البريطانية الى العراق اذا هوجمت ايران او تعرضت لخطر الغزو .

واكد نوري السعيد اقوال وزير خارجيته امام البرلمان العراقي يوم اول يناير ٥٥ ولكن محاولته لوقف الهجوم على العراق لم تستمر فقد هبط بغداد بعد خمسة ايام فقط من خطبته عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا مع وفد كبير ، امضى اسبوعا في العراق وانتهى الامر الى صدور بيان يوم ١٢ يناير ١٩٥٥ يفيد بأن اتفاقا قد تم بين الدولتين على توقيع

حلف دفاعي مشترك في اقرب وقت ممكن .وانهما يتطلعان الى انضمـام الدول الاخرى التي تفكر بمثل اسلوبهما) .

وكان هذا الاعلان صدمة حقيقية لجمال عبد الناصر ، اذ تأكـد ارتباط العراق بحلف الاطلنطي عن طريق تركيا التي كانت اول دولة من دول الشرق الاوسط ترتبط بهذا الحلف ... ليس هذا فقط بل ان الدولتين تسعيان لضم دول عربية اخرى .

وانقضت معركة الاحلاف الى رحلة جديدة ... شددت فيها مصر الهجوم على الاحلاف اعلاميا وسياسيا .

ودعت القاهرة وزراء خارجية العراق وسوريا ولبنان والسعودية والاردن واليمـن وليبيـا للاجتماع يوم ٢٢ يناير ١٩٥٥ لمحاصرة نوري السعيد الذي حاول اغراء العرب بأن تركيا سوف تساعدهم ضد اسرائيل بناء على تصريحات ادلى بها عدنان مندريس .

ولكن الاجتماع لم يحقق الغرض المطلوب ... فارس الخوري وزير خارجية سوريا كان يمالىء العراق ولا يتخذ موقف المعارضة وسـامي الصلح كان متجاوبا مع سياسة كميل شمعـون رئيـس جمهورية لبنان المعروف بتبعيته للغرب والذي زاره عدنان مندريس في طريق عودته مـن العراق وتوفيق ابو الهدى كان يتحرك في حدود سياسة الاسوة الهاشمية التي تحكم البلدين . والخضوع لنفوذ جلوب باشا .

وبدأ الامر كما قاله مندوبا البنتاجون عقب مقابلتهما لجمال عبد الناصر من ان الولايات المتحدة قد كسبت الى جانبها كلا مـن العراق ولبنان والاردن .

وقال فاضل الجمالي وزير خارجية العراق صراحة انه طالما ان العراق لا يريد التعاون مع الشيوعية فان الغرب لـن يمدهم بالسـلاح ـ لزرقة عيونهم ـ وانما لوصولهم معه الى اتفاق، ودعا وزراء خارجية الدول المجتمعين الى التفاهم مع الغرب .

ولكن جمال عبد الناصر لم يتردد امام هذه المواقف غير المشجعة .. بل زاد حملة دعائية ضد الاحلاف وضد نوري السعيد وشمعون وفارس الخوري باعتبارهم عملاء للغرب .

واستقبل جمال عبد الناصر في القاهرة خلال شهر فبراير ١٩٥٥ ثلاثة من كبار السياسيين في العالم ، تتنافر افكارهم في موضـوع الاحلاف العسكرية ... انطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا والذي حاول عبثا خلال لقاء بارد مع جمال عبد الناصر ان يوقف حملات الدعاية ضد نوري السعيد

والاسرة الهاشمية ... وتم ايضا اللقاء الاول بين تيتو وجمال على اليخت غالب في قناة السويس اثناء عودة تيتو من الهند ، وكان هذا اول لقاء بين جمال عبد الناصر وزعيم شيوعي ، اصبح فيما بعد صديقا شخصيا له ... وزار القاهرة للمرة الثانية بعد الثورة نهرو الذي كان يستعد لحشد الدول الافروآسيوية لحضور مؤتمر باندونج والذي امضى معظم وقته مع القادة العسكريين لمصر في زياراته السابقة يحدثهم عن الديموقراطية والتخطيط والحياد الايجابي ، والذي سبق له ان خطب في نقابة الصحفيين المصريين يوم ٢٠ مايو ١٩٥٣ قائلا انه (لا يرى ضرورة لقيام احلاف عسكرية) والذي قال في زيارته هذه عقب لقائه الثاني مع عبد الناصر (ان انتصار مصر في معركة الاحلاف انتصار للهند ايضا) .

وكانت بداية احتكاك جمال عبد الناصر بهؤلاء الزعماء العالميين الذين تمرسوا على السياسة خلال نضال طويل وفي مواقع بعيدة بأساليب مختلفة فرصة فريدة له للتعرف على احوال العالم السياسية من القائمين بأدوار رئيسية فيها ومشجعا له على اتخاذ موقف اكثر صلابة في مواجهة دعاة الاحلاف العرب ... كما كانت هذه اللقاءات تمهيدا لاطلاق طاقات جمال عبد الناصر في ميدان السياسة الخارجية ، بعد ان كانت كل افكاره مركزة على الموقف الداخلي وحده حتى ذلك الوقت .

زاد جمال عبد الناصر بعد هذه الاجتماعات اصرارا على خوض المعركة ضد الاحلاف بكل ما يملكه من وسائل .

ولكن العراق لم يتراجع عن انزلاقه للارتباط بالاحلاف فوقع مع تركيا وثيقة حلف عراقي تركي مشترك كانت هي خميرة حلف بغداد الذي انضمت اليه بريطانيا بعد مؤتمر باندونج في شهر ابريل ١٩٥٥ ومعها ايران وباكستان بعد ان انهت معاهدتها المعقودة مع العراق عام ١٩٣٠ .

وهكذا ارتبطت اول دولة عربية باحلاف الغرب العسكرية .

واستمرت المعركة قائمة ... بل زادت شدة وقد حدث تغيير في سوريا وخرج فارس الخوري من الوزارة وعين بدلا منه خالد العظم وزيرا للخارجية في وزارة يرأسها صبري العسلي فسافر صلاح سالم الى دمشق في مارس ١٩٥٥ حيث وقع ميثاقا للتعاون العسكري والسياسي والاجتماعي مع سوريا وهتف الزعيم شوكت شقير رئيس الاركان العامة للجيش السوري بحياة الجيش العربي الموحد .

وانتقل صلاح سالم مع خالد العظم وزير خارجية سوريا ووزير

الدفاع بالنيابة الى الاردن ثم السعودية لعرض نتيجة الاتفاق المشترك بين مصر وسوريا والذي نص على الآتي :

اولا : عدم الانضمام الى الحلف التركي العراقي .

ثانيا : اقامة منظمة دفاع وتعاون اقتصادي عربي مشترك .

ثالثا : انشاء قيادة مشتركة دائمة لها مقر رئيسي وتشرف علـى على تدريب القوات العسكرية تضعها كل دولة تحت تصرف تلـك الدول .

رابعا : الاتصال بالحكومات العربية لعقد مؤتمر من الدول المدافعة.

وقد صدر بيان سعودي سوري مصري مشترك وقعه الامير فيصل رئيس مجلس الوزراء السعودي وخالد العظم وصلاح سالم يفيد بأن الملك سعود يوافق موافقة كاملة على ما ورد في البيان المصري السوري ويتطلع الى عقد مؤتمر .

وكانت السعودية في نزاع شديد مع بريطانيا حول احقيتها في واحة البوريمي التي كانت تحت السيطرة البريطانية .

ولم تترك الدول العربية العراق ينضم الى تركيا دون محـاولة لارجاعه فقد سافر خالد العظم الى العراق يوم ١٤ مارس ولكن فاضل الجمالي صرح بأن العراق لن يرجع عن تحالفه مع تركيا ، وقال الملك سعود (العراق اخوتنا وابناؤنا والعراق يستطيع الانضمـام للميثاق الجديـد لينبذ حلفه مع تركيا) ولكن موقف العراق لم يتغير ... بل ان حكومته منحت محمود ابو الفتح رئيس تحرير المصري الذي اغلقته الثورة يوم ١٠ مارس الجنسية العراقية واعطته جواز سفر عراقي .

وانضمت اليمن بعد ايام الى الميثاق الجديد بلا تحفظ واعلن الامام احمد انه مع الدول الثلاث مصر والسعودية وسوريا .

وحاولت تركيا ان تهدد سوريا وتضغط عليها واغلقت الحدود بين البلدين ، فترة زاد فيها التوتر ... وايد الاتحاد السوفييتي سوريـا معتبرا ان تصرفات تركيا موجهة ضده .

وخلال هذه الفترة كان جمال عبدالناصر يستعد للسفر الى باندونج لحضور مؤتمر الدول الاسيوية والافريقية الذي نبتت فكرة عقده فـي مؤتمر كولومبو عاصمة سيلان في مايو ١٩٥٤ والذي حضره ممثلو خمس دول هي الهند وباكستان وسيلان واندونيسيا وبورما .

تقرر عقد المؤتمر بدعوة من اندونيسيا في مدينة باندونج عاصمة جاوه

الغربية وهي مدينة مشهورة بجمال طبيعتها وتبعد عن العاصمة جاكارتا ١٢٠ ميلا .

ودعيت الى المؤتمر الدول المعترف دوليـا باستقلالها في القـارتين الكبيرتين مما اسبغ عليه صفة رسمية ... وتقرر دعوة الصين الشعبية وعدم توجيه الدعوة الى فورموزا ، واستبعدت كوريا الشمالية والجنوبية معا للخلاف المستحكم بينهما . كما استبعدت اسرائيل ايضا لعدم قبول الدول العربية حضور المؤتمر اذا دعيت اليه ، كما استبعدت دولة اتحاد جنوب افريقيا لعنصريتها وعدائها للشعب الافريقي الاصيل .

حاولت الدول الاستعمارية مقاومة عقد هذا المؤتمر وشنت الصحافة الغربية عليه موجات من النقد الشديد وحاولت منع الدول الخاضعة لها من الذهاب ، ولكن تيار المد التحرري في هذه الفترة كان جارفا ... وكانت الدول حديثة الاستقلال تسعى الى التعاون والترابط وهي تخرج من قيود الاحتلال الى عالم جديد .

وقد حاولت قوى كثيرة تعطيل سفر جمال عبد الناصر ومنعه مـن الظهور في هذا المؤتمر وكتب محمد حسنين هيكل قائلا : انه غير متحمس للذهاب الى باندونج .

ولكن جمال عبد الناصر كان قد اشتعل حماسا بمقابلات نهرو وتيتو وفتح عينيه على ميدان جديد كانت طبيعته تعشقه ، ولم يتردد لحظة في الذهاب على رأس وفد مشكل من صلاح سالم وزير الارشاد ومحمود فوزي وزير الخارجية وقائد الجناح علي صبري الذي عين مديرا لمكتب جمال عبد الناصر والشيخ احمد حسن الباقوري وزير الاوقاف .

الدول التي حضرت المؤتمر ٢٩ دولة تمثل اكثر من نصف سكـان العالم ومن الدول العربية تسعة هي مصر وسوريا ولبنان والسودان والعراق والاردن والسعودية وليبيا واليمن .

غادر جمال عبد الناصر مصر يوم ٨ ابريل وزار باكستان في طريقه الى الهند التي امضى بها عدة ايام رافقه فيها نهرو واتـاح لـه فرصة الخطابة في جمع حاشد يبلغ نصف مليون والقى خطابا ايضا امام برلمان الهند ... وكان جمال عبد الناصر هو وصلاح سالم يرتديان حلتهما العسكرية، فكانا الوحيدين بين قادة الدول من العسكريين .

لم تكن موجة الانقلابات العسكرية قد اجتاحت بعد الدول النـامية الحديثة الاستقلال ... حتى سوريا التي عرفت الانقلابات العسكرية عام ١٩٤٩ بانقلاب حسني الزعيم كان يرأس جمهوريتها في ذلك الوقت مدني

هو هاشم الاتاسي بعد أربع انقلابات متتالية واحد عشر تغييرا وزاريا .
وكانت هذه هي رحلة جمال عبد الناصر الاولى خارج مصر ...
ظهر فيها كنجم بارز يمثل دولة ذات حضارة عريقة ولها دور قيادي في الدول العربية التي كانت تشكل ثلث اعضاء المؤتمر تقريبا ... وقد احاطه نهرو وسوكارنو وشو ان لاي واونو رئيس وزراء بورما بكل تقدير .

يقول جان لاكوتير في كتابه (عبد الناصر) اثناء المؤتمر كان استقبال الجماهير لعبد الناصر – بفضل ترتيبات سوكارنو اشد حماسة من استقبالات القاهرة والاسكندرية ، كان ظهوره على منصة الخطابة أو في الاروقة او الشوارع يقابل بمظاهرات حارة جدا فهو وشو ان لاي كانا رجلي الساعة ، مع العلم أنه عند وصوله كان يستبد به القلق والخوف من ايثار العراقيين والاتراك عليه) .

كانت الرحلة الاولى لجمال عبد الناصر خارج مصر رحلة غير عادية ... وطريقة استقباله فيها كانت كفيلة بالتأثير العميق على شخصيته وافكاره ورؤيته الشاملة للعالم .

التناقضات التي كانت قائمة بينه وبين العراق لم تجد فرصة للظهور ، فقد نجح جمال عبد الناصر في الحصول على قرار من المؤتمر يقول انه (بالنظر الى التوتر القائم في الشرق الاوسط بسبب الموقف في فلسطين وخطر ذلك التوتر على السلم العالمي يؤيد المؤتمر حقوق شعب فلسطين العربي ويدعو الى تطبيق قرارات الامم المتحدة وتحقيق التسوية السلمية لمشكلة فلسطين) .

وكان ذلك انتصارا للحق العربي ، ودافعا لظهور الدول العربية بمظهر التضامن ، في وقت لم تتوقف فيه اسرائيل عن مهاجمة قطاع غزة منذ غارتها الكبيرة يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ حتى أيام انعقاد المؤتمر .

اعاد مؤتمر باندونج ثقة الدول المتحررة بنفسها ، ودعم سياسة الحياد بين المعسكرين في وقت كان يعتبر فيه دالاس كلمة (عدم الانحياز) كلمة قذرة كما قال محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) .

كانت ايام انعقاد المؤتمر من ١٨ الى ٢٤ ابريل ١٩٥٥ من اهم ايام التاريخ اذ حدث تحول عميق في سياسة كثير من الدول ومنها مصر .

وينعكس ذلك على ما يرويه مايلز كوبلند في كتابه (لعبة الامم) في باب (ناصر واتحاد المحايدين الايجابيين) اذ يقول ان الروس قد غيروا وجهة نظرهم تجاه ناصر عندما وجدوا احتمال ان يصبح عاملا رئيسيا

في الحرب ضد الامبريالية الغربية عدوهم اللدود في الدول الافريقية والاسيوية ... بينما ابدى الامريكيون عليه تحفظات عديدة .
وكان غريبا ان تصدر جريدة (الاخبار) الموالية للامريكيين خلال بعض ايام المؤتمر بمانشيتات مثيرة لعلامات الاستفهام .
يوم وصول جمال عبد الناصر الى باندونج يوم ١٨ ابريل صدرت الاخبار بمانشيت احمر رئيسي يقول (سيدة بلا راس في قطار الاسكندرية) .
وفي اليوم الذي كان جمال عبد الناصر يخطب فيه في برلمان الهند كان المانشيت الرئيسي الاحمر لنفس الجريدة (براءة ٦ متهمين في قضية قتيل شبرا) ... ومانشيتات فرعية بنفس القياس تقول (عبد الناصر خطب في البرلمان الهندي) وتقول ايضا (براءة زوج فاطمة اخت القتيل ورجوات زوجة ابنه) .
ومحمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة ومندوب الاخبار في ذلك الوقت كتب اثناء انعقاد المؤتمر تحقيقا في الاخبار يوم ٢٥ مارس ١٩٥٥ بعنوان (تعالي معي الى باندونج) يسخر فيه من اندونيسيا ويقول (ان باندونج التي عقد فيها هذا المؤتمر ليست بلدة اندونيسية ... هي قطعة من هولندا نسيها الاستعمار على ارض جزيرة جاوة عندما جمع حقائبه ورحل عن اندونيسيا) . ويحاول ان يصور اندونيسيا وكأنها تخدع الزائرين بقوله (في كل مكان ذهبت اليه لمحت اثار الطلاء على الارض) ويقول ايضا بعد حديثه عن احدى المدارس (مطلوب من كل زائر ان يفهم مدارس اندونيسيا هكذا) ثم يقول (بائعات الهوى يزيفن بطاقات على انهن طالبات في الجامعة) .
لا كلمة واحدة عن المؤتمر ...
بل ان محمد حسنين هيكل يكتب ايضا في تحقيق ثان يوم ٢٧ مارس ١٩٥٥ (وليس يعنيني ماذا قرر المؤتمر ولا كيف كان اتجاه المناقشات فيه تلك كلها مسائل ثانوية) .
هكذا اسفرت بعض الصحف المصرية عن موقفها من مشاركة جمال عبد الناصر في هذا المؤتمر الذي غير مسار التاريخ بما اتخذه من قرارات اعتبرت دستورا للعلاقات بين الدول ، وكانت تطبيقا لمبادىء التعايش السلمي ، الذي احتل مكانا رئيسيا من اعمال المؤتمر ، وراس جمال عبد الناصر لجنته .
نصت قرارات المؤتمر على رفض الاحلاف كما ورد في المادة السادسة

(الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لاي دولة من الدول الكبرى) .

وعاد جمال عبد الناصر بعد زيارة افغانستان في طريق العودة .

وعلى قدر ما لقي من استقبالات حافلة في كل دولة زارها على قدر ما كانت هناك محاولة لعدم استقباله في القاهرة استقبالا شعبيا يناسب نجاح المؤتمر .

كان جمال سالم خلال زيارة عبد الناصر قد عين رئيسا بالنيابة .. وعندما اجتمع عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وكمال رفعت واحمد لطفي واكد مديرا مكتب جمال عبد الناصر في ذلك الوقت للبحث في اعداد استقبال شعبي ، ولما عرض الامر على جمال سالم لم يوافق على ذلك ، وطلب ان يكون الاستقبال عاديا ، ولكنهم رفضوا رأيه ونفذوا اجراءات الاستقبال وحدهم مما جعله مفاجئا له عند وصوله الى المطار .

ولم تكن محاولة منع الاستقبال الشعبي من جانب جمال سالم وحده ... ولكن هنري بايرود السفير الامريكي اقنع السفراء الغربيين بعدم مقابلة جمال عبد الناصر في المطار بحجة اعتقاده ان استقبال عبد الناصر يجب ان يبقى مظاهرة اسيوية افريقية فقط كما روى كوبلند .

كان موظفو السفارة الامريكية يطلقون على مؤتمر باندونج (لعبة المحتالين من سكان المدن السود) .

وصل جمال عبد الناصر القاهرة يوم ٢ مايو حيث استقبل استقبالا شعبيا حافلا وصفه جان لاكوتير في كتابه (عبد الناصر) بقوله (هبت موجة حارة على الرجل وعلى الجماهير ففي ميدان التحرير حيث اقيمت اقواس النصر تحمل اسماء عبد الناصر ونهرو وشو ان لاي فشاهدنا سيارة (جيب) تخترق الجماهير ويقف فيها ناصر مبتسما ابتسامة عريضة تفرج لاول مرة عن انكماش وجهه الصلب بينما يجري وراءه الشعب الذي طالما واكب في الماضي النحاس باشا او محمد نجيب فماذا جرى الآن ؟) .

ويجيب لاكوتير بقوله (ذلك ان العهد قد ولج طريقا جديدة فقبل سفر البكباشي الى آسيا باسبوع (ولم يكن قد تأكد بعد انه سيذهب بنفسه) اعتقل رجال المباحث عشرات الشيوعيين وزجهم في غياهب السجون ، ولكن عندما قرر ناصر السفر الى اندونيسيا تلقى برقية من المعتقلين تقول (عاش المناضل في المعركة ضد الامبريالية) .

وكتب محمد حسنين هيكل متراجعا عن موقفه المعارض لسفر جمال عبد الناصر الى المؤتمر قائلا في صحيفة الاخبار (ان الاستقبال

الكبير الذي لقيه جمال عبد الناصر بعد عودته امس الى ارض الوطن بعد مؤتمر باندونج المثير ، وبعد الرحلة السريعة فوق بلاد الشرق الاقصى اثبت لي مرة اخرى خطأ كنت قد وقعت معه ... واعترف بأنني لم اكن متحمسا لسفر جمال عبد الناصر ولا لاشتراكه بنفسه في مؤتمر باندونج) .

وكنت قد طلبت مقابلة جمال عبد الناصر عندما علمت باتخاذه قرار السفر بعد فترة طويلة ، امتنعت فيها عن ممارسة أي نشاط سياسي نتيجة للمراقبة الشديدة ، وعزلي في قويسنا بالجيش المرابط لفترة طويلة بعد أزمة مارس ١٩٥٤ فكنت الوحيد من خريجي كلية اركان الحرب الذين يعملون في هذا الجيش الذي كان مكلفا بحراسة المنشآت من جنود الاحتياط .

ذهبت اليه في دار رئاسة مجلس الوزراء ، فاستقبلني مع البكباشي عبد الحكيم الأعسر زميل مجموعتي للضباط الاحرار بالاسكندرية فور علمه بوجودنا .

وعندما دخلنا كان متهلل الوجه وبادرني بقوله :

ـ اخيرا ... رجعت ورضيت تيجي لنا .

وقلت له صادقا :

ـ الشعب كله معاك في خطوتك ... وانا واحد من الناس .

وجلست معه لاول مرة بعد سنوات ... كان مرحا منشرح الصدر ... تحدث عن معركته ضد الاحلاف بثقة متناهية .

وعندما عاد من باندونج ارسل له خالد محي الدين خطابا قال له فيه ان شقة الخلاف بينهما تضيق ، وفي نوفمبر ١٩٥٥ ارسل عبد الناصر اليه رسولا قال له انه يستطيع العودة لمصر ، فعاد في ٤ ديسمبر ١٩٥٥ وقابل جمال عبد الناصر لاول مرة ايضا منذ سفره للخارج في ابريل ١٩٥٤ .

كان موقف جمال عبد الناصر بعد مؤتمر باندونج في مقاومة الاحلاف وتأكيد الاستقلال الوطني أقوى منه قبل المؤتمر واشد تأثيرا .

نهرو حضر الى مصر في زيارة انتهت الى بيان مشترك صدر في ١٢ يوليو ١٩٥٥ تضمن نصا على ان الاشتراك في مواثيق واحلاف عسكرية مع الدول الكبرى يخلق جوا يؤدي الى الحرب ولا يخدم قضية السلام ... وكان ذلك اول بيان رسمي يؤكد في مضمونه الكامل كافة مبادىء باندونج.

هجمات القاهرة على حلف وحكومة بغداد هزت اعصاب الحكام

هناك .. بل دفعت سلوين لويد الذي عين وزيرا لخارجية بريطانيا الى ابلاغ السفير المصري في اغسطس ١٩٥٥ بأن بريطانيا ستكف عن بذل المزيد من الجهود لضم الدول العربية الى حلف بغداد اذا اوقفت مصر دعايتها ضده ... وقد سر عبد الناصر لذلك كثيرا .

ولكن المعركة مع ذلك لم تتوقف ... فقد تلقت السياسة البريطانية ضربة شديدة عندما وصل الجنرال سير جيرالد تمبلو الى عمان في ديسمبر ١٩٥٥ ليبحث مع المسئولين هناك امر دخول الاردن حلف بغداد، وقابله الشعب العربي في الاردن بثورة شديدة بددت الامل في ضم الاردن الى حلف بغداد .

ولم ينته اثر زيارة تمبلر بمغادرته عمان ، فان الامة العربية التهبت جميعها بمعاداة الاحلاف ، وحضر سلويد لويد الى القاهرة ليؤكد لجمال عبد الناصر ما سبق ان قاله للسفير المصري في لندن من رغبته في وقف حملات الدعاية ضد حلف بغداد ، على ان تجمد بريطانيا مساعيها لتوسيع الحلف ، وحاول سلوين لويد التقليل من مهمة تمبلر قائلا انها تمت تحت ضغط الاتراك والعراقيين .

وتصادف اثناء تناول الاثنين طعام العشاء حسب رواية محمد حسنين هيكل ان تلقى السفير البريطاني برقية تفيد ان الملك حسين قد طرد الجنرال جلوب وطلب منه مغادرة الاردن في نفس الليلة ... ولكنه لم يبلغ سلوين لويد بها الا وهما في طريقهما الى السفارة ... واعتبر وزير الخارجية البريطاني ان عبد الناصر كان يعلم بذلك وانه سخر منه بعدم ابلاغه .

ولكن تبين ان جمال عبد الناصر لم يعرف بالخبر الا في صباح اليوم التالي ، واعتبر انه اجراء ذكي من البريطانيين لانه يفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين ... ولكن سلوين لويد اعتبره امرا يقود الى مصير غير معلوم .

حقيقة ان جمال عبد الناصر لم يكن يعلم بالخبر وقت لقائه مع سلوين لويد ... ولكنها حقيقة ايضا انه كان قد ارسل كمال رفعت واحمد لطفي واكد مديري مكتبه الى الاردن لاثارة الجماهير هناك ضد الاحلاف وضد زيارة تمبلر ودراسة اسلوب مهاجمة اسرائيل من الداخل ردا على هجماتها المتصلة على قطاع غزة بعد غارتها الشهيرة في ٢٨ فبراير .

كان الاثنان يعملان باسماء مستعارة ... ويقول الاثنان ان الشعب الاردني قد قام بثورته ضد تمبلر بدافع ذاتي دون تدخل من جانبهما

اطلاقا ...

وقد روى جمال عبد الناصر قصة ارساله لكمال رفعت ولطفي واكد الى الاردن في مجلس الوزراء ... وذلك تدليلا على الدور الذي تقوم به مصر عقب اقالة جلوب .

وكان كمال ولطفي قد اتصلا ببعض الضباط الاردنيين الذين تأثروا بأفكار العسكريين المصريين ، والذين لم تصل قدرتهم في ذلك الوقت الى حد الثورة على الملك ، فقاموا بدلا من ذلك بالضغط عليه لاقالة جلوب حتى يستعيد شعبيته التي فقدها خلال زيارة تمبلر .

كان اسم جمال عبد الناصر في ذلك الوقت يتصاعد عاليا ، ويكتسب ملايين الانصار في الدول العربية ... وقد اكتشف سلوين لويد ذلك بنفسه عندما جوبه بعد مغادرته مصر بمظاهرات عنيفة في البحرين تهتف (ناصر ... ناصر) .

اصبح واضحا مع نهاية عام ١٩٥٥ ان الاستعمار قد فقد قدرته على دعم احلافه العسكرية في الوطن العربي ، وبعد ان كان مفروضا ان تصبح العراق مقدمة للدول العربية الاخرى المنضمة اذا بها تصبح الدولة العربية الوحيدة المعزولة في شباك الاحلاف العسكرية .

كان البريطانيون ينظرون الى قاعدة قناة السويس باعتبارها القاعدة الوحيدة المناسبة استراتيجيا لتكون مقرا للقيادة البريطانية في الشرق الاوسط الممتدة من مالطة الى باكستان ومن تركيا الى كينيا .

كانت القاعدة نتاجا لجهد الحرب العالمية الثانية بكل ما توفر منها من مصانع وورش ومحلات ومدن للحياة والترفيه ، يصعب على القيادة البريطانية ان تستبدلها بأخرى ، او تقيم قاعدة بمواصفاتها اذا تهيأ مكان استراتيجي ملائم .

وكذا فانه عندما وصلت الامور عند بريطانيا الى مرحلة اليأس من ضم مصر الى الاحلاف العسكرية ، اثر ذلك على حلف بغداد فلم يتحول الى تنظيم عسكري مثل حلف الاطلنطي ولم تتكون له قيادة عسكرية مشتركة ... ولم تتوفر له قاعدة رئيسية مثل قاعدة قناة السويس .

ومنذ ان دخل جمال عبد الناصر نادي رؤساء الدول المؤثرة في السياسة الدولية بعد باندونج استخدم تعبيرات جديدة لم تكن في قاموسه قبل ذلك ... استخدم كلمة الاشتراكية كمرادف للعدالة الاجتماعية ... واعلن اول يونيو ١٩٥٦ تأكيدا لمبدأ الحياد الايجابي بقوله (ان سياسة مصر لا شرقية ولا غربية بل مصرية صميمة تعمل لمصروللوطن العربي الاكبر)

... وهي الالفاظ نفسها التي اعترض على يوسف صديق لانه نادى بها في خطاب بمدينة بني سويف عام ١٩٥٢ لان السفارة الامريكية احتجت عليها .

تغير كبير حدث في سياسة مصر بعد توقيع اتفاقية الجلاء وعقد مؤتمر باندونج .

تغير اكد وعمق معاني الحياد ... ومعاداة الاحلاف العسكرية ... مما جعلها مرادفة للاستقلال الوطني الذي عاش الشعب يناضل من اجله عشرات السنين .

ويستطيع جمال عبد الناصر ان يفخر بقيادته لهذه المعركة الوطنية التي ناضل فيها ضد الامبريالية العالمية معتمدا على جماهير الامة العربية ...

كانت اياما خالدة ، صقلت فيها شخصيته ولمع اسمه ، واحتشد حوله الملايين في نضاله مع الحياد ... وضد الاحلاف ... تأكيدا للاستقلال الوطني .

الفصل الثالث

السوفييت فـي المنطقة

(صفقة الاسلحة المصرية السوفييتية اخطر اجراء منذ قيام حرب فيتنام)

جون فوستر دالاس

وزير خارجية الولايات المتحدة

(ان هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا قيد ولا شرط لا تعتبر فتحا للنفوذ الروسي ولا للنفوذ الاجنبي ولكنها تعتبر قضاء علـى النفوذ الطويل الذي تحكـم فينـا وسيطـر علينا) .

جمال عبد الناصر

لم يدخل السوفييت الى المنطقة غزاة ... ولم يتقدم علمهم خلف التجارة كما فعلت انجلترا في الصين ... ولم ينتصر تنظيم ماركسي فـي احدى الدول ... ولكن دخولهم كان دعوة وطنية من العسكريين .

وكان الاعتقاد السائد عند العسكريين وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر ان الحياد ومقاومة الاحلاف العسكرية تماما مثل الاستقلال الوطني معركة لا يتم الانتصار فيها الا بتحقيق هدفين ... اولهما جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس ، والثاني تسليح الجيش المصري تسليحا حديثا يتناسب مع تطور العصر .

وبدأ النضال من اجل تأكيد الحياد الايجابي ورفض الاحلاف يأخذ

طابعا جديدا بعد توقيع اتفاقية الجلاء ... طابعا يختلف عن مجرد التصريحات المعلنة في فترة المفاوضات او الكفاح المسلح بالقناة ، اذا اتخذ شكلا اكثر ايجابية وحرصا على ارتباط مصر بالدول العربية وعزل العراق وابطال دورها في اغراء اية دولة عربية اخرى .

كان تحقيق الجلاء حافزا حقيقيا على تقديم نموذج للدول العربية ، ابرزت فيه مصر امكانية تحقيق دولة الارتباط بحلف من الاحلاف .

اما الهدف الثاني وهو تسليح الجيش ... فكان قضية العسكريين الكبرى ... وذلك مفهوم بحكم طبيعتهم وتكوينهم وارتباطهم المهني ، وحرصهم على تكوين جيش وطني كما ورد في اهدافهم الستة .

وبدأ الاهتمام بتسليح الجيش مبكرا ... مع الايام الاولى للثورة ... صرح محمد نجيب في شهر اغسطس ١٩٥٢ (لا بد ان نحصل على اسلحة حديثة من دولة ما واذا كنت لا استطيع ان احدد من من الدول سيمدنا بالاسلحة في حالة امتناع امريكا والديموقراطيات الغربية عن مساعدتنا فمن البديهي في هذه الحالة اننا سنلجأ الى غيرها) .

وصرح محمد نجيب ايضا للصحف في شهر نوفمبر بقوله (ان النداء الذي وجهناه الى انجلترا للحصول على اسلحة حدث طبقا لسياسة الحكومة المصرية التي تريد تعزيز الجيش المصري تدريجيا والتوسع في قواته وتعزيز مركز مصر الاستراتيجي ايضا .

وكل ضابط في الجيش المصري كان يدرك ان الاسلحة متخلفة ولا تتناسب مع التطور الحديث الذي حققته الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية من بعدها .

ومنذ عام ١٩٣٦ والحكومة المصرية تسعى لتسليح الجيش من انجلترا بناء على مواد المعاهدة ولكن السلاح دائما كان مثل السراب .

برنامج تطور الجيش لكي يكون قادرا على الدفاع عن قناة السويس لم ينفذ لتوتر الموقف العالمي في سنوات ما قبل الحرب حتى عام ١٩٣٩ بدعوى احتياج انجلترا لكل قطعة سلاح ... ثم عطلت الحرب نفسها ايه محادثات جدية لتسليح الجيش ، خاصة وان بريطانيا لم تعتمد على الجيش المصري كقوة محاربة في صفوف الحلفاء كما اعتمدت على جيوش الهند والسودان وليبيا وغانا وغيرها ، وذلك لادراكها ان في صفوفه بذور حركة وطنية ... وبالتالي فانها لم تقدم له تسليحا جديدا .

ولم تتوفر فرصة مناسبة للحديث عن تسليح الجيش حتى في مفاوضات

صدقي ـ ليفن ١٩٤٦ التي فشلت . واعقبتها حرب فلسطين ففرضت بريطانيا حظرا جديدا لم يرفع الا عام ١٩٥٠ .

وكان محمود فهمي النقراشي قد طلب خبراء عسكريين من امريكا واثناء وجوده هناك لعرض القضية على مجلس الامن ، ولكن وكيل وزارة الخارجية الامريكية افاد بأنه (ليس لديهم خطة في هذا الامر حتى الآن) .

توصلت وزارة الوفد الى موافقة الحكومة البريطانية على وضع مصر في قائمة المشترين للاسلحة الثقيلة مثل الطائرات النفاثة ودبابات سنتورين ... واسرعت فوقعت عقدا مع الحكومة البريطانية لشراء ٨٠ دبابة سنتورين فدفعت ٨٠٪ من ثمنها عند توقيع العقد ... ولكن تعثر المفاوضات ثم توقفها دفع الحكومة البريطانية الى ابلاغ الحكومة المصرية بأن طلبات حلف الاطلنطي ودول الكومنولث سوف تؤخر اسبقيتها في الحصول على الدبابات المتعاقد عليها .

ثم استجابت حكومة العمال بعد ذلك للضغوط الواقعة عليها ، فأجلت توريد السلاح الى اجل غير مسمى .

هذا الحظر على توريد السلاح لم يمنع حكومة الوفد ... البحث عن سبيل للحصول عليه وخلال فترة الكفاح المسلح ١٩٥١ كان فؤاد سراج الدين وزير الداخلية يشتري الاسلحة من الصعيد حسب روايته ـ ويخزنها في بدروم منزله ثم يرسلها الى الفدائيين الذين كان يشرف عليهم .

ويقول فؤاد سراج الدين انه اتصل بسفراء يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتي في محاولة للحصول على اسلحة بدعوى انها للبوليس ، ولكنهم ـ على حد قوله ـ كانوا حريصين على عدم حدوث استفزاز للغرب ، خاصة وان تبادل التمثيل الديبلوماسي مع الاتحاد السوفييتي لم يتم الا في وزارة الوفد الاولى عام ١٩٤٢ .

ولم يكن الوفد وحده هو الذي يحاول ذلك ... صحيفته الاشتراكية دعت صراحة بعد الغاء المعاهدة الى عقد مفاوضات سريعة مع دول اوروبا الشرقية لامداد مصر وجيشها بالسلاح بعد ان اخفقت في شرائه من السويد والدول الخاضعة للنفوذ الامريكي .

وكانت قد ظهرت في مصر نبرة تدعو الى التعاون مع الاتحاد السوفييتي بعد موقفه الواضح الصريح في تأييد قضيتنا بمجلس الامن ..

وقام عمال الميناء في بورسعيد يوم ٨ يناير ١٩٥٢ بربط الاسطول السوفييتي وتموينه وتحمية بحارته رغم اضرابهم عن العمل .

وكان هناك اتجاه اجمعت عليه كل القوى الوطنية لعقد معاهدة صداقة

مع الاتحاد السوفييتي خلال فترة الكفاح المسلح في القناة في بداية عـــام ١٩٥٢ ؛ ولكن احترقت هذه الدعوة مع حريق القاهرة ، ولم تعد تتردد هذه حتى قامت حركة الجيش .

ولم يبدأ العسكريون في مصر من حيث وصل الشعب في قمة كفاحه عام ١٩٥١ ، ولكنهم طالبوا البريطانيين ومن بعدهم الامريكيين بتسليـح الجيش ، تماما كما حاول الوفد من قبل .

ولم يكن متصورا ان يكون هناك رفض كامل ومماطلة شديدة لهـذا الطلب المشروع من عسكريين وصلوا الى السلطة وتفرض عليهم طبيعتهم وظروفهم ان يسلحوا جيشهم بما ينفي عنه صفة الضعف ، ويعيد اليه ثقته بعد هزيمة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

ولكن الثمن كان باهظا ... ضرورة الارتباط بحلف دفاعي ... وكان هذا امرا مرفوضا تماما .

ابلغت حكومة المحافظين محمد نجيب بهذا الشرط التعسفي بصفته قائدا عاما للقوات المسلحة ، وكان الحظر على توريد السلاح مـــا زال مستمرا فقد اشتعل الكفاح المسلح في القناة .

ولجأ مجلس القيادة الى امريكا يطلب منها السلاح ... وكانت المفاجأة ان مصر وامريكا مرتبطتان بعقد تسلح سري مع حكومة علي ماهر التـي تولت الحكم بعد حريق القاهرة (فبراير عام ١٩٥٢) بمبلغ خمسة ملايين دولار .

وعندما اطلع العسكريون على قائمة هذه الاسلحة وجدوا انها مـن النوع الذي يصلح للبوليس اكثر مما يصلح للجيش ... فلم تكن فيها دبابات او طائرات او مدفعية .

وقد ناقش السفير الامريكي كافري رغبات اعضاء مجلس القيادة في اول عشاء اجتمعوا معه فيه بمنزل البكباشي عبد المنعم امين المطل على النيل قريبا من كوبري الجيزة .

وقد وصل الى القاهرة بعد ذلك في ٥ نوفمبر ١٩٥٢ مستر وليام فوستر وكيل وزارة الدفاع الامريكية ، الذي اجتمع مع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد المنعم امين صاحب الصلات الطيبة بالسفارتين الامريكية والبريطانية .

وانتهت زيارة وكيل وزارة الدفاع الامريكية الى الاتفاق على قائمة اسلحة مناسبة للجيش قيمتها مائة مليون دولار واقترح فوستر ايفاد بعثة الى امريكا لتسهيل شحنها ومقابلة المسئولين هناك .

وسافر فعلا قائد الجناح علي صبري والقائمقام حسن الفكلاوي الى امريكا حيث امضيا هناك عدة اشهر يتنقلان بين مكاتب البنتاجون ومكتب السفير والملحق العسكري المصري دون الوصول الى نتيجة عملية ، رغم ما احاط بهذه البعثة من تفاؤل شامل ؛ وما غذته عناصر الدعاية من ان الامور تتحرك بصورة طبيعية .

وعاد الى مصر وزير الخارجية الامريكية جون فوستر دالاس ليقدم تبريرا الى محمد نجيب وجمال عبد الناصر بأن الرئيس الامريكي الجديد دوايت ايزنهاور قد استجاب لرجاء تشرشل الذي ألح عليه في! فرض الحظر على تسليح مصر كما تفعل بريطانيا حتى لا توجه نيران الاسلحة الى الجنود البريطانيين في قناة السويس ، وذلك بحكم زمالتهما القديمة ، وقيادة ايزنهاور العسكرية لجنود الحلفاء في الحرب العالمية الثانية .

وتوافقت اللهجة الامريكية تماما مع اللهجة البريطانية ، واقترن توريد السلاح بشرط الانضمام الى الاحلاف العسكرية ... وتبدد التفاؤل الذي غمر العسكريين باحتمال وصول اسلحة جديدة للقوات المسلحة .

ومع ذلك لم يغرق العسكريون في بحر اليأس ، واحتفظوا بصلات طيبة مع المسئولين الامريكيين وسافرت الدفعة الثالثة عشرة من خريجي كلية اركان الحرب ٦٠ ضابطا التي دخلت بعد ٢٣ يوليو ، والتي كنت ضابطا من افرادها الى الولايات المتحدة بدعوة من وزارة الحربية الامريكية في شهر سبتمبر ١٩٥٣ .

وكانت المفاجأة اننا بعد ان قطعنا مئات الاميال وجدنا برنامجا هزيلا يتضمن مشاهدة عرض موسيقي لفرقة من فرق الجيش في ملعب كرة ، وثار ضباط الدفعة واحتجوا لدى الملحق العسكري القائمقام عبد الحميد غالب والسفير احمد حسين على مغزى هذا الاستقبال المهين ، وتغير البرنامج فعلا في ايامه الاخيرة ليحوي زيارة بعض الوحدات ومشاهدة انواع جديدة من الاسلحة ... ولكن الزيارة لم تحقق نتيجة ايضا .

ولم تمتنع الحكومة المصرية عن ايفاد بعض ضباطها الى الولايات المتحدة للحصول على فرق عسكرية يستخدمون فيها اسلحة وتكنيكات لا تطبق في مصر ... كما ارسلت ايضا عدة بعثات تدريبية في اعمال البوليس والمخابرات مثل الصاغ حسين عرفة رئيس المباحث الجنائية العسكري بالبوليس الحربي الذي حصل على فرقة في معسكر كامب كوردون بولاية جورجيا ... وهذا مثل وحيد لعشرات من الفرق .

ظاهرة ارسال الضباط الى امريكا توضح انه كان هناك امل في تحسن

العلاقات ، ورفع الحظر عن توريد السلاح ... ولكن الامر مضى على عكس ذلك تماما .

ولم يقف مجلس القيادة موقفا جامدا في مواجهة الرفض والماطلة الامريكية ... خاصة وانه كانت هناك بعض المظاهر المحدودة للاهتمام بدول الكتلة الشرقية .

حرص محمد نجيب وجمال عبد الناصر على زيارة المفوضية السوفيتية بالقاهرة في عيد الثورة الاشتراكية الخامس والثلاثين يوم ٧ نوفمبر ١٩٥٢ رغم ان المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي الذي عقد في اكتوبر ١٩٥٢ لم يشر الى حركة الجيش المصري بأي شيء انتظارا لاستكمال الدراسة عن اتجاهاتها واهدافها .

وتقرر سفر اول بعثة للدول الاشتراكية برئاسة حسن رجب وكيل وزارة الحربية لشئون المصانع وعضوية احمد فؤاد واليوزباشي صلاح هدايت وزير البحث العلمي الذي تخرج في كلية العلوم بعد ان اصبح ضابطا وحسن ناجي رئيس مؤسسة الغزل والنسج فيما بعد وبعض تجار القطاع الخاص .

وكانت هذه البعثة واحدة من عدة بعثات تقرر ارسالها الى الدول العربية ودول اوروبا الغربية .

ونشرت جريدة المصري اخبار هذه البعثات يوم ١١ اغسطس ١٩٥٣ بمانشيت احمر رئيسي يقول (الكتلة الشرقية يمكن ان تسد حاجات مصر من الاسلحة) .

وكان هذا المانشيت الرئيسي الى جانب انه من نوع الضغط على الامريكيين والبريطانيين في محاولة الحصول على الاسلحة ، كان بداية تفكير جريء في هذا الاتجاه ... فقد طلب حسن رجب شرفة رأي الحكومة التشيكوسلوفاكية في توريد الاسلحة . فكان الرد بعد دراسة هو (نحن بلد نحب السلام ولا نعطي احدا السلاح) .

وعندما ارسل ايزنهاور خطابا يعلن فيه استعداد امريكا لتسليح مصر وذلك اثناء زيارة انطوني هيد وزير الحربية البريطاني للقاهرة اذا تم الاتفاق مع بريطانيا التي كانت تصر على الارتباط بحلف دفاعي ـ كما كتب انطوني ناتنج ـ تأكدت الحقيقة بأن الموقف قد اصبح يدور في حلقة مفرغة .

وخلال لقاء لمحمد نجيب مع السفير السوفيتي بنيامين سولود في ديسمبر ١٩٥٣ تطرق الحوار الى ممالأة مصر للغرب ، ثم تساءل محمد نجيب عن احتمالات تسليح الاتحاد السوفيتي لمصر ...

وكان هذا هو اول حديث رسمي يدور بين مسئول مصري ومسئول سوفييتي حول هذا الموضوع .

ولكن لم يكن الحديث الوحيد ... كان ضيق حلقة الحصار حول توريد السلاح يدفع المسئولين الى عمل تجسسات مختلفة .

السفير المصري في موسكو عزيز المصري استفسر من السوفييت ايضا عن احتمالات تسليحهم لمصر بمبادرته الخاصة خلال عام ١٩٥٤ ولكنه لم يقدم لهم طلبات او يتابع الموضوع بطريقة رسمية كما روى لي الدكتور مراد غالب مستشار السفارة في ذلك الوقت . واحمد لطفي واكد مدير مكتب جمال عبد الناصر اتصل ايضا بمستشار السفارة السوفييتية بالقاهرة في وقت متأخر بعد توقيع اتفاقية الجلاء لمناقشة موقفهم من سفر عبد الناصر الى باندونج وتطرق الحديث الى موضوع الاسلحة دون ربطه بوثائق رسمية او خطابات متبادلة .

كان جمال عبدالناصر حريصا على طرق باب هذا الاحتمال ، فكلف حسين عرفة مدير المباحث الجنائية بالبوليس الحربي والذي كان مكلفا بالاتصال بالشيوعيين والتسرب الى صفوفهم وتسهيل بعض الامور لهم اكتسابا لثقتهم ... وفي هذه الفترة تعرف ببعض التقدميين مثل محمد كامل البنداري وعبد الرحمن الشرقاوي والدكتور محمد انيس ، وحضر معهم مؤتمر الدفاع عن شعوب الشرق الاوسط ومؤتمر السلام في برلين عام ١٩٥٥ ... وطلب حسين عرفة من البنداري ان يتصل بالسفير السوفييتي باعتباره صديقا له منذ كان سفيرا في موسكو ليسأله عن امكانية تقديم السلاح لمصر ، وجاء الرد السوفييتي بأن تقديم السلاح لمصر والجنود البريطانيون يحتلون القناة سيكون معناه في النهاية تسليم السلاح للبريطانيين .

وقام حسين فهمي رئيس تحرير الجمهورية والصحفي المقرب من جمال عبد الناصر باتصال آخر بالسفير السوفييتي سولود في وقت متأخر بعد ذلك ، وجاءت الموافقة على تقديم الاسلحة من ناحية المبدأ ولما ابلغ حسين فهمي الموافقة لعبد الناصر كان الصمت هو الجواب .

واعطى صلاح سالم تصريحا للصحف في فبراير ١٩٥٤ قال فيه (ان مصر قد عرضت كل مشروعاتها على الدول المختلفة ومنها روسيا وانه توجد اتصالات في هذا الخصوص وهناك احتمال اكيد ان تقدم روسيا على اقامة بعض المشروعات لو حصل اتفاق نهائي على التفصيلات .. واحب ان أضيف ان مصلحة مصر سيكون لها دائما الكلمة الصلب) (١) .

---

(١) جريدة المصري ١٤ فبراير ١٩٥٤ .

وكان مجلس الانتاج القومي الذي شكل برئاسة حسين فهمي قد تلقى بناء على دراسته واتصالات البعثة التي زارت الدول الاشتراكية عروضا لاقامة مصانع في مصر .

وعندما عرض احمد فؤاد وصلاح هداية اتفاقيات البعثة على جمال عبد الناصر في حضور جمال سالم ثار الاخير ثورة شديدة ، معترضا على هذا الاتجاه ... وقال جمال عبد الناصر في هدوء لاحمد فؤاد تبقى تحكي الكلام ده للي ييجوا يحكموا بعدنا) ... وذلك لان الوقت كان في قمة التوتر لازمة اعضاء المجلس مع محمد نجيب في مارس ١٩٥٤ .

ولم تسفر هذه التصريحات او الاتصالات عن شيء الا زيارة سولود الى محمد نجيب بمنزله في يناير ١٩٥٤ وابلاغه ان الاتحاد السوفييتي قد وافق من ناحية المبدأ على بيع السلاح لمصر ... ويقول محمد نجيب انه ارسل كتابا بذلك الى عبد الحكيم عامر بصفته قائدا عاما للقوات المسلحة يطلب منه كشفا بالاسلحة المطلوبة ، وانتهت صلته بهذا الموضوع .. فقد كانت هذه الفترة من اشق الفترات في علاقة محمد نجيب ببقية اعضاء قيادة الثورة ، وهي التي انتهت الى أزمة مارس ١٩٥٤ ثم اعطاء نجيب صفة شكلية كرئيس للجمهورية حتى تم عزله في ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ .

اذا صحت هذه الرواية فهي لا تعني اكثر من اندفاع نجيب في مطالبته للسلاح من السوفييت في وقت كان جمال عبد الناصر يعتقد فيه أن الوقت لم يكن ملائما بعد لاتخاذ هذه الخطوة الجريئة التي تعني احتمال حدوث صدام مع انجلترا وامريكا في وقت لم تكن فيه اتفاقية الجلاء قد وقعت بعد ... بين انطوني هيد وزير الحربية وجمال عبد الناصر .

وعقب توقيع اتفاقية الجلاء بالحروف الاولى في يوليو ١٩٥٤ رفعت بريطانيا الحظر عن توريد السلاح الى مصر في شهر اغسطس ١٩٥٤ ، وكان هذا يشير بأن مصر سوف تحصل على احتياجاتها من الاسلحة دون صدام مع الدول الاستعمارية .

ارسلت بعثة عسكرية الى امريكا في شهر سبتمبر ١٩٥٤ برئاسة اللواء محمد ابراهيم رئيس اركان حرب الجيش ، وعضوية الاميرالاي مصطفى يوسف مدير التدريب والقائمقام عبد المحسن كامل مرتجى مدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة ، والبكباشي صبري كمال اركان حرب المدرعات ... ولكنها لم تحقق مثل بعثة علي صبري السابقة اية نتائج .

كان موقف الرفض والماطلة ما زال مستمرا ، خاصة وان موقف

جمال عبد الناصر من معركة الحياد ومعاداة الاحلاف قد اصبح اكثر وضوحا وتأثيرا في المنطقة .

وحدث في ذلك الوقت حادث كانت له ابعد الآثار في سياسة مصر خلال هذه المرحلة وما بعدها ... وهو اعتداء اسرائيل على قطاع غزة والاغارة على معسكر للجيش المصري وقتل ٣٨ جنديا مصريا يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ .
تم هذا الحادث في وقت لم تكن فيه العلاقات المصرية الاسرائيلية في حالة من التوتر الشديد ، بل كانت هناك فرص للتفاهم لم تقبلها المؤسسة العسكرية في اسرائيل كما سيأتي توضيحه في فصول قادمة .

ووجد جمال عبد الناصر ان موقف الجيش المصري يحتاج الى علاج سريع ، فالاسلحة قديمة متخلفة ورغم رفع انجلترا للحظر المفروض على مصر فانها لم تورد سوى ٣٢ دبابة سنتورين من الدبابات الثمانين التي تم التعاقد عليها ودفع ثمنها في عهد حكومة الوفد ... وتبين ان رفض امريكا لتوريد السلاح لم يكن من اجل اجبار مصر على دخول الاحلاف فقط ، وانما كان من اجل اسرائيل ايضا ... فهي رغم انها لم تكن تصدر لها السلاح حتى ذلك الوقت ، فانها لم تكن توافق على ترجيح كفة الدول العربية على اسرائيل .
وحاولت مصر كسر هذه القيود ... فأرسلت بعثات الى الدول الاوروبية لشراء السلاح .. واتضح ان فرنسا تشترط عدم مساعدة ثوار الجزائر وانها تورد السلاح لاسرائيل ، وانها تعاقدت معها على توريد طائرات المستير النفاثة على ان يتم التسليم في منتصف عام ١٩٥٦ ... وتعاقدت اسرائيل ايضا مع كندا للحصول على الطائرات الامريكية سابر .
اما البعثات العسكرية المصرية التي ذهبت الى سويسرا والسويد وايطاليا واسبانيا فانها لم تستطع الحصول على اسلحة ثقيلة متطورة لان انتاج هذه البلاد محدود .
وعرضت على جمال عبد الناصر في هذا الوقت وثيقة سرية للغاية حصل عليها احد ضباط المخابرات المصرية كانت قد طبعت من ١٢ نسخة فقط وهي تنص على النقاط الآتية بعد مقدمة عن تطور العلاقة بين انجلترا واسرائيل .
١ — اتفاقية الجلاء لن تحول دون عودة القوات البريطانية لاحتلال قاعدة القناة مرة ثانية .

٢ — انبريطانيا لنتمد مصر بالسلاح الا اذا ارتبطتمعهابحلفعسكري .

٢ – وجود تعاون وثيق وتأييد كامل لسياسة اسرائيل وهجومها على قطاع غزة وتطلب الوثيقة من القيادة البريطانية في الشرق الاوسط تجنيد بعض المصريين للتعاون معها في حالة العودة .

وسافر جمال عبد الناصر وصلاح سالم الى باندونج وهمـا يحمـلان هموم الغارة الاسرائيلية على غزة . والحصار المضروب على مصر لمنع حصولها على السلاح ... الى جانب الاصرار على مقاومة التسرب الغربي داخـل الوطن العربي عن طريق جذب بعض دوله الى الاحلاف العسكرية .

وكان مؤتمر باندونج نقطة تحول رئيسية في مسار السياسة المصرية ... صقلت شخصية عبد الناصر ، واكتسب في المؤتمر شعبيته احاطة اسمه بهالة من التقدير كقائد وطني ، وزادت معتقداته في أهمية الحياد ورفض الاحلاف صلابة .

ليس هذا فقط بل اتاحت له الظروف ايضـا فرصـة فريدة لنقل موضوع الحصول على السلاح الى مرحلة اكثر ايجابية انتهت الـى كسر الاحتكار الذي فرضته الامبريالية العالمية .

قال لي صلاح سالم ان الفيللا التي أقام بها كانت قريبة من سكـن شو ان لاي رئيس وزراء الصين الذي شاركه عبد الناصر في دائـرة الضوء والاهتمام داخل المؤتمر وخارجه على نطاق عالمي ... وفي احدى الزيارات المتبادلة ، صارحه سالم بحاجة مصر الى السلاح لمقاومة تهديدات اسرائيل وبناء جيش وطني قادر على تثبيت مبادىء الحياد الايجابي وسأله عما اذا كان يمكن للصين أن تقدم له حاجته من السلاح .

واعتذر شو ان لاي قائلا ان الصين تستورد سلاحها مـن الاتحـاد السوفيتي وانه اذا وافق صـلاح فسيبذل جهـده للاتصال بالسوفييت ومعرفة رأيهم في موضوع توريد السلاح لمصر ... ووافق صلاح فورا .

وقابل جمال عبد الناصر السير رالف ستيفنسون السفير البريطاني واطلعه على الوثيقة بعد ان طمس نمرتها ، ونفى له السفير علمه بها ... ولكن الجنرال هل قائد القوات طلب من اللواء عامر نقل ضابط مخابرات منطقة القنال الى القاهرة حتى لا يؤثر ذلك على تنفيذ الاتفاقية ولكن طلبه رفض في لحظتها باعتباره تدخلا في شئون مصر الداخلية .

بدأ الشك يساور عبد الناصر في تواطؤ انجلترا واسرائيل معا على ضياع اثر اتفاقية الجلاء وثبوت التعاون بينهما وخاصة بعد تصريح تشرشل الذي قال فيه انه يود ان يرى اسرائيل اقوى دولة في المنطقة .

وكانت غارة غزة قد اثبتت ان هناك نقصا في ذخيرة الجيش المصري .

واصدرت ادارة المخابرات توجيهاتها الى ضباطها في منطقة القناة بمحاولة الاستيلاء على ذخائر كانت تنقص مدفعيتنا المضادة الطائرات والمضادة للدبابات من مخازن القاعدة وذلك بعد محاولة شرائها من الجيش البريطاني ورفض قادته الموافقة على ذلك .

وقد امكن فعلا سرقة عدد من القطارات والدبابات المحملة بالذخيرة من ابو سلطان سلمت لمدير مكتب السفير للتسليح .

والشيء المقطوع به ان صلاح سالم لا بد وانه ابلغ جمال عبد الناصر بحديثه مع شو ان لاي ... وانتهى المؤتمر والطاب معلق بلا جواب .

وبعد العودة لمصر وفي شهر مايو ١٩٥٥ اتصل دانيال سولود السفير السوفييتي بصلاح سالم وابلغه موافقة الاتحاد السوفييتي على توريد ما تشاء مصر من اسلحة ، وابدى له استعداد السوفييت ايضا للمساهمة في المشروعات الصناعية التي يحتاجها تطوير المجتمع .

ابلغ صلاح سالم جمال عبد الناصر بحديث السفير السوفييتي ، ويقول ان صلته بعد ذلك انتهت بهذا الموضوع ، فقد حمل مسئولية الاتصال بعد ذلك علي صبري مدير مكتب جمال عبد الناصر .

ومع وجود هذا العرض المفتوح من جانب السوفييت والذي تم الاتفاق عليه مع جمال عبد الناصر فان التعاقد لم يوقع عليه او ينفذ ... فقد كان جمال عبد الناصر شديد الحذر في اتخاذ هذه الخطوة التي تعني صداما مباشرا مع الامريكيين والبريطانيين الذين ما زالت بعض قواتهم في منطقة القناة لم ترحل بعد .

واستخدم جمال عبد الناصر اتفاقه مع السوفييت كقوة ضغط على الغرب في محاولة اخيرة لاجبارهم على توريد السلاح ... اتصل جمال عبد الناصر بسفيري امريكا وبريطانيا وابلغهما انباء الصفقة وحذرهما من اضطراره لقبولها ، اذا لم تصله اسلحة من الدولتين .

واقبل شهر يونيو دون ان يتلقى جمال عبد الناصر ردا عليه من السفيرين ... في الوقت الذي كان يستعجل فيه السفير السوفييتي موقف مصر لابلاغ موسكو ...

ولم يجد جمال عبد الناصر بدا من عرض الامر على مجلس قيادة الثورة خشية تراجع السوفييت عن موقفهم بعد مضي عدة اسابيع دون تعاقد ... واقترح السفير السوفييتي سولود في شهر يونيو دعوة شبيلوف رئيس تحرير البرافدا والنجم الصاعد في سماء السياسة السوفيتية لحضور احتفالات عيدة الثورة الثالث في القاهرة .

وجهت الدعوة الى شبيلوف الذي حضر الى القاهرة ، حاملا معه تفويضا انتهى الى مشروع اتفاق يقدم بـه الاتحاد السوفييتي اسلحة لمصر قيمتها ٨٠ مليون جنيه وتشمل طائرات نفاثة من طراز ميج المقاتلة ، وقاذفة القنابل اليوشن ، ودبابات ستالين الشهيرة على ان يتم الدفع بالقطن المصري خلال ١٢ عاما واتفاقيات الدفع بالقطن كانت ترفضها امريكا لتوفر القطن عندها .

وتم الاتفاق على ان يكون التعاقد بين الحكومة المصرية والحكومة التشيكوسلوفاكية ، وقد رأى جمال عبد الناصر ان ذلك قد يقلل من حجم المشكلة امام الغرب ، خاصة وان تشيكوسلوفاكيا كان قد سبق لها امداد اسرائيل بالاسلحة اثناء حرب فلسطين ثم توقفت بعد عدة شهور ، عودة لسياسة ستالين التي كانت تقضي بعدم تقديم أي مساعدات عسكرية او اقتصادية لاي دولة غير شيوعية .

كان مشروع الاتفاق تغييرا حقيقيا في سياسة الاتحاد السوفيتي بالمنطقة ، لما لمسه في الثورة المصرية من معاداة للاستعمار والاحلاف العسكرية وارتباط بالقوى التحررية في باندونج .

وكان الاتحاد السوفييتي قد قطع علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل في فبراير ١٩٥٣ عقب القاء قنبلة على مفوضيته في تل ابيب .

وكانت مصر اول دولة غير شيوعية تتلقى اسلحة من الاتحاد السوفييتي ، على اساس السياسة الجديدة التي تقضي بمساعدة قوى التحرر الوطني دون شروط او التزامات ، ودون تحديد لنوع السلاح او كميته .

وهكذا اسقط مشروع الاتفاق المصري السوفييتي كل القيود التي كان يفرضها الغرب على توريد السلاح .

ومع ذلك ظل الاتفاق سرا غير معلن وغير موقع ... فقد كان جمال عبد الناصر يريد له ان يأخذ مداه كقوة ضغط على الغرب يعقبه من تصادم محتمل معه .

(ظل جمال عبد الناصر مترددا بأمل تغير يحدث في الساعة الحادية عشرة في موقف الغرب) كما يقول ناتينج .

كان جمال عبد الناصر يعتمد على راي السفير الامريكي هنري بايرود الذي ساند طلبه في الحصول على معدات عسكرية معتقدا انه ليس ثمة خطر من استخدام ناصر لهذه الاسلحة ضد المصالح الامريكية ويتطلع الى افراج

الحكومة البريطانية عن توريد ٣٢ دبابة سنتورين ومن مدرعتين خلال الشهور التالية رفع الحظر في اغسطس ١٩٥٣ .

واستدعى جمال عبد الناصر الملحق الجوي في سفارة مصر بواشنطن قائد الجناح وابلغه ان هناك مشروع اتفاق نهائي لم يوقع بعد بصفقة اسلحة مع السوفييت وان عليه ابلاغ المسئولين في واشنطن باضطرار مصر للحصول عليها اذا ظلت امريكا في موقف الرفض .

ولكن كل هذه المحاولات انتهت الى لا شيء .

ولخص الاميرال برا وفورد هذه الحقيقة امام احدى لجان الكونجرس بقوله (ان المصريين يريدون شراء انواع من السلاح لا نريد لهم ان يحصلوا عليهـا) .

ولم يكن هناك بد من توقيع الصفقة والاعلان عنها .

اول من سرب اخبارها كان صلاح سالم في لقائه مع الشيوعيين الاربعة الذين استدعاهم الـى مكتبـه يـوم اول سبتمبر ١٩٥٥ للاتصال بالحزب الشيوعي السوداني وهم يوسف ادريس وفتحي خليل وابراهيم عبد الحليم وزهـدي .

واخبار الصفقة وموضوعها لم يعرض على مجلس الوزراء مطلقا حتى اعلنها جمال عبد الناصر كما روى لي فتحي رضوان .

وصرح جمال سالم في كلكتا اثناء زيارة قام بها الى الشرق الاقصى والتي استقال خلالها شقيقه صلاح سالم من مناصبه بقوله (ان مصـر ستشتري اسلحة من روسيا اذا تخلت الدول الاوروبية عن تعاقداتها) . كما نشرت الاهرام يوم ٦ سبتمبر ١٩٥٥ .

وسافر اول وفد صحفي الى الاتحاد السوفيتي برئاسة حسين فهمي رئيس تحرير الجمهورية وعضوية علي أمين واحمد بهاء الدين وانجي رشدي خلال شهر سبتمبر وهو اول وفد صحفي يزور موسكو في تاريخ العلاقات بين البلدين .

والذي يتابع اخبار الصحف في هذه الفترة التي امتدت مـن يـوم الغارة على غزة في ٢٨ فبراير حتى شهر سبتمبر يجد ان مانشيتات الصحف لم تتوقف خلال هذه المدة عن الاعلان عن اعتداءات اسرائيلية واشتباكات مع الفدائيين وقوات الجيش المصري ، الامر الذي كان يستهدف الضغط على مصر ، والذي كان يدفعها في نفس الوقت دفعا الى محاولة الحصول على السلاح دفاعا عن ارضها واستقلالها وحيادها ايضا .

ونشرت جريدة الاهرام فجأة يوم ٢٦ سبتمبر مانشيت رئيسي يعلن

(امريكا تعرض بيع اساحة على مصر) وتقول (العرض الروسي بتقديم الاسلحة لمصر يزعج وزارات الخارجية والدفاع في امريكا — منع الروس من دخول الشرق الاوسط أهم الامريكان ارضاء اسرائيل) .

ونشرت ايضا (ان قوات اسرائيل المسلحة مزودة بأسلحة افضل من كل قوات البلاد العربية مجتمعة وذلك لانها كانت قد ابتاعت في الماضي مقادير كبيرة من الاسلحة من بريطانيا) .

وظهرت الاهرام ايضا في اليوم التالي ٢٧ سبتمبر بمانشيت رئيسي يقول (امريكا تباحث مصر لتزويدها بالسلاح) وتقول فيه (العرض الامريكي جاء بعد رفض قبول اسلحة مجانا مقابل انضمامها لميثاق الامة المتبادل) .

وفي اليوم التالي ٢٨ سبتمبر كان العنوان الرئيسي للاهرام (جمال عبد الناصر يشرح قصة تسليح الجيش المصري) .

وكان جمال عبد الناصر قد اختار ان يعلن النبأ الحاسم من داخل الجيش ، واختار فرصة افتتاح معرض للصور الفوتوغرافية اقامته الشئون العامة للقوات المسلحة يوم ٢٧ سبتمبر ليعلن على العالم صفقة الاساحة التشيكوسلوفاكية .

روى جمال عبد الناصر قصة الاسلحة منذ بدايتها وقال (ان هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا قيد ولا شرط لا تعتبر فتحا للنفوذ الروسي ولا للنفوذ الاجنبي ولكنها تعتبر قضاء على النفوذ الطويل الذي تحكم فينا وسيطر علينا ... ان مصر ، مصر المستقلة مصر الثائرة القوية لن تمكن لنفوذ اجنبي في بلادنا) .

واعلن جمال عبد الناصر ان الاتفاق قد وقع نهائيا منذ اسبوع واحد فقط ... وهذا يعني انه وقعه بعد ان استنفد كل وسائله مع امريكا وبريطانيا للحصول على السلاح .

وفي اليوم التالي لاعلان الخبر ارسلت بريطانيا وامريكا تحذيرا الى الاتحاد السوفييتي .

ووصف دالاس الصفقة بأنها (اخطر اجراء منذ قيام حزب فيتنام) .

وكان دالاس قد حاول منع الصفقة في الدقيقة التاسعة والخمسين وارسل الى القاهرة كيرميت روزفلت عميل المخابرات المركزية الامريكية ... (وتتناقض اقوال محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) مع اقوال مايلز كوبلن في لعبة الامم ... الاول يقول ان عبد الناصر قرر ان يقطع الطريق على كيرميت روزفلت باعلان الخبر قبل مقابلته ... والثاني يقول ان كيرميت روزفلت قابله قبل اعلان الصفقة فعلا ووجد من الحكمة الا

يعترض عليها بعد ان انتهت وانما حاول اقناع عبد الناصر بأن بعضها اسلحة دفاعية وانه على استعداد لان يقبل مشاركة الاسرائيليين للقيام بجهد مشترك بغية الوصول الى سلم دائم .

ولكن عبد الناصر لم يعلن شيئا من هذا اما لانه لم يقابل كيرميت روزفلت قبل الاعلان ... واما لحدوث خلاف بينه وبين السفير الامريكي بايرود وفي احدى الجلسات الخاصة ، جعله يرفض الاستجابة لاي طلب امريكي .

أعلن جمال عبد الناصر في ٢ اكتوبر اثناء الاحتفال بتخريج دفعة جديدة للكلية الحربية (لقد كانت حادثة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ والاعتداء اليهودي المدبر على غزة الذي وصفه مجلس الامن بأنه اعتداء وحشي على جنود آمنين ... كان هذا الاعتداء نقطة تحول) .

ولم يقبل دالاس في سهولة ان تتخطى مصر نقطة التحول في طريقها الجديد ... وبعد ان عجز مندوبه كيرميت روزفلت عن اقناع عبد الناصر بالعدول عن الصفقة ، قرر ان يرسل له انذارا مكتوبا في رسالة مغلقة مع وكيل وزارة الخارجية الامريكية جورج الين ، وقيدت وكالات الانباء الامريكية هذا الخبر .

وغلت الدماء في راس عبد الناصر عندما سمع بنبأ الانذار واتخذ عدة خطوات ايجابية حاسمة .

استدعى كيرميت روزفلت وابلغه انه اذا جرؤ الين على تقديم الانذار فانه سيأمر بطرده من مكتبه وسيعلن قطع العلاقات الدبلوماسية مع امريكا .

اتصل جمال عبد الناصر في نفس الوقت بأوسع دائرة من الضباط الاحرار وابلغهم انه سيقاوم الانذار الامريكي ، حتى ولو اضطر الى الكفاح السري المسلح ، وقد استخدم تعبير Under ground وهو يبلغ ذلك لي مع احمد فؤاد ولطفي واكد ... لنتصل بالشيوعيين استعدادا للمقاومة الشعبية .

طلب من قيادة الجيش توضيح ابعاد صفقة الاسلحة وما تحققه لمصر من كسر الخضوع لاحتكار السلاح وتأكيد الاستقلال الوطني ، والقدرة على الدفاع عن النفس ضد إسرائيل وحماية الحياد الايجابي ... وقد القيت محاضرات وكلمات وعقدت ندوات في كافة وحدات الجيش حول هذا المضمون .

كلف ضباط المخابرات المنبثين في منطقة القنال بمراقبة تحركات القوات

البريطانية التي لم تكن قد انسحبت كلها من القاعدة بعد ... واعطى انذارا لقوات الجيش بأن تكون على استعداد وفي حالة طوارىء .

وقد تصرف بايرود وكيرميت روزفلت بمبادرتهما الخاصة واتصلا بجورج الين وهو في الجـو ليطلبا منه عدم الادلاء بتصريحات للصحفيين عند هبوطه من الطائرة ، واقنعاه بعد مقابلته بعدم تقديم الانذار المكتوب ، تفاديا لانفجار يحدثه الموقف الشديد التوتر كما ذكر هيكل في كتابه (عبد الناصر والعـالم) .

واستقبل عبد الناصر جورج الين الذي لم يقدم الانذار واكتفى بأن قال له ان دالاس في ضيق ، وكان رد عبد الناصر (وليكن ... ولكن شعبي مهـدد) .

وحاول الين للمرة الاخيرة ان يثنيه عن تنفيذ الصفقة بقوله انه في حالة الغائها فان الولايات المتحدة تتطلع الى امداده بالسلاح .

واجابه عبد الناصر قائلا :

ـ لقد فات الاوان .

نعم كان الاوان قد فات ... وعلق موشي شاريت على الصفقة قائلا (انها خطر لا مثيل له ومن المحتم ان تؤثر تأثيرا بالغا على امن اسرائيل ... كما انها غيرت ميزان القوى تغييرا حاسما وضع حدا لتفوق اسرائيل النوعي على مصر ... انها خطر داهم لم تشهده اسرائيل منذ حرب الاستقلال) .

واستقبل الشعب المصري انباء الصفقة استقبالا حماسيا وازداد اسم جمال عبد الناصر لمعانا ، وارتفع نجمه في سماء الامة العربية بل وفي العالم الثالث رمزا لقدرة النضال على مواجهة الاستعمار .

وكان اتمام صفقة السلاح بعد ١٦٠ يوما فقط مـن افتتـاح مؤتمر باندونج تأكيدا لاستمرار سنوات الصعود ، وبعثا للثقة في نفوس الجماهير التي شعرت للمرة الاولى انها تملك ارادتها وانها قادرة علـى تحقيق ما يشبه المعجزات .

يقول جان لاكوتير في كتابه عبد الناصر (نسقت الدعاية الرسميـة والحركة اليسـارية جهودهما للمرة الاولى واثارتا لدى الجماهير ردات فعل حماسية عارمة) .

والحقيقة القاطعة ان اليسـار المصري قد رحب بهذه الخطوة ترحيبا شديدا ، واعتبرها نقطة تحول في مسار السياسة المصرية ، تدفع قـرارات باندونج لتطبيق عملي ... ولكن معظم قيادات الحركة الشيوعية كانوا في السجن ومن هناك ارسلوا برقيات تأييد لجمال عبد الناصر .

وكما لم يشترط الاتحاد السوفييتي اية شروط تتعلق بصفقة الاسلحة من حيث الكمية او النوع او طريقة الدفع ... فانهم لم يشترطوا ايضا ضرورة الافراج عن الشيوعيين المصريين واعتبروا هذا امرا داخليا لا يجوز التدخل فيه ... وان مراحل النضال وحدها هي الكفيلة بابراز الدور الوطني للشيوعيين .

تحطم الاحتكار الغربي للسلاح في سهولة ويسر ، ولم تحدث ردود فعل عنيفة اكثر من محاولة تقديم انذار دالاس ... وفتحت مصر الباب لمزيد من صفقات الاسلحة بين دول منطقة التحرر الوطني والاتحاد السوفييتي .

وحضر الى مصر عقب اعلان الصفقة وزير خارجية سوريا صلاح البيطار على رأس وفد سوري للتعرف على ابعاد الصفقة .

وبعد ايام انتهت المباحثات بين مصر وسوريا الى عقد ميثاق عسكري في اكتوبر ١٩٥٥ اعتبر فيه أن اي اعتداء على دولة من الدولتين يعتبر اعتداء على الاخرى وقررت مصر تسجيل هذا اليوم ٢٠ اكتوبر باعتباره (يوم الجيش) تحتفل به كل عام . (ولم تمض عدة شهور حتى تعاقدت سوريا مع الاتحاد السوفييتي على شراء السلاح وتبعتها افغانستان ولم يمض وقت طويل حتى كانت اليمن هي الدولة الرابعة ، ومن بعدها توالت تعاقدات الدول ، وكأنها مسبحة انفرط عقدها من يد الامبريالية العالمية التي كانت تقبض عليها .

كانت نتيجة هذه الصفقات المتتالية نهاية مرحلة كانت الامبريالية العالمية تسيطر فيها على كافة دول العالم غير الشيوعية وتراقب مراكزها وتحدد قوتها وتسلب منها ارادتها الى جانب ما تستولي عليه من المواد الخام ومن جهد الانسان .

ومن الامور الرئيسية التي ساعدت على تحقيق هذه الصفقة واحداث تغيير جذري في موازين القوى العالمية حرص العسكريون في مصر على تزويد الجيش بأحدث الاسلحة الممكنة .

طبيعة العسكريين لعبت دورا كبيرا في شق هذا الطريق الذي كان يبدو وعرا يصعب السير فيه ... ولكنهم اقدموا على خوضه بكل ما يملكون في انفسهم من اندفاع تلهبه حماسة الشباب ، وكل ما في صدورهم من اصرار على خلق جيش يحمي مصر من العدوان .

والاسلحة التي حصلت عليها مصر كانت حديثة تماما ... ادخلتها عصر النفاثات في عالم الطيران ، ووفرت لها الدبابات الثقيلة وشبكة

اتصالات اليكترونية ، ومحطات رادار حديثة ، وقوارب طوربيد ... وكاسحات الغام ... وكانت هذه اسلحة يسيل لها لعاب العسكريين .

ووصول مثل هذه الاسلحة الحديثة الى بلد غير شيوعي من الاتحاد السوفييتي ما كان ليتم لولا وفاة ستالين وحدوث تغيير في سياسة الحزب الشيوعي السوفييتي ظهرت واضحة في قرارات المؤتمر العشرين الذي عقد في فبراير ١٩٥٦ وقرار الانفتاح على شعوب اسيا وافريقيا ودعم حركات التحرر الوطني .

ولم يجد الاتحاد السوفييتي في ذلك تعارضا مع سياسة التعايش السلمي التي تبناها لان مساندة دول التحرر الوطني بالسلاح يخدم استقلالها الوطني وحيادها ومعاداتها الاحلاف ، وهي الامور التي تحاصر جموح الامبريالية العالمية ، وتجبرها على قبول مبدأ التعايش السلمي .

وقد فرض هذا الاسلوب السوفييتي في التعاون مع الدول غير الشيوعية اسلوبا جديدا في تعامل امريكا مع الدول غير المرتبطة معها بأحلاف دفاعية ... وهو الامر الذي انتهى الى اقرار مشروع ايزنهاور في ٥ يناير ١٩٥٧ ، مما سيأتي تفصيله فيما بعد ، وامداد الاردن ولبنان وتونس وغيرها بالاسلحة رغم عدم ارتباطها بأحلاف دفاعية .

وهكذا ادت صفقة الاسلحة الى انقسام الموقف في الشرق الاوسط الى دول وطنية متحررة تشتري السلاح من الاتحاد السوفيتي بلا قيود او شروط ، ودول اخرى تابعة للامبريالية ومرتبطة معها اما بأحلاف عسكرية او بقبول ما ورد في مشروع ايزنهاور .

هذا الموقف الجديد لمصر اتاح لها للمرة الاولى منذ ثلاثينيات القرن الثامن عشر في عهد محمد علي ان تحصل على السلاح الذي تريد لتحقق امال قادتها العسكريين ومصر لم يحكمها عسكريون مهنة واصلا منذ عهد محمد علي وابراهيم الا محمد نجيب وجمال عبد الناصر .

استقبلت الاسلحة السوفيتية استقبالا جيدا من جانب ضباط القوات المسلحة المصرية ، لانهم وجدوا فيها بديلا عظيما عن الاسلحة البسيطة التي كان يشتريها الجيش من السويد او سويسرا فقط .

وسافر الى تشيكوسلوفاكيا ثم الاتحاد السوفييتي ضباط مصريون للتدريب لاول مرة في التاريخ وكانوا يسافرون بأسماء مستعارة تحاشيا للامريكيين .

ووصل الخبراء السوفيات العسكريون في عام ١٩٥٨ بداوا باعداد محدودة على مستوى القيادات العليا فقط ، واشتركوا في اعادة تنظيم

الجيش على أساس توحيد مدارسه .

كان الجيش حتى ذلك الوقت خليطا من افكار واتجاهات ومدارس مختلفة ... الاسلوب والتنظيم التقليدي البريطاني الذي نظم الجيش على اساسه منذ الاحتلال عام ١٨٨٢ ، والدراسات الامريكية المستحدثة من ذهاب عدد متزايد من الضباط الى دورات تدريبية في امريكا ، وصلت الى مستوى قادة السرايا ، واستيراد عدد من الخبراء العسكريين الالمان وعلى رأسهم الجنرال فون باخر الذين خدموا في عهد النازي وتأثيرهم المتزايد في الابحاث والصواريخ والمخابرات ... واخيرا وصول الاسلحة السوفيتية الحديثة .

وتنظيمات الجيش على مختلف المستويات من الجماعة الى الفرقة تعتمد على التسليح ، بل ترتبط به ... ولذا كان ضروريا ان يعاد تنظيم الجيش على اساس العقيدة السوفيتية ، وان تتوحد مدارسه ... وقد تم ذلك على مراحل متدرجة .

وارسلت الى الاتحاد السوفييتي ايضا فرق لدراسة نظم المخابرات السوفيتية حتى يكون هناك تناسق كامل بين اسلوب المعاملات واسلوب القتال ، وكان من اوائل الذين حصلوا على هذه الفرقة هناك شعراوي جمعة امين عام التنظيم بالاتحاد الاشتراكي ووزير الداخلية فيما بعد ، عندما كان يعمل وكيلا لادارة المخابرات العامة .

ويعتبر العسكريون ان افضل فترات الجيش بعد الثورة كانت هي فترة استقراره على اسس العقيدة والتنظيمات السوفيتية ، وذلك بعد الانهيار الذي حدث في (الضبط والربط) العسكري بعد ٢٣ يوليو ، وارتباط كثير من الضباط بشلل تحيط باعضاء مجلس القيادة او ارتباطهم بأعمال خارجية ، وظهور اصطلاح (مندوب القيادة) الذي احدث خلخلة في تماسك الجيش .

كان وصول الخبراء السوفييت للقوات المسلحة المصرية بعد خبرتهم العالية في الحرب العالمية الثانية بداية مرحلة اهتمام جدي بالتدريب لم يعرفها الجيش المصري من قبل ... وبداية وصول القوات الجوية والقوات البحرية الى مستوى عال لم يتوفر لها من قبل مما حقق بعثا جديدا للجيش المصري بعد الضغوط التي تعرض لها عقب معاهدة لندن في عهد محمد علي .

ولم تقف اسرائيل جامدة امام هذا التغير الجذري الذي حدث في صفوف الجيش ، فانهى مرحلة كان نقص السلاح وقلة الخبرة وضعف

القيادة هي عناصر الجيش الرئيسية .. وكانت فرنسا هي ربيبة اسرائيل في ذلك الوقت لانها منذ خرجت من الشرق الاوسط بعد انتهاء الانتداب على سوريا ولبنان عقب الحرب العالمية الثانية ، ومنذ واجهت طلائع الثورة الجزائرية وهي تأخذ موقفا معاديا للعرب ... فكانت ارض فرنسا هي مكان تدريب الهاجاناه الاسرائيلية في منتصف الاربعينيات ...

وعندما تردد ايزنهاور في اعطاء اسرائيل طائرات نفاثة ودبابات لحفظ رجحان كفتها على مصر ، بادرت فرنسا بامدادها بما تريد ، الامر الذي دفع جمال عبد الناصر الى عقد صفقة ثانية للسلاح مع الاتحاد السوفييتي رفع مجموعها الى ٣٠٠ مليون دولار وحصل بها على طائرات ميج ١٧ .

وحاولت حكومة الولايات المتحدة احتواء الموقف ، وارسل دالاس روبرت اندرسون مندوبا له في نهاية ١٩٥٥ لا يحمل انذارا مثل جورج الين ، وانما يحمل مشروعا لحل المشكلة الفلسطينية وانهاء حالة الحرب بين مصر واسرائيل ... ولكن جمال عبد الناصر ــ كما يقول محمد حسنين هيكل في كتابه عبد الناصر والعالم ــ درج على تسمية هذا المشروع باسم يتصل بنداء الطبيعة لاهتمامه بالفرعيات والشكليات دون تقديم حل سليم ودائم للمشكلة .

وتمت محاولة اخرى لفرض حظر على تصدير الاسلحة الى الشرق الاوسط بدأتها المعارضة العمالية في انجلترا باقتراح عقد مؤتمر رباعي يضم ممثلين للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا وذلك احراجا لحكومة المحافظين .

ولكن فرنسا لم يجذبها الاقتراح ، وكانت قد رفضت الاشتراك في حلف بغداد من قبل ، ولم يزعجها وصول الاسلحة السوفيتية الى مصر ... لانها كانت المصدر الرئيسي لامداد اسرائيل بالسلاح . كما انها كانت مهتمة بموقفها في الجزائر .

وانتهز انطوني ايدن فرصة زيارة خروشوف وبولجانين الى لندن في ابريل ١٩٥٦ واقترح عليهما فرض حظر على تصدير السلاح الى الشرق الاوسط ، ورد عليه خروشوف بأن الاتحاد السوفييتي لا يمانع اذا كان ذلك ضمن خطة شاملة تتم تحت اشراف هيئة الامم المتحدة .

ولكن التزامات بريطانيا ازاء دول حلف بغداد (تركيا والعراق) انهت هذا الاقتراح وركنته على الرف كما يقولون .

وعندما بلغ عبد الناصر خبر هذا الاقتراح من السوفييت بادر باتخاذ قرار الاعتراف بحكومة الصين الشعبية في ١٦ مايو ١٩٥٦ بعد ايام من

مغادرة خروتشوف وبولجانين لندن ، وذلك تفاديا لحظر محتمل على الاسلحة ، تستطيع فيه اسرائيل بتسربها الى اماكن النفوذ والسلطة في بعض الدول ان تحصل على ما تشاء بينما تظل الدول العربية محرومة من السلاح .

وكان الاعتراف بالصين الشعبية مبادرة جريئة من مصر فلم تكن هناك دولة في الوطن العربي اخذت هذا الموقف في وقت كانت حكومة الولايات المتحدة فيه كالنمر الهائج ضد كل ما هو صيني ... حتى ان جوازات سفر الامريكيين كان يصرح لهم فيها بالسفر الى كل دول العالم عدا الصين وكوريا الشمالية .

وخلال هذه الفترة كانت علاقات الصين مع الاتحاد السوفييتي وثيقة ولم تكن قد ظهرت فيها اية خلافات او تناقضات ، وكان ماوتسي تونج قد حضر المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي في فبراير ١٩٥٦ وخطب فيه منددا بستالين ومشيدا بدور الاتحاد السوفييتي في مساعدة حركات التحرير .

أمن جمال عبد الناصر بهذه الخطوة حق مصر في استيراد السلاح ، حتى لو فرض حظر على المنطقة تحت رعاية هيئة الامم المتحدة .

وبعد ايام قليلة في شهر يونيو ١٩٥٦ حضر الى مصر مرة اخرى شبيلوف رئيس تحرير البرافدا الذي اصبح وزيرا لخارجية الاتحاد السوفييتي لحضور احتفالات جلاء آخر جندي بريطاني عن مصر .

وهدرت في شوارع القاهرة يوم العرض العسكري احتفالا بعيد الجلاء لمدة اربع ساعات دبابات ستالين وقاذفات اللهب ، والمدفعية الخفيفة والثقيلة ، وغطت السماء اسراب طائرات الميج النفاثة وقاذفات القنابل الاليوشن .

وانبهرت الجماهير بما رأته من تسليح حديث ، وزغردت النساء وتأثر العرب الذين حضروا العرض العسكري مشاركة لمصر في احتفالها التاريخي ... ارسل الاردن كتيبة من الفيلق العرب وارسل لبنان مجموعة من جنود التزحلق ، واليمن جماعة من تلاميذ المدارس الحربية ، وليبيا والسعودية وسوريا وحدات نظامية .

كان يوما حافلا بالنشوة والابتهاج ، وخاصة للعسكريين الذين حققوا هدفا من اعظم اهدافهم ، ولم تعد استعراضاتهم العسكرية هزيلة او متخلفة .

ولم يدخل السوفييت الى المنطقة بدعوة العسكريين المصريين لهم

للحصول على السلاح فقط ، ولكنهم دخلوا ايضا من بـاب آخر ، غيـر باب السلاح .

وكانت حركة ٢٣ يوليو قد ركزت على بعض المشاريع الهامة لتنفيذها منذ البداية ... ومنها قانون الاصلاح الزراعي ومشروع السد العالي .

تابع المشروعان قائد الجناح جمال سالم الذي عرف بحدة طبعه وذكائه وتصرفاته الرعناء احيانا .

استطاع جمال سالم ان يصدر قانون الاصلاح الزراعي مع وزارة محمد نجيب الاولى يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢ .

ولكن مشروع السد العالي لم يكن قانونا يصدر فينفذ ، ولكنه كـان مشروعا يحتاج الـى بحث ودراسة وتمويل .. وصبر ايضا .

فكرة المشروع قديمة ... عرضها مهندس مصري من اصل يوناني اسمه ادريان دانينوس على بعض حكومات ما قبل الثورة منذ عام ١٩٤٧ ولكنه لم يجد منها قبولا ... الـى ان التقى مع جمال سالم وعندما درس جمال سالم المشروع فتنه وتبنـاه امـام اعضاء مجلس القيادة ، واصبح محور حديثه الدائم ، وموضع اهتمامه ومتابعته ، حتى ان احدا من اعضاء المجلس لم يبذل جهدا لمعرفة تفاصيل المشروع والقـى العبء كله عليه .

وبدأ جمال سالم يقوم بدراسات مصرية للسد العالي ، واعترض عليها بعض كبار المهندسين مثل عثمان محرم وعبد العزيز احمد ولكنه واصل ابحاثه مع بعض بيوت الخبرة الاجنبية ... واجريت مفاوضات مع مجموعة فرنسية انجليزية امريكية .

جميع بيوت الخبرة العالمية وافقت على المشروع من الناحية الفنية ... وما زال يوجد حتى اليوم نموذج كامل للسد العالي في قرية جرينوبل بفرنسا عندما تعاونت مصر في مجال البحث مع احدى الشركات الفرنسية ... وذلك حسب مشاهدة حسن ابراهيم وروايته تدليلا على سلامة المشروع .

واعطى جمـال سالم باعتباره نائبـا لرئيس الوزراء دفعـة جديدة للمشروع وقف الى جانبه فيها المهندس سمير حلمي الذي عين وزيـرا للصناعة فيما بعد ، وكانت الوقفة الرئيسية عند اختيار المكان المناسب لبناء الهرم الجديد .

استمر مجلس القيادة متابعا لموضوع السد العالي من بعيد ... تهتم به كلما عرض عليهم جمال سالم مزيدا من التفاصيل ... وعندما ابلغهم ان كل الدراسات قد اصبحت جاهزة ، ولم يعد باقيا الا التمويل ، نبتت امامهم

علامة استفهام كبيرة ، فقد كان الموقف السياسي متوترا مع الغرب بعد عقد صفقة الاسلحة المصرية التشيكوسلوفاكية .

ولكن وزارة الخارجية الامريكية اصدرت تصريحا في اكتوبر ١٩٥٥ تقول (ان الولايات المتحدة على استعداد للمساهمة في تمويل مشروع السد العالي وفي مشروع وادي الاردن وان هناك (مشروع مارشال) امريكي للشرق الاوسط على نمط المشروع الاوروبي) ... وطلبت ارسال مسئول مصري لدراسة الموقف مع واشنطن ، بدا الامر كما لو ان حكومة الولايات المتحدة لا تريد ان تفقد كل صفقات مصر ... واستقبل الدكتور عبد المنعم القيسوني وزير الاقتصاد والمعروف بميله الى الغرب في نوفمبر ١٩٥٥ استقبالا حافلا في واشنطن وحمله دالاس رسالة حسب ما ورد في كتاب محمد حسنين هيكل (عبد الناصر والعالم) يقول فيها لعبد الناصر انه اذا كان الاتحاد السوفييتي يساعد مصر بالسلاح وان ذلك يعني الموت ، فان الولايات المتحدة مستعدة الى مساعدة مصر على بناء السد العالي وهذا يعني الحياة .

كان الموقف يدعو الى التفاؤل وجمال سالم يكاد يحلق من الابتهاج .. وخاصة في منتصف ديسمبر ١٩٥٥ عندما اصدرت الحكومتان البريطانية والامريكية بيانا اعلنتا فيه مساهمتهما في تمويل المرحلة الاولى للسد العالي بما قيمته ٧٠ مليون دولار تدفع منها بريطانيا ١٤ مليون ، ثم تبحث الحكومتان بعدئذ اشتراكتهما في المرحلة الثانية .

وتم الاتفاق ايضا على ان يقرض البنك الدولي للانشاء والتعمير مصر ٢٠٠ مليون دولار دفعة اولى بعد مفاوضات استمرت مدة اسبوعين بين جمال عبد الناصر وجمال سالم ورئيس البنك يوجين بلاك ... واعلن الاتفاق يوم ٨ فبراير ١٩٥٦ على اساس اعطاء البنك حق الحصول على معلومات عن الاقتصاد المصري وحق الاشارة بالخطوات اللازمة ، دون حق الاشراف على الاقتصاد وهو ما كان يطالب به .

وكان البنك الذي انشىء عام ١٩٤٦ بهدف اعادة بناء اقتصاد الدول المنكوبة من العمليات الحربية والذي تملك الولايات المتحدة ٣٢٪ من اصوات مجلس ادارته ولا يعيد رئيسا له الا امريكي قد حاول ان يفرض على مصر عدم الحصول على قروض خارجية ولا اي اتفاقيات دفع الا بموافقته الامر الذي رفضه جمال عبد الناصر تماما ... لان ذلك كان يعني حظر التعامل او استيراد السلاح من الاتحاد السوفييتي .

كان مفروضا ان يمضي مشروع السد العالي في طريقه الطبيعي بعد

ذلك ، ولكن اتضح ان حكومة الولايات المتحدة كانت تهدف الى ربط الاقتصاد المصري بها طوال مدة بناء السد التي تمتد عشر سنوات وقد تزيد .

كتبت النيويورك تايمز تقول (تربط حكومة الولايات المتحدة بين مقترحاتها بمساعدة مصر مساعدة طويلة المدى لمدة عشر سنوات لبناء السد العالي وتسوية النزاع المصري الاسرائيلي ؛ وتعتقد حكومة الولايات المتحدة ان المساعدة الاقتصادية لمصر تستطيع ان تؤدي الى تسوية عامة للموقف في الشرق الاوسط) .

ووضع هربرت هوفر وكيل الخارجية الامريكية ومستشار دالاس لشئون الشرق الاوسط ؛ وهو من رجال شركات البترول الامريكية ومن ابطال الانقلاب الايراني الذي قامت بـه المخابرات المركزية ضد مصدق واسقطته مذكرة تقول (السد العالي مقابل الصلح) .

وصارح هوفر السفير احمد حسين بذلك طالبا اليه ايضا ان تعلن مصر في بيان رسمي امتناعها عن عقد المزيد من صفقات السلاح مع الاتحاد السوفييتي .

واتضحت خطة حكومة الولايات المتحدة في محاولة السيطرة على الاقتصاد المصري واخضاعه لنفوذها بعد ان فلتت منها فرصة منع مصر من عقد صفقة السلاح مع السوفييت .

يقول انطوني ايدن في مذكراته (كان المطلوب ان يعطي المصريون وعدا بأن يجعلوا لمشروع السد العالي الاولوية على غيره من المشروعات الاخرى وان لا يقوموا بتنفيذ غيره من المشروعات وان يرفضوا المساعدات التي تعرض عليهم من المصادر الشيوعية) .

وبدأت بوادر تحلل الحكومتين البريطانية والامريكية من وعودهما تظهر في تصريحات واحاديث المسئولين ... وتتسرب الى جمال عبد الناصر خلال وزير عراقي سابق ارسل وثائق ما دار في جلسات حلف بغداد في شهر ابريل ١٩٥٦ ومنها تبين ان الحكومة البريطانية كانت قد قررت الانسحاب من ارتباطاتها .

اكد هذه الواقعة ما ورد على لسان انطوني ايدن ايضا في مذكراته عندما كتب (كانت ثمة نقطة لا يمكن تجاوزها في عملية تمويل السد ذلك انه كان علينا ان نراعي ايضا مركز حلفائنا ولا سيما العراق ... وكانت له احتياجاته الخاصة ... وكانت الحكومة العراقية قد اشتكت بالفعل في اوائل ذلك العام من ان المصريين استفادوا بمعاداتهم للغرب اكثر دون

ان يتعاونوا معه ... وكان العراقيون قد حصلوا على ٣ملايين جنيه وعدد قليل من الدبابات اما المصريون فقد بدا انهم سيفوزون بالسد العالي ، فاذا كان لا بد من تقديم احسان فان من حق الدول العربية الصديقة ان تسعى للحصول على نصيبها من هذا الاحسان ، ولم يكن من المتوقع من هذه الدول ان تنظر بحماس الى تقديم الغرب مبالغ كبيرة من المال لمشروع مصري في الوقت الذي تزداد فيه الروابط بين مصر وروسيا السوفييتية) .

وقال فولبرايت في تقرير رسمي اعدته لجنة الشئون الخارجية للكونجرس (تثبت الادلة ان الحكومة الامريكية قد بدات تراجع قرارها للرجوع عنه بعد بضعة اسابيع فقط من تقديمه) .

وظهرت بعض التعليقات الصحفية تقول (طالما لم نستطع شراء الصلح العربي الاسرائيلي مقابل السد فقد مات الحماس) .

وطلب جمال عبد الناصر من حسن ابراهيم ان يجس نبض اديناور مستشار المانيا الغربية لبحث امكانية المساهمة في تمويل السد ... وحسن ابراهيم يقول انه رغم اهتمام اديناور الشديد بالمشروع ورغم فائدته للشركات الالمانية فانه لم يعرض المساهمة ابدا ... ورفض البحث فيها.. ربما خشية من حكومة الولايات المتحدة .

كان رفض اعضاء مجلس القيادة الخضوع لطلبات الحكومتين الامريكية والبريطانية في وقف التعامل والتسليح مع السوفييت وقبول الصلح مع اسرائيل هما حجر الزاوية فيما اتخذ من قرار سحب الحكومتين العرض فيما بعد ... ولم يكن موضوع الاعتراف بالصين الشعبية هو السبب الذي حملهما على الغاء الموافقة ، كما تحاول بعض الجهات المعادية الاساءة لموقف جمال عبد الناصر ، وتصويره بمظهر المستفز الذي يجبر خصمه على اتخاذ خطوات عنيفة ضده ، ولكنها ربما كانت النقطة التي فاض بعدها الاناء .

اسرائيل ربيبة امريكا اعترفت بالصين الشعبية عام ١٩٥٠ دون ان يحدث ذلك صدى في علاقتها مع واشنطن ... وامريكا لم تسحب موافقتها الا بعد شهرين من اعتراف مصر بالصين .

الامر غير ذلك تماما فانه عندما حضر السفير المصري احمد حسين وابلغ جمال عبد الناصر ان دالاس محرج امام الكونجرس الامريكي لرفض مصر لشروط القرض قال له جمال عبد الناصر الذي كانت قد توفرت له المعلومات واليقين بأن الحكومة الامريكية قد قررت سحب موافقتها ، انه

يمكن ان يذهب الى دالاس ويبلغه ان مصر قد قبلت كل الشروط ثم يبلغه برد فعله .

ولم تكن مصر قد تعاقدت مع السوفييت كما اشيع بعد زيارة شبيلوف الثانية لمصر لحضور احتفالات الجلاء في ١٨ يونيو ١٩٥٦ .

قابل دالاس السفير المصري في حضور هربرت هوفر وجورج الين الذي سجل المقابلة هو في هذه الكلمات .

دخل السفير المصري الى مكتب دالاس وكان هناك هربرت هوفر وانا وكان السفير حسين متأمركا جدا وكان يرهق عبد الناصر دائما بمكالماته التليفونية التي يحثه فيها على تأييد امريكا ، وقال حسين لدالاس انه قلق من العروض الروسية وما سوف تثيره وانه لا بد وان تقوم الولايات المتحدة ببناء السد وبأسرع وقت .

رد دالاس بهدوء (اننا بحثنا الامر جديا ونقدر اهميته ولكن بصراحة ان موقفنا الاقتصادي يجعل من المتعذر على الولايات المتحدة الاشتراك ونحن نسحب العرض الذي قدمناه) .

وفي اللحظة التي دخل فيها السفير احمد حسين لمكتب دالاس كان المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية يوزع بيانا على المراسلين يعلن فيه سحب العرض الامريكي كما كتب محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر .. والعالم) .

كان البيان يحاول الوقيعة بين مصر من جهة والسودان واثيوبيا واوغندة من جهة اخرى اذ جاء فيه (انتهت الحكومة الامريكية الى انه من غير العملي في الظروف الحاضرة ان تشترك في المشروع اذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة في موارد مياه النيل) ويحاول هدم سمعة الاقتصاد المصري بقوله (ان مقدرة مصر على تخصيص موارد كافية تضمن نجاح المشروع صارت اكثر انتقادا للتوكيد ما كانت عليه عند تقديم العرض) .

هل تكون سبعة شهور فقط قد غيرت من حقيقة الوضع في مصر بين يوم اعلان الموافقة ويوم سحبها ؟؟.

وقد لخص فولبرايت حقيقة الموقف الامريكي بقوله في تقرير للجنة الشئون الخارجية بالكونجرس .

(كانت صفقة الاسلحة هي السبب في الاسراع بعرض المساهمة وكانت هي السبب ايضا في سحب العرض) .

ويقول التقرير ايضا ان الاسباب التي اعلنت لم تكن من الاسباب

الحقيقية بالطبع ولم تجد اللجنة أي دليل على ان الاقتصاد المصري قد ساءت حالته قبل سحب العرض .

واعلنت بريطانيا بعد ٢٤ ساعة سحبها للمساعدة التي التزمت بها .. . ويقول انطوني ايدن في مذكراته (ابلغتنا الحكومة الامريكية بهذا القرار دون ان تتشاور معنا بشأنه ولهذا لم تتح لنا أية فرصة لانتقاده او ابداء رأينا فيه قبل ابلاغه الى السفير المصري وكانت النتيجة ان الغى البنك الدولي ايضا القرض الذي كان سيقدمه لمصر) .

وقد ثار يوجين بلاك عندما شعر انه ادى دور دمية متحركة في يد دالاس وايدن وقال (ان دالاس لا يملك الحكم على الاقتصاد المصري ... هذه هي مهمة البنك الدولي ، وقد كلفنا ان نجيب على سؤالين محددين هما : هل المشروع ممكن ؟ وهي يتحمل الاقتصاد المصري ؟ واجاب البنك عن السؤالين بالايجاب .

وبرر دالاس تراجعه ليوجين بلاك بقوله ان الكونجرس لم يصدق على مساعدات خارجية كافية لامداد تيتو في يوغوسلافيا وعبد الناصر في مصر ... وانه أي دالاس – يفضل ان يقدم مساعدات لتيتو الذي يبتعد عن الكتلة الشيوعية اكثر من عبد الناصر الذي يقترب من هذه الكتلة .

وفي ليلة صدور البيان الامريكي كان جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي في الطائرة مع نهرو عائدين من بريوني بعد لقاء ثلاثي مع تيتو ... وقدم المرافق الجوي له رسالة لاسلكية بملخص للبيان ، وكان تعليقه على ذلك قوله لرفيقه في الرحلة عبد اللطيف البغدادي ان هذا ليس سحبا للعرض ، انه هجوم سافر على النظام الحاكم ودعوة الشعب المصري الى اسقاطه .

وعندما اطلع عبد الناصر نهرو على البيان قال الزعيم الهندي (يا لصلافة هؤلاء الناس) لم تكن مصر قد اتصلت بالسوفييت اتصالا رسميا من اجل تحويل السد العالي ... ولم يكن هناك دراسات سوفيتية للمشروع .

وكان جمال عبد الناصر قد قرر تأميم قناة السويس ... وقرر في نفس الوقت ان يبدأ اتصالا جديدا مع السوفييت لتمويل مشروع السد العالي .

وكان سولود السفير الذي تمت في عهده صفقة الاسلحة لا يبدي اهتماما بمشروعات اقتصادية لا تطلبها مصر ... ولا يحاول الظهور في مظهر الحريص على عقد اتفاقيات خاصة وقد قيل ان سولود قد ابلغ سفير الهند

بأن الاتحاد السوفييتي لم يقرر تمويل السد العالي بعد ويبدو ان ذلك مبدأ سوفيتيا يفرض عليهم الحرص على الظهور بمظهر البعيد عن المشاكل الداخلية ، الذي لا يبدي رأيا الا اذا طلب منه ذلك .

كلف جمال عبد الناصر اللواء عبد الحكيم عامر للاتصال بالسفير السوفييتي الجديد كيسليف لمعرفة رأي الاتحاد السوفيتي في تمويل المشروع .

وبعد اسبوع وصل الرد بالموافقة من حيث المبدأ ... وتحرك المشروع من جديد ... ولكن جمال سالم الذي تبنى فكرته لم يكن قد اصبح عضوا في الوزارة ... آثر ان يستقيل بعد انتهاء فترة الانتقال واصر على موقفه في الحاح ... وصدرت وزارة ٢٩ يونيو ١٩٥٦ اول وزارة يشكلها جمال عبد الناصر بعد انتخابه رئيسا للجمهورية في ٢٥ يونيو ١٩٥٦ . وليس فيها جمال سالم ولا شقيقه صلاح سالم الذي قبلت استقالته من قبل اغسطس ١٩٥٥ وتولى جمال عبد الناصر اعماله في وزارة الدولة للسودان ووزارة الارشاد القومي لمدة شهرين حتى عين فتحي رضوان ...

وعلى قدر ما كانت صفقة الاسلحة المصرية التشيكية حدثا كبيرا مؤثرا في العالم الثالث كله ، ومغيرا لموازين القوى العالمية ، على قدر ما كانت دعوة المصريين للسوفييت لبناء اعظم واخلد اعمال الشعب المصري في العصر الحديث ، بداية تعاون جديد في مجال الاقتصاد والصناعة .

وهكذا. وصل السوفييت الى المنطقة وكأنهم عامل انقاذ من طغيان الامبريالية العالمية التي حاولت فرض الاحتكار على السلاح وفشلت والتي حاولت احتواء مصر عن طريق تمويل السد العالي باتفاقية تضع مصر تحت اشرافها ثم تراجعت وانسحبت ، عندما وجدت ان خطتها لن تعيد حلقة الحصار من جديد .

وصل السوفييت الى المنطقة فكانوا عاملا مساعدا ومشجعا في سنوات الصعود للعسكريين واصبحوا عنصرا رئيسيا من عناصر الحركة السياسية المؤثرة في المنطقة .

الفصل الرابع

القنــاة ... والعدوان

(ان رجلا له سجل ناصر يجب الا يسمح له
بأن يطبق يده على رقبتنا)

انطوني ايدن

(ان عبد النـاصر يجب ان يلفظ القنـاة ولا
يبتلعها)

جون فوستر دالاس

(انا في القاهرة سأقاتل معكم ضد أي غزو الى
آخر نقطة دم)

جمال عبد الناصر

من فوق منبر الازهر

كان سحب الامريكيين والبريطانيين لعـرض تمويـل السد العالي ، واتهام الاقتصاد المصري بعدم القدرة على انجاز هذا المشروع الكبير ، ضربة شديدة لجمال عبد الناصر الذي جعل من السد العالي محورا من أهم محاور التقدم للمجتمع والثورة .

ولم يكن من الطبيعي ان يتلقى هذه الضربة المهينة في هدوء ... ولم يكن عنده حتى هذه اللحظة عرض آخـر لتمويل المشروع رغـم تصريحه لصحيفة نيويورك تايمز الذي نشرته الجمهورية يوم ١٣ ابريل ١٩٥٦ بقوله (اذا انقطعت المفاوضات الخاصة بالمساعدة الغربية لتمويل السد العالي فان مصر ستضطر بكل تأكيد الى الموافقة على العرض السوفييتي لتمويل

هذا المشروع ... اننا لم نرفض العرض السوفييتي فقد كان هذا العرض عاما جدا .

ونبتت فكرة تأميم قناة السويس .

لم تكن فكرة طارئة ، او رد فعل عفوي لسحب عرض التمويل ... وانما هي فكرة قديمة تابعتها حركة الجيش منذ بدايتها ، ولكن دون ان يكون هناك قرار واضح المعالم .

وقناة السويس تمثل مأساة في حياة الشعب المصري ... مات من ابنائه ١٢٠ الفا وهم مسخرون في حفرها ... بعد أن كانت مشروعا درسته حملة نابليون ، واخطأ مهندسو الحملة بقولهم ان هناك فارقا قدره ٩ امتار بين مستوى البحر الاحمر والبحر الابيض مما يجعل شق القناة مستحيلا ... ولم تستمر الحملة لتصحيح الخطأ .

وتبنى المشروع بعد ذلك فرنسيون ايضا من اتباع المفكر الاشتراكي الخيالي (سان سيمون) وحضر زعيمهم (بروسبير انفنتان) محاولا اقناع محمد علي بالمشروع ، الذي رفض قائلا انه لا يريد (بوسفورا جديدا) .

ولم تكن مصر تملك شيئا من اموال شركة القناة ، بعد ان باع الخديوي اسماعيل ١٧٦٫٠٠٠ سهم الى الحكومة البريطانية عام ١٨٧٥ بمبلغ ٤ ملايين جنيه ، كلفت مصر ١٦ مليون جنيه واغرقت الشعب المصري بديون بلغت ١٠٠ مليون جنيه ، دفعت عنها فوائد بلغت ٣٠٠ مليون جنيه .

وكانت هناك اتفاقية عقدت عام ١٩٤٩ بين الشركة والحكومة المصرية حصلت بموجبها على ٧٪ من الارباح ، وتعيين خمس مصريين في مجلس الادارة الذي يضم ٢٥ انجليزيا وفرنسيا .

ومنذ الشهور الاولى لحركة الجيش تكون مكتب لقناة السويس كان مقره مجلس الشيوخ وتابع لرئاسة مجلس الوزراء عمل به الدكتور مصطفى الحفناوي الذي أثارت الشركة اهتمامه واحلامه واصدر مجلة خاصة باسم (قناة السويس) وكان جمال عبد الناصر قد استدعاه لالقاء محاضرة يفتتح بها الموسم الثقافي لنادي ضباط الجيش في نوفمبر ١٩٥٢ — طالب فيها بالتأميم ... وكان ذلك عقب لقاء تم بينه وبين عبد الناصر في اغسطس ١٩٥٢ .

ثم دعم هذا المكتب وصدر به قرار جمهوري في نوفمبر ١٩٥٤ وتولى رئاسته الدكتور حلمي بهجت بدوي وضم الدكتور حامد سلطان ومحمد علي

الفتيت ومحسن شفيق واصبح اختصاصه دراسة شئون قناة السويس واعداد ابحاث حول احتمال تأميمها .

وعندما حاولت حركة الجيش الحصول على شروط افضل ... تمسكت الشركة بمد مدة الامتياز التي كان مفروضا ان تنتهي عام ١٩٦٨ في مقابل زيادة نسبة الارباح وزيادة عدد المصريين ... ورفضت الشركة زيادة عدد المرشدين المصريين رغم وجود عجــز ٢٠٪ ؛ وظل الموقف كما هو ٤٠ مرشدا مصريا فقط من ٢٠٥ تستخدمهم الشركة .

واهتمت ادارة التعبئة العامة للقوات المسلحة بشئون قناة السويس ايضا بتوجيه من جمال عبد الناصر وارسلت اليها مندوبين للبحث لاستكمال المعلومات في مشروعي الحصر الصناعي والكفايات الفردية ... التي كانت تقوم بها على مستوى الجمهورية ونشرت عدة مقالات في بداية عام ١٩٥٦ في مجلتها الشهرية الهدف التي كنت رئيسا لتحريرها ... مقالات تحت عنوان (هذه القناة ملكنا) .

وكلف جمال عبد الناصر وجمال سالم وعبد الحكيم عامر في جلسة مشتركة ضابط المخابرات المسئول في منطقة القنـاة في اغسطس ١٩٥٥ بالحصول على معلومات تثبت تدخل شركة القناة في الشئون الداخلية لمصر مستغلة الاموال التي تتدفق عليها من عوائد المرور .

وتبين من المعلومات التي حصلوا عليها ان الدخل الحقيقي للشركة يختلف عن الدخل الذي كانت تخطر بـه الحكومة المصرية ... كمـا انها كانت تدفع مصروفات سرية للموظفين المصريين العاملين بها وصلت احيانا الى ٢٠٠ جنيه شهريا .

وكانت الشركة حتى ذلك الوقت تمثل اقطاعية خـاصة لا تسمح لضباط الجيش بارتياد ناد بها ... وحدث حادث طريف اذ فكر قائـد المنطقة في طريقة يكسر بها هذا الحاجز ، فأطلق عددا من جنود الجيش للسباحة في القنال عرايا تماما حتى اقتربوا من النادي الخاص للشركة ، وعادوا سباحة ... فما كان من احد الموظفين المصريين بالشركة ـ نجـم الدين شاهين الضابط السابق بالجيش ـ الا ان هرع الى قيادة الجيش يعلن السماح للضباط بالاشتراك في النادي .

واستدعى جمال عبد الناصر الضابط المسئول عن مخابرات القناة مرة اخرى في مايو ١٩٥٦ وطلب منه اعداد دراسات خاصة عن الموقف اذا ما حدث تأميم قناة السويس .

وعندما عين ثروت عكاشة نائبا لمدير المخابرات في مايو عـام ١٩٥٦

بدرجة وكيل وزارة ، كلفه جمال عبد الناصر باعداد دراسات خاصة عن تأميم القناة ، دون ان يلمح له بشيء عن الهدف من ذلك .

وكان جمال عبد الناصر يلقي بفكرته عن تأميم شركة قناة السويس احيانا امام بعض خلصائه بطريقة عابرة ليدرس ردود الفعل عندهم .

عندما ابلغ احمد حسين السفير المصري بواشنطن اثناء أزمة تمويل السد العالي اصابه الذعر وطلب منه التريث وعدم الاندفاع في هذا التفكير .

وصارح تيتو ايضا اثناء زيارة ليوغوسلافيا بانه يفكر احيانا في اعادة قناة السويس للشعب المصري ، ولكن الامر لم يكن ملحا بما يجعل المناقشة جادة ومركزة .

ويبدو ان بعض هذه الاخبار كان قد تسرب الى الخارج فطلب المستر بيتون النائب المحافظ في مجلس العموم من الحكومة البريطانية ان تتشاور مع الدول الغربية والولايات المتحدة حول مستقبل قناة السويس كممر مائي دولي .

وكتب انور السادات في جريدة الجمهورية ردا عليه يقول (اما عن مستقبل قناة السويس فالقناة اذا كان السيد بيتون لا يعلم فهي جزء لا يتجزأ من مصر كما اعترف العالم اجمع) .

كان ذلك دليلا على ان فكرة التأميم لم تكن طارئة ، او رد فعل فوري وانما كانت تعيش في راس جمال عبد الناصر امتدادا لنداءات رفعها مصريون من قبل ، وتعبيرا عن مشاعر مكبوتة في نفوس المصريين منذ عشرات السنين .

برنامج الحزب الشيوعي المصري كان يدعو صراحة الى تأميم قناة السويس .

واحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكي بدأ حملة مطالبا بتأميم قناة السويس فورا اثناء حركة الكفاح المسلح في القناة ، خطب مناديا بذلك ، وكتبت مجلة الاشتراكية تدعو لذلك في اعداد كثيرة ، كما نشر في كتابه (الارض الطيبة) .

وكان محور تفكير وكتابات الدكتور مصطفى الحفناوي في مجلته الدعوة لتأميم الشركة ...

وقد اكد جمال عبد الناصر ذلك فيما بعد بتصريح لمجلة لوك الامريكية يوم ٢٤ يونيو ١٩٥٧ قال فيه (كنا ندرس مسألة تأميم القناة ، ولكننا لم تكن قد وصلنا الى قرار فجعلتمونا انتم نستقر على قرار) .

لم يطل الوقت بين سماع جمال عبد الناصر لخبر التمويل مساء ١٩

يوليو وبين اتخاذ قراره بتأميم القناة صباح يوم السبت ٢٠ يوليو .
واعتمد جمال عبد الناصر في تنفيذ قراره على السرية المطلقة .
لم يطلع ضيفه وصديقه نهرو الذي كان في ضيافته . والذي غادر مصر قبل الموعد المحدد لانتهاء الزيارة عندما شعر بأن المشاغل تستهلك وقت وتفكير جمال عبد الناصر .
ولم يطلع مجلس الوزراء على فكرته كما اكد لي فتحي رضوان .
ولم يبلغ الذين عهد اليهم بالتنفيذ الا يوم ٢٤ يوليو عندما استدعي المهندس محمود يونس زميله في التدريس بكلية اركان الحرب وابلغه بالخطة فلم يتمالك نفسه من تقبيله في خده وهو يهنئه .

ولكنه جمع زملاءه اعضاء مجلس قيادة الثورة الذي كان كيانه قد انتهى بانتهاء فترة الانتقال وانتخاب جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية في ٢٥ يونيو ١٩٥٦ ... عقد اجتماعا صغيرا حضره معه عبد الحكيم عامر وعبد اللطيف بغدادي وزكريا محيي الدين لمناقشة الموضوع .. اقترح عبد الحكيم عامر الاكتفاء بزيادة الرسوم ... ولكن جمال عبد الناصر اوضح له ان ذلك لا يكفي لتمويل السد العالي ، بل ان صافي ارباح الشركة وهي ٣٢ مليون جنيه في العام (ودخلها ٩١ مليون) يعتبر اقل مما يتطلبه هذا المشروع الكبير .
وفي هذه الجلسة تم تكليف عبد الحكيم عامر بالاتصال بالسفير السوفييتي الجديد كيسليف لبحث امكانية تمويل السوفييت لمشروع السد العالي .
وعقد اجتماعات منفردة اخرى مع زملائه اعضاء المجلس ... ولم ينس استدعاء جمال سالم وحسن ابراهيم اللذين لم يكن لهما مركز رسمي في جهاز الحكم في هذا الوقت .
وافق الجميع بلا تردد .
يقول زكريا محي الدين ان اعضاء المجلس الذين اجتمع بهم جمال عبد الناصر قد ناقشوا المخاطر التي قد تتعرض لها مصر عقب التأميم ، وانه قد استقر الرأي على ان نسبة المخاطر تمثل ٣٠٪ الى ٤٠٪ ، ولذا فقد استقر الرأي على السير في هذه العملية على اعتبارها (مخاطر محسوبة) .

وكان الاحتمال الاغلب عندهم هو دفع اسرائيل للهجوم وكان هذا احتمالا مرجحا عن أي غزو بريطاني او فرنسي .

وبعد هذه الجلسة بدأ اتخاذ الخطوات التنفيذية للتأميم .

كلف جمال عبد الناصر وزير الاقتصاد الدكتور عبد المنعم القيسوني باعداد مشروع قانون التأميم .

واشترك في وضع القانون محمد علي الفتيت عضو مكتب هيئة قناة السويس حيث كان رئيسه الدكتور حلمي بهجت بدوي متغيبا في الخارج، المستشار بدوي حمودة ممثلا لمجلس الدولة والمستشار حسن نور الدين مستشار وزارة الداخلية .

اقترح بعض المستشارين وضع الشركة تحت الحراسة مستندين الى مخالفات الشركة وتلاعبها ... ولكن جمال عبد الناصر أصر على التأميم .

واستدعى جمال عبد الناصر الدكتور مصطفى الحفناوي يوم ٢٤ يوليو من عزبته قريبا من الاسكندرية عن طريق ضابط شرطة لا يعرف سبب الاستدعاء ثم طائرة حربية الى القاهرة ، واخيرا الى حديقة منزل جمال عبد الناصر بمنشية البكري ، الذي صارحه بأنه سيحقق فكرته ويؤمم القناة ، وطلب منه المساهمة في اعداد مشروع التأميم .

ولكن الدكتور مصطفى الحفناوي اصابه الهلع وطلب تأجيل التنفيذ عدة شهور لتهيئة الراي العام قائلا له (اني أكاد اسمع باذني ازيز الطائرات التي ستهجم علينا) .

حتى الذين عاش التأميم حلم حياتهم ، والذين حصلوا على الدكتوراه عن القناة ، والذين بشروا بهذه الدعوة في الكتب والندوات واصدروا مجلة خاصة لها صدمتهم المفاجأة في مواجهة الامر الواقع واهتزت اعصابهم ... الا ان جمال عبد الناصر كان قد حسم رأيه وقر قراره .

وطلب من الدكتور مصطفى الحفناوي ان يروي قصة القناة لعدد من الاشخاص لم يكن يعرفهم ... استدعاهم جمال عبد الناصر فرواها الى ما بعد منتصف الليل ، ليزيد الحاضرين وضوحا عن ابعاد المأساة ، ويضاعف عزمهم على مجابهة هذه الخطوة الجريئة ... واخيرا طلب منه جمال عبد الناصر الا يتصل بأحد مطلقا حتى يعد القانون ويحضره له في اليوم التالي ، حيث كان اللقاء في مكتبه بمجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ يوليو في العاشرة مساء .

وقال له جمال عبد الناصر انه يتفاء ل من هذه الغرفة التي اتخذ فيها قرار صفقة الاسلحة ، وزاجع معه القانون واجرى عليه بعض التعديلات ثم تفرغ لكتابة خطبته التي كان مقررا ان يلقيها مساء ٢٦ يوليو في الاسكندرية كما اعتاد كل عام ، وهو ذكرى رحيل الملك فاروق من مصر عن طريق ميناء سراي رأس التين .

كان الخبر كبيرا ... والدول الكبيرة تتابع خطوات جمال عبد الناصر لمعرفة رد فعله على قرار سحب التمويل ... وتأرجحت التوقعات وخاصة بعد خطبته التي هاجم فيها اكاذيب الامريكان عن موقف الاقتصاد المصري وقال لهم موتوا بغيظكم ان مصر ستبني السد العالي ولو بأظافر ابنائها ..

ماذا كان يدبر ؟ عقد حلف مع الاتحاد السوفييتي ؟ قطع العلاقات مع الولايات المتحدة ؟ كان الصحفيون كخلية نحل يبحثون عن الخبر المثير الذي توقعه الجميع في خطاب المنشية .

ولم يصل احد الى الحقيقة ... عندما قال احد مخبري السفارة الفرنسية يوم ٢٣ يوليو باحتمال التأميم قوبل كلامه بسخرية مهذبة كما يقول جان لاكوتير في كتابه عن عبد الناصر .

وقبيل خطابه في ميدان المنشية استدعى جمال عبد الناصر اعضاء الوزارة الى منزله الصيفي اثناء ذلك العام ، وابلغهم بخبر التأميم الذي سيعلنه بعد دقائق .

لم يعترض احد من الوزراء ، ولكن فتحي رضوان اقترح عدم الربط بين سحب تمويل السد العالي وبين تأميم القناة ، لان لذلك ــ حسب رأيه ــ عيبين أولهما انه ينتقص من حق مصر في التأميم ، والثاني عدم رغبته في الربط بينه وبين الاعتداء علينا حتى لا يقال اننا نستغل القناة كأداة في الضغط الوطني .

كان اعتراض فتحي رضوان شكليا لا يتناسب مع حجم الخبر نفسه ، ولم يؤثر في مشروع الخطبة التي اعدها جمال عبد الناصر .

كان ميدان المنشية كعادته كل عام يزخر بعشرات الالوف من الناس ، ولكن مشاعرهم في هذا العام كانت تختلف عن مشاعرهم في الاعوام السابقة ...

كان جمال عبد الناصر قد حقق عدة انتصارات ... منها هزيمة حلف بغداد وقصر دخوله على العراق من الدول العربية ، وعقد صفقة الاسلحة التشيكوسلوفاكية التي قوبلت بتأييد شعبي جارف واعلان الدستور والافراج عن عدد كبير من المعتقلين السياسيين وبعض الذين حكمت عليهم محكمة الثورة واحتفال البلاد يوم ١٨ يونيو بجلاء آخر جندي بريطاني عن أرض مصر .

لم تكن مشاعر الجماهير غاضبة او سلبية كما كانت عام ١٩٥٤ عندما استغل الاخوان المسلمون موجة الرفض لاتفاقية الجلاء لما احاط بها من شبهة التحالف مع بريطانيا ، واطلقوا الرصاص على جمال عبد الناصر في

نفس الشرفة التي وقف يخطب فيها اليوم .

كانت خطبة جمال عبد الناصر في ذلك اليوم ، ٢٦ يوليو ١٩٥٦ قمة خطبه ، واعظمها تأثيرا في الجماهير ، واشدها اثارة ... فهو لم يعلن خبر التأميم دفعة واحدة ، وانما مهد له بطريقة درامية ، واختار اسم ديلسبس اشارة لفريق تنفيذ التأميم برئاسة المهندس محمود يونس ، لكي يبدأ عمله.

واثناء القاء الخطبة توجه فريق الى مبنى الشركة الرئيسي بجاردن سيتي بالقاهرة وفريق آخر برئاسة محمود يونس الى مقر الشركة بالاسماعيلية ، اما محمد رياض محافظ بور سعيد فقد قابل محمود يونس في الاسماعيلية عصر يوم ٢٦ يوليو وابلغه بقرار التأميم واستدعى الى مكتبه مديري الشركة ، بينما احتل فريق ثالث كل مكاتب الشركة في بورسعيد .

تمت العملية في هدوء ودقة رغم ضيق الوقت الذي مضى بين الابلاغ والتنفيذ .. وارتجت مصر كلها قبل ان تنتهي الخطبة بالتصفيق وهتاف التأييد وكلمات الحماس .. وارتج العالم الذي هزه الاجراء الكبير .

كان تأميم القناة حلما بل خيالا ، فأصبح حقيقة ... وتشكل اول مجلس ادارة مصري لادارة القناة من الدكتور حلمي بهجت بدوي رئيسا والمهندس محمود يونس نائبا للرئيس والدكتور محمد احمد سليم والمهندس محمد القشيري والدكتور مصطفى الحفناوي والمستشار بدوي حمودة ومحمد علي الفتيت وبرهان سعيد .

واثناء القاء جمال عبد الناصر لخطبته في ميدان المنشية ، كان ايدن يتناول العشاء في داوننج ستريت مع الملك فيصل ونوري السعيد وبلغه خبر التأميم من احد سكرتيريه الخصوصيين ، فأبلغ ضيوفه بذلك .

ويقول في مذكراته انهم (رأوا فيه بوضوح قلبا لكل الاتجاهات والافكار والامال التي كنا نتحدث فيها) وادركوا على الفور ان الكثير يتوقف على الهزيمة التي سيقابل بها هذا التحدي .

كان نوري السعيد اكثر الموجودين تحمسا لضرب عبد الناصر بينما كان ايدن يتوقع لمصر الفشل في ادارة القناة .

وانتهى العشاء مبكرا ليجتمع ايدن مع كبار السياسيين والعسكريين في حكومته ومع السفير الفرنسي والقائم بالاعمال الامريكي .

وعلق ايدن على سحب عبد الناصر لمبلغ خمسة ملايين جنيه مصري من اموال الشركة كانت مودعة في البنك العثماني بقوله (ان رجلا له سجل ناصر يجب الا يسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا) .

وبدأ ايدن حركته نحو استخدام العنف ، فاتصل بايزنهاور برقيا يوم

٢٧ يوليو واوضح له ان الضغط السياسي والاقتصادي وحدهما قد لا يكفيان لردع جمال عبد الناصر وانه لا بد من وضع احتمال تدخل عسكري ... وارسل ايزنهاور روبرت مورفي من وزارة الخارجية الامريكية الى لندن ، ثم تبعه دالاس الذي كان في رحلة الى امريكا اللاتينية يوم التأميم .

وارسلت الحكومة البريطانية مذكرة احتجاج رسمية الى الحكومة المصرية احتجاجا على الاستيلاء على قناة السويس ... ولكن المذكرة اعيدت الى السفارة البريطانية ــ كما كتب ايدن في مذكراته ــ مشفوعة بقصاصة غير ممضاة مكتوب عليها (تعاد الى السفارة البريطانية) .

وبدأ الضغط الاقتصادي على مصر فورا ... جمدت بريطانيا حسابات مصر الجارية من الاسترليني وفرضت الحماية على اموال وممتلكات شركة قناة السويس في لندن كما حظر تصدير اية اسلحة او مواد عسكرية الى مصر . ومنعت اربع مدرعات مصرية كانت في الموانيء البريطانية من السفر .

كان جملة ما جمدته بريطانيا ١١٢ مليون جنيه استرليني ، وتبعتها امريكا فجمدت ايضا ٦٠. مليون دولار كانت لمصر هناك ، ولكنها لم تجمد العمليات الجديدة كما فعلت بريطانيا .

وعقد في اول اغسطس اجتماع بين وزراء خارجية بريطانيا (سلوين لويد) والولايات المتحدة (جون فوستر دالاس) وفرنسا (كريستيان بينو) ... ولخص دالاس موقف امريكا فيما يلي :

١ ــ ان بقاء القناة تحت سيطرة دولة واحدة بغير اشراف دولي امر لا يحتمل .

٢ ــ يجب اتخاذ معاهدة ١٨٨٨ اساسا للمناقشة لتجنب التعقيدات فيما يتعلق بقناة بنما .

٣ ــ القوة هي آخر طريقة يلتجأ اليها ولكن الولايات المتحدة لا تستبعد استخدام القوة .

٤ ــ يجب تعبئة الرأي العام العالمي لصالح فكرة وضع القناة تحت ادارة دولية .

٥ ــ يجب ان نحاول جعل اراء الدول الثلاث مقبولة من اغلبية تتألف على الاقل من ثلثي مؤتمر الدول البحرية المزمع دعوته .

وقال دالاس في معرض تفسيره لموقف امريكا (ان عبد الناصر يجب ان يلفظ القناة ولا يبتلعها) .

ولكن السياسة الامريكية لم تكن تجاري حدة الرغبة الفرنسية او

الانجليزية في الوصف بجمال عبد الناصر ، لاقتراب موعد الانتخابات الامريكية وحرص ايزنهاور على عدم الدخول في مناورات تعرض موقفه الانتخابي للضعف ، بينما الفرنسيون يخشون من تأثير تأميم القناة مع رفع معنويات الثوار الجزائريين .

كان دالاس يتبنى فكرة ان جمال عبد الناصر كان يفكر في تأميم القناة منذ وقت طويل بينما كان بينو يرى ان امريكا هي المسئولة عن القرار لسحبها تمويل السد العالي وانه يجب الا تخفي نفسها من الاهتمام بعواقبه .

وتقرر الدعوة لعقد مؤتمر من الدول البحرية يوم ١٦ اغسطس وتضمن البيان الثلاثي الذي صدر في ٢ اغسطس تحديد هذه بالدول الثمانية التي وقعت على معاهدة القسطنطينية ، ست عشرة دولة رئيسية تستخدم القناة (١) .

لم تحضر دولتا مصر واليونان .

لم يذهب جمال عبد الناصر الى المؤتمر رغم نصيحة نهرو وتيتو له بالذهاب .. لهجوم ايدن عليه قائلا (معركتنا ليست مع مصر ولكنها مع ناصر) ... وارسل بدلا منه علي صبري ليكون قريبا من أعضاء الوفود في لندن لمناقشتهم وتوضيح الامور لهم ... ولم تذهب اليونان لعلاقاتها الخاصة ومصالحها المرتبطة بمصر .

كان واضحا ان المؤتمر خاضع للنفوذ الغربي ... فأغلبية الثلثين المطلوبة كانت لدول منضمة الى حلف الاطلنطي او حلف جنوب شرقي آسيا ... ولكن في يوم انعقاده ١٦ اغسطس — اضرب ٨٠ مليونا من العرب تأييدا لحق مصر وصدق ايدن عندما قال في مذكراته ان قناة السويس اصبحت قناة العرب .

انتهى المؤتمر في ٢٢ اغسطس الى قرارات تتضمن في تأكيد مبدأ الاشراف الدولي ، والاعتراف بحق السيادة المصرية مع ضمان دخل عادل مقابل استخدام القناة ، واقترح الدخول في مفاوضات بشأن عقد اتفاقية جديدة توكل مهمة ادارة القناة الى لجنة تضم مصر وعددا من الدول تختارها الدول الموقعة على الاتفاقية .

رفض القرار الاتحاد السوفييتي والهند واندونيسيا وسيلان ،

---

(١) الدول التي دعيت للمؤتمر هي استراليا والدانمرك وأثيوبيا وفرنسا والمانيا الاتحادية وايران وايطاليا واليابان وهولندا ونيوزيلندا والنرويج وباكستان والبرتغال واسبانيا والسويد وتركيا وانجلترا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي واندونيسيا وسيلان والهند واليونان ومصر .

واقترحوا تشكيل هيئة استشارية بحتة ليس لها أي سلطة على ادارة القنـــاة .

وتقرر بناء على بيان الدول الثمانية عشرة ارسال لجنة لعرض الامر على جمال عبد الناصر يرأسها روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا ومعه وزراء خارجية ايران واثيوبيا والسويد ولوي هندرسون ممثـلا للولايـات المتحدة ويلاحظ انها تمثل دولة واحدة من كل قارة .

ووصلت اللجنة الى القاهرة يوم ٢ سبتمبر . ولكن جمال عبد الناصر رفض قبول فكرة الاشراف الدولي رفضا باتا ، وفشلت البعثة في تحقيق غرضها رغم محاولات روبرت منزيس رئيسها .

وكان ايدن قد اعد خطة متشعبة ... عرض الامر على مجلس حلف الاطلنطي ، ونجح في الحصول على موافقته بعدم دفع رسوم القناة ... وكانت السفن البريطانية والفرنسية تدفع كل عام نحـو ٥٥٪ مـن هذه الرسوم تليها السفن الامريكية ثم الايطالية فالهولندية والنرويجية والالمانية ... وكان الجميع متفقين مع فكرة الحكومتين البريطانية والفرنسية فـي عدم دفع الرسوم الا الولايات المتحدة التي اعلن دالاس في مؤتمـر صحفي (ان قناة السويس لا تمثل مركزا رئيسيا من اهتمام الولايات المتحدة) .

وبدا واضحا ان تغيرا ما قد حدث في موقف حكومة الولايات المتحدة عبر عنه ايدن في مذكراته بقوله ان دالاس قد غير رأيه فجأة يوم ٤ سبتمبر بعد عودته من عطلة نهاية الاسبوع التي قضاها في جزيرة البط على بحيرة انتاريو ... فقد بدأ ينادي بتكوين جمعية للمنتفعين .

وقررت الحكومتان البريطانية والفرنسية الاستجابة الـى ذلك قبل عرض القضية على هيئة الامم المتحدة .

هذا ما كان في لندن وباريس بعد التأميم ... استعداد وتحفز لسلوك كافة السبل بما فيها الاستعداد للقتال .

اما في مصر ، فان شعبية جمال عبد الناصر ارتفعت الـى مستوى لم يحصله زعيم عربي في التاريخ الحديث ، واتخذ موقفا صلبا في مواجهـة المؤامرات الاستعمارية ... رفض فكـرة التدويل واطلـق عليهـا (لفظ) (مؤامرة) ...

وبذلت الادارة المصرية لقناة السويس جهودا خارقة لادارة القنـال في وقت رفض فيه ٦٠ مرشدا كانوا في اجازات بالخارج العودة الـى مصر من مجموع ٢٠٥ مرشدين .. وازداد ضغط الشركة واغراؤها للمرشدين بترك العمل في مصر ... عرض رئيس الشركة جاك جورج بيكو مرتب ثلاث

سنوات مقدما لمن يرفض العمل من المرشدين تحت الادارة المصرية ، ثم هدد بفقدان المرشدين الباقين لمعاشهم .

وكانت النتيجة خروج جميع المرشدين الاجانب عدا ١١ يونانيا رفضت حكومتهم التصريح لهم بمغادرة موقعهم في هيئة قناة السويس ... وبذا اصبح المجموع ٥١ مرشدا انضم اليهم عدد مناسب من المرشدين السوفييت واليوغوسلاف واليونانيين والامريكيين ايضا ولم تؤثر الضغوط الاقتصادية التي فرضتها بريطانيا وفرنسا على مصر حيث كانت تدفع بواخرهم رسومها في لندن ، دون ان تمنعها الادارة المصرية من المرور ، تفاديا لحدوث أزمة مفتعلة .

وكان جمال عبد الناصر قد قدر ان نجاح التأميم وسيطرة مصر على القناة يتأكد اذا مضى شهر دون تدخل البريطانيين ... قال ذلك للوزراء اثناء اجتماعهم به قبيل خطبته يوم ٢٦ يوليو ، وقال ايضا ان البريطانيين حسب المعلومات المتوفرة لديه لن يهاجروا قبل شهرين ، كما استبعد احتمال تدخل اسرائيل وذلك ردا على استفسار احد الوزراء .

وعندما تتابعت الاحداث ووصلت الى حد الدعوة لانعقاد (نادي المنتفعين) في مؤتمر لندن الثاني يوم ١٩ سبتمبر ، ارسل بولجانين خطابا الى ايدن يقول له فيه ان الاتحاد السوفييتي يطلب تسوية سلمية مع النظر الى مصالح كل الدول التي يهمها الامر .

وتساءل بولجانين في رسالته (كيف لا يبدي الاتحاد السوفييتي العطف على موقف مصر في الوقت الذي تدافع فيه عن سيادتها وارضها الوطنية) ؟

تحققت الفكرة الامريكية وانعقد نادي المنتفعين في مؤتمر لندن الثاني ... ومنه تقرر عرض الامر على هيئة الامم المتحدة ، تحقيقا لرغبة بعض الدول التي ارادت ان يساعد موقفها قرار في الهيئة .

قدمت المذكرة بريطانيا وفرنسا دون أن توقع عليها الولايات المتحدة، وعرضت القضية يوم ٥ اكتوبر على مجلس الامن الذي عقد جلسات سرية لمدة تسعة ايام ثم حولها الى علنية بعد قرار جماعي قائم على مبادىء ستة هي :

١ ــ ان تكون الملاحة في القناة حرة ومفتوحة ودون تمييز .
٢ ــ ان تحترم سيادة مصر .
٣ ــ ان تكون ادارة القناة منفصلة عن سياسات أي دولة كانت .
٤ ــ ان تحدد رسوم القناة باتفاق بين مصر والمنتفعين بالقناة .

٥ ـ ان تخصص نسبة عادلة من العائدات لتحسين القناة وتطويرها .
٦ ـ في حالات النزاع يسوى الامر بالتحكيم .

واعتبر هذا الاتفاق نصرا لمصر التي اثبتت نجاحها في ادارة القناة وقال همرشولد بعد التصويت على المبادىء الستة للدكتور فوزي وزير خارجية مصر (انها نتيجة ممتازة فبعدما انهى البريطانيون استعداداتهم العسكرية ضدكم ، مر القطار وفات المحطة) .

ولكن القطار لم يكن قد فات المحطة بعد .

كانت بريطانيا وفرنسا قد قدمتا توصيتين الاولى تقدم ضمانات للمنتفعين بالقناة هي في مضمونها ما اقترحته الدول الثانية عشرة والثانية توصي بفتح حركة المرور عبر القناة وفق معاهدة ١٨٨٨ هادفة بذلك السماح لاسرائيل لعبور القناة ... وكانت مصر تمنع المراكب الاسرائيلية من العبور رغم قرار مجلس الامن الصادر في اول سبتمبر ١٩٥١ بصورة رسمية ولو انها سمحت بمرور ٦٠ راكبا في الفترة من ١٩٥١ الى ١٩٥٤ لمراكب اسرائيلية لا ترفع العلم الاسرائيلي .

استخدم شيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفييتي الفيتو ضد التوصيات الانجليزية الفرنسية معتبرا ان فيها (قسرا لمصر على سلوك معين) .

وتقرر اجتماع وزراء خارجية انجلترا وفرنسا ومصر في جنيف يوم ٢٩ اكتوبر لبحث اسلوب تنفيذ المبادىء الستة .

ولكن ٢٩ اكتوبر كان يوم العملية المدبرة سرا للعدوان الثلاثي على مصر .

لم يكن العدوان مفاجأة ، ولكنه كان مستبعدا في تقدير عبد الناصر .

كل المعلومات كانت تشير الى استعدادات عسكرية تدبر لمهاجمة مصر .

١) ثروت عكاشة الملحق العسكري بفرنسا وصلته خطة تحركات القوات الفرنسية قبل العدوان بعشرة ايام عن طريق بعض الشيوعيين من المصريين الذين ابعدوا عن مصر وارسلها الى جمال عبد الناصر بخطاب خاص مع الملحق الصحفي عبد الرحمن صادق لتسليمه شخصيا الى جمال عبد الناصر ... وقد كتبه بخط يده من نسختين فقط ، ارسل واحدة واحتفظ بالاخرى .

٢) زكريا العادلي امام الملحق العسكري بتركيا وسفيرنا في الصين والهند بعد ذلك عرف كافة اسرار الحشد العسكري في قبرص واسرائيل عن طريق بعض المندوبين الاتراك الذين ارسلهم الى هناك ، عقب ملاحظته ان

الاتراك قد الغوا الاجازات واعلنوا حالة الطوارىء القصوى ... وارسل نتيجة معلوماته برقية يوم ٦ اكتوبر تقول (ستوجه انجلترا وفرنسا انذارا نهائيا الى مصر يعقبه عدوان جماعي بالتعاون مع اسرائيل في منتصف نوفمبر) ثم تبعها ببرقية اخرى تقول (رغم ان المعلومات عندي بأن الهجوم في منتصف نوفمبر الا ان الظواهر تدل على انه سيكون قبل آخر اكتوبر) ... ارسلها مع الملحق الاداري الذي سافر وعاد فورا ، وردت عليه المخابرات الحربية بأنه الملحق العسكري الوحيد الذي ابلغهم مثل هذه المعلومات ... ولما استشعر الخطر سافر بنفسه الى القاهرة يوم ١٩ اكتوبر ليبلغ عن امرين ... اولهما تدريب اسرائيل لفرد من عائلة الحوت لاغتيال جمال عبد الناصر ، والثاني تأكيد اخبار العدوان ... وقد التقى زكريا بعبد الحكيم عامر وابلغه بكل ما يعرفه دون ان يتلقى ردا شافيا ثم غادر القاهرة يوم ٢٧ اكتوبر دون ان تتاح له فرصة مقابلة جمال عبد الناصر رغم اصراره على ذلك .

٣) عقب عودة صلاح سالم من لندن حيث كان هناك وقت انعقاد المؤتمر الثاني ابلغ جمال عبد الناصر بأن العدوان مؤكد وحتمي .

٤) سرب الامريكيون معلومات الى سفيرنا في واشنطن بأن الجنرال كيتلي قد اختير لقيادة غزو مصر وانه يدرب رجاله في قبرص .

وهكذا لم تكن احتمالات العدوان مجهولة ... فان تصريحات ايدن امام مجلس العموم كانت تشير الى ذلك عندما اوضح انه اذا رفضت الحكومة المصرية تقديم القدر اللازم من التعاون معها فانها ستكون قد خرقت اتفاقية ١٨٨٨ (وفي هذه الحالة سيكون لحكومة جلالة الملكة والاطراف المعنية الاخرى حرية اتخاذ اية خطوات تراها لازمة اما عن طريق الامم المتحدة او بوساطة وسائل اخرى لضمان حقوقها) .

وتهديدات روبرت مانزيس بأن مؤتمر لندن الاول لم يستبعد استعمال القوة قيلت لجمال عبد الناصر شخصيا .

وتصريح ايزنهاور في مؤتمر صحفي عقد يوم ١٩ سبتمبر عندما سئل عما اذا كان سيؤيد بريطانيا وفرنسا اذا اضطرتا لاستخدام القوة فقال (ان هذه البلاد لا يمكن ان تخوض حربا ما دمت اتولى منصبي هذا الا اذا دعي الكونجرس للانعقاد واعلن الحرب) ... دليل على ان احتمال العدوان الانجلو فرنسي كان واردا (وسحب فرنسا لسفيرها بالقاهرة بحجة ضبط سفينة مصرية تحمل اسلحة لثوار الجزائر) .

ولكن جمال عبدالناصر كان له تقدير خاص للموقف، يوم ٢٢ يوليو ادلى

بـه الى كينيث لوف في حديث صحفي بعد ذلك بثماني سنوات . قال فيه انه (استبعد لجوء البريطانيين الى التحالف مع الاسرائيليين لاستعادة القناة بالقوة لانهم يعرضون مراكزهم ومصالحهم في الشرق الاوسط للخطر ... اما بالنسبة لفرنسا فكانت غير راضية عن حلف بغداد وكنت اعتقد انهم منهكون في الجزائر بما لا يسمح لهم بالحملة ضدنا ... اما الامريكان فكان انطباعنا انهم لن يلجأوا اطلاقا الى استعمال القوة) .

وتقدير الموقف الذي نشره محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) والمؤلف من ١٤ نقطة يظهر مختلف الاحتمالات ، ولكنه يخلق تناسبا عكسيا بين الزمن واحتمالات العدوان ... كلما مضى الزمن كلما قل احتمال الغزو ... وانه اذا مضى شهر على التأميم فانه سيكون في امان من الغزو .

ويقول هيكل في نفس الكتاب انه (لما تمت الموافقة على المبادىء الستة قرر الرئيس عبد الناصر ان نسبة خطر الغزو قد انخفضت الى ١٠ في المائة بل انه استبعد عمليا احتمال الغزو) .

لم يتحقق استنتاج جمال عبد الناصر من تقدير موقفه ... وفوجيء يوم ٢٩ اكتوبر بخبر يقول ان الاسرائيليين قد اعلنوا انهم ارسلوا طابورا مدرعا الى سيناء للقضاء على الفدائيين ثم اعلنوا في نفس الليلة ان قواتهم تقترب من قناة السويس ، وذلك عندما ارسلوا قوات المظلات الى ممر متلا .

واجه اعضاء مجلس قيادة الثورة الذي اجتمع بهم جمال عبد الناصر الموقف على انه هجوم اسرائيلي فقط ... لم يشذ احد منهم برأي خاص : ولم يحاول ان يربط بين ذلك الهجوم واستعدادات انجلترا وفرنسا لغزو منطقة قناة السويس .

ويقول زكريا محي الدين ان المعلومات عن احتمالات غزو انجليزي فرنسي لم تستبعد تماما ، وانما نظر اليها على انها محاولة خداعية لصرف النظر عن غزو اسرائيلي ولذا فانه عندما بدأ الغزو الاسرائيلي بدا الامر كما لو ان تقدير موقفهم كان سليما .

ومع ذلك فان خطة الجيش كانت قد وضعت على اساس عدم استبعاد احتمال الغزو البريطاني الفرنسي نهائيا ، بل ان الخطة الدفاعية قد اعدت على اساس احتمالات انزال في بورسعيد او الاسكندرية ... وكان احتمال الاسكندرية اكثر ترجيحا لقربها من القاهرة مركز الحكم اذا كانت نية الهجوم هي القضاء على النظام .

وهنا يجب ملاحظة ان قوات الجيش المصري كانت ما زالت في مرحلة الانتقال من جيش لا تتوفر له الاسلحة الحديثة ، ولا تنظم وحداته على اساس التشكيلات القتالية بل على اساس اسلحة متباعدة غير مترابطة (مدفعية مشاة – مهندسين الخ) كما كان قبل الثورة ... الى جيش بدات تتدفق عليه الاسلحة السوفيتية الحديثة وما يتبعها من تنظيم جديد وعقيدة قتالية جديدة .

كان الجيش في رحلة الانتقال غير مستقر على ارض ثابتة من نواحي التسليح والتدريب والتنظيم والعقيدة القتالية ايضا .

وفي هذا الجو صدرت الاوامر للقوات المصرية المسلحة باحتلال ممر متلا بلواء مدرع ومهاجمته جوا ... وتحركت القوات فعلا .

ولكنه مع فجر اليوم التالي اتضحت الصورة الخافية ... ظهرت طائرات الاستطلاع البريطانية ؛ واستدعي السفيران المصريان في لندن (سامي ابو الفتوح) وباريس (كمال عبد النبي) لمتابعة المسئولين في وزارة الخارجية الانجليزية والفرنسية حيث تسلما انذارا جافا يطلب من كل من مصر واسرائيل ان توقف اطلاق النار وتنسحب عشرة اميال بعيدا عن جانب قناة السويس ، مع قبول مصر لقوات انجلو فرنسية في بورسعيد والاسماعيلية والسويس على ان يتم ذلك خلال ١٢ ساعة تنتهي في الساعة ٦٫٣٠ من صباح الاربعاء ٣١ اكتوبر والا فان قوات المملكة المتحدة وفرنسا ستتدخل بأية قوة تحتمها الضرورة لتأمين تنفيذ ذلك .

كان التحرك الاسرائيلي والانذار الانجلو فرنسي خيوطا مشتركة في نسيج واحد ، وخطة مدبرة لغزو مصر والاطاحة بنظامها الذي اخذ خطوات تقدمية غير منتظرة هزت من ثبات الاستعمار في المنطقة .

نبتت رغبة اسرائيل في العدوان عقب حصول مصر على الاسلحة السوفيتية ، فقد استدعى بن جوريون موشي ديان في اكتوبر ١٩٥٥ بعد ايام من اعلان الصفقة واعلان اقامة قيادة عسكرية مشتركة بين مصر وسوريا في ١٩ اكتوبر ١٩٥٥ وكلفه باعداد خطة الحرب قائلا في صراحة (لا بد ان يسقط النظام في مصر قبل ان تصل الاسلحة الروسية) .

يقول موشي ديان في مذكراته (اجتمعت مع بن جوريون في حجرته بفندق هاناس) بالقدس ... وفي نهاية الحديث أمرني باعتباره وزيرا للدفاع ان اكون مستعدا لاحتلال مضايق تيران مع شرم الشيخ وراس نصراني وجزيرتي تيران – صنافير – بفض تأمين الملاحة الحرة في خليج العقبة والبحر الاحمر) .

أعد موشي ديان الخطة وعرضت على مجلس الوزراء الاسرائيلي في ديسمبر ١٩٥٥ وتحدد موعد الهجوم بعد شهر من بدء العام الجديد ... ولكن مجلس الوزراء رفض الموعد قائلا انه لا بد من وجود مبرر ... وقال ديان (وكان من السهل خلق المبرر) .

وحصلت اسرائيل خلال هذه الفترة على طائرات مستير ٤ التي تنتجها فرنسا لحلف الاطلنطي وذلك بعد موافقة ايزنهاور ودالاس التي حملها مبعوثهما الخاص (هربرت هنري) .

وكتب بن زوهار مؤرخ حياة بن جوريون الرسمي يقول (كانت ازمة السويس بعدئذ طارئة وهي لم تغير في شيء من خطط اسرائيل الذي كانت ستهجم على اية حال ولكنها سهلت لها اصعب الامور ، السلاح والحلفاء وطبعا المبرر) .

وكانت خطة بريطانيا العودة الى منطقة قناة السويس وقاعدتها بأي ثمن ، وقد ثبت ذلك من تعليمات حصلت عليها المخابرات المصرية في منطقة القناة مرسلة من رئاسة القوات في لندن الى قيادة القوات في القناة ، وذلك عام ١٩٥٦ وفيها تشير الى ضرورة عمل مخابيء تحت الارض في ٦ معسكرات لتكون مخازن تخزن فيها الاسلحة والدبابات والمدفعية الباقية في منطقة القناة ولا ترحل ... وتشير التعليمات الى ضرورة حفظ علاقات طيبة مع بعض العملاء واحتمال عودة القوات خلال الشهور الستة الاولى بعد الانسحاب .

وعندما علم جمال عبد الناصر بهذه التعليمات توجه سرا مع ضابط المخابرات المسئول الى منطقة القناة حيث امضى الصباح في منزله ثم نزل ليلا بنفسه ليتفقد المخازن السرية ووجد مدخلها من احد المكاتب الى دهليز ثم سلم حديد ينزل الى عمق ٥ امتار ، ثم يمتد بطول نصف كيلو واتساع ١٠ امتار وهو مليء بالمدافع المشحمة وصناديق الذخيرة .

ومع ذلك كانت ردود الفعل عند جمال عبد الناصر هادئة ... اوقف عمليات الفدائيين في غزة تحاشيا لاستفزاز الاسرائيليين وخلق مبرر لهم للهجوم .. كما صرح للخبراء البريطانيين بسحب الذخيرة من قاعدة القناة وارسالها للخارج دون اعتراض وذلك تنفيذا لبنود الاتفاقية وحرصا على عدم التصادم رغم علمه بأنها قد تستخدم في غزو جديد لمصر .

واجتمع مجلس الوزراء مساء نفس اليوم ــ ٣٠ اكتوبر ــ واتخذ قرارا برفض الانذار بعد ان اتفق الرأي على ذلك سوف يكون عودة

للاحتلال؛ كارثة على مصر ... واستدعى سير هنري تيليان وابلغه رفض مصر .

وتحول جمال عبدالناصر كلية الى مواجهة الموقف العسكري... وتغير تقدير موقفه بعد ان ظهرت كل خيوط المؤامرة ، ووجد ان ارسال قوات الى سيناء يعني التضحية بها بين القوات الاسرائيلية من الشرق والقوات الانجليزية الفرنسية المشتركة التي تستهدف احتلال القنال فتحصرها من الغرب .

وكان جمال عبد الناصر حتى ذلك الوقت قريب العهد من عمله مدرسا في كلية اركان الحرب كما كان عنده ايضا الحس الشعبي الذي انفعل به من تعاطف الجماهير وتأييدها الجارف ... ولذا قرر سحب قوات الجيش الى منطقة القناة لتقف مع الشعب في دفاعه عن حريته وقناته، بدلا من دفعها الى سيناء وهي ١/٨ مساحة مصر كلها والقوات المتيسرة ليست كافية للدفاع عنها في ظروف تفرض الصحراء فيها متاعب ادارية وفنيــة كبيرة .

ولم يدرك عبد الحكيم عامر للوهلة الاولى فكرة عبد الناصر من الانسحاب ، وظل في مناقشة عاصفة معه طوال الليل مما اخر سحب الدبابات قليلا .

وحدث خلاف جديد بين جمال عبد الناصر وبين العسكريين من رجال الجيش الذين تصوروا أن التحام الشعب بالجيش يكون بسحب القوات الى غرب القناة حيث تزيد كثافة السكان ونقلوا مركز الرئاسة الى الزقازيق فعلا . ولكن جمال عبد الناصر اوضح لهم انه لا يجوز تـرك القناة عارية بلا دفاع لان ذلك يسهل للمهاجمين اقتحامها دون عناء وانهم سيقفون عند حدود ذلك دون رغبة في اقتحام الدلتا او الوصول الى القاهرة .

لذا كان الانذار البريطاني الفرنسي بمثابة صدمة كهربائية افاقت كل الحواس واظهرت الامر الواقع ، ووضعت جمال عبد الناصر في مواجهة احتمالات خطيرة .

وثبت فيما بعد ان خطة العدوان قد وضعت اللمسات النهائية فيها خلال اجتماع احيط بسرية شديدة وتم في ضاحية سيفر قريبا من باريس في الفترة من ٢٢ اكتوبر الى ٢٤ بين بن جوريون وموشي ديان وسلوين لويد وزير الخارجية البريطـانية ، وجـي موليـه رئيس وزراء فرنسـا وكريستيان بينو وزير خارجيتها .

تمت اجتماعات سيفر في الوقت الذي كان اعضاء مجلس الامن ينهكون

فيه انفسهم ببحث موضوع التأمين وتوصلوا فيه الى النقط التي اختاروا ٢٩ اكتوبر موعدا لاجتماع جنيف بين وزراء خارجية مصر وفرنسا وبريطانيا ... ولكن اجتماع سيفر اختار هذا التاريخ موعدا للعدوان وليس موعدا لاجتماع من اجل السلام .

ووقع الاختيار بعد مناقشة خطة (شال) الفرنسية وخطة (موسكتير) البريطانية التي وضعها جنرال ستوكوبل ، على اختيار الخطة البريطانية بعد تعديلات بسيطة ادخلت عليها وسميت (موسكتير الجديدة) .

وكان الهجوم الاسرائيلي في الموعد المقرر ... والانذار الفرنسي البريطاني المشترك تبعا للخطة الموضوعة والتوقيت .

الغريب ان بن جوريون صرح بعد اجتماعات سيفر بأنه يسعى للسلام ويود ان يجتمع مع جمال عبد الناصر بشأن عقد تسوية في الوقت الذي كانت فيه كل خيوط المؤامرة قد نسجت . وذلك تبعا لما ورو في حديث لعبد الناصر يوم ٢٥ ابريل ١٩٦٠ .

واستقرت الخطة الدفاعية على اساس تفكير جمال عبد الناصر ، واعدت خطة الدفاع عن القناة ، وبدأ التنسيق بين القوات المسلحة وبين جيش التحرير الشعبي الذي شكل وعين كمال الدين حسين قائدا له في ٩ اغسطس ١٩٥٦ ، واتخذ من مدينة الاسماعيلية مقرا له ... وعندما بلغ جمال عبد الناصر ان عملية الانسحاب قد تمت قال (شعرت على الفور ساعة اخطرت ان مصر كسبت المعركة حين احبطت خطة العدو ... ولو ان قرار الانسحاب قد تأخر ٢٤ ساعة فقد كان الامر كله قد انتهى) .

تباينت في مواجهة العدوان ردود فعل اعضاء مجلس القيادة الذين لم يكن يجمعهم شكل تنظيمي ولكن جمال عبد الناصر كان دائم الاستشارة لهم ، حريصا على الارتباط بهم من موقعه الشرعي رئيسا للجمهورية ... وقد ظهر التباين في اوضح صورة بعد بدء الغارات البريطانية على المطارات الحربية يوم ٣١ اكتوبر .

كان عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة غير مؤهل في شخصيته لتولي هذا المنصب الخطير ، ولكن جمال عبد الناصر عينه فيه خلال ازمة التناقض مع محمد نجيب ليضمن السيطرة على الجيش لثقته من ولاء عبد الحكيم له باعتباره صديق عمره والذي كان يسكن معه في سكن واحد قبل الزواج .

ولذا فان مواجهة عبد الحكيم عامر للعدوان لم تكن ايجابية ولا ديناميكية ... وشخصيته الطيبة المحبوبة لم تكن ذات تأثير نافذ في ظروف

المعركة ... كان تحريكه للقوات واعداده للخطط ، رغم استعانته حتى ذلك الوقت في مكتبه بعدد من خيرة الضباط اركان الحرب ، لم يكن متناسبا مع خطورة الموقف ... فأصدر امرا لمحمد رياض محافظ بورسعيد بتولي قيادة القوات المسلحة في بور سعيد وهو مدني متخرج في كلية الحقوق ، كما ان مساعده قائد القوات الجوية محمد صدقي محمود ترك طائراته فريسة للهجوم وهي رابضة على الممرات الجوية دون تحليق ، مما ادى الى تحطيمها فعلا في يوم واحد ، رغم ان خطة المعتدين قد قدرت لذلك يومين .

اما صلاح سالم فقد كان رد الفعل عنده اكثر وضوحا ... صارح جمال عبد الناصر وقنابل البريطانيين تتساقط فوق المطارات ومحطة الاذاعة وبورسعيد بأنه قد ادى دوره وخدم بلده في حدود قدراته ، وان عليه ان يذهب الى السفير البريطاني ويسلم نفسه له لانهم يطالبونه شخصيا كما قال ايدن .

والتفت جمال عبد الناصر الى زملائه بهدوء وبلا انفعال يسألهم عما اذا كان هناك أحد يتفق مع صلاح في الراي ... ولكن احدا لم يكن معه .

وقد برر صلاح سالم هذا الموقف فيما بعد بأنه لم تكن عنده اية فسحة من الامل في مقاومة عدوان ثلاثي على مصر في وقت لم يكن الجيش فيه قد استكمل معداته او تدريبه او تنظيمه ... وانه كان في موقف الاختيار بين جمال عبد الناصر وبين مصر ... فاختار مصر .

لم يتخذ جمال عبد الناصر موقفا فوريا من صلاح سالم الذي ذهب الى القيادة العامة للقوات المسلحة حيث دارت بينه وبين عبد اللطيف وعبد الحكيم عامر مناقشة حول موقفه انتهت الى قيامه ولبسه ملابس جندي المراسلة الذي يقدم القهوة وصدور تعليمات له من عبد الحكيم عامر بالذهاب الى السويس ليكون مسئولا عن المقاومة الشعبية فقام من فوره وسافر اليها دون أن يتوجه الى منزله .

قال جمال عبد الناصر فيما بعد ان اكثر من اثنين من اعضاء مجلس القيادة اظهرا حماسا وتأييدا لاقتحام المعركة كانا عبد اللطيف بغدادي وزكريا محي الدين .

ويقول عبد اللطيف البغدادي انه ظل ملازما جمال عبد الناصر في كل تحركاته الى الحد الذي جعلهما ينامان في غرفة واحدة بمبنى مجلس قيادة الثورة طوال مدة العدوان .

وتفرغ زكريا محي الدين للسيطرة على الموقف الداخلي واعداد المقاومة السرية .

كان جمال عبد الناصر قد قرر ان يقاتل ولا يستسلم ... اعلن ذلك من منبر الجامع الازهر المكان الذي خرجت منه المظاهرات الوطنية على مدى التاريخ ... بصوت متحشرج فقد كانت الانفلوانزا قد داهمته قبل العدوان وسمعه الملايين من العرب يقول (انا في القاهرة سأقاتل معكم ضد أي غزو والى آخر نقطة دم ... سأبقى في القاهرة مع اولادي .. لن نستسلم ابدا ، سنبني بلدا وتاريخا ومستقبلا ... وسننتصر) .

ومع ذلك اجتمع عدد من رجال الاحزاب وقرروا مطالبة جمال عبد الناصر بالتنحي عن منصبه لان العدوان يستهدفه اكثر مما يستهدف مصر ... ولكنهم لم يجدوا من يجرؤ على رفع هذا الطلب اليه ... كانوا كمن يبحث عمن يضع الجرس في رقبة القط .

وصل هذا الخبر الى اجهزة الامن المصرية عن طريق احد الذين حضروا الاجتماع والذين كان قد استقر رأيهم على تكليف سليمان حافظ بمقابلة جمال عبد الناصر .

لم تتم المقابلة لانه صدرت اوامر اعتقال الذين حضروا الاجتماع وهم سليمان حافظ ومحمد صلاح الدين .

واعتقل معهم عدد من السياسيين السابقين مثل فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج حيث بقوا في المعتقل حتى افرج عنهم في منتصف فبراير ١٩٥٧ .

وقد استدعى هذا الموقف من رجال الاحزاب ، موقفا آخر من اللواء محمد نجيب الذي كانت اقامته ما زالت محدودة في فيللا زينب الوكيل حرم مصطفى النحاس بالمرج ، وكان يعيش حياة قاسية بعد ان انتزع بعض ضباط الشرطة العسكرية اثاث منزله وحرموه من كتبه ومذكراته واصدقائه .

صدرت الاوامر بنقل محمد نجيب الى طما في جنوب الصعيد ليكون بعيدا عن القاهرة في حالة ما اذا حاولت قوات العدوان الاستعانة به اذا انتصرت ... وكانت الرحلة شاقة وقاسية وعومل فيها معاملة لا تليق بقائد ثورة ورئيس جمهورية وضابط برتبة لواء ... وكان ذلك بتصرف ذاتي من بعض صغار الضباط الذين لا يرون في انفسهم الا ادوات تعذيب وامتهان دون تفكير ... واستمر محمد نجيب في هذا المكان القصي في منزل محام قريب لاحمد انور مدير الشرطة العسكرية حتى تم الجلاء الثاني ، وعاد الى تحديد الاقامة من جديد في منزل المرج .

واذا استثنينا محمد نجيب الذي لم يأخذ موقفا مضادا لقيادة جمال عبد الناصر ولم يصدر منه تصريح مضاد ، ولم يكن في ظروف تسمح له بالتعبير عن رايه ... فاننا نجد ان موقف السياسيين السابقين الذين هرعوا للاجتماع ومطالبة عبد الناصر بالتنحي .. وموقف صلاح سالم في الوهلة الاولى ، وموقف عبد القادر حاتم الذي كان مسئولا عن مصلحة الاستعلامات، والذي نبهه جمال عبد الناصر الى ان مسئوليته هي رفع معنوية الجماهير ، وليس التحذير من خطر العدوان لما حادثه في ذلك كما يرويه انطوني ناتنج في كتابه (ناصر) .

موقف هؤلاء يدل على عدم سلامة تقديرهم لظروف مصر في مواجهة العدوان .

كان جمال عبد الناصر خلال الفترة التي اعقبت خروج محمد نجيب قد استطاع ان يؤكد زعامته الوطنية وان يشق طريقا تقدميا للجماهير ، يثبت فيه معالم بارزة مثل قرارات باندونج والانتصار في معركة الاحلاف ، وصفقة الاسلحة وابراز دور القومية العربية وتأميم القناة ... ومن هنا اكتسبت شخصيته ثقة الناس ... وتخلى الكثيرون عن ارتباطاتهم الحزبية القديمة ووجدوا فيه بديلا ثوريا معبرا عن ارادة الملايين من ابناء الامة العربية .

وبذا لم يعد الفصل سهلا او ممكنا بين شخصية جمال عبد الناصر وبين الشعب .. وسقطت الدعاية الاستعمارية التي حاولت في ذلك الوقت ان تظهره في مظهر الديكتاتور .. فهو لم يكن في هذه الفترة قد اصبح حاكما مطلقا بعد ، ولكنه كان قائدا يقود الجماهير في سلم الصعود .

كان قصورا في تفكير هؤلاء الساسة المشتركين في الاجتماع ، وتصورا بأنهم قادرون في مرحلة المد الوطني ان يركبوا الموجة من جديد .

بدأ العدوان الذي استبعد جمال عبد الناصر احتمال وقوعه اذا تأخر عن التأميم شهرا ... وقع بعد ثلاثة شهور نتيجة للظروف السياسية التي سبق توضيحها ونتيجة ايضا لبعض المشاكل العسكرية البريطانية ، الامر الذي اجبرهم على تأجيل الخطة التي وضعت وصدق عليها في اواخر يوليو ١٩٥٦ .

كان هناك نقص في جنود المظلات البريطانيين ونقص في عدد الطائرات التي تحملهم ونقص ثالث في عدد السفن حاملة الجنود ، مما اضطر الانجليز الى الاعتماد على الفرقة الفرنسية العاشرة من جنود المظلات بعد ادماج الالاي ١٦ البريطاني معها ... كما ان القيادة البريطانية اضطرت الى

اتخاذ جزيرة مالطة مركزا للعمليات بدلا من قبرص التي لا تصلح عمق موانيها لاستقبال بواخر الانزال والمسافة بينها وبين بورسعيد ٩٠٠ ميل تستغرق ستة ايام كما ورد في مذكرات ايدن .

بدأت العمليات في ظروف معارضة متزايدة للحكومة البريطانية . كانت وزارة الظل لحزب العمال قد اعلنت انها لا تبرر استخدام القوة الا بقرار من الامم المتحدة ومعنى ذلك رفض الموافقة على استخدام القوة كما ان دعوة الاحتياط للجيش أثار تيارا من المعارضة ظهر على صفحات الصحف ، وقامت المظاهرات ضد ايدن اثناء تحركاته في لندن كما قال في مذكراته يوم هاجمته الجماهير يوم عيد زواجه ... ولم يساند ايدن حضور تشرتشل زعيم حزب المحافظين السابق جلسة مجلس العموم .

كانت خطة الغزو مقسمة الى ثلاث مراحل ... الاولى ضرب المطارات والطائرات والسفن التي قد تسد القناة ... والثانية ضرب الاهداف والمنشئات العسكرية بقصد تدمير اي دفاع منظم ... والثالثة انزال جنود المظلات من قبرص ثم وصول القوات بعد ذلك من مالطة بعد ٢٤ ساعة على ان تستغرق العملية منذ الطلقة الاولى الى احتلال منطقة القناة فترة لا تزيد عن عشرة ايام الى اسبوعين أي من ٧ الى ١١ نوفمبر .

كانت الخطة بطيئة نوعا ما تخشى مفاجأة وجود عدد من الخبراء السوفييت يقودون الطائرات او المدرعات المصرية ، خاصة وانه كانت هناك معلومات بأن مصر كانت قد تلقت غواصتين سوفييتيتين كما ذكر ايدن في مذكراته. ويذكر الدكتور مصطفى الحفناوي انه كان قد ارسل خطابا يرجو دعم السلاح البحري بغواصتين بعد التأميم لحماية مداخل القناة من خطر اغراق الاعداء لبعض السفن فيها .

ولكن الظروف هي التي اجبرت مصر على سد القناة عندما تحركت في منطقة البحيرات المرة ست من سفن الشحن محملة بالاسمنت لاغراقها في القناة عند بدء الغزو ، وعلم الانجليز بها فأغاروا عليها لمنعها من ذلك ، ولكن واحدة منها نجحت في سد القناة سدا محكما ونجحت الاخرى بشكل حاجز جعل العبور في القناة مستحيلا .

وتشعب اثر العدوان في عدة اتجاهات ... العمليات العسكرية والصراع السياسي في هيئة الامم ومواقف التأييد العربية ، وموقف الاتحاد السوفييتي ثم موقف الولايات المتحدة ودول عدم الانحياز .

واذا كانت مصر قد تلقت الانذار وحدها فان ردود الفعل في معظم انحاء العالم كانت معها تساندها وتشد من ازرها .

في العمليات العسكرية توقف الهجوم الاسرائيلي بعد الانذار الانجلو فرنسي بعيدا عن القناة تبعا للخطة المشتركة ، وواصلت الطائرات البريطانية عملياتها التمهيدية تنفيذا للخطة التي قادها من قبرص جنرال تشارلس كفيلي مع الاميرالد الفرنسي بيير بارجو .

وعرضت القضية على مجلس الامن صباح ٣٠ اكتوبر ، وقدم هنري كابوت لودج مندوب امريكا مشروع قرار بانسحاب اسرائيل الى ما وراء خطوط الهدنة ، ولكن انجلترا وفرنسا استخدمتا حق الفيتو لان ايدن اعتقد انه (كان هدف امريكا من هذه الحركة هو اخذ الموضوع في يدها بدلا من فرنسا وبريطانيا وجعل النداء الذي وجهناه الى مصر واسرائيل لا داعي لـه) .

واستخدم البريطانيون والفرنسيون الفيتو مرة اخرى في مشروع قرار سوفييتي ، وحاولت يوغوسلافيا والهند نقل الموضوع الى هيئة الامم التي كانت تضم ٨٠ دولة في ذلك الوقت ويتسع فيهـا المجال لادانة العدوان .

وصدر فعلا من الجمعية العامة قرار من ٦٤ دولة بوقف اطلاق النار وانسحاب القوات الاجنبية ، ولكن لم تكن له قوة التنفيذ وانفجر الموقف في البلاد العربية كما لم يحدث من قبل ... عندما ضربت محطة اذاعة القاهرة في ابو زعبل يوم ٢ نوفمبر ، اعلنت عمان ودمشق من محطاتها (هنا القاهرة) ... واتصل الملك حسين بجمال عبد الناصر قائلا انه سيهاجم اسرائيل ولكن جمال اوضح له ضخامة المؤامرة وطلب منه التريث، وكان الموقف في الاردن مواتيا فقد تولى سليمان النابلسي رئاسة الوزارة يوم ٢٤ اكتوبر ١٩٥٦ بعد نجاح القوى الوطنية في الانتخابات وقطعت الاردن والعراق علاقاتها السياسية مع فرنسا كما قطعت السعودية وسوريا علاقاتهما السياسية مع كل من انجلترا وفرنسا ودمر العقيد عبد الحميد السراج قائد المكتب الثاني السوري (المخابرات) ونائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد انابيب ضخ البترول التابعة لشركة بترول العراق ... وذهب شكري القوتلي الذي كان قد انتخب رئيسا لجمهورية سوريا في سبتمبر ١٩٥٥ الى موسكو في زيارة معدة من قبل، وناقش مع خروشوف وبولجانين والماريشال زوكوف ضرورة التدخل العسكري لنجدة مصر ، ونصحه هؤلاء بضرورة استنفاذ كافة الوسائل القانونية والسياسية المتاحة في هيئة الامم المتحدة ، حتى يصبح التدخل هو السهم الاخير .

وتحدد موقف مصر في المقاومة دون الاستسلام وقال جمال عبد الناصر

(صدرت الاوامر بتوزيع السلاح وعندنا منه الكثير وسنقاتل في معركة مريرة من قرية الى قرية) .

الاتجاه الى الشعب كان تفكير جمال عبد الناصر في وقت الازمة ، كما حدث عندما اعتقد ان جورج الين وكيل وزارة الخارجية الامريكية سيقدم له انذارا بعد صفقة السلاح ، وقرر المقاومة السرية .

كان زكريا محيي الدين هو المسئول عن اعداد ترتيبات المقاومة السرية ... وقد بدأ فعلا في اتخاذ الاجراءات الضرورية مؤكدا انه لم يكن هناك خطر على اشتراك أي قوة سياسية في هذه المعركة الوطنية ، وانه لم تتخذ اية اجراءات امن الا ضد بعض السياسيين القدامى الذين سبق ذكرهم مع محمد نجيب الذين كان يمكن ان يكونوا اوراقا يلعب بها الاستعمار من جديد.

كانت هناك ٤٨ ساعة حاسمة اتخذت فيها كافة ترتيبات المقاومة السرية من اعداد عربات بنمر مدنية ، واوراق تحقيق شخصية مزيفة ، واجهزة لطبع أي منشورات او مجلات وحتى جوازات السفر ، واجرت بعض الشقق بأسماء مستعارة ، كما كلف بعض الافراد بتشكيل هيكل للتنظيم السري ، واعدت اجهزة اتصال لاسلكي ، ومخازن سرية للسلاح، ومعدات وادوات للتفجير .

كانت الاستعدادات تسير في هذا الاتجاه بجدية شديدة دليلا على الاصرار على القتال وعدم التسليم ، ولكن عندما اجبرت الظروف قوات المعتدين بوقف اطلاق النار ، تغير التفكير في معالجة الموقف واصبحت المقاومة من موقع السلطة ... ووضعوا جانبا المدافع الرشاشة التي كان كل منهم يتحرك بها .

وينفي زكريا محيي الدين ما ذكره انطوني ناتنج في كتابه من انهم اعدوا حبات من سبانيد البوتاسيوم للانتحار بها وقت الحاجة ، وقال انه كان هناك اقتراح بذلك ولكنه رفض باعتبار الانتحار ضد الدين الاسلامي ، وانهم طالما يدافعون عن قضية عادلة فعليهم ان يتحركوا والمدافع في ايديهم .

وارسلت مصر في نفس الوقت بيانا لكل الدول تقول فيه :

(في هذه اللحظة الحاسمة تناشد مصر العون من المتطوعين والاسلحة وغير ذلك من كل اولئك الذين ما زالوا يحترمون في جميع انحاء العالم كرامة الانسان وحكم القانون في العلاقات الدولية ... ان شعب مصر يخوض معركة البقاء والشرف ، وهو لا يقاتل من اجل نفسه وبلده فقط ، بل هو يقاتل من اجل العالم المتحضر كله) .

انتقلت المعركة مع الاستعداد العسكري الى الساحة الشعبية ايضا

... وبدات حركة المقاومة مع انزال البريطانيين لجنود المظلات في بورسعيد يوم ٥ نوفمبر ، واسهم فيها الشيوعيون الذين كان قد افرج عن آخر المعتقلين منهم بعد تأميم القناة ... وبدات تتكون مجموعات من العسكريين والشيوعيين واليساريين معا .

وكانت في بورسعيد من قوات الجيش اللواء ٧ والكتيبة ٤ المشاة الى جانب المدفعية الساحلية والمضادة للطائرات .. ولكن عندما نزلت القوات البريطانية في الجميل تبعثرت القوات العسكرية نتيجة انهيار القيادة المسئولة ـ قائمقام عبد الرحمن قدري ـ واصدار قائد المحطة ـ اميرالاي صلاح الموجي ـ الاوامر بوقف اطلاق النار ثم الغائها بعد ذلك ، وفشل قائد المقاومة الشعبية ـ صاغ غريب الحسيني ـ وقائد جيش التحرير الشعبي ـ صاغ عبد المنعم الحديدي ـ في اقناع الجماهير بالتحرك معهم لبعدهم عن فهم روح الشعب الحقيقية ثم هربهم بعد ذلك من بورسعيد ... وقد تم فصل هؤلاء الضباط الاربعة من الجيش بعد انتهاء المعركة ...

وعندما تشتتت القوات وغلبت الحيرة صغار الضباط طلب حمدي عبدو ومحمد ابو نار من الضابط متير موافي الذهاب لمقابلة شمس بدران مدير مكتب عبد الحكيم عامر الذي كان يفتش على الحرس الوطني في المنصورة ، وقال له ان الحل الوحيد هو في السماح للشيوعيين بالدخول الى بورسعيد لانهم اقدر من غيرهم على فهم نفسية الجماهير والتعامل معهم ... وقد رجع شمس بدران الى القاهرة ثم وافق على ذلك ، ورفع الحظر بعدها عن تحركات الشيوعيين .

ويقول محمد ابو نار ان رجال المباحث العامة خلال القتال كانوا يراقبون تحركات الشيوعيين في الوقت الذي هرب فيه قائد المباحث العامة من بورسعيد وسلم البوليس اسلحته كاملة ... ويقول ايضا ان الانجليز كانوا يقبضون من سجلات البوليس على الشيوعيين والاخوان المسلمين .

طالب الناس بالسلاح منذ اول لحظة في عذوان اسرائيل ، ولكن تعطل ذلك لكي يتم تحت اشراف المباحث العامة بشكل روتيني ومظهري وغير فعال ، ورغم الغارات على بورسعيد فان عددا قليلا من السلاح كان قد تم توزيعه .

ولكن مع هبوط جنود المظلات ووصول قطار محمل بالسلاح والذخيرة الى محطة بورسعيد بدأ توزيع السلاح على الاهالي دون نظام ... السلاح في الشحم والناس غير مدربة او منظمة تتحرك وراء أي صوت يدعوها

للهجوم على العدو في اي مكان - الامر الذي قلل من فاعليتها وعرضهـــا لبعض الخسائر .

وهكذا تم توزيع السلاح على الشعب في اللحظة الاخيرة وكأنه طوق نجاة يلقى لغريق .

كان في مقدمة العسكريين كمال رفعت وحمدي عبيد ومحمد ابو نار ومحمد فايق وسعد عفره ومنير موافي وصلاح زعزوع وفي مقدمة الشيوعيين واليساريين عبد المنعم شتلا واحمد الرفاعي وسعد رحمي ويوسف ادريس وحسن فؤاد وعلي الشلقاني وحرمه نانا سالم واحمد عباس صالح ومحسن لطفي وابراهيم اجوج واحمد مجاهد وعبد المنعم القصاص وامينة شفيق وغيرهم .

ويقول محمد رياض محافظ المدينة الذي كان يقود بورسعيد اداريا من غرفة عمليات خشبية بدائية غير محصنة انه عندما استقبل الجنرال ستوكويل قائد القوات البريطانية رفض تسليم المدينة ، تنفيذا لتعليمـات زكريا محيي الدين قبل العدوان لان اتصالاته السلكية بالقاهرة كانت قـد انقطعت مع بدء عمليات الانزال ، وقد امضت المدينة اياما قاسية حيـث رفض المحافظ قبول الاكل من الانجليز الذين فتحوا مخازن الترانزيت وتركوا الاهالي يأخذون منها ما يريدون بينما كاميرات السينما والتليفزيون تسجل المشهد للدعاية في الخارج بينما دماء القتلى لم تكن قد جفت بعد .

كانت المقاومة الشعبية تقاتل في بورسعيد بينما توقف الجيش عملياً عن القتال بعد انسحابه من سيناء. . . واعداده للدفاع عن مدينة الاسماعيلية تحت قيادة كمـال الدين حسين الذي استخدم قوات الجيش وقوات الشعب ايضا بالتنسيق مع اللواء علي عامر قائد القيادة الشرقية .

وفي السويس كان صلاح سالم قد حول المدينة الى حصن كله خنادق ودشم وجزاغل مما يجعل اقتحامها صعبا جدا على الغزاة ، وتكلف في ذلك ما يقرب من نصف مليون جنيه صرفت خلال ايام قليلة قبل ان يتوقف اطلاق النار ، واعتمد في ذلك على الجماهير بالدرجة الاولى .

وعلى قدر ما كان اصرار جمـال عبد الناصر علـى القتال سببا في التهاب حماسة الشعب المصري والامة العربية والاحرار في كـل الدول . . . على قدر ما كان قرار ايدن وجي دي موليه سببا في تعرضهما لموجات عنيفة من النقد والمعارضة ووصلت المظاهرات ذروتها في لندن وباريس بعد وصول اخبار الانزال بالمظلات . . . وتحول ميدان الطرف الآخر الى كتل من البشر تهتف بسقوط ايدن وقاد الشيوعيون المظاهرات في فرنسا ضد جي موليه.

ووصلت الضجة المعارضة في مجلس العموم الى حد لم تعرفه التقاليد البريطانية من قبل ، وادان الخطباء هذا (العمل البوليسي) الشنيع . ورفعت الجلسة لتهدأ ثورة الاعضاء .

كانت الحلقة تضيق حول ايدن وجي موليه ... تنفيذ الخطة لا يتم بالسرعة المطلوبة ... القناة اصبحت مسدودة ... الرأي العام العالمي يساند مصر ... الشعب البريطاني والفرنسي يثور ضد العدوان ... وزير الدولة انطوني ناتنج يستقيل احتجاجا يوم ٣ نوفمبر .. الولايات المتحدة تأخذ موقفا معارضا لانجلترا وفرنسا ... انقسم الكومنولث انقساما يهدد كيانه ... وهيئة الامم تصدر قرارا بالانسحاب .

ولكن الامور لم تصل غايتها الا مساء يوم ٥ نوفمبر عندما تبين لقادة الاتحاد السوفييتي انهم قد استنفدوا كل الضغوط السياسية والقانونية الممكنة في اطار الامم المتحدة وغيرها ، فارسل الماريشال نيكولاي بولجانين رئيس الوزراء خطابا الى ايدن ، قال له فيه (ان الحرب في مصر يمكن ان تتطور الى حرب عالمية ثالثة) ثم تساءل ...

(في أي وضع كانت بريطانيا تجد نفسها اذا هاجمتها دولة أقوى منها تملك كل نوع من انواع الاسلحة الحديثة الفتاكة ، وهناك اليوم دول لا تحتاج الآن لان ترسل الاساطيل او القوات الجوية الى شواطىء بريطانيا ، وانما تستطيع ان تستخدم وسائل اخرى كالصواريخ مثلا ، اننا عاقدو العزم على استخدام القوة لسحق المعتدين واعادة السلام الى الشرق ونحن نأمل ان تظهروا الحكمة وتستخلصوا من هذا النتائج المناسبة) .

وارسل بولجانين خطابا ثالثا الى بن جوريون مختلفا في صيغته اذ قال له في قسوة (اوضحت تصرفات اسرائيل قيمة كل التأكيدات الزائفة عن حب اسرائيل للسلام ورغبتها في التعايش السلمي مع جيرانها العرب ، واسرائيل وهي تعمل لحساب الغير ووفق التعليمات التي تصدر اليها من سادتها وتلعب لعبا اجراميا وغير مسئول بمصير السلام وبمصير شعبها) .

اثار الانذار السوفييتي فزعا في العالم الغربي كله ... وكان الاتحاد السوفييتي قد اطلق (سبوتنيك) وظهر تفوقه في عالم الصواريخ على الولايات المتحدة ذاتها .. ولم يكن متوقعا ان يأخذ قادة الاتحاد السوفييتي هذا الموقف الصلب الحازم في وقت تعرضت فيه المجر لثورة مضادة وطلبت الحكومة فيها من القوات السوفيتية الانسحاب من المجر وكانت موجودة بحكم اتفاقيات حلف وارسو ...

انسحبت القوات السوفيتية فعلا . وهلل الين دالاس رئيس المخابرات المركزية الامريكية شقيق دالاس وزير الخارجية وقال : اننا نشهد معجزة وان الثورة الشعبية يمكن ان تقوم وتنجح بالرغم من كل القوات وكل الاسلحة الكبيرة والحديثة) واضاف (اننا على حافة نصر عظيم عملنا له وانتظرناه طويلا) .

وتبين سريعا ان حركة المجر قد استهدفت ضرب الاشتراكية عندما ذهب الكاردينال مندزنتي رئيس الاساقفة والذي اصبح الزعيم الدولي للحركة الى الاذاعة وطالب بالغاء الاصلاح الزراعي ... وساد التردد والعجز اعضاء الحكومة المجرية الى ان انشق جناح تزعمه (جانوس كادار) وهو احد المطالبين بالاصلاح وطالب القوات السوفيتية بالعودة والتدخل لانقاذ المجر الاشتراكية واوروبا الشرقية عموما .

عادت القوات السوفيتية وقضت على المؤامرة خلال ساعات بثمن باهظ لم يكن هناك من سبيل لتفاديه ... وعجزت اجهزة دالاس عن الود الا بحرب نووية شاملة لا يجرؤ على اعلانها عاقل .

عاد الهدوء الى المجر يوم ٤ نوفمبر ... وفي اليوم التالي مباشرة كانت انذارات بولجانين قد وصلت الى حكام دول العدوان الثلاثي ... وهكذا سقطت المؤامرة الامريكية في المجر ... وواجهت المؤامرة الثلاثية اعنف رد تعرضت له .

وصل الخطاب الى ايدن ومولية في مساء يوم ٥ بعد ان كان بولجانين قد اعلن مضمونه قبل وصوله وظهرت الصحف البريطانية والفرنسية تحوي عناوين مفزعة باحتمال ضرب لندن بالصواريخ ... وفي الساعة العاشرة الاربع من صباح اليوم التالي ٦ نوفمبر اجتمع مجلس الوزراء البريطاني وقرر وقف القتال وذهب ايدن في المساء الى مجلس العموم ليعلن قرار وقف اطلاق النار في منتصف ليلة ٧/٦ نوفمبر بتوقيت جرينتش اي الثانية بعد منتصف الليل بتوقيت بورسعيد .

ولكن النار لم تتوقف في الموعد المحدد ، بل واصل البريطانيون انزال قواتهم في الصباح ، واصدرت القيادة العامة المصرية بلاغا بذلك .

ولم تركن المقاومة الشعبية الى الهدوء ، لان البريطانيين فرضوا حظر التجول من الخامسة مساء حتى السادسة صباحا ، واستولوا على كثير من المنازل الصالحة لسكن القوات وطردوا السكان منها كما استولوا على المستشفيات ... واستمر القتال بين الشعب وجنود الاحتلال تحت قيادة مجموعة من الضباط الوطنيين وعدد من الشيوعيين تحت علم (الوحدة

الوطنية) دون محاولة من الشيوعيين لفرض سيطرتهم على الميشيا الوطنية كما اشار محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) ... بل ان القنصل السوفييتي في بورسعيد (اناتولي تشيكوف) كان ينقل المنشورات والاسلحة ويسهل خدمة افراد المقاومة بطريقة سرية .

اعترف الجنرال ستوكوبل يوم انسحابه من بورسعيد ان المقاومة السلبية في المدينة نجحت تماما (ولم تقدم لنا أي مساعدة من أي جهة من الجهات) .

وقال الجنرال كيتلي (قاتلنا ضد شعب جهزة قواته المسلحة بأحدث الاسلحة والطائرات واستمات افراده في الدفاع عن بورسعيد باصرار وعناد وحنكة) .

الجنرال ستوكوبل عمل بعد ذلك في وظيفة كتابية بوزارة الحربية البريطانية واحيل الجنرال كيتلي الى التقاعد .

لم يكن الشيوعيون هم الذين حاولوا فرض سيطرتهم اذا كما ادعى هيكل في كتابه (عبد الناصر .. والعالم) ولكنهم كانوا من اوائل الذين بادروا للدفاع عن بورسعيد والاشتراك في المقاومة الشعبية مع سكانها ... ومع ذلك تعرضوا لموقف معاد من السلطة ظل يلاحقهم طويلا .

بدأت السلطة البوليسية تحارب الشيوعيين وتتعقبهم ، والفت نشرة المقاومة الشعبية ولاحقتهم بتقارير كاذبة ...

يعلل زكريا محيي الدين هذا الموقف بأنه من الطبيعي اذا اشترك تنظيم سياسي سري في عملية جماهيرية فانه لا شك سيحاول تقوية صفوفه بتجنيد عناصر جديدة ، وخلق نفوذ له بيد الجماهير ... وانه من الطبيعي ايضا ان تتحرك اجهزة الامن للتعرف على هذه الاتجاهات .

ولكنه يؤكد ان السلطة لم تتخذ اجراء من شيوعي نتيجة اشتراكه في المقاومة الشعبية كما انه لا يذكر ان صداما قد حدث بين السلطة وبين الشيوعيين في هذه المرحلة .

ولكنه عندما طويت صفحة العدوان الثلاثي ، ووصل التاريخ الى عام ١٩٥٩ وقدم بعض الشيوعيين الى المحاكمة بتهمة انهم عملاء لدولة اجنبية طلب الدفاع عن عبد المنعم شاتيلا ١٣ ضابطا في الخدمة او على المعاش للشهادة ، ولكن لم يحضر منهم سوى خالد محيي الدين واحمد لطفي واكد عضوا قسم الجيش في حدتو سابقا ، ويقول محمد ابو نار ان حسن المصيلحي رئيس قسم مكافحة الشيوعية في المباحث العامة قد استدعاه ونصحه بعدم

الشهادة ، ثم استدعاه بعد ذلك عباس رضوان وطلب منه عدم الشهادة فاعتذر عنها مرغما .

كانت المقاومة الشعبية في بورسعيد هي الوجه المشرق للشعب المصري ... بينما لم تؤد القوات المسلحة واجبها على الوجه الاكمل لظروف متعددة سيأتي شرحها فيما بعد ، الامر الذي أدى الى اخراج ٣٠ ضابطا فيها بعد العدوان ، والى شكوى جمال عبد الناصر من كثرة الخسائر بلا مبرر .

وخلال معارك بورسعيد تأثر بعض صغار الضباط من دور الشيوعيين في المقاومة الشعبية ، وذبلت في نفوسهم الحساسية المزروعة فيها من الدعاية المركزة ضد الشيوعية .

وعندما انتهت المعركة وانسحب جنود الاحتلال . ذهب عبد اللطيف بغدادي الى بورسعيد لاعادة تعميرها ، واصدر اوامره بجمع السلاح من الاهالي ... ولم يتردد افراد الشعب في تسليم اسلحتهم ، وكان يرضيهم فقط ان يحصلوا على شهادة تقول (فلان كان يعمل في المقاومة الشعبية وادى دوره بأمانة وشرف) .

كان توقف الهجوم العدواني الذي وصل الى مدينة الكاب جنوب بورسعيد ثمرة لعدة عوامل تفاعلت جميعها بنسب مختلفة وانتهت الى هذه النتيجة ويمكن تلخيصها فيما يلي :

اولا : اصرار القيادة على القتال ورفض الاستسلام .
ثانيا : توزيع السلاح على الجماهير واطلاق المقاومة الشعبية والبدء في اتخاذ ترتيبات المقاومة السرية .
ثالثا : الانذار السوفييتي العنيف المهدد بضرب لندن وباريس بالصواريخ اذا لم يوقف اطلاق النار .
رابعا : الموقف الامريكي المعارض للخطة البريطانية الفرنسية لاسباب استراتيجية امريكية .
خامسا : التضامن العربي والتأييد الايجابي لموقف مصر .
سادسا : قرار هيئة الامم المتحدة بأغلبية ٦٤ صوتا من ٨٠ وهو قرار معبر عن الرأي العام العالمي .
سابعا : تمزق الموقف الشعبي في انجلترا وفرنسا ووجود تيارات ومظاهرات معادية متزايدة .

هذه هي الاسباب التي تجمعت وانهت العدوان الثلاثي ... ولكنه كانت هناك تناقضات اخرى ثانوية بين القائمين على تنفيذ الخطة من القادة

البريطانيين وحلفائهم الفرنسيين الامر الذي لم يدفع انطلاقهم الى جنوب الكاب رغم توفر الظروف المهيئة لذلك امامهم .

لم يعصف العدوان بجمال عبد الناصر ولم يهدم النظام الذي اقامته حركة ٢٣ يوليو ، وانما عصف بأنطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا الذي اذاع وقواته ما زالت بعد في مصر يوم ٢٠ نوفمبر انه يعاني ارهاقا شديدا ، وان بيكر حامل اختام الملكة سيرأس اجتماعات مجلس الوزراء في غيبته .

وبقي ايدن في جزيرة جامايكا بالبحر الكاريبي حتى اعتزل منصبه بالاستقالة يوم ٩ يناير ١٩٥٧ وخلفه وزير ماليته هارولد ماكميلان احد المتحمسين للعدوان على مصر .

ولم يذهب ايدن وحده ... ذهب معه جي موليه فقد سقطت وزارته ايضا في ٢١ مايو ١٩٥٧ .

وتلكأت القوات البريطانية والفرنسية في تنفيذ الجلاء ... ولكن المقاومة الشعبية لم تهدأ ، وقررت مصر عدم البدء في تطهير القناة واعادة الملاحة فيها قبل انسحاب آخر جندي .

بدأ الانسحاب مع شهر ديسمبر ، ورحل آخر فوج من المعتدين يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦ وارتفع العلم المصري فوق بورسعيد حيث كان البريطانيون ، وفوق بور فؤاد حيث كان الفرنسيون واصبح يوم ٢٣ ديسمبر يوما تحتفل به مصر كل عام ، واعتاد جمال عبد الناصر ان يزور المدينة في مثل هذا اليوم ويوجه من هناك خطابا للشعب .

انسحب الانجليز والفرنسيون ، ولكن اسرائيل تحدت قرارات الانسحاب ورفضت الانسحاب من غزة ورفح وشرم الشيخ وجزيرتي تيران وصنافير ومنطقة ساحلية طولها ٢٢٠ كيلومترا وعرضها ٢٨ كيلومترا بطول خليج العقبة .

اعلنت وزيرة خارجية اسرائيل انها لن تنسحب بعد ذلك الا اذا اخذت ضمانات لحرية مرور السفن الاسرائيلية في خليج العقبة وعدم استخدام غزة قاعدة ضدها ، ورفضت مصر اي شرط للانسحاب .

تدخلت حكومة الولايات المتحدة الامريكية التي كانت تتربص الفرصة المناسبة للنفوذ الى المنطقة ، فأسهمت في اضعاف موقف بريطانيا وفرنسا للانتهاء من نفوذهما ومصالحهما في المنطقة وضغطت على اسرائيل للانسحاب وضغطت على مصر لتبقي قوات طوارىء دولية فقط في شرم الشيخ حتى لا تتاح للقوات المصرية مستقبلا فرصة قفل خليج العقبة ومنع الملاحة فيه .

ولم يشأ جمال عبد الناصر ان يعاند ويواصل تحدي امريكا ، لانه وجد

في ذلك على حد تعبيره ـ موقفا غير سياسي ـ وقبل هذا الشرط مرغما كما يقول ناتنج .

وكانت المظاهرات لا تتوقف في غزة تطالب بعودة الادارة المصرية . وتؤرق القوات الاسرائيلية . . .

وبدأت اسرائيل الانسحاب بعد تدمير كامل لجميع منشئات سيناء . . . من آبار بترول ومناجم وخطوط سكة حديد وصهاريج مياه ومباني . . . وغادرت قواتها العريش يوم ١٤ يناير ١٩٥٧ ثم رفح وخان يونس . . . واخيرا انسحبت من غزة يوم ٦ مارس ومن شرم الشيخ يوم ٧ مارس . بعد ان صرح بن جوريون قبل ذلك بيوم واحد (ان اسرائيل لن تنسحب من غزة او شرم الشيخ) .

لم ترسل مصر حاكما عسكريا لغزة كما كانت الامور من قبل . وانما عينت حاكما مدنيا ولم ترسل معه قوات عسكرية . بل اكتفت بفريق من الشرطة العسكرية .

وتم تطهير القناة واعيد فتحها يوم ٢٩ مارس ١٩٥٧ وحاولت بريطانيا وفرنسا مقاطعتها ولكنهم اضطروا للعودة اليها بعد اسابيع بادارتها المصرية الكاملة .

وانتهت (اتفاقية الجلاء) عمليا مع انتهاء عدوان عام ١٩٥٦ ، وتمزقت شروطها وتحررت مصر نهائيا من شبهة التحالف التي وردت ضمن بنودها بعودة القوات البريطانية اليها في حالة الهجوم او احتمال الهجوم على تركيا، وثبتت سلامة تقدير موقف جمال عبد الناصر وزملائه اعضاء مجلس القيادة في ان تحقيق الجلاء هو الاساس الرئيسي لانطلاق مصر بعد ذلك في سياستها الوطنية بارادتها الحرة .

واصبحت مصر لاول مرة منذ الاحتلال البريطاني متحررة من القوات الاجنبية ، مستقلة استقلالا كاملا غير مرتبط بأية اتفاقيات او احلاف .

واستولت مصر على المخلفات البريطانية في القاعدة التي بنت من اجلها المخازن والمستودعات تحت الارض والتي بلغت قيمتها ٣٠٠ مليون جنيه استرليني .

وقبلت مصر قوات الطوارىء الدولية لتكون حاجزا بينها وبين القوات الاسرائيلية حتى لا تتكرر الاشتباكات المسلحة التي ظلت تحتل العناوين الرئيسية في الصحف على فترات متقاربة منذ غارة غزة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ حتى عدوان ١٩٥٦ .

ووجدت افكار جمال عبد الناصر التي عبر عنها الى مجلة (الشئون الخارجية) الامريكية وهي مجلة ربع سنوية ذات قيمة في السياسة الدولية في فبراير ١٩٥٥ قبل تصاعد هذا التوتر فرصتها للتحقيق من جديد فقد قال يومئذ (ليس هناك محل للحرب مع سياستنا الانشائية التي قررناها لتحسين مستوى الشعب) .

الباب الثاني

العسكريون في مركز السلطـة

الفصل الخامس

زحف العسكريين .. نحـو السلطـة

(لا يمكن للقوات المسلحة ان تكون ولم تكن يوما ولن تكون ابدا محايدة) .

لينـين

كان جلاء قوات العدوان الثلاثي عن ارض مصر ، انتصارا للشعب ، ونقطة ارتكاز لحركة العسكريين ، غيرت طابعها الانقلابي ، واكدت الفـرق المميز بينها وبين كافة الانقلابات العسكرية التي حدثت في الوطن العربي ، او في دول العالم الثالث عامة .

واكتسب جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية المنتخب رصيدا شعبيا هائلا ، جعل النسبة التي حصل عليها وهي ٩ر٩٩٪ في المائة يوم ٢٥ يونيو ١٩٥٦ حقيقة راسخة (عدد الناخبين ٥٥٥ر٤٩٤ر٥ وغير الموافقين ٢٦٧ر٥).

كان الانتخاب قد تم بناء على قواعد الدستور ، الذي اعلنه جمـال عبد الناصر يوم ١٦ يناير ١٩٥٦ في مؤتمر شعبي كبير عقد بميدان الجمهورية من ١٩٦ مادة ، وجاء في مقدمته انه صادر عن الشعب المصري (الذي انتزع حقه في الحرية والحياة ، بعد معركة متصلة ضد السيطرة المعتدية مـن الخارج والسيطرة المستغلة من الداخل) وليس صادرا كمنحة من الملك مثل دستور ١٩٢٣ .

كان جمال عبد الناصر هو المرشح الوحيد ، ولم يسمح لغيره بالترشيح ، وكان طبيعيا ان يحصل على النجاح في الاستفتاء الشعبي ، عقب مواقفه الوطنية في باندونج، ضد الاحلاف العسكرية، وتأكيد الاستقلال الوطني ، وكسر احتكار السلاح ، وبعد جلاء آخر جندي اجنبي عن ارض الوطن .

ولا شك انه كانت هناك اصوات تعارض اسلوب الانتخاب ، وتثير الشكوك في صحة النسبة التي حصل عليها ... ولكنه بعد تأميم القناة ، ومقاومة العدوان الثلاثي ، والانتصار عليه عمليا باجباره على الانسحاب والجلاء مرة ثانية خلال ستة شهور من جلائه الاول ، اصبح انتخاب جمال عبد الناصر مدشنا بارادة شعبية جارفة .

وصل قائد الضباط الاحرار المنتخب الى منصب رئيس الجمهورية الشرعية ووصلت مجموعة الضباط الاحرار ، التي قامت بحركتها ليلة ٢٣ يوليو بعدد لا يتجاوز المائتين من شعب بلغ ٢٣ مليونا ، الى قمة انتصاراتها.

ولكنها لم تصل كما بدأت ... تنظيما للضباط الاحرار ، وانما وصلت بعد فترة انتقال انتهى معها تشكيل مجلس قيادة الثورة ، ولم يعد له كيان رسمي ، كما سبق ان انتهى تنظيم الضباط الاحرار وتوقف عمله ، واستبدل بتنظيمات شخصية هامشية ، تركزت اخيرا في يد قيادة الجيش الجديدة المؤلفة من القائد الاعلى جمال عبد الناصر والقائد العام عبد الحكيم عامر ومدير مكتب القائد العام الصاغ شمس بدران .

وكان موقف اعضاء المجلس بعد انتهاء المرحلة الانتقالية — ٢٣ يوليو ١٩٥٦ — متباينا ... صلاح سالم كانت قد قبلت استقالته في اغسطس ١٩٥٥ .

أما شقيقه جمال سالم فقد كان قد بدأ يتخذ موقفا معارضا لانفراد جمال عبد الناصر المتزايد بالسلطة قبل حل المجلس ، بعد ان كان في البداية من أشد الهاجمين لمحمد نجيب المبايعين لجمال عبد الناصر ، الامر الذي جعله في ٢ نوفمبر ١٩٥٥ نائبا لرئيس الوزراء ، ونائبا لرئيس الجمهورية في غيبته بالخارج .

كان قد حدث تجمع داخل مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٥ من ضباط الطيران الثلاثة .. جمال سالم وعبد اللطيف بغدادي وحسن ابراهيم وانضم اليهم صلاح سالم .. وقرروا حسب رواية حسن ابراهيم الا يشتركوا في الحكم بعد انتهاء فترة الانتقال ، والا يستقيلوا قبلها ايضا .

كانوا يستهدفون بفكرة استقالتهم الجماعية تنبيه الجماهير لانفراد جمال عبد الناصر بالسلطة مما يمثل في نظرهم بعثا لحكم الفرد ... ولكن التدبير لم ينفذ لاستقالة صلاح سالم المبكرة ولاعتقاد البغدادي انه قادر خلال وجوده رئيسا لمجلس الامة ـ حسب ما تم اتفاقهم عليه ـ على خلق روح وحياة ديموقراطية .

الغريب ان هذا الاتفاق قد تم بين اطراف متناقضين .. حسن ابراهيم كان قد اشتكى لجمال عبد الناصر من اسلوب العمل داخل مجلس قيادة الثورة ، وشاركه الرأي عبد اللطيف البغدادي لان المناقشات كانت تدور تحت ضغط التوتر من عصبية جمال سالم المبالغ فيها ، وسخرية صلاح سالم المبالغ فيها ايضا .

كانت عصبية جمال سالم وسخرية صلاح سالم لا تسمحان بالمناقشة العميقة ، وتدفعان الى الجمود ، ويقول حسن ابراهيم انه لا يستبعد وجود صلات جانبية بين عبد الناصر وجمال سالم وصلاح سالم لانهم كانوا يحضرون اجتماعات المجلس كتلة واحدة .

ولكن سرعان ما استنفذ كل من الشقيقين دورهما وكانا اول الخارجين من المجلس .

ولكن الواقع ان جمال عبد الناصر كان اكثرهم تقدما في طريق الوعي والتطور ، واشدهم حرصا على تطبيق العدالة الاجتماعية ، الى جانب تماسك شخصيته القيادية وثباتها .

كان مختلفا على سبيل المثال عن جمال سالم احد الخارجين على المجلس في افكاره التي ادلى بها الى جان لاكوتير ممثل وكالة الانباء الفرنسية ونشرتها جريدة المصري يوم ٢٤ يناير ١٩٥٤ .

قال جمال سالم (هناك عائلات من كبار الملاك تتعاون معنا مثل عائلة البدراوي)

وعندما سأله لاكوتير هل انت اشتراكي ؟

اجاب (هذا ليس بصحيح .. لست اشتراكيا ـ وليس هذا لاني اكره انتهاج سياسة التأميم في مصر ، بل لاني اؤمن بأن اقتصاديات هذا البلد لن تتقدم الا بالمنافسة الحرة) وفسر افكاره بقوله (لم نصل الى المرحلة الاشتراكية لاننا لم نصل الى الاحتكار الا في الزراعة اما صناعتنا فما زالت طفلا يحتاج الى رؤوس الاموال الخاصة) .

وهكذا طويت صفحة مجلس قيادة الثورة ، وطويت معه ايضا فرصة المناقشة المحدودة في مركز اصدار القرار وانتهت بنهايته امكانية مراجعة

الموقف من وجهات نظر مختلفة ... وتحول الامر من سلطة المجلس الى سلطة الفرد .

ربما كانت الآراء تختلف يمينا ويسارا ، وربما كانت الافكار تتنافر حول القضايا المعروضة ... ولكن الامر في نهايته كان يقتضي من القائد اما تطويع زملائه لآرائه وافكاره ، والصبر على مناقشاتهم حتى تتوفر لهم في النهاية وحدة فكرية في القضايا الاستراتيجية الكبيرة ... واما التخلص منهم لينفرد برأيه سواء أكان أكثر صوابا ام اكثر اندفاعا .

والواقع ان جمال عبد الناصر طوال فترة وجود مجلس قيادة الثورة كان حريصا على ان تأخذ المناقشات غايتها وان تمتد وتطول حتى يصفي كل المواقف والآراء المعارضة له بالحجة والاقناع ... الامر الذي جعل معظم قرارات المجلس تصدر بالاجماع كما يؤكد زكريا محيي الدين اذا استثنينا بعض القرارات التي صدرت في عهد ولاية محمد نجيب لرئاسة الجمهورية ووجود يوسف صديق وخالد محيي الدين في المجلس .

كانت الشعبية الجارفة التي رفعت جمال عبد الناصر الى القمة قد جعلته في مركز الواثق من سلامة رأيه وصحة رؤيته .

اول وزارة شكلها جمال عبد الناصر باعتباره رئيسا شرعيا للجمهورية صدرت مراسيمها يوم ٢٦ يونيو باعتبارها القرار الجمهوري رقم ١ وخرج منها جمال سالم نائب رئيس الوزراء ، وخرج منها ايضا حسن ابراهيم وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية ، ودخلها عبد الحكيم عامر وزيرا للحربية ، ونقص عدد العسكريين فيها من ستة الى خمسة كلهم من اعضاء المجلس ، ويلاحظ انهم اخذوا اسبقية خاصة على الوزراء المدنيين السابقين لهم في التعيين ، مما يعد نوعا من تثبيت وضع خاص لهم بعد حل مجلس القيادة ... اول الوزراء في القرار الجمهوري كان عبد اللطيف البغدادي يليه زكريا محيي الدين ثم حسين الشافعي فعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين ...

تحول الوضع الرسمي لاعضاء مجلس قيادة الثورة ، الى اقدم وزراء في المجلس ..

وانتهت العوامل التي كان يمكن ان تصور حركة ٢٣ يوليو باعتبارها انقلابا عسكريا ، كما صورت يوم وقوعها ، ويوم اصدر الدكتور راشد البدراوي كتابه المعروف (حقيقة الانقلاب الاخير في مصر) ، فالانقلاب حدث عارض لا يغير نظام الحكم وانما يستبدل شخصية الحكام ولا يقوم على مساندة شعبية ، وانما يعتمد على سطوة القوة العسكرية .

اما حركة ٢٣ يوليو فقد بدأت ولها كل مظاهر الانقلاب الا انها فـي مسارها اخذت طابع الثورة .

ومنذ البداية لم تكن انقلاب جنرالات يمالىء نظـام الحكم القـائم ويحافظ على استمراره .. وانما كانت انقلاب صغار الضباط الذين وقفوا منذ البداية ضد النظام ومع التغيير .

صحيح انها لا تحمل اسلوب ثورة ١٤ يوليو ١٧٨٩ (الثورة الفرنسية) ولا ثورة ٧ نوفمبر ١٩١٧ في روسيا (الثورة الاشتراكية العظمى) لانها لـم تقم بجماهير الشعب ، رغم حصولها على تأييده منذ اللحظة الاولى نتيجة لفساد الحكم الملكي السابق .

سنوات الصدام مع القوى السياسية المختلفة (الوفد والشيوعيين والاخوان المسلمين والعناصر المعارضة في صفوف الجيش) دفعها الـى اتخاذ اجراءات ادارية اعطتها طابعا عسكريا قاسيا ، الى جانب انها اقتصرت في حركتها منذ اللحظة الاولى على حركة القوات المسلحة وتجنبت التفاعل مع الجماهير الشعبية في حذر .

وكانت ازمة مارس ١٩٥٤ التي اطاحت بمحمد نجيب رئيسا لمجلس قيادة الثورة ، وحاصرته رئيسا شكليا للجمهورية لمدة شهور خرج بعدها في ١٧ نوفمبر اثناء الصدام مع الاخوان المسلمين وبدء محاكمتهم بعد محاولة اغتيال جمال عبد الناصر في اكتوبر ١٩٥٤ .. ازمة ذات وجهين .

جماهير الشعب خرجت في فبراير تؤيد محمد نجيب بعد استقالته ، وتجبر مجلس قيادة الثورة على اعادته ، وقبل ان تمضي عدة اسابيع كانت هيئة التحرير وبعض الضباط الموالين للمجلس قد استطاعوا تحريك جانب آخر من الجماهير بمساعدة صاوي احمد صاوي سكرتير اتحاد عمل النقل حتى وصل الامر الى حد التظاهر والاضراب .. الامر الذي سهل لهم انتزاع نجيب من موقعه والرجـوع عـن قرارات ٥ مارس أي ٢٥ مارس المعروفة (انظر الجزء الاول)

هذا الحدث في ذاته ، ورغم دور الجماهير في دعم وجود المجلس واستمراره ، ترك تأثيرا مباشرا في جمال عبد الناصر اذ اشعره بأنه يمكن التلاعب بالجماهير وانها امام القوات المسلحة يصبح دورها محدودا .

قال جمال عبد الناصر لعدد كبير من اصدقائه ومنهم خالد محيي الدين ان الخروج من ازمة مارس لم يكلفهم سوى عـدة آلاف من الجنيهات ، دفعت للمتظاهرين والمضربين .

وقال لاكرم الحوراني في مناقشة (لا تحدثني عن الشعب فاني اعرف كيف تتحرك الجماهير !

ولكن الثورة مع ذلك كانت تكسب تأييد الجماهير بلا ضغط يوما بعد يوم من خطواتها الوطنية ، حتى ارتبطت مع الشعب تماما في مواجهة العدوان الثلاثي ، واصبحت تستحق ان يطلق عليها اسم (الثورة) لانها تحولت الى قيادة حقيقية قادرة على تحريك الجماهير ، معبرة عن ارادتهم، مناضلة عن اهدافهم ...

وهكذا تحول الانقلاب الى ثورة ، ودخل ٢٣ يوليو في تاريخ ثورات التحرر الوطني .

وتأكدت زعامة جمال عبد الناصر واصبح يتلقى مئات الرسائل في اليوم الواحد ، وانحسرت محاولات الانقلاب عليه ، وتراجعت في مواجهة التأييد الشعبي الهائل ... ولم تضبط الا محاولة قام بها القائمقام عاطف نصار الملحق العسكري بالهند ، متعاونا مع خمسة مدنيين منهم محمد صلاح الدين وزير الخارجية وعبد الفتاح حسن وزير الدولة في وزارة الوفد وستة من ضباط الجيش بالاسكندرية ، وقدمت للمحكمة العسكرية العليا يوم ٢٠ اكتوبر ١٩٥٧ ، وصدر فيها الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة على عاطف نصار ، ومحمد صلاح الدين ١٥ سنة وعبد الفتاح حسن ١٢ سنة وعلى الباقين بأحكام مختلفة وبراءة اثنين .

وضبطت مؤامرة اخرى تولتها ادارة المخابرات البريطانية واشترك فيها ضابط سابق (حسين خيري) ، اتصل بأحد ضباط مخابرات الطيران (عصام خليل) وموله بمبالغ بلغت جملتها ١٦٥ الف جنيه من اجل اعادة الملكية لمصر... وقد نظرت القضية امام المحكمة العسكرية العليا، واصدرت الحكم يوم ٢٨ ابريل ١٩٥٨ على مرتضى المراغي وزير الداخلية السابق في وزارة نجيب الهلالي وحسين خيري بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ومحمود ناموق ١٥ سنة ، وكانت الاحكام غيابية لوجوده خارج القطر ... وقد قبض بعد ذلك بشهور على محمود ناموق في بغداد عقب ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ في العراق .

ولكن الموقف في صفوف الجيش كان قد هدأ واستقر ، ولم تعد المحاولات الانقلابية ، ترتبط بعدد واسع من الضباط .. لم تعد في صورتها التي كانت بها قبل تصفية محمد نجيب وثبوت سلطة عبد الحكيم عامر ، الذي كان مفروضا ان يحاسب عسكريا على موقفه القوات المسلحة في عدوان ١٩٥٦ التي ثبت يقينا انها لم تؤد دورها كما يجب مع تقدير وجودها في

رحلة انتقال في التسليح والتدريب والتنظيم والعقيدة القتالية ، كما سيأتي شرحه تفصيلا فيما بعد .

كان قانون التجنيد الذي صدر عام ١٩٤٧ قد تغير مرة اخرى عام ١٩٥٥ بصدور القانون رقم ٥٠٥ الذي رفع الحد الادنى لذوي المؤهلات ليكونوا من حملة القانون العامة بخدمة سنة ونصف . وخفض مدة الخدمة لخريجي الجامعات لتكون سنة واحدة يعدون ليكونوا ضباط احتياط ، وزاد سن تأجيل التجنيد ليصبح ٢٩ سنة ، ٩ شهور .

ولم تكن الفرصة كافية لجني ثمار هذا القانون اذ صدر قبل عدوان ١٩٥٦ يوم واحد ، تماما كما صدر قانون ١٩٤٧ للتجنيد قبل عام واحد من حرب فلسطين... الامر الذي لم يجعل لهما تأثيرا كبيرا على مستوى الجيش من ناحية القتال الحديث .. ولعل هذا كان عذر المشير عامر .

يقول عبد اللطيف البغدادي وحسن ابراهيم انه تقرر في ذلك الوقت عزل قائد القوات الجوية محمد صدقي محمود ، ويقول زكريا محيي الدين انه كان هناك قرار بعزل قادة القوات البرية والبحرية والجوية ، ولكن عبد الحكيم عامر تشبث بهم ورفض اخراجهم .

ووافقه جمال عبد الناصر ولم يأخذ موقفا حاسما في مواجهة الاخطاء كما اخذ موقفا حاسما في مواجهة الاعداء .

واذا كان التهاون قد بدأ في محاسبة العسكريين في المواقف الوطنية فانه لا بد وان ينسحب الى التهاون ايضا في محاسبة الآخرين في المجالات المختلفة ، اذا وجدوا من يدافع عنهم ، ليس امام القضاء ، ولكن امام السلطة .

وصعب ان يضع الكاتب نفسه في مقعد القاضي ، ولكنه امر معروف في كل الجيوش ان القائد المهزوم لا يجوز له ان يواصل القيادة في موقعه .

كان استثناء عبد الحكيم عامر من المحاسبة والابقاء على قادة القوات الثلاثة ، راجعا الى الطبيعة الخاصة في علاقات جمال عبد الناصر بزميل عمره وموضع ثقته ... وراجعا ايضا الى ان الظروف التي وضع من اجلها عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة وهو غير مؤهل لذلك ما زالت قائمة ... الرغبة في السيطرة على القوات المسلحة بكل تفاصيلها عن طريق اشد زملائه اخلاصا له .

كان جمال عبد الناصر ما زال يعتمد على الجيش كمؤسسته الرئيسية رغم انتصاراته الشعبية ، ورغم انه بدأ يخلع مع زملائه ملابسهم العسكرية بعد انتهاء فترة الانتقال .

وكان في ذلك اكثر ميلا الى الراي القائل بأن الجيش هو القوة الوطنية (الجامعة والوحيدة) القادرة على تزعم ثورة التحرر الوطني ، وهو الرأي الذي يتعارض تماما مع القول بأن السلطة السياسية الناتجة عن الانقلاب العسكري هي سلطة رجعية وعسكرية .

والواقع ان الرأيين لا يمثلان حقيقة الواقع في مصر في ذلك الوقت ، فالرأي الاول ينفي وجود قوى سياسية اخرى قادرة على تزعم حركة التحرر الوطني وهو امر غير صحيح ... والرأي الثاني يدين كل حركة عسكرية بأنها رجعية وانقلابية ولا تحمل بذورا وطنية تقدمية ... وهو امر غير صحيح ايضا .

الجيش كانت تتعايش فيه الافكار المختلفة الموجودة في المجتمع الامر الذي دفع اصحاب كل اتجاه الى محاولة السيطرة على الجيش وبالتالي على المجتمع .

والجيش ليس طبقة او فئة اجتماعية واحدة ، كما انه ليس جهازا معزولا عن عمليات الصراع الطبقي .

ولكن الجنود في الجيش المصري لم يتحركوا كقوة مستقلة ، ولم يدخلوا حركة الصراع الوطني والطبقي مستقلين عن قيادتهم كما حدث مثلا في ثورتي فبراير واكتوبر ١٩١٧ في روسيا ، عندما تصرف الجنود كفلاحين يحملون السلاح ..

الجنود المصريون كانوا خاضعين تماما لسلطة الضباط .

وكان جمال عبد الناصر واعيا بحركة الصراع داخل الجيش وقد حاول حسمها لصالح مجلس القيادة في السنوات الاولى التي اعقبت الحركة ، واضطر في سبيل ذلك الى اتخاذ اجراءات عنيفة احيانا .

ولكنه وقد وقف على قمة التأييد الشعبي بدأ يخلع انصاره الذين استنفدوا اغراضهم ، والذين شوهت صورتهم امام الجماهير في اندفاعهم الحماسي المحموم ، والذين وقفت افكارهم عند حدود دورهم المرسوم بلا رؤية جديدة ولا ادراك عميق لطبيعة الصراع في المجتمع وافاق التطور .

وتساقطت في هذه الفترة اسماء كان الشعب قد فاض به الكيل من كثرة ما سمعه عنها وما لمسه من تصرفاتها ... جمال سالم الذي كانت له مع كبار الموظفين والاداريين اعتداءات وتصرفات مثيرة للدهشة البالغة ، وكانت له في محكمة الثورة اساليب وعبارات في غاية القسوة ... احمد انور قائد البوليس الحربي الذي اقترن اسمه بالاعتقالات والتعذيب بعد ان وزعت قواته على تشكيلات الجيش المختلفة ... ابراهيم الطحاوي

واحمد عبدالله طعيمه وهما اللذان اوكل اليهما الاشراف على هيئة التحرير دون خبرة سياسية سابقة مما جعل اسمهما معا محل تندر بعض الناس .

بدأت هذه الاسماء تتساقط ... رغم ادوارها البارزة في دفع عجلة الثورة للامام وتأكيد سلطة العسكريين ، وتغليب كفة مجلس القيادة في أزمة مارس ١٩٥٤ وضرب القوى السياسية المعارضة ... وظهرت اسماء اخرى من العسكريين ايضا .

تساقطت هذه الاسماء ومعها اجهزتها ... الشرطة العسكرية وهيئة التحرير . وكان هذا من دوافع تحول الانقلاب الى ثورة .

وكانت هذه الاجهزة من معوقات الارتباط بين الشعب والعسكريين فالشرطة العسكرية كانت صورة العذاب والارهاب بعد ان اعطي لضباطها صفة الضبطية القضائية بعد اعتراض المحامين في كثير من القضايا ... وهيئة التحرير عجزت عن اكتساب ثقة الجماهير .

ومع بداية تطبيق الدستور وانتخاب جمال عبد الناصر كانت معظم المعتقلات قد صفيت وخرج المعتقلون منها ... افرج عن يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة السابق بعد اعتقال استمر ١٣ شهرا في مايو ١٩٥٥ وافرج بعدها بأيام عن زوجته ايضا وكانت عضوة في الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) ... وظلا بعدها في تحديد الاقامة حتى منتصف عام ١٩٥٦ حيث افرج عنه .

الوحيد من العسكريين الذي ظلت اقامته محددة ، غير المحكوم عليهم بالسجن كان اللواء محمد نجيب .

كانت هناك انفراجة نسبية في موضوع المعتقلين والمعتقلات ، ويذكر انه حتى هذه الفترة وما بعدها لم تخل معسكرات الاعتقال من نزلاء تتغير الوانهم السياسية، تبعا للظروف .

كان الاعتقال بلا تحقيق ، امرا اداريا بسيطا كاد من تكراره لبعض الشخصيات ان يصبح من روتين حياتهم ...

واجهزة الامن منذ ٢٣ يوليو تنمو وتزدهر ... الذي اوكلت اليه مسئوليتها منذ البداية كان زكريا محيي الدين ، وهو يقول ان ذلك قد تم مصادفة عندما كان اعضاء المجلس يتولون في البداية توزيع المسئوليات فيما بينهم ... جمال سالم للاقتصاد وعبد اللطيف البغدادي للتعمير والشئون البلدية وصلاح سالم للسودان وعبد المنعم امين لشئون العمال ويوسف صديق للاوقاف ، وخالد محيي الدين للصناعة والصحة وهكذا .

قدم الامريكيون منذ اللحظة الاولى خبرتهم لتنظيم المخابرات بعد ان

كانت في عهد الملك محدودة الاثر محصورة في البوليس السياسي الذي كان يشرف عليه ماجور سانسون الذي اسس جمعية (اخوان الحرية) المتصلة بالمخابرات البريطانية ، والذي اصبح فيما بعد ضابط امن بالسفارة البريطانية حتى رحل عن مصر فجأة يوم ٣١ يناير ١٩٥٣ كما نشرت الصحف المصرية وعين بعد ذلك في ليبيا والف كتابا عن حياته في مصر باسم (تجسست على الجواسيس) .

قبل ٢٣ يوليو ، لم يكن هناك جهاز امن يعرف باسم المخابرات العامة وكان عدد ضباط المخابرات الحربية في الجيش ١٥ ضابطا فقط ، وعدد ضباط القسم المخصص بالبوليس السياسي ٢٤ ضابطا .

وقد استعان زكريا محيي الدين بعدد من الخبراء الالمان الى جانب تقارير المخابرات المركزية الامريكية التي كانت تقترح توحيد اجهزة الامن .

واعد زكريا محيي الدين مشروع قانون المخابرات على اساس الهيمنة على كافة اجهزة المخابرات في ادارة واحدة منعا لازدواج الجهد وكثرة التكاليف ... وهذا لا يعني ضمها في جهاز واحد وانما يعني التنسيق بينها بفكر ورأي واحد .

وقد تحقق ذلك فعلا لفترة محدودة ، وكان زكريا محيي الدين هو المشرف على كافة اجهزة الامن القائمة في ذلك الوقت (المخابرات العامة ـ مخابرات الجيش ـ المباحث العامة بالداخلية) .

ولم يستمر ذلك الامر طويلا فقد بدات الارادات المختلفة تتجاذب اجهزة المخابرات وبدأ ذلك بالقوات المسلحة عقب تولي عبد الحكيم عامر القيادة العامة ، فانفصلت مخابرات الجيش عام ١٩٥٥ ، وتكونت فيما بعد مخابرات اخرى منفصلة للقوات الجوية .

وعندما عين زكريا محيي الدين وزيرا للداخلية ترك الاشراف على ادارة المخابرات العامة بعد عدة شهور ، وعين علي صبري نائبا لمديرها ، ثم مديرا لها في يونيو ١٩٥٦ .

كان ضباط المخابرات العامة قد تحولوا الى مدنيين في سبتمبر ١٩٥٥، وانشيء في نفس العام المعهد الاستراتيجي بجوار برج القاهرة الذي دفعت المخابرات المركزية الامريكية ثمن انشائه ـ ٣ ملايين دولار ـ كما سبق ذكره ... وكانت تدرس فيه محاضرات المخابرات المركزية الامريكية عن طريق شركة بوز آلف وهاملتون لضباط المخابرات والمباحث وضباط امن الوزارات وبعض اعضاء السلك الديبلوماسي بالخارجية ، وذلك حسب رواية فريد طولان مدير المعهد في ذلك الوقت .

كان النموذج الامريكي هو المثال الذي تهتدي بـه اجهزة المبـاحث والمخابرات في ذلك الوقت ، وقد تسربت اجهزة المخابرات الامريكية الـى بعض ضباط هذه الادارات ، كمـا حدث عندما ذهب البكباشي احمد حلمي مدير قسم مكافحة الشيوعية بالمباحث العامة الى امريكا لعمل غير معروف دون استئذان او ابلاغ الجهات المختصة اذ كان قد ابلغ بأنه يمضي اجازته السنوية في قبرص وشوهد هناك مصادفة ولما علم زكريا محيي الديـن بذلك اصدر قرارا باحالته الى الاستيداع حيث بقي لمدة عام ، وانتقل بعد ذلك الى اجهزة البوليس العادية بغير محاكمة .

حدث التسرب الامريكي رغم ان وزارة الداخلية لم تحتفظ في المباحث العامة سوى بأربعة ضباط فقط من رجال البوليس السياسي السـابقين ، ورغم ان العسكريين فرضوا اشرافهم على وزارة الداخلية منذ الايام الاولى، حيث تبادل هذه المسئولية عدد من ضباط الجيش مثل البكباشي مصطفى لطفي الذي عين في الخارجية وتدرج في مناصبها حتى اصبح وكيـلا للوزارة ثم اليوزباشي محيي الدين ابو العز الذي اشرف على تكوين المباحث العامة وعين محافظا للفيوم ، وعندما تولى جمال عبد الناصر وزارة الداخلية عقب اعلان الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣ ودخول اربعة من اعضاء المجلس الـى الوزارة ، اعطى صلاحيات كبيرة ليوزباشي البوليس صلاح الدين دسوقي الذي انتهى محافظا للقاهرة .

كان جمال عبد الناصر يعتمد على اجهزة الامن ولكنه يشك في سلامـة موقفها واخلاصها للثورة ، كما يشك ايضا في قدرة افرادها على متـابعة افكاره ، ويشك اخيرا في احتمال وجود صلة بين بعض ضباطها واجهزة المخابرات الاجنبية .

كانت هذه الشكوك تعيش في نفسه ، وتنمو مع الوقت ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه الى الموافقة على تعدد اجهـزة الامـن والمخابرات بقيادات مختلفة ، بحيث تصب كافة معلوماتها في النهاية عنده وحده ... بل انـه انشأ في مكتبه فيمـا بعد جهـازا خاصا للمخـابرات والعمليـات والاتصالات الخاصة ، كان يشرف عليه سكرتيره الخاص للمعلومات سامي شرف ، دون تبعيته لاي جهاز آخر من اجهزة الامن ... الامر الذي يدل على عدم ثقة عبد الناصر الكاملة في هذه الإجهزة والذي خلق ازدواجية متكررة ، وكبد الدولة تكاليف باهظة .

كان جمال عبد الناصر مؤمنا ومعتقدا بأن اجهزة الامن لا تسير فـي خط متوافق مع افكاره ، وكان يقول ساخرا ــ حسب رواية احمد انـور وحسين عرفة ــ (لولا انني رئيس للجمهورية وقلت الكلام ده ، كـانت

المباحث حطتني في السجن) ومع ذلك لـم يبذل جهدا ايجابيا لتسييس اجهزة الامن ، بل انها نمت واتسع نفوذها بايديولوجيتها الجامدة المتخلفة ، ووسائلها الوحشية ، واطماعها الذاتية .

وعندما كلف مدير مكتبه احمد لطفي واكد بالاتصال بالسوفييت اتصالا سريا قبل باندونج ، حذره من خطر معرفة المباحث والمخابرات لهذه الاتصالات ، واستدعاه مرة الى منزله في حضور عبد الحكيم عامر ليشهده بأنه كلف لطفي واكد بهذه الاتصالات ، حتى لا يتهم بالاتصال بجهات اجنبية في حالة اذا ما تعرض جمال عبد الناصر نفسه للخطر او الموت .

ولازمت هذه الحالة جمال عبد الناصر لسنوات طويلة ، حتى انه لما فكر في تطبيق الميثاق عام ١٩٦٣ وتشكيل طليعة الاشتراكيين داخل الاتحاد الاشتراكي ، حرص على ان تكون تنظيما سريا بعيدا عـن رؤيـة المباحث والمخابرات ، رغم انه كان يهدف فيما بعد الى الدمج بينهما بتوحيد شخصية امين التنظيم ووزير الداخلية في شعراوي جمعه .

وكان هذا موقفا انفصاميا من جمال عبد الناصر ... يعتمد على اجهزة للامن لا يثق في قيادتها ولكنه يعتمد على تقاريرها ...

وقد اخذ نفوذ اجهزة الامن المتعددة ينمو ويستشري وخاصة فـي الجيش حيث اصبح الضباط مطاردين بعناصر منهم منبثة في صفوفهم ، تدفع الجميع الى الحذر والحرص ثم ايثار السلبية والبعد عن السياسة .

كان تنظيم الضباط الاحرار قد انتهى تماما كما سبق ان اوضحنا ، ولم يعد هناك أي ارتباط تنظيمي داخل الجيش الا تنظيم اجهزة الامـن والمخابرات .

وانفضت ايضا الرابطة التنظيمية لاعضاء مجلس القيادة ، وانفرطت مسبحة تنظيمهم ، واصبحوا افرادا تتنازعهم افكارهم ومواقفهم الخاصة ... واصبح جمال عبد الناصر هو القوة الوحيدة القادرة على اعطائهم فرص العمل التي يراها مناسبة لهم سواء في الوزارة او خارجها .

اول الذين عهد اليهم بعمل خاص كان صلاح سالم الذي تولى رئاسة مجلس ادارة جريدة (الشعب) الجريدة الثانية للثورة بعد (الجمهورية) التي رأسها انور السادات وبعد مجلة (التحرير) التي اصدرتها وراست تحريرها في ١٦ سبتمبر ١٩٥٢ .

ولم يبق صلاح سالم طويلا في منصبه فقد اقبل بعد موقفه اثناء فترة العدوان الثلاثي بخطاب جاء فيه (هناك مواضيع ليس مـن المصلحة ان تخوض فيها الآن مما يدعو الى الاستغناء عن خدماتك) ... وظل في منزله

بلا عمل حتى اعيد لميدان الصحافة مرة اخرى رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير للطبع والنشر في ٨ مارس ١٩٥٩ .

وعين جمال عبد الناصر خالد محيي الدين ايضا رئيسا لمجلس ادارة (المساء) التي صدرت يوم ٦ اكتوبر ١٩٥٦ وبذا اصبح للثورة ثلاث جرائد يومية ومجلة اسبوعية واخرى شهرية باسم (نداء الوطن) اصدرها امين شاكر مدير مكتبه فيما بعد .

كان اهتمام جمال عبد الناصر بالسيطرة على اجهزة الاعلام والصحافة امرا ملحوظا .. بل ان تعييناته في مجال الصحافة كانت تعتبر احساسا للتنبؤ بحركته السياسية في المستقبل .

لم يتوقف تعيين جمال عبد الناصر لزملائه اعضاء المجلس عند حدود الصحافة ، بل عينهم في المراكز الدينية ايضا .

عين انور السادات سكرتيرا عاما للمؤتمر الاسلامي ، ولحقه فيه مساعدا له امين شاكر ثم حسن التهامي ... ووصل الامر الى تولي عبد الحكيم عامر تنظيم الطرق الصوفية مع الغاء القيود التي كانت مفروضة على تسيير هذه المواكب كما نشرت الاهرام يوم ١٨ مارس ١٩٥٥ .

وحتى نهاية فترة الانتقال كان الضباط الاحرار يحتفظون برتبهم في الجيش الا الذين حوكموا منهم او ابعدوا ، وتحددت نشرة ٢٣ يوليو ١٩٥٦ باعتبارها آخر نشرة عسكرية يمكن للضباط الذين يرغبون في الخروج من خدمة الجيش ان يلحقوا بها .

وفضل بعض الضباط ان يخرجوا من صفوف الجيش لممارسة حياة مدنية ، وكان مفروضا ان تغلق ابواب الخروج بعد ذلك .

ولكن نشرة ٢٣ يوليو ١٩٥٦ او نهاية فترة الانتقال لم تكن حدا فاصلا ، ولم تكن حاجزا يحول دون تسرب الضباط الى الحياة المدنية .

لم يتوقف زحف الضباط على الحياة المدنية تحت اغراء ما توفره لهم من حرية ومكافأة مادية تزيد عن مرتباتهم المقيدة بقواعد الترقية العسكرية .

وانتشر الضباط في مختلف المجالات ولكنهم تركزوا اساسا في عدة جهات ... اجهزة العمل السياسي والخارجية وشركات التجارة والصناعة .

ولم يكن خروج الضباط من الجيش يتخذ موقفا طبقيا يخلص الجيش من العناصر المضادة او مقرونا بكفاءتهم وقدرتهم على الانتاج في الاعمال التي كلفوا بها ... ولكنه اذا استثنينا الضباط الاحرار الذين كانت صلتهم

بالعمل السياسي قد جعلت عودتهم لقيود الجيش عملية صعبة ، كان الخروج يتم تحت تأثير عدة عوامل .

اولا : الرغبة في تقديم خدمة لبعض الضباط من الاصدقاء المقربين .

ثانيا : الرغبة في التخلص من بعض العناصر التي لا تفكر في تدبير انقلاب ولكنها ليست من الانتهازيين والمنافقين مما يجعل لها شخصية بارزة .

ثالثا : تطهير الجيش من بعض العناصر سيئة السلوك والتي لا سند لها .

رابعا : الاستفادة من بعض العناصر التي تولت اعمالا مدنية واثبتت فيها كفاءة مرضية خلال السنوات الاولى للثورة .

تحت ضغط هذه العوامل الاربعة استمر تيار الخروج متدفقا من الجيش لا يتوقف رغم تصريح انور السادات لجريدة المصري يوم ٧ يوليو ١٩٥٣ بأن أحدا من العسكريين لن يعين في منصب مدني .

واستمرت قيادة الضباط للتنظيم السياسي الجديد فعين كمال الدين حسين مشرفا عاما على الاتحاد القومي ، بعد انور السادات سكرتيره العام الذي عين وكيلا لمجلس الامة .

وزرع الضباط ايضا في اول برلمان منتخب بعد ٢٣ يوليو .

وتبعا لمواد الدستور الجديد وقانون الانتخاب الذي صدر في ٣ مارس ١٩٥٦ خفض سن الناخب الى ١٨ سنة بعد ان كان ٢١ سنة لانتخاب النواب ، ٢٥ سنة لانتخاب الشيوخ واعطى للمرأة حق الانتخاب لاول مرة في تاريخ مصر ... ومنح العسكريون ايضا حق الانتخاب وصدر قانون عضوية مجلس الامة في ١١ يونيو لانتخاب مجلس مؤلف من ٣٥٠ عضوا بدلا من مجلس للشيوخ والنواب وحدد سن العضو بثلاثين سنة على الاقل مع خفض قيمة تأمين الترشيح من ١٥٠ جنيها الى ٥٠ جنيها ، وتحديد المكافأة الشهرية بمبلغ ٧٥ جنيها .

صدرت التعليمات لعدد من الضباط بترشيح انفسهم في دوائر معينة، حتى في الدوائر البعيدة مثل الوادي الجديد (محمد ابو نار) وسيناء (فتحي رزق) ومرسي مطروح (فؤاد المهداوي) ... وشكلت لجنة خاصة من العسكريين ضمت زكريا محيي الدين وعلي صبري وعدد من ضباط المخابرات لفرز الترشيحات للمجلس واستبعاد الذين لا يتلاءمون مع ارادة السلطة العسكرية .

وقد استبعد نتيجة لذلك عدد كبير من المرشحين ... وعلى سبيل

المثال شطب حق الترشيح في دائرة (تكلا العنب) البحيرة من تسعة مرشحين كنت واحدا منهم لتقفل الدائرة على فتحي الشرقاوي المحامي .

لم تكن المسألة هي ادخال الضباط للمجلس ... وانما ادخال الضباط الموالين والسائرين في ركب السلطة ، تجنبا للمعارضة ...

وهكذا قضي منذ البداية على فرصة وجود معارضة بعد ان اعطى الدستور للاتحاد القومي حق الاعتراض على المرشحين ... وقد اعترض على ١١٨٨ من ٢٥٠٨ مرشحين .

اجريت الانتخابات في هذا المجلس بحرية نسبية دون تدخل واغلقت كافة الدوائر التي رشح فيها اعضاء مجلس قيادة الثورة تجنبا لاتهامات بالتزوير ومواجهة صريحة للجماهير بالرغبة في ادخالهم الى مجلس الامة ... واصدر وزير الداخلية زكريا محيي الدين اوامره بالحياد المطلق بين كافة المرشحين . وكان دليل ذلك سقوط والد كمال الدين حسين في القليوبية وسقوط شقيق زوجة زكريا محيي الدين نفسه في الشرقية .

عدد الدوائر التي اغلقت كانت ٤٣ دائرة وعدد الضباط من الجيش والبوليس الذين دخلوا مجلس الامة كانوا ٥٩ ضابطا وقد انتخب عبد اللطيف البغدادي رئيسا للمجلس وانور السادات وكيلا له .

اضفى مجلس الامة شرعية ديموقراطية على نظام الحكم ، ولكنه ظل في مضمونه عسكريا يقبض العسكريون فيه على زمام السلطة التي اصبحت تتركز في يد جمال عبد الناصر .

ابرز ازمة فجرت تناقضات العسكريين داخل مجلس الامة كانت أزمة مجدي حسنين ومديرية التحرير ... كان هو الذي انشأها ثم طرد منها يوم ٣ نوفمبر ١٩٥٧ بعد منعه لقوات البوليس من تنفيذ امر صادر باخلاء منطقة معروفة من سكانها واعاد اثاث المنازل بعد اخراجه بالقوة باعتباره نائبا للمنطقة .

قدم عشرة نواب اقتراحا بطرد مجدي حسنين من المجلس هو والنواب الدكتور محمود القاضي واسماعيل نجم المحامي والصاغ احمد شفيق ابو عوف باعتبار ان مجدي حسنين قد افسدهم بتعيينهم في مديرية التحرير ... والدستور يعطي لمجلس الامة حق الموافقة على ميزانية الحكومة ومصروفاتها ، وبذا كان في مقدوره ان يعترض على الحكومة التي يعينها رئيس الجمهورية الذي يعين بوساطة المجلس وتستفتى في شأنه الامة ومع ذلك فللرئيس سلطة حل مجلس الامة .

قرر عبد اللطيف البغدادي رئيس المجلس تشكيل لجنة دستورية للتحقيق على ان تنتهي منه خلال ٤٨ ساعة .

كان جمال عبد الناصر قد اظهر تخليه عن مجدي حسنين فتحمس ضده عدد كبير من اعضاء المجلس ... ولكن مراجعته للموقف واستماعه لبعض الضباط جعله يعتقد ان قرار فصل مجدي حسنين من مجلس الامة سوف يعتبر ادانة لمشروع مديرية التحرير وهو الذي تحمس له عند انشائها باعتباره من مشاريع الثورة الهامة وشكل لها مجلس ادارة على مستوى عال برئاسة الدكتور عبد الرازق صدقي وزير الزراعة وعضوية الوزراء عبد اللطيف البغدادي وكمال حسين واحمد الشرباجي وعبد الحكيم الرفاعي محافظ البنك الاهلي واحمد فؤاد ووكيل وزارة الخزانة وعدد من اساتذة الزراعة في مصر ... وكان مجدي حسنين هو العضو المنتدب ووقف ضد رأي جمال سالم الذي كان يعارض اشراف الدولة على الزراعة والذي حمل لواء المعارضة في اجتماع مشترك لمجلس الثورة ومجلس الانتاج ومجموعة من مديرية التحرير دعا اليه عبد الناصر لمناقشة المشروع :

وبعد ان كان قد ابلغ البغدادي موافقته على فصل مجدي عاد فأبلغ بعض النواب العسكريين المقربين منه بعدم موافقته ... وهنا تحول تيار المجلس ، وفترت حماسة المهاجمين لمجدي حسنين وتحول بعضهم الى موقف التأييد له والدفاع عنه .

وعندما شعر عبد اللطيف البغدادي بهذا التحول وهو الذي كان على وشك تنفيذ اجراءات فصل مجدي حسنين ترك منصة الرئاسة وخطب في الاعضاء قائلا أن هناك خللا دستوريا وتدخلا من السلطة التنفيذية في شئون السلطة التشريعية .

طالب الاعضاء بأن تكون الجلسة سرية بعد أن اعلن البغدادي انها ستكون علنية ولذا قرر في نهايتها ان يستقيل ومعه مجموعة من اعضاء المجلس ... ولكنه فوجيء وهو في طريق عودته ومروره على منزل جمال عبد الناصر ان هؤلاء الاعضاء عنده .

وانتهت الازمة بجلسة طويلة بين جمال عبد الناصر والبغدادي فسر له فيها جمال رأيه في احتمالات تطور الموقف بما اقنع البغدادي واعاد الهدوء الى نفسه .

وانتهت ازمة مجدي حسنين بعد ان عرض التحقيق على المجلس ووقف بجانب مجدي ٢٣٠ عضوا من ٣٥٠ هم عدد اعضاء المجلس .

واسفرت هذه الازمة عن ظهور التناقضات بين اعضاء مجلس القيادة الى المجال العلني بعد ان كانت مطوية في نطاق السرية .

وقدم كمال الدين حسين الى عبد اللطيف البغدادي استقالته من عضوية مجلس الامة احتجاجا على تصرفات مجدي حسنين ولكنه سحبها بعد تدخل شخصي من جمال عبد الناصر .

لم تكن هذه اول استقالة لكمال الدين حسين ولكنها كانت الثالثة ... قدم الاولى في الشهر الاول من حركة ٢٣ يوليو دون ان يذكر بها اسبابا معينة ... وقدم الاستقالة الثانية اثناء غياب جمال عبد الناصر في باندونج احتجاجا على بعض تصرفات جمال سالم .

ادت هذه المواقف والاستقالات المرفوضة الى زيادة اعتماد جمال عبد الناصر على عناصر جديدة من العسكريين غير الذين ادوا ادوارهم في بداية الحركة ... ولمعت اسماء لم تكن في تنظيم الضباط الاحرار .

زحف العسكريين نحو السلطة ، يأخذ طابعا جديدا .

وفي الوزارة التي شكلت يوم ٦ مارس ١٩٥٨ عين علي صبري وزيرا لشئون رئاسة الجمهورية ، واللواء فتحي رزق نائبا لوزير الحربية وكمال الدين رفعت نائبا لوزير شؤون رئاسة الجمهورية .

وكان هذا بداية تسرب العسكريين من خارج مجلس قيادة الثورة الى مراكز السلطة الرئيسية فتح الباب بعده لمزيد من التعيينات ، فضمت الحكومة المركزية التي شكلت في ٧ اكتوبر من نفس العام ١٩٥٨ حسين ذو الفقار صبري نائبا لوزير الخارجية ومحمد عبد القادر حاتم نائبا لوزير شئون رئاسة الجمهورية بعد تعيين كمال رفعت وزيرا للدولة .

ودخل المجلس التنفيذي للاقليم المصري في نفس التاريخ الوزراء العسكريون ثروت عكاشة للثقافة والارشاد القومي وعباس رضوان للداخلية والدكتور محمد محمود نصار للصحة ومحمد توفيق عبد الفتاح للشئون الاجتماعية واحمد عبدالله طعيمه للاوقاف .

مثل هذه التعيينات الجديدة خلقت فارقا واسعا بين مركز السلطة المتمثل في جمال عبد الناصر وبين الذين عينوا وزراء ... فقد كان بعض هؤلاء ومن جاء بعدهم ابعد ما يكونون عن السياسة ، ووصولهم الى المسئولية الوزارية لم يكن عن طريق النضال السياسي وانما عن طريق الاختيار الشخصي ... وبذا اصبحت تبعيتهم كاملة لشخصية الزعيم وخاصة في غيبة التنظيم السياسي الفعال ، حيث بدت تجربة الاتحاد القومي على انقاض هيئة التحرير هشة وغير جذابة للجماهير .

معظم المراكز القيادية والوزارات اخذت تسقط بالتدريج في يد العسكريين واصبحوا هم الكادرات التي يعتمد عليها النظام ...

ويقول ماكسيم رودنسون (احتاج الامر الى وقت اطول ليتبين ان الجيش جماعة انانية متلهفة الى الاستمرار في السلطة والى زيادة امتيازاتها، وانها بعيدة عن الطبقات العاملة وغير جديرة ان تهب نفسها لاهدافها)

التفكير في الطبقات العاملة لم يكن واردا حتى هذه اللحظة ... وتعبير العسكريين عن اهدافها كان تصورا بعيدا عن الواقع والحقيقة .

بقي الجيش هو السند الرئيسي للنظام ... وفي سبيل ذلك منح ضباطه كثيرا من الامتيازات .

ارتفعت المرتبات بنسبة اسرع كثيرا من ارتفاع مرتبات خريجي الجامعة :

الرتبة	المرتب عام ١٩٥٢	المرتب عام ١٩٦٢	المرتب عام ١٩٧٢
عسكري	٦٩ قرشا شهريا	٢٥٠ قرشا	٣٠٠ قرش
ملازم ثان	١٢ جنيها شهريا	٢٠	٢٥
لواء	٩٠ جنيها شهريا	١١٠	١٢٥

وتقررت للضباط بدلات جديدة مثل بدل التمثيل الذي كان قد قرر للوزراء ووكلائهم ورؤساء مجالس الادارة في صورة مرتب الاستقبال (فريق ١٣٥٠ جنيها سنويا ، لواء ٧٥٠ جنيها سنويا ، عميد ٣٧٥ جنيها سنويا) للرتب الكبيرة فقط، وارتفعت قيمة بدل السكن، وبدل الاقامة في محافظات اسوان والبحر الاحمر وقنا وسوهاج ، ومنح مرتب امتياز للخدمة برئاسة الجمهورية (يتراوح بين ١٤ جنيها شهريا لرتبة اللواء ، وعشرة جنيهات شهريا للملازم والنقيب) .

كما زادت العلاوات عددا وقيمة .. اصبح هناك علاوة تدريس وعلاوة تعليم وعلاوة تشكيل وعلاوة مترجم .. الخ .

كانت هذه العلاوات والبدلات والمكافآت مرضية للضباط اصحاب الرتب الكبيرة ، وكانت تخلق في نفس الوقت فروقا اجتماعية وطبقية حادة بين الضباط والمجندين ، تماما كما كانت الحال في الجيش قبل الثورة ، ولكن بصورة اخف قليلا ... مع ضرورة مراعاة ارتفاع مستوى الجنود الاجتماعي بعد قانون تجنيد عام ١٩٥٥ .

وتقرر ايضا رفع سن الاحالة على المعاش (المشير ٦٥ سنة والفريق ٦٢ سنة واللواء ٦٠ سنة) وهكذا تتدرج تنازليا حتى تصل الـى سـن الخمسين لرتبة الرائد (الصاغ) ، ٤٤ للملازم .

وكانت شخصية عبد الحكيم عامر الذي حصل على رتبة المشير في اول يونيو ١٩٥٨ بعد الوحدة واصبح نائبا لرئيس الجمهورية مساندة لهذا الاتجاه فهو بحكم تكوينه ودود ، يغدق على كل من يلجأ اليه من الضباط، ويهتم بالمسائل الاجتماعية اكثر من اهتمامه بالمسائل العسكرية .

والمكتب العسكري الفني للقائد العـام الذي ضـم عددا مـن خيـرة الضباط مثل حافظ اسماعيل ونور الدين قرة ومحسن ادريس وعبد المحسن مرتجى وغيرهم لم تعد له سلطة امام مكتب شئون الافراد الذي يديره شمس بدران .. ونقل معظم الاكفاء من المكتب الى الوظائف المدنية بعد انفجار التناقضات والخلافات .

وكانت الحاشية التي احاط المشير نفسه بها قد عرفت فيه هـذه الصفات فتمـادت في سلوكهـا اللااخلاقي واستغلت اموال الدولة اسوأ استغلال .

كل الذين اقتربوا من رجال مكتبه الذين كان يقودهم الصاغ علي شفيق صفوت ، كانت تأخذهم الدهشة من الجموح المكشوف في مجال اللهـو والبـذخ المبـالغ فيـه ، الامـر الـذي اثـر تأثيرا شديـدا على قمة القيادة العسكرية وانعكس على بقية مستويات الضباط .

وبقي الجيش هو المصدر الرئيسي لتوريد الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الادارة ووكلاء الوزارات والسفراء وغيرهم من اصحاب المنـاصب الرئيسية ... يزداد ذلك وضوحا كلما مضت الايام ... وخاصة فـي عهد الوحدة مع سوريا حيث ظهرت مناصب جديدة لنواب رئيس الجمهورية واعضاء مجلس تنفيذي في مصر وسوريا ...

وظهرت فئة جديدة من الضباط المؤهلين خريجي الجامعات وخاصة المهندسين الذين تدفقوا على الاعمال المدنية بعد بداية الحركة ثم وصلوا الى مناصبها الرئيسية مع تعيين القائمقام محمود يونس نائبا لرئيس هيئة قناة السويس واللواء المهندس عبد الوهاب البشري نائبا لوزير الحربية والصاغ صلاح هدايت خريج كلية العلوم ايضا وزيرا للبحث العلمي .

بدأ هؤلاء الضباط التيكنوقراط يمثلون فئة جديدة من فئات السلطة العليا ...

كما بدأ الضباط يتولون اعمالا بعيدة عن اختصاصاتهم ولا تدخل في مجال العمل السياسي وانما تحتاج الى تخصص وتأهيل فتولى في وزارة ١٨ اكتوبر ١٩٦١ بعد الانفصال ... كمال رفعت وزارة العمل وعبد المحسن ابو النور وزارة الاصلاح الزراعي واصلاح الاراضي ... واحمد عبدالله نوابا لرئيس الجمهورية واحتفظوا بأعمال تنفيذية مثل عبد اللطيف البغدادي وزيرا للخزانة والتخطيط وزكريا محيي الدين للداخلية وعبد الحكيم عامر للحربية والقيادة العامة وحسين الشافعي للاوقاف والشئون الاجتماعية وكمال الدين حسين وزيرا للادارة المحلية والاسكان والمرافق .

نقطة تحول

كان هذا هو الاتجاه حتى عين علي صبري رئيسا للمجلس التنفيذي في مصر يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ بعد تشكيل مجلس الرئاسة من جمال عبد الناصر رئيسا وعبد اللطيف البغدادي وعبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وكمال الدين حسين نوابا لرئيس الجمهورية وانور السادات وحسن ابراهيم وعلي صبري والدكتور نور الدين طراف والمهندس الزراعي احمد عبده الشرباصي وكمال الدين رفعت اعضاء .

كان لتعيين علي صبري رئيسا للجهاز التنفيذي بعد تشكيل مجلس الرئاسة بداية لسحب السلطات التنفيذية والادارية من بين اعضاء مجلس قيادة الثورة ، واقتصار عملهم على الشئون السياسية وما يعرض عليهم من أمور في محاولة شكلية للقيادة الجماعية ، ومحاولة فعلية للاشراف المباشر على اعمال مجلس الوزراء عن طريق علي صبري ... واعتبر ذلك التاريخ نهاية فعلية لسلطات اعضاء المجلس المباشر ولو في مناصب وزارية عدا عبد الحكيم عامر الذي ظل في موقعه وزيرا للحربية حتى النهاية .

علل جمال عبد الناصر ذلك لزكريا محيي الدين بقوله ان وجودهم في المناصب التنفيذية يسبب له حساسيات ويضعف من ارادته في التغيير .

كما كان تعيين علي صبري رئيسا للمجلس التنفيذي اول تكليف لعسكري من خارج مجلس قيادة الثورة بعمل رئيسي وايذانا بالاستعانة بعدد من العسكريين الجدد في مناصب وزارية ... لم يخرج احد من الوزراء العسكريين القدامى وانما اضيف اليهم البكباشي طلعت خيري وزير دولة للشباب وعين عبد العظيم فهمي اول ضابط شرطة وزيرا للداخلية كما تم تعيين صدقي سليمان وزيرا للسد العالي في وزارة ٢٥ مارس ١٩٦٤،

ومحمود رياض وزيرا للخارجية ثم دخول شعراوي جمعه وزيرا للدولة في وزارة زكريا محيي الدين اول اكتوبر ١٩٦٥ ومعه عبد الفتاح حسن وزير دولة ... واحمد حمدي عبيد وزيرا للادارة المحلية ، ونور الدين قرة وزيرا للتموين والتجارة الداخلية ، وامين هويدي وزيرا للارشاد .

بلغت نسبة الضباط خلال الفترة التي اعقبت الانفصال اعلى نسبة في تاريخ الحركة .

مجلس الرئاسة ١٠ عسكريين من ١٢ عضوا بنسبة ٣/١ ٨٣٪ .

مجلس الوزراء اثناء رئاسة علي صبري ١٠ وزراء ونواب وزراء من ٢٩ عضوا بنسبة ٢/ ٣٤٪ .

ثم ارتفعت النسبة في وزارة ٢٥ مارس ١٩٦٤ لتكون ٥٠٪ للعسكريين من بين رئيس الوزراء ونواب رئيس الوزراء رئيس الوزراء واحد عشر نائبا .. ولتصبح ٢٥٪ من الوزراء ٦ عسكريين ، ١٨ مدنيا .

ارتفعت هذه النسبة في وزارة زكريا محيي الدين لتصبح ١٠ وزراء عسكريين ، ١٦ مدنيا بنسبة ٣٩٪ تقريبا .

كان عدد الوزراء عموما اكثر مما تحتمله طاقة مصر ... الوزارة البريطانية بعد الحرب كانت تشكل من ١٨ الى ١٦ وزيرا والوزارة الامريكية تشكل من ١٢ وزيرا .

واضح من هذا الاعتماد المتدرج على العسكريين ان الجيش كان السند الحقيقي للسلطة وانه لم يكن هناك مصدر رئيسي آخر يعتمد عليه ... وان الوزارات التي ابتعد عنها العسكريون وتولاها مدنيون منذ بداية الحركة لم تتجاوز وزارة العدل والاشغال والاقتصاد فقط ... اما بقية الوزارات فقد مر عليها العسكريون في رحلة او اخرى .

والعسكريون في عملهم لهم طبيعة خاصة ... وكل مهنة لها مواصفات معينة تجمع المنتمين اليها وتصبغهم بصبغتها .

والحياة العسكرية تنمي في الضباط الروح الفردية والطاعة لان كل فرد في العسكريين له سلطة اصدار الاوامر على من هم احدث منه ، وعليه واجب تنفيذ اوامر من هم اقدم منه بلا اعتراض او مناقشة .

ومثل هذه الحياة تخلق في الضباط ما يسمى (عيوب المهنة) ولكل مهنة عيوبها كما لها فضائلها ... وهي عند الضباط تتمثل في هذا الالتزام الغريب بتنفيذ الاوامر ، وتجنب المناقشة او عدم القدرة عليها ، والانعزال عن المجتمع لارتباطهم غالبا بحياة المعسكرات ، ووجود صلات شخصية وثيقة بينهم لتواجدهم الدائم مع بعضهم وخاصة في المناطق الخارجية

والنائية ، وعزوفهم عن الثقافة والقراءة الجادة حيث لا تلتزم حياتهم بذلك الا في حدود الشئون العسكرية .

الوجه الآخر للتشكيل المهني للضباط هو اجادتهم وتفوقهم في الاعمال الادارية ، وانضباطهم في تنفيذ التعليمات ... الامر الذي يجعل الشركات الصناعية في الخارج تستعين بكفاءة الضباط المتقاعدين في الاعمال الادارية .

ولذا فان استعانة مركز السلطة بالعسكريين كان اختيارا للطريق السهل ... بدلا من اختيار الطريق الصعب في تكوين كادرات من خارج الجيش عن طريق الانفتاح على الجماهير واتاحة الفرصة لظهور العناصر ذات الطاقات والمواهب .

وظاهرة اخرى هامة تشير الى نوعية الضباط المختارين لمنصب السلطة العليا ... معظمهم كانوا ضباطا في المخابرات العامة او الحربية (علي صبري وكمال رفعت وطلعت خيري وثروت عكاشه وعبد القادر حاتم وشعراوي جمعه وامين هويدي وتوفيق عبد الفتاح وعبد المحسن ابو النور) وبذا يمكن القول انه اذا استثنينا التكنوقراطيين مثل صدقي سليمان ومحمود يونس وعبد الوهاب البشري فان بقية العسكريين كانوا من المدربين في اجهزة المخابرات المتخرجين فيها ... الامر الذي انعكس على اسلوبهم في الحكم ، حيث اعتمدوا على السرية والانغلاق والتقارير ولم ينفتحوا انفتاحا حقيقيا على الجماهير .

كان مركز السلطة يحتم اهتماما مركزا برؤية ما يدور في المجتمع ليس عن طريق التفاعل الحيوي الطبيعي ، وانما عن طريق الرؤية المحدودة لاجهزة الامن .

وكانت اجهزة الامن والمخابرات تزداد في العدد والامكانيات المادية بصفة مستمرة ...

وكان طريق الوصول للسلطة هو كتابة التقارير ... فهي معيار الاخلاص وميزان الولاء .. وكان مطلوبا من الجميع في مراكز السلطة ان يسهموا في ذلك كل على قدر طاقته .

وكان هذا دافعا ايضا الى اهتمام اجهزة العمل السياسي على مختلف تشكيلاتها (هيئة التحرير ــ الاتحاد القومي ــ الاتحاد الاشتراكي) بكتابة تقارير تساند اجهزة الامن في عملها .

ولم يقتصر هذا الاسلوب على العسكريين وحدهم وانما امتد الى المدنيين ايضا ... عدد من الوزراء المدنيين كانوا يعملون ويتعاونون اصلا في المخابرات .

وكان هذا دافعا ايضا الى اهتمام اجهزة العمل السياسي على مختلف تشكيلاتها (هيئة التحرير ـ الاتحاد القومي ـ الاتحاد الاشتراكي) بكتابة تقارير وتعطى لمركز السلطة معلومات قد لا تصل اليها اجهزة الامن ، او تبرز لها صورة خافية او مختلفة .

ويبدو ان ذلك كان قد اصبح قاعدة طبيعية ، وعملا مطلوبا من الذين يعهد اليهم بأعمال مسئولة .

قال جمال عبد الناصر للصاغ لطفي واكد عندما عهد اليه برئاسة تحرير جريدة الشعب ، انه عندما طلب بعض المعلومات عن عدد من الوزراء احضرها له مصطفى امين في نصف ساعة ، بينما اقتضى ذلك من المخابرات اكثر من اسبوع ... وقال له ان هذا دليل على ان عنده جهاز معلومات قادرا ونشيطا ...

بعض المسئولين عن الصحف كانوا يلعبون دور اجهزة الامن للمعلومات ايضـا .

وطلب من لطفي واكد ان يعد جهازا خاصا في صحيفته للحصول على مثل هذه المعلومات .

كانت بعض المؤسسات الصحفية تؤدي هذا الدور ايضا ... وكانت هذه التقارير هي سلم الترقي .

وهكذا نمت اجهزة الامن والمعلومات واتسعت شباكها حتى كادت تستوعب المجتمع كله ... وفقد الناس الثقة في بعضهم ، وبذر الخوف في قلوبهم ، فانعقدت ألسنتهم وآثروا الصمت والسلبية والبعد عن المخاطر .

وفي هذا الجو تغلبت نظرية تغليب الاخلاص على الخبرة ... ولم يعد غريبا ظهور عنصر العسكريين وخاصة المرتبطين بأجهزة الامن في مراكز تبعد تماما عن طبيعتهم ومعرفتهم . وكما حدث في مناصب الوزراء حدث في كثير من المناصب الاخرى الحساسة .

اول تطبيق لنظام الادارة المحلية وتعيين المحافظين صدر في ١٠ سبتمبر ١٩٦٠ وشمل تعيين ٢١ محافظا منهم ١١ ضابط جيش ، ٥ ضباط شرطة في مناصب المحافظين .. وهي مناصب سياسية من درجة نائب وزير يسقط شاغلوها مع انتهاء مدة رئيس الجمهورية ، والذي يخرج منها يحال للمعاش دون تولي منصب آخر .

كان من بين المحافظين سبعة فقط من الضباط الاحرار (وجيه اباظة ، حمدي عبيد ، اسماعيل فريد ، محمد البلتاجي ، محيي الدين ابو العز ،

حمدي عاشور ثم صلاح الدين دسوقي ضابط الشرطة الذي عين محافظا للقاهرة) ، وكان هناك ايضا بعض الضباط الذين وقفوا الى جانب مجلس الثورة في أزمة مارس ١٩٥٤ مثل سعد الدين زايد ...

ومنذ القرار الاول لتعيين المحافظين ، اصبح الجيش مصدرا رئيسيا من مصادر توريدهم ، واحتفظ الضباط دائما بالاغلبية العددية بين المحافظين .

وكان عدد السفراء العسكريين في وزارة الخارجية يزيد ويتضاعف .

في عام ١٩٥٢ لم يكن هناك سفراء عسكريون سوى اللواء علي نجيب في بيروت واللواء محمد سيف الدين في عمان ...

تزايد تدفق الجيش الى الخارجية حتى بلغ عدد الضباط في مناصب وزارة الخارجية الكبرى ٧٢ ضابطا من ١٠٠ عام ١٩٦٢ ... وكان جميع سفراء اوروبا خلال ذلك العام من الضباط عدا ٣ من المدنيين .

ولم يقتصر الامر على المناصب الكبيرة فقط .. ولكن طعمت الوزارة ايضا بعدد من الضباط اصحاب الرتب الصغيرة نسبيا في مناصب المستشارين والسكرتيريين ولكن نسبتهم لم تتجاوز ٢٩ ضابطا في المائة منصب الثانية وذلك تبعا لما ورد في كشف اقدمية اعضاء السلكين الديبلوماسي والقنصل الصادر من وزارة الخارجية في اول يناير ١٩٦٤ .

واستولى العسكريون على المناصب القيادية في نطاق الشباب ايضا ، واشترك اعضاء مجلس قيادة الثورة السابقون في ذلك .

ولم يكتف عبد الحكيم عامر بمنصب القائد العام للقوات المسلحة والمشرف على الطرق الصوفية ، بل اصبح رئيسا لاتحاد كرة القدم اللعبة الشعبية الكبرى في مصر ، وعين حسين الشافعي رئيسا لاتحاد الفروسية ، وعلي صبري رئيسا لاتحاد السباحة ، ومجدي حسنين رئيسا لاتحاد التنس ، وعلي شفيق مدير مكتب المشير رئيسا لاتحاد الملاكمة ... الخ .

لم يكن تدفق الضباط الى هذه المناصب المتعددة شرا كله ... وان كان المبدأ في ذاته خاطئا ومدمرا لانه حطم تقاليد الجيش ، وخلق بين الضباط تطلعات ذاتية وطبقية ، واغرق بعض الجهات بأفراد ابعد ما يكونون عن الخبرة ، لا يعتمدون الا على صلاتهم الشخصية وملابسهم العسكرية السابقة .

ولا شك انه كانت هناك سلبيات وايجابيات في اهل الثقة ، كما كانت موجودة ايضا في اهل الخبرة .

لم يبذل مركز السلطة جهدا ايجابيا في كسب ثقة اهل الخبرة بعد

ضربات العنف التي وجهها لاعداء الثورة ، وبعد اعتماده الواضح على الجيش كمؤسسة وعلى اجهزة الامن كمصدر تفريغ للمسئولين على كافة المستويات .

ولذا فان اهل الخبرة لم يكن عندهم اقتناع واضح بخطوات الثورة، ولم يقدروا رغبة قيادتها الصادقة في تطوير المجتمع بعد تأكيد استقلاله الوطني ... فظلوا في عزلتهم يفرزون آراءهم المضادة دون محاولة جادة للتعرف على ما يدور في المجتمع من تغيرات اجتماعية .

لم يكن تحقيق التناسق بين اهل الثقة واهل الخبرة عملية عسيرة معقدة ، ولكن مركز السلطة لم يفطن الى انها ضرورة لبناء المجتمع على اسس علمية سليمة ، وآثر الراحة والاعتماد على خلصائه الاوفياء من العسكريين الذين جعلوا من انفسهم حاجزا يعزل اهل الخبرة عن الوصول الى اماكنهم الطبيعية .

كتب محمد حسنين هيكل ينقد المثقفين في سلسلة مقالات تحت عنوان ازمة المثقفين في صحيفة الاهرام خلال شهر يونيو ١٩٦١ .

اين كان المثقفون ؟

واين كان دورهم الطليعي ؟

كان بروز القيادة الثورية من الطلائع العتيقة التي تحركت من صفوف الجيش ونجاحها في التعبير عن مطالبها تذكيرا دائما لهذه الفئات المثقفة بعجزها عن اداء دورها الطليعي .

ويلخص هيكل أزمة المثقفين في ثلاث نقاط :

١ ــ المطالبة بعودة الجيش الى الثكنات .

٢ ــ المطالبة بعودة الحياة النيابية والاحزاب السياسية .

٣ ــ اهل الثقة واهل الخبرة .

ويخلص هيكل الى القول (ازمة المثقفين هي تعبير عن فشلهم في الحياة) .

ودخل صلاح دسوقي في حملة الحديث عن أزمة المثقفين في مجلة البوليس بقوله (ليست هناك أزمة) وهاجم مثقفي الاقطاع والرجعية والاحزاب السياسية ... واعتبر المثقفين اشد المعارضين للنظام واقصى الرافضين لرأي الغير .

كان هذا الموقف دليلا على محاولة العسكريين ادانة المثقفين واتهامهم بالانطوائية دون محاولة جادة لاجتذابهم الى المشاركة الفعالة في مجالات الحركة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وغريب ان تظهر هذه المقالات في وقت كان فيه خيرة مثقفي مصر واكثرهم اخلاصا لها داخل المعتقلات والسجون بتهمة الشيوعية .

ولكنها فيما يبدو كانت تعبيراً عن احساس مركز السلطة بوجود فراغ فكري في المجتمع يعجز العسكريون عن ملئه .

ومع ذلك فان السلطة استمرت للجيش وحده لا تشاركه فيها أية قوة سياسية او اجتماعية ولم تكن حركته ـ حتى هذه الفترة ـ تعبيرا عن طبقة معينة ، وانما كانت منفردة في ذاتها .

لم يكن قد ظهر تحديد قطعي واضح بعد بوجود الجيش في خدمة البرجوازية الكبيرة او الصغيرة او الطبقة العاملة .

ويقول لينين (لا يمكن للقوات المسلحة ان تكون ، ولم تكن يوما ، ولن تكون ابدا محايدة) .

ولكنها خلال هذه الفترة كانت في مرحلة تثبيت اقدامها ، واستكمال قدراتها ، وتأكيد نفوذها لتؤدي دورها الطبيعي بعد ذلك في خدمة طبقتها كما سيأتي توضيحه في الفصول القادمة .

ولا يمكن النظر الى العسكريين ككتلة واحدة ... فانه فيما بين الضباط توجد تناقضات ... وفيما بين الضباط والجنود توجد ثغرة واسعة .

وقد ظلت العزلة الاجتماعية والفكرية بين الجنود والضباط هي المظهر المستمر .

الاغلبية الساحقة من الجنود كانوا من القرية ابناء الفلاحين البسطاء ... والضباط من المدينة ابناء البرجوازية الكبيرة والصغيرة .

والقاعدة التي وضعها الاحتلال البريطاني بمنع ترقية الجنود وصف الضباط الى رتب الضباط كما كان قائما في القرن التاسع عشر ... الامر الذي أدى الى ترقية احمد عرابي وزملائه وثورتهم بعد ذلك ضد الخديوي والضباط الشراكسة والتدخل الاجنبي .

هذه القاعدة استمرت قائمة ولم تنفذ الا بطريقة شكلية عندما فتحت ابواب الترقي امام الميكانيكية والفنيين وخريجي مدارس ضباط الصف عام ١٩٥٣ حيث اصبح مسموحا بترقيتهم الى رتب الضباط حتى رتبة رائد شرف .

ولكن تحدد سن احالتهم الى المعاش بالوصول الى سن الخمسين من العمر .

لم يكن هذا القانون الجديد تحطيما للفروق القائمة بين الضباط

وصف الضباط بطريقة تجعل من ابناء الجيش وحدة واحدة ... التفوق فيها للافضل ...

اعطي بعض الحقوق للجنود ... ولكنه وقف حائلا دون وصولهم الى راتب القيادة العليا مهما بلغت كفاءتهم .

وهكذا استمرت الثغرة بين الجنود والضباط قائمة ... وفي حرب عام ١٩٥٦ عندما اسر الاسرائيليون عشرات الضباط وتم استجوابهم ، صرح لهم بعد ذلك بتقديم اسئلة او التقدم بطلبات خاصة .

ويقول اليزير بيبري في كتابه (ضباط الجيش في السياسة والمجتمع العربي) ان اغلبية الضباط طالبت بتحسين ظروفهم المعيشية ، وتساءلت عن خط سير المعركة ، وسأل البعض عن عدد من زملائهم الضباط .

ولكن احدا من الضباط لم يسأل عن جنوده .

سواء صح ذلك ام لم يصح فان حرب ١٩٥٦ لم تغير الواقع العسكري الا في اضيق الحدود ... وغطى النصر السياسي على العيوب التي تكشفت ... وبدلا من علاجها آثرت القيادة السياسية تغطيتها حتى لا تشوه صورة النصر .

ثم حدثت بعد ذلك تحولات واضحة في حياة الضباط ادت الى ارتفاع مركزهم الاجتماعي ،وزيادة ثقتهم الشخصية بأنفسهم ، وظهورهم كقوة سياسية .

وكان ذلك نتيجة للخدمات التي قدمت لهم في صورة جمعيات تعاونية لبناء المساكن بالتقسيط في أفخر احياء العاصمة ، وفي تقسيط أثمان العربات الخاصة لهم واعطائهم اسبقية خاصة في الحصول عليها ، وفي رفع البدلات الممنوحة لهم واقرار بدلات جديدة ، وفي تسهيل سفرهم وسفر اسرهم للعلاج في الخارج ، واعطائهم حق العضوية في مختلف الاندية طالما هم أعضاء في نوادي ضباط القوات المسلحة .

وساعدت زيادة الجيش على سرعة الترقيات ووصل الضباط الى الرتب العالية (لواء وعميد) وهم في بداية الاربعينيات من العمر ، على غير ما كان موجودا قبل الثورة .

محمد نجيب حصل على رتبة عقيد (قائمقام) وهو في السابعة والاربعين من عمره .

ورغم ان قيادات الملك فاروق قد عزلت وصفيت من الجيش ، الا ان القيادات الجديدة كانت تنتمي الى نفس المدرسة ، وينهج اغلب افرادها

عدا الثوريين منهم نفس الاسلوب القديم ، في احاطة الرتب الكبيرة بمظاهر اجتماعية مشابهة لما قبل الثورة ...

يصعب القول بأن تغيرا جذريا قد حدث في الواقع الفكري والاجتماعي لضباط الرتب الكبيرة خصوصا ...

ولذا فانهم بقوا حيث هم بالنسبة الى المجتمع ... اكثر تخلفا من الناحية الثقافية واشد انطواء من الناحية السياسية .

كانت طبيعة وجود فئة من العسكريين في قمة السلطة تفرض ذلك وتشجعه حتى لا تختمر الانقلابات العسكرية العلوية .. أي انقلابات الجنرالات .

الثقافة لم تكن موضع اهتمام للعسكريين ، بل انها كانت تمثل عندهم معاناة وشيئا ثقيلا ...

اثناء احتفالات الجيش بعيد الثورة في بداية الستينات اقترحت بصفتي مديرا لمؤسسة المسرح تقديم رقصة بورسعيد للفرقة القومية للفنون الشعبية ، وهي عمل فني راق ومتكامل ومعبر عن المقاومة الشعبية عام ١٩٥٦ ، ولكن المشير عبد الحكيم عامر طلب بدلا من ذلك تقديم عمل هزلي رخيص كان اسمه (دكتور ... الحقني) لثلاثي اضواء المسرح .

وكان ابعاد الجيش عن السياسة هدفا من اهداف العسكرية الحاكمة، وخاصة بعد تصفية محاولات الانقلاب ، واخراج العناصر المضادة او ذات الشخصية من الجيش وزيادة نفوذ اجهزة الامن .

والعسكريون في مصر لم يلعبوا دور العسكريين في بعض البلاد الافريقية ، التي كان العسكريون فيها منضمين الى جيوش الدول المستعمرة وبذا كانوا اكثر ثقافة وتقدما وانفتاحا على العالم من جماهير شعوبهم التي فرض عليها الاستعمار الفقر والتخلف .

الموقف في مصر كان يختلف عن ذلك تماما ... فالاستعمار كان يفرض على الجيش المصري كما سبق ان اوضحنا العجز والجمود والتخلف ... بينما تقدمت الحياة في المجالات الاخرى ، ووصل بعض المثقفين الى مستوى العصر .

وهكذا ظل الجيش المصري متخلفا في واقعه عن بعض الجيوش الافريقية ... لان المجتمع المصري كان اكثر تقدما في العلم والثقافة والحضارة .

وظلت هذه الطبيعة تلازمه بدرجة اقل بعد الثورة ... فمما لا شك

فيه ان الانفتاح الكبير الذي حدث في سنوات الثورة الاولى على المجتمع والسياسة ، قد بعث في صفوف الجيش حيوية جديدة .

ولكن تثبيت نفوذ ثورة ٢٣ يوليو وحرصها على ابعاد الجيش عن السياسة ، وعدم تسييس الضباط قد عاد وفرض نوعا من الانطوائية الاجبارية على الجيش ... واقتصرت حياة الضباط على العسكرية دون التفتح الضروري على حياة المجتمع الفكرية والثقافية والسياسية .

وبذا عاد الجيش تدريجيا الى طبيعته السابقة على الثورة ، ولكن بشكل آخر ... ارتبط كبار قادته بمركز السلطة ، وذبلت الحركات المضادة بين صفوفه اما اقتناعا بما يحدث في المجتمع من تطور وفي الجيش من تقوية ، واما خوفا من سلطة اجهزة الامن .

والاستقرار الذي حدث للنظام العسكري في مصر ليس له نظير في الدول العربية او البلاد النامية وقد ارجع دمكجيان ذلك في كتابه (مصر في عهد ناصر) الى عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ الترابط بين مجموعة الضباط الاحرار وزملائهم العسكريين .
٢ ـ التحييد والابعاد المستمر للطبقات والفئات التي كانت مسيطرة في المجتمع .
٣ ـ الجاذبية والدور البارز الخاص للسلطة الشرعية .
٤ ـ التأثير التضامني الناتج من الوحدة ضد العدوان الخارجي .
٥ ـ اختيار وتطبيق ايديولوجية خاصة .

ولكن لا شك ان تصفية الثورة لاعدائها بطريقة غير دموية جعلتها ثورة بيضاء تتناسب في حركتها مع طبيعة الشعب المصري المسالم .

كما ان انتصارات جمال عبد الناصر الوطنية قد خلقت منه ليس زعيما مصريا فقط بل زعيما عربيا ايضا له ثقل ووزن في استقرار وثبات دعائم النظام .

لم تعد تقاس قوة السلطة بعد العدوان بقوة الجيش وحده وانما بشخصية الزعيم .

وهنا كانت الفرصة متاحة وكاملة امام جمال عبد الناصر لاختيار الطريق الذي يمضي فيه المجتمع ، وسلوك الاسلوب الذي تستقر عليه القيم الجديدة ، وتنمية الافكار والايديولوجية التي يقتنع بها .

كان ممكنا لزعامة جمال عبد الناصر في مصر ان تحقق كل ذلك ، لو كانت هناك ايديولوجية واعية مدركة لحركة التاريخ ، مؤمنة بالتفاعل العلمي للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتنظيما سياسيا .

كانت هذه هي صورة المجتمع ... طيعة في يد الزعامة التي احاطتها بها المحبة الشعبية رغم انها كانت عسكرية وفردية .

ولكن جمال عبد الناصر لم يشأ ان يختار الطريق الاصوب ... لم يشأ ان تنضج الحياة السياسية في مصر وتثمر تنظيمات شعبية حقيقية ... ولم يخصص جانبا من وقته وجهده ليبعث الحيوية والوعي في تنظيماته السياسية المتكررة ... ولكنه اعتمد منذ البداية على العناصر القريبة منه من العسكريين ... واتاح لهم الفرص والامكانيات للسيطرة على جهاز الدولة وجهاز العمل السياسي ...

زحف العسكريين نحو السلطة ظل مستمرا بطريقة متزايدة ... وكبت التنظيمات الشعبية ... نقابية او مهنية او سياسية ظل طابع المرحلة ... لا يتواجد في مراكز القيادة الا من رضت عنه العسكرية الحاكمة او استطاع التجاوب معها .

واختيار المتعاونين من العسكريين بدا مع الوقت يأخذ طبيعة خاصة ... ليبتعد عن اعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الاحرار الذين مهما قيل فانهم كانوا يمثلون جوا ادنى من الروح الوطنية والاقبال على التضحية والرغبة في الاصلاح ... ويتجه الى نوعيات اخرى من الضباط لا تتجاوز قدراتهم حدود التبعية المطلقة والاداء الوظيفي المحدود .

عندما شكلت هيئة التحرير عين حسن ابراهيم مراقبا عاما لها ... ولكن احمد طعيمة وابراهيم الطحاوي كانا لا يتصلان به في حركتهما اليومية ولا يرجعان اليه في معظم الامور ... وعندما ناقش الامر مع جمال عبد الناصر قال له في بساطة صريحة (انهما يقومان بأعمال غير نظيفة لا تستطيع انت القيام بها) .. وغادر حسن ابراهيم موقعه .

كان الاتجاه تنازليا من مجلس قيادة الثورة الى الضباط الاحرار والى غيرهم .

ورغم ان جمال عبد الناصر كان حريصا على ان يبعد ثورة يوليو عن مظهرها العسكري - كما يقول زكريا محيي الدين - ... ورغم ان الشعب قد تجاوب معه خلال مواقفه الوطنية تجاوبا لم يحصل عليه زعيم مصري من قبل ... الا ان تواجد العسكريين ونموهم اصبح طابع الثورة ، وكان الانتماء للجيش هو جواز التغلب على المصاعب وتسهيل الامور والحصول على المناصب .

وخلال هذه الفترة التي تدعم فيها نفوذ العسكريين في المجتمع وشكلوا هرما وظيفيا متماسكا ، يمكن القول بأن الجيش كان يعمل لحساب

نفسه كقوة سياسية غير مرتبط بالتعبير الواضح الصريح عن طبقة معينة ... ولو ان اتجاها واضحا للعدالة الاجتماعية كان يظهر في قرارات وقوانين الاصلاح الزراعي وخفض ايجارات المساكن ، واخضاع المساكن الجديدة لشروط معينة ، ورفع الحد الادنى لمرتبات العمال ، والسماح بالترقية من رتب الصف ضابط الى الضابط ، ومجانية التعليم في كافة المراحل وانشاء الوحدات الصحية .

هذه القرارات كانت تعبر عن اتجاه شعبي عند قمة القيادة العسكرية، ... ولكن الجيش لم يكن بعد قد اصبح في خدمة طبقة محددة ... كان في خدمة نفسه لتثبيت سلطته وتأكيد دوره ...

لم تكن قد وضحت خلال هذه المرحلة طبيعة الطبقة التي توجه السلطة ... ولينين يقول في المجلد ٢٩ (ان القضية الجوهرية لكل ثورة هي دون شك قضية السلطة ، فالطبقة التي تقبض على السلطة تقرر كل شيء) .

ولم تكن في مصر طبقة واحدة قد استطاعت ان تقبض على الجيش... وتشكل له ايديولوجيته وتثبت افكاره واهدافه .

كان الجيش خلال مسيرته يقوي من سلطته ، ويضرب في كل اتجاه تبعا للظروف ... يضرب البرجوازية الكبيرة وفي نفس الوقت يحاول دعمها ... يضرب الشيوعيين ويقدم خدمات للطبقة العاملة ... يحاكم الاخوان المسلمين وينمي في نفس الوقت الاتجاهات المحافظة .

كانت حركة الجيش في مسيرته تمثل تقدما الى الامام ، ولكن في خط متعرج غير مستقيم ، يميل احيانا الى اليمين واحيانا الى اليسار .

غياب الايديولوجية كان يخفي الطريق ... ويجعل من التجريبية السبيل الوحيد لمجابهة الامور .

الحيرة كانت تتجسد كثيرا امام المشاكل ... والاختيار كان يبدو صعبا .

والقوة السياسية الوحيدة المتوفرة ... كانت قوة العسكريين .

والمجتمع الطيع في يد القائد والزعيم لم يتشكل سياسيا او اقتصاديا بطريقة مستقرة ثابتة .

ويصدق خلال هذه المرحلة قول ابن خلدون (ثمة بلدان لا يعرف القلق منها سبيلا الى قلب السلطان لندرة الثورات فيها ففي مصر مثلا لا تجد غير السيد المطاع والرعية المطيعة) .

والسيد المطاع سمح بزحف العسكريين الى مراكز السلطة ... وترك

الرعية المطيعة بلا تنظيمات حية تطلق طاقاتها وتعبر عن ارادتها .

السيد المطاع محبوب ، ويزداد الناس له حبا ... ولكن الحيرة التي تجعل السيادة للتكنيك وليس للاستراتيجية ، تفقد الناس الوضوح ، وتبذر في النفوس التساؤلات .

وبين الحيرة ... والاختيار ... حديث يطول .

الفصل الخامس

الحـيرة والاختيار

(لا تبصق في بئر قد تحتاج الـى مياهه)
مثل روسي
خروشوف
في خطاب الى جمال عبد الناصر

كان العسكريون قد وثبوا الـى معظـم المراكز الرئيسية في المجالات المختلفة ... الوزارة والتنظيم السياسي والمؤسسات والشركات الاقتصادية والصناعية ووزارة الخارجية .

وكان جمال عبد الناصر قد استكان اليهم بحكم طبيعتهم الخاصة ، ومصالحهم المشتركة ، ومعرفته لهم من علاقات العمل السابقة ... فـي وقت حوصر فيه كل الذين عملوا في ميدان السياسة قبل الثورة عدا افراد معدودين .

وبذا كوّن الضباط حلقة تحيط بالزعيم ... وكونوا مع الوقت حاجزا بينه وبين الجماهير .

كانت الفرصة متاحة امام جمال عبد الناصر لتشكيل المجتمع بالصورة التي يراها ، فكل شيء طيع بين يديه ، والشعب متعلق به ، بعد انتصاره في المعارك الوطنية .

ولكن لم تكن هناك ايديولوجية معينة تضيء الطريق ...

كل ما كانت تملكه حركة ٢٣ يوليو ... الاهداف الستة التي تعتبر شعارات مجردة تحتاج الى تفسير وبرنامج ... وخبرتها في مجال الصراع

الوطني مع الاستعمار البريطاني ... ثم دخولها مع باندونج في نادي السياسة الدولية الذي اصبح جمال عبد الناصر عضوا بارزا بين اعضائه .

كتاب (فلسفة الثورة) اذا جاز لنا ان نعتبره فلسفة ، يشخص حالة المجتمع بكلمات عبد الناصر (اننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن او يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجي بعد مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق) .

ثم يتساءل :

واذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

اما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

واما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص ... الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

ولكن

الحراس اصبحوا حكاما .

والايديولوجية غائبة . .

(فلسفة الثورة) ليس اكثر من خواطر شاب وطني ، يحمله الامل الى آفاق محلية وعربية ، ولكنه لا يقدم دليلا للعمل او نظرية للتجمع .

الكتاب يتحدث عن دوائر عربية وافريقية واسلامية كمجال لاهتمام مصر ... ولكن ولا كلمة عن القومية العربية كتأصيل للفكرة ... ولا كلمة ايضا عن الاشتراكية .

ومن قبل ... كان برنامج هيئة التحرير بلا كلمة واحدة عن (القومية العربية) او الاشتراكية .

والاتحاد القومي ... التنظيم الجديد يعلن يوم ٢٨ مايو ١٩٥٧ . ويتولى منصب السكرتير انور السادات ثم يصدر جمال عبد الناصر قرارا بعد عدة شهور بتعيين كمال الدين حسين مشرفا عاما يمارس اعمال السكرتير العام الذي خرج من دائرة تنظيم وعمل الاتحاد ... بينما يتولى هو منصب رئيس الاتحاد .

تحرص قيادة الثورة على ابعاد شبهة ان يكون الاتحاد القومي حزبا بعد حلها للاحزاب فتعلن انه ليس حزبا وانه ضد الاحزاب .

كلمة الاشتراكية التي ظهرت في قاموس الثورة بعد باندونج ، سجلت في اهداف التنظيم الجديد (الاتحاد القومي ليس حكومة ولكنه تنظيم يضم الحاكمين والشعب ، ويتيح الفرصة الحقيقية لتعاونهم على علاج المشاكل

المحلية والقضايا العامة في ظل المجتمع الاشتراكي الديموقراطي التعاوني وهو سبيلنا الى الديموقراطية السليمة التي تشعر الشعب انه يحكم نفسه بنفسه) .

وعندما قال كمال الدين حسين في مؤتمر الاتحاد القومي (اشتراكيتنا هي اشتراكية التمليك وليست اشتراكية المصادرة) وقف عباس محمود العقاد في وسط القاعة مصفقا بحرارة . وهو الذي لم يكتب كلمة واحدة في تأييد الثورة وعاتب جمال عبد الناصر بعد ذلك كمال الدين حسين - حسب قوله - على توصيفه للاشتراكية قائلا له اننا لا نعرف ظروف المستقبل وما قد تدفعنا اليه لتطبيق قد يقتضي المصادرة .

ويعتبر كمال الدين حسين احد اعضاء مجلس قيادة الثورة المتمسكين بتعاليم الدين الاسلامي المحافظين على ارتباطهم بجماعة الاخوان المسلمين رغم موقف الثورة العدائي منهم .

اصدر قرارا في فبراير ١٩٥٤ عند توليه وزارة الشئون الاجتماعية يقضي بضرورة بدء كل المكاتبات باسم الله الرحمن الرحيم وان تنتهي بالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كان المشرف على الاتحاد القومي شديد التحفظ فيما يتعلق بأمور الدين ، يرفض ان يتجاوز التفتح العقلي والاجتماعي عند حدود الشريعة الاسلامية .

والاسلام عنده وعند كثيرين غيره هو اكثر من دين ... انه عقيدة وقدوة للسلوك ... وهذا ما جعله في مصر اكثر تأثيرا في القرن العشرين عن مناطق تميزت بالاتجاهات الدينية مثل ايطاليا وغرب المانيا وجنوب امريكا وبورما .

وعلى قدر ما وجد الضباط في الاسلام حافزا على ثورتهم ضد النظام الملكي لما فيه من تهتك ، على قدر ما وجدوا في بعض رجاله ما يمنعهم من الاندفاع لتغيير المجتمع ... ولذلك صدر قرار بحل جماعة كبار العلماء بعد صدور قانون الاصلاح الزراعي باثني عشر يوما ، ثم صدر قانون جديد للجماعة حدد سن اعضائها من ٤٥ الى ٦٥ عاما وبذا خرج منها ثلاثة من شيوخ الازهر السابقين عبد المجيد سليم وابراهيم حمروش ومحمد الخضر حسين .

ولم يتخذ الضباط موقفا معاديا من الدين مطلقا ... ولكنهم كانوا يريدون تغيير المجتمع ونقله الى حضارة العصر بخطوات سريعة لا تتفق احيانا مع آراء رجال الدين .

عندما نبتت فكرة تحديد النسل في مصر صرح الشيخ محمد خضر حسين شيخ الازهر للصحافة بقوله (الدعوة لتحديد النسل هدم لكيان الامة وجريمة في حقها) كما نشرت المصري يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٥٣

وقال البابا بيوس (تحديد النسل جريمة في حق الطبيعة واعتراض على مشيئة الخالق) .

ومع ذلك لم يتردد الضباط مع الوقت من القيام بحملة لتحديد النسل ، ولم يرفع رجال الدين صوتهم احتجاجا عليها امام موجات الدعاية الهائلة التي ربطت بين تخلف المجتمع وزيادة السكان .

ووصلت موجة تحطيم السدود التي وقف خلفها بعض رجال الدين المحافظين الى حد الغاء المجالس الملية والحسبية والمحاكم الشرعية ... ويعتبر فتحي رضوان ان التخلص من هذا النوع من المحاكم انجازا من اعظم انجازات الثورة لمصلحة الجماهير .

ولم يكن يعني هذا وفقا لتطبيق الشريعة الاسلامية ، ولكنه كان تطهيرا لها من جمود احاط بها ، ذلك لان المحاكم الدنية ظلت تطبق قواعد الدين الاسلامي والمسيحي في المنازعات الشخصية .

وامتد الاصلاح الى الغاء الاوقاف التي حولت الارض الى قطع صغيرة تتوارثها الاجيال ويسيطر عليها نظار ينهبون ريعها ... كما وصل الى الازهر نفسه فحوله الى جامعة عصرية في يونيو ١٩٦١ لتضم مختلف الكليات العملية والعلمية الى جانب كلياته الثلاث القديمة (اصول الدين – الشريعة – اللغة العربية) .

وكانت الثورة قد اقامت تنظيمات اسلامية جديدة ... عندما قام جمال عبد الناصر بالحج والتقى بحاكم باكستان والسعودية في مكة اصدر بيانا يدعو فيه الى وحدة الاسلام ضد الغرب ... وتكون المؤتمر الاسلامي في سبتمبر ١٩٥٤ الذي عين انور السادات سكرتيرا عاما له .

والتقت ارادة رجال الثورة مع علماء المسلمين عندما اصدرت هيئة كبار العلماء بيانا في ١٧ نوفمبر ١٩٥٤ تدين فيه ارهاب الاخوان المسلمين .

وتكون ايضا المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، وانشئت مدينة البعوث الاسلامية للطلبة المغتربين .

كان موقف رجال قيادة الثورة حريصا على الجمع بين عقيدة الدين وارادة التطور في وقت واحد معا ... ولكنهم لم يكونوا جميعا بنفس درجة الاقتناع .

البعض منهم لم يكن يهتم باداء الفرائض او الظهور في الجوامع ...

والبعض منهم لم يكن يتورع عن سلوك ما يعتبر منافيا لقيم الدين من ناحية الخمر والنساء وغيرها ... والبعض منهم كان محافظا على عقيدته شكلا وموضوعا .

هذه التيارات لم تحدث بينهم تصادما ... او تنافرا ... لانهم جميعا كانوا مع الدين حتى الشيوعيين في مجلس القيادة يوسف صديق وخالد محيي الدين حجوا الى بيت الله ... وسبق القول بأن خالد قد اشترك مع جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وبعض الضباط في جلسات تحضير الارواح .

لم يسلك احد من الضباط العسكريين في مصر مسلك اتاتورك الذي اخذ موقفا صريحا معاديا لرجال ولتقاليد الدين .

ولم يظهر من بينهم من يمتلك الجراة مثل الحبيب بورقيبة الذي صدرت في عهده (فبراير ١٩٦٠) فقرة تسمح للعمال بالافطار في شهر رمضان ، وكذلك اجاز شرب البيرة ... وعندما اعترض عليه بعض رجال الدين طالبهم باتباع فتواه تمسكا بالآية التي جاء فيها (اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم) وهو ولي الامر في تونس .

ولكن تشكيل مجلس قيادة الثورة من مسلمين فقط وعدم وجود غير ضابط قبطي واحد بين الضباط الاحرار قد ادى الى تغيير شكلي واضح في التعاون مع الاقباط الذين تتراوح نسبتهم الى السكان بين ٦-٧٪ أي يوجد قبطي واحد بين كل ١٤ مسلم تقريبا .

كان تقليدا ان يشترك في الوزارات وزيران قبطيان واكثر ، ووصل احد الإقباط الى منصب رئاسة الوزارة (بوغوص نوبار باشا) في عهد الخديوي اسماعيل ثم بطرس غالي باشا ... وكان مكرم عبيد سكرتيرا للوفد اكبر الاحزاب المصرية ثم رئيسا لحزب الكتلة الوفدية ... وكان اقرب المحيطين بالملك من المسيحيين وخاصة في السنوات الاخيرة (الياس اندراوس وكريم ثابت وادجار جلاد وانطوان بوللي) .

اما بعد الثورة فلم يعد هناك الا وزير قبطي واحد في كل وزارة ، وشخصيته لم تتغير لسنوات طويلة (كمال رمزي ستينو) الذي كان وزيرا للتموين .

وظلت تقاليد ابعاد الاقباط عن الرتب العسكرية الكبيرة سارية ، وامتد ذلك الى تقليص وجودهم في السلك الديبلوماسي بعد زحف العسكريين عليه ، حتى لم يعد هناك سفير قبطي واحد .

وليس هذا دليلا على موقف تعصبي طائفي من العسكريين ... ولكنه

انجراف وراء تيار سياسي نما في غيبة ايديولوجية تناقش موقف الوحدة الوطنية بطريقة علمية ، وتبادر الى اذابة التناقضات قبل تحولها الى صخور تعوق الطريق .

ولذا فانه عندما اجريت انتخابات مجلس الامة بعيدا عن الانتماءات الحزبية لم ينجح في مجلس ١٩٥٧ ولا قبطي واحد وصدر قرار جمهوري بتعيين عشرة نواب كان منهم ثمانية من الاقباط ومسلمين فقط هما ثروت عكاشة واحمد فؤاد .

ولم يكن في قيادة الاتحاد القومي احد من الاقباط ايضا .

وكان حرص كمال الدين حسين على صبغ حركة الاتحاد بالصبغة الدينية شديدا ... ولكن جمال عبد الناصر كان يتطلع الى الدين والدنيا معا .

القومية العربية ظهرت ايضا في تقديم الاتحاد القومي باعتباره ... (منظمة قومية عربية تعمل على تحقيق وحدتنا ووحدة الشعب العربي الذي جمعته وتجمعه اصول تاريخية وروحية واحدة كما جمعته وتجمعه وحدة اللغة والعقائد والتقاليد والدم والمصالح المشتركة ... وحدة هذا الشعب العربي في الوطن العربي المتحرر من كل اثر من آثار الاستعمار واعوان الاستعمار) .

دستور ١٩٥٦ ينص في المادة ١٩٢ على ان (يتولى الاتحاد القومي الترشيح لعضوية مجلس الامة) ... نصت المادة السابقة على ان (يقوم الاتحاد القومي بفحص طلبات الترشيح خلال ١٥ يوما من تاريخ اقفال باب الترشيح) ... ونصت المادة الثامنة على ان يعد الاتحاد القومي كشفا بأسماء المرشحين الذين لا اعتراض عليهم في كل دائرة انتخابية ويكون قراره في هذا الشأن نهائيا غير قابل للطعن فيه بأي طريق من الطرق) .

فكرة الاتحاد القومي استوردت من البرتغال ، حيث كان سالازار الديكتاتور الذي حكم ٣٤ عاما حكما مطلقا معتمدا على تنظيمه (الاتحاد القومي) ايضا .

سافر علي صبري لدراسة التنظيمات هناك ، وتأخر اعلان التشكيلات القيادية عدة شهور بعد صدور الدستور ، لظروف العدوان ، والرغبة في التعرف على طبيعة التنظيم في مجال العمل اليومي والسياسي .

يقول زكريا محيي الدين ان جمال عبد الناصر كان يريد ان ينزع من الثورة صفتها العسكرية ... لذا كانت محاولاته لتكوين تنظيم شعبي .

استكمل الاتحاد القومي تكوينه ، وليس تنظيمه ، فهو لم يكن تنظيما

بالمعنى المعروف ولم تكن له ميزانية خاصة ولا قيادات متفرغة ... كان يصرف له شيك بمبلغ خمسين الف جنيه بتوقيع جمال عبد الناصر تستعوض بعد نفاذها ... واقصى مبلغ صرف له في عام واحد كان مائة وخمسين الفا من الجنيهات ، كما يؤكد عبد المجيد شديد مدير مكتب كمال الدين حسين في ذلك الوقت .

منع الشيوعيون والاخوان المسلمون من دخول الانتخابات ، ومعظم من نشط سياسيا قبل الثورة ، ظل بعيدا عن المشاركة في الاتحاد القومي .

لم تشكل للاتحاد لجنة تنفيذية عليا ... شكلت له فقط لجنة عامة (مركزية) ، ولم يشأ جمال عبد الناصر ان يقيم تنظيما قياديا جديدا يكون بديلا لمجلس قيادة الثورة ، وآثر ان تكون حركة الاتحاد القومي بين يديه وحده ، دون سلطة اخرى .

عين كمال حسين عددا من مديري المكاتب للاتحاد من ١٦ ضابطا و٨ مدنيين (١) كانوا بمثابة قلب التنظيم ، والحق بمكتبه ايضا مندوبا من كل وزارة تسهيلا للاتصال والعمل أي بمثابة مجلس وزراء محدود .

واعتمد كمال الدين حسين في حركة الاتحاد على المؤتمرات التي كان يحضرها معه عدد من الوزراء في محاولة لحل المشاكل المحلية على الطبيعة، والتي وصلت الذروة بمؤتمر في الاقليم المصري ومؤتمر شامل في ج.ع.م. عقد في يوليو ١٩٦٠ .

ومجلس الامة دخله الاعضاء ايضا من باب الاتحاد القومي ... اللجنة التي نظرت في اسماء المرشحين كانت تحت اشراف زكريا محيي الدين وضمت عسكريين فقط علي صبري وابراهيم الطحاوي واحمد عبدالله

---

(١) **عسكريون** : عبد المجيد شديد مدير مكتب المشرف العام ، عبد السلام بدوي شئون اقتصادية وحلمي السعيد تخطيط ومحمد البلتاجي مالية وادارية ويوسف السباعي ثقافة وعبد القادر حاتم مدني وسعد زايد حكم محلي وخالد فوزي عمال ومختار غمر رقابة ومعلومات وامين الشريف صناعة واحمد شهيب تصريحات ، وبهجت رمضان تعاون وضباط اتصال عاطف سعد القاهرة ، وحمدي محمود ومحمد ابو نار وفوزي شاش بحري .

مدنيون : سيد يوسف تربية وتعليم ، محمد فهمي السيد شئون قانونية ، حسين خلاف نقابات مهنية فؤاد جلال شئون عربية وافريقية، محمد نجيب حشاد جامعات ، حسن عامر اتصال قبلي ، سعيد العريان علاقات عامة ، عبد الرؤوف جبريل الشكاوي .

طعيمة وعبـاس رضـوان ومجـدي حسنين وكمـال الحناوي ومصطفى المستكاوي من ضباط الجيش .

ومع ذلك لم يكن المجلس خاضعا تماما لارادة العسكريين ... صورة المجالس النيابية القديمة وما توفر لها مـن حريـة المعارضة اغرت بعض النواب بتقديم اسئلة تحرج الحكومة ... واذا تجاوزنا قضية مجـدي حسنين واستقالة كمال الدين حسين وجدنا ان تيار المعارضة قد وصل الى بعض العسكريين انفسهم .

الصاغ محمد ابو الفضل الجيزاوي قدم سؤالا الى زكريا محيي الدين عن عدد المعتقلين الشيوعيين داخل المعتقلات وعن اسباب اعتقالهم ... وكان هذا جديدا في حياة المجلس لم تحتمله اعصاب القيادة العسكرية ، خاصة بعد ان قدم طلب آخر الى عبد اللطيف البغدادي رئيس مجلس الامة يطلب فيه انشاء معارضة داخل المجلس .

كان رد الفعل هو فصل ستة نواب من عضوية الاتحاد القومي مـع استمرار عضويتهم في المجلس فابتعدوا بذلك عن فرصة الاتصال بالجماهير وتحاشاهم النواب هم محمد ابو الفضل الجيزاوي ودكتور محمود القاضي واسماعيل نجم وحيرم الغمراوي والثلاثة الآخرون كانوا في قضية مجدي حسنين .

وعندما اعلنت الوحدة مع سوريا لم ينتخب مجلس جديد ، وانما تم تعيين مجلس الوحدة من النواب السابقين ، وسقطت العضوية عن النواب الذين فصلوا من الاتحاد القومي وعن غير الموالين .

المؤسسات الديموقراطية والتنظيمات الجماهيرية اصطدمت فـي حركتها مع عقلية المسيطرين على النظام من العسكريين .

والتزيد في عمليات الامن يتناقض تماما مع الاتجاه الى الشعب الذي يعتمد على وفاق واسترخاء ضروريين .

وحركة التنظيم حائرة ، تدور بكلمات حماسية تشتعل وتخمد حسب الظروف ، وليست هناك عقيدة أو ايديولوجية واضحة ... واللجـان الاولى للاتحاد القومي اجتازها اعضاء مجلس الامة بلا انتخاب فكانت مـن

المؤيدين لاعضاء المجلس فقط وانعزل عنها الآخرون حتى قال جمال عبد الناصر عنهم بعد ذلك في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية جلسة ١٤ يوم ٤ يوليو ١٩٦٢ (بعد ما تكونت اللجان كل واحد نام نوما عميقا ... حطوا يافطة وناموا) ولما اجريت الانتخابات بعد ذلك بعام لم تفلح في بعث الحيوية في الجهاز الذي اعتبر الجميع اعضاء فيه بلا كادرات قيادية او تنظيمية .

حاول كمال الدين حسين ان يبلور الفكر في الاتحاد القومي فاستعان ببعض المثقفين فرادى مثل سليمان حزين ولبيب شقير وحسن عباس زكي وسعيد العريان .. ولكن هذه المحاولات كانت اضعف من ان تشيد اساسا فكريا وعقائديا لبناء الاتحاد القومي .

تشكل التنظيم ... وغابت الايديولوجية .

الاشتراكية الديموقراطية التعاونية ... ليس لها تفسير سوى مجموعة افكار مختلطة بعيدة عن البصيرة العلمية ... تستهدف تطوير المجتمع بالكلمات الطيبة واحيانا بالاجراءات الادارية الحازمة التي تعتمد على جهاز دولة متخلف وبيروقراطي معادي للديموقراطية والجماهير .

وكان تطبيق نظام الادارة المحلية وتعيين المحافظين بسلطات ادارية واسعة في مناصب سياسية عامل من اهم العوامل التي حملت الى الريف سلبيات وايجابيات كثيرة .

كان المحافظ مطلق السراح في تنفيذ ما يريد معتمدا على افكاره الخاصة وطبيعة شخصيته مع عدم وجود تنسيق كامل لسياسة موحدة الامر الذي جعل المحافظون يتركون وهم فاقدو الاتجاه البعض منهم يهتم بالثقافة والبعض يهتم بقضايا تافهة .. البعض يهتم بالدعاية لنفسه والبعض يركز على مشاكل الجماهير .

لا شك ان تجربة الادارة المحلية قد بعثت حيوية في الريف ولكنها لم تنطلق بالقدر اللازم لرفع مستوى المجتمع .

في مجال الصناعة والاقتصاد

كانت هزيمة العدوان الثلاثي وصدور الامر العسكري في ٢ نوفمبر ١٩٥٦ بمنع التعاقد مع الرعايا البريطانيين والفرنسيين وفرض الحراسة على مؤسساتهم واموالهم في مصر ، فرصة نبهت الاذهان الى ضرورة اتخاذ اجراءات تهدف الى القضاء على بقايا صور الاستغلال والسيطرة الاجنبية .

وفي يناير ١٩٥٧ صدرت قوانين التمصير للبنوك وشركات التأمين والوكالات التجارية ... ونصت على ان تكون جميع الاسهم اسمية ومملوكة

المصريين ، وجميع اعضاء مجلس ادارتها والمسئولين عن الادارة فيها مصريين ، على ان تكون مزاولة اعمال الوكالات التجارية مقصورة على المصريين ايضا .

الفرصة متاحة تماما لانتعاش البرجوازية المصرية في ظل نظام يحافظ على الامن ويستهدف التقدم الاقتصادي .

ازدادت الارباح .

١٤٤ شركة ربحت عام ١٩٥٧ / ٥٨ مبلغ ٢ر٤١ مليون جنيه وزاد الربح الى ٢ر٤٤ في العام التالي ... وهو يشكل نسبة ٣٥٪ من رأس المال ، ٢٣٪ من مجموع ما يملكه المساهمون كما ورد في كتاب الدكتور انور عبد الملك (مصر ... نظام جديد يبنيه العسكريون) .

٢٣ شركة لها مركز احتكاري يسعى للسيطرة على الاقتصاد المصري .

احمد عبود له ١٤٪ من اسهم بنك مصر ، ١٠ اشخاص يملكون ٢٠٪ ، ٥٠ شخصا يملكون ٤٢٪ .

ولكن السلطة لم تكن في يد البرجوازية الكبيرة ... وانما كانت في يد العسكريين ... ولم يعد عبود او غيره قادرا على الضغط لاسقاط الوزارات بل لم يعد قادرا على تغيير وزير واحد ... ولم تعد الفرصة كاملة امامه لشراء الصحف وكبار الصحفيين ...

يدلل عبد اللطيف بغدادي على ذلك بقوله ان احمد عبود قد زاره في مكتبه بعد ان قررت الحكومة خفض طن السماد من ٢٤ جنيها الى ٢١ جنيها بينما كان سعر الطن المستورد لا يتجاوز ١١ جنيها وشكى له احمد عبود من هذا الاجراء .. وبعد حديث قصير تبين ان احمد عبود كان يملك في الشركة ٠٠٠ر١٦٨ سهم يكسب فيها كوبونات سنويا قيمتها ٠٠٠ر١٥٠ جنيه (الكوبون يصرف ٩٠ قرش) هذا غير زيادة رأس المال بارتفاع قيمة الاسهم من ٤ الى ٩ جنيه .

وعندما طالبه البغدادي بشيء من القناعة بكى احمد عبود وانهارت الدموع على خديه كما يؤكد البغدادي .

الرأسمالي الكبير كان عبدا لامواله .

ولم تنج ايضا محاولة البرجوازية المصرية الكبيرة والاستيلاء على الممتلكات والشركات المصرة ... قال جمال عبد الناصر (ان الحكومة اذا باعت ما اصبح تحت اشرافها بعد التمصير فان النتيجة الحتمية لذلك هي مجرد اتاحة الفرصة للذين يملكون فعلا لكي يملكوا مرة اخرى) .

اثبت العسكريون انهم ليسوا في خدمة البرجوازية الكبيرة .

والنظام الجديد يستهدف تغيير المجتمع ، ويحتفظ في يد الدولة بما تمت مصادرته او وضع الحراسة عليه ...

وتغيرت النظرة الى الشئون الاقتصادية .

كان اتحاد الصناعات قد دعا الى توظيف رؤوس الاموال الوطنية والاجنبية في المشاريع الصناعية معبرا بذلك عن موقف البرجوازية الكبيرة ... وكانت نسبة المساهمة المصرية الاجبارية التي صدرت في قانون رقم ١٣٨ عام ١٩٤٧ قد عدلت بعد الثورة لتكون ٤٩٪ بدلا من ٥١٪ وكذا استمر التعاون مع النقطة الرابعة واعلن ايضا دكتور حسن فهمي رئيس مجلس الانتاج بأن كل من يقول بعدم استيراد رأس المال الاجنبي يعتبر خائنا .

والكتاب السنوي لاتحاد الصناعات عام ١٩٥٤ قال صراحة (ان ادخارنا لا يكفي عادة لتلبية احتياجات البلد العادية لذلك طالبنا تشجيع الاستثمارات الخاصة الاجنبية المورد ما امكن ذلك وقد اعترف المسئولون اخيرا بصحة وجهة نظرنا) .

ولكن رأس المال تردد في المساهمة الصناعية .

الاستثمارات الصناعية كانت ٢٦ر٢٠٨ر٤٠٥ ملايين عام ١٩٥٦ هبطت لتصبح ١٢ر٩٠٧ر٤٣٢ مليونا عام ١٩٥٧ .

يقول الدكتور انور عبد الملك في كتاب (مصر ... نظام جديد يبنيه العسكريون) ...

(ان ما حمل زعماء الجناح الصناعي للبرجوازية المصرية على التردد في توظيف اموالهم رغم كل الدعوات هو ان الجيش مصمم على رسم سياسته بنفسه أي انه مصمم على احتكار السلطة ووضع مصر كلها بما فيها البرجوازية الصناعية تحت وصايته ورهن اشارته) .

العسكريون يحكمون وحدهم ... والجيش لم يستند بعد الى طبقة معينة ... والبرجوازية تتردد في التصنيع ... ٢٨ر٥ مليون جنيه انفقت على البناء عام ١٩٥٧ بينما استثمر ٧ر٧ مليون جنيه في الصناعة فقط .

١٨ ابريل ١٩٥٧ حولت المصارف الانجليزية والفرنسية والتركية الى مصارف مصرية المؤسسة الاقتصادية التي رأسها حسن ابراهيم ضمت ٥ بنوك ، ٦ شركات تأمين .

الشئون الاقتصادية اصبحت من هموم العسكريين .

وبدأت فكرة التخطيط تجذب افكارهم .

انشيء (مجلس التخطيط الاعلى) برئاسة جمال عبد الناصر ويتولى

تحديد الاهداف الاقتصادية والاجتماعية للدولة واقرار خطط التنمية في مراحلها المختلفة .

(ولجنة التخطيط القومي) ورأسها عبد اللطيف البغدادي وزير الدولة لشئون التخطيط .

وهكذا اصبح التخطيط تحت اشراف اعلى مستوى عسكري في الدولـة .

وادمج مجلس الانتاج القومي ومجلس الخدمات العامة في لجنة التخطيط القومي .

وانشئت المؤسسة الاقتصادية لتدير ما أمم من اموال اجنبية بعد عام ١٩٥٦ ... رأسها حسن ابراهيم واحيلت اليها المشروعات التي كان يشرف عليها مجلس الانتاج .

يقول حسن ابراهيم انه كون شركتين عام ١٩٥٨ هما شركة النصر لصناعة الافلام ــ اول مرة يستخدم اسم النصر ــ وشركة البويات والصناعات الكيماوية ... وأن جمال عبد الناصر اسهم فيها بمساهمة رمزية دليلا على تأييده لفكرة تشجيع البرجوازية المصرية .

المؤسسة الاقتصادية كانت تحاول ان تقوم بما يعجز عنه القطاع الخاص من ناحية المال والخبرة ... ولكنها لم تجنح الى فرض سيطرة الدولـة .

وانشئت ادارة التعبئة التي كان يتولاها عسكري ــ اللواء امين انور الشريف ــ وتطورت حتى اصبحت الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء ... وكانت لها لجان في مختلف الوزارات يمثلها عسكريون ايضا ، ويتدخلون في كافة المشاريع لربطها باتجاهات القوات المسلحة .

وبعد ذلك تشكلت وزارة الصناعة لاول مرة وتولاها الدكتور عزيز صدقي في اول وزارة يشكلها جمال عبد الناصر بعد انتخابه رئيسا للجمهورية يونيو ١٩٥٦ .

لم تكن هناك وزارة ... مكاتب المعاونين في الممرات ... هكذا يقول عزيز صدقي ثم يتساءل ويبحث عن دور الدولة في الصناعة .

عزيز صدقي يعد قانون التنظيم الصناعي بعد ٦ شهور ... واتحاد الصناعات يعد تقريرا من ٣٠ صفحة يعارض فكرة تدخل الدولة ومراقبتها للانتاج الصناعي .

اول مبلغ يرصد للصناعة ١٢ مليون جنيه في ميزانية عام ١٩٥٨ .

جمال عبد الناصر طلب من عزيز صدقي زيارة يوغوسلافيا ، ووقع قانون التنظيم الصناعي ليلة سفره الى يوغوسلافيا في سبتمبر ١٩٥٧ .

المؤتمر الصحفي الذي اعلن فيه برنامج الصناعة كان في العيد الخمسيني لاتحاد الصناعات الذي اخذ موقف المعارضة .

بعض العسكريين لم تأخذهم الحماسة لبرنامج التصنيع ... عارضه في مجلس الوزراء عبد اللطيف البغدادي ومعه وزير الاقتصاد دكتور عبد المنعم البسيوني ... ونبتت التناقضات بين العسكريين في المؤسسة الاقتصادية (حسن ابراهيم وصدقي سليمان) وبين وزارة الصناعة التي سلبت منها سلطة الاشراف على الشركات .

يقول حسن ابراهيم انه لم يكن موافقا على بعض الاجراءات غير المدروسة التي تنفذ من باب الدعاية في مجال الصناعة وقد قدم استقالته الاولى يوم ٢ مايو ١٩٥٩ عندما صدر قرار لم يخطر به لنقل الاشراف على البنك الصناعي من المؤسسة الاقتصادية الى وزارة الصناعة ، ولكنه سحبها بعد لقاء له مع جمال عبد الناصر في استراحة القناطر .

ولكن حسن ابراهيم لم يلبث ان استقال مرة اخرى من المؤسسة الاقتصادية في ١٨ اكتوبر بخطاب طويل من ٢٢ صفحة . ومن هذا الخطاب يتضح وجود خلافات بين وجهات النظر منها رغبة حسن ابراهيم في بيع ما تملكه المؤسسة من اسهم الشركات للجمهور على اساس احتفاظها بنسبة ٣٥٪ فقط ورفض جمال عبد الناصر لهذا الاتجاه .

وزادت المعارضة عند عقد اول اتفاقية لتمويل الصناعة المصرية مع الاتحاد السوفييتي يوم ٢٩ يناير ١٩٥٨ بمبلغ ٧٠٠ مليون روبل تسدد على ١٢ سنة .

الدكتور عبد الجليل العمري محافظ البنك الاهلي يحذر في ٢٧ مارس من الاتجاه الى التجارة مع الاتحاد السوفيتي .

ويدخل العسكريون ميدان الصناعة والاقتصاد ايضا .

مؤسسة مصر يرأس مجلس ادارتها الصاغ مهندس حلمي السعيد مدير مكتب جمال عبد الناصر ويضم الضباط المهندسين سمير حلمي واحمد توفيق البكري والسيد عويس ثم حسن مرعي ومحمد علي حسن .

ولكن هذا التنظيم لا يستمر طويلا ... تصدر وزارة الصناعة تنظيم المؤسسات على اساس نوعي وتلغى مؤسسة مصر ونصر والمؤسسة الاقتصادية وذلك عام ١٩٦٠ بعد الاستقالة الثانية لحسن ابراهيم من المؤسسة الاقتصادية في بداية العام .

وتتركز السيطرة في يد الدكتور عزيز صدقي وزير الصناعة .
وقطاع الصناعة كان أقل القطاعات انفتاحا للعسكريين ... اتخذ الدكتور عزيز صدقي موقف الاختيار للكفء اولا بصرف النظر عن طبيعته العسكرية او المدنية .

عندما عمل اول تنظيم للوزارة لم يضع فيها الاميرالاي حسين الحلواني مستشار الصناعة والاميرالاي محمود يونس مستشار البترول ... وحاول زكريا محيي الدين اقناعه بغير ذلك ولكنه تمسك برأيه .

كما اعتذر عن عدم قبول تعيين الفريق محمد نديم رئيس ادارة الجيش بناء على اقتراح الرئيس عبد الناصر الذي قبل وجهة نظره وحوله الى هيئة النقل البحري .
ولذا كان عدد العسكريين في قطاع الصناعة محدودا ... ولكنهم في ميدان الاقتصاد كانوا اكثر انتشارا .

قال جمال عبد الناصر في محادثات الوحدة بعد ذلك عام ١٩٦٣ (احنا بدأنا في هذه العمليات من سنة ٥٦ بس لان طلعنا في ٥٢ كنا عسكريين لا نعرف الا القطعة ١٨ على حد تعبير الاخ فهد ــ المقدم السوري فهد الشاعر احد قادة حزب البعث ــ وكنا نقعد مع جماعة اقتصاديين من الطراز التقليدي بيعقدوا المشاكل ولا يجدوا لها حل ... لكن بعد كده مشينا في العملية ... ودرسنا وحاولنا نتعلم بجد واخلاص) .

وارسل يستشير شركة (آرثر ليتل كومباني في بوسطن) عن احتمالات التقدم الصناعي والاقتصادي في مصر وجاء الرد التالي (حتى لو حصلت على مليار من الدولارات التي تحتاج اليها في خطتك الخمسية ، وحتى لو نجحت خطتك الخمسية نجاحا كاملا بدون أي تعثر وتوقف ، وحتى لو بذل كل فرد في المجتمع المصري قصارى جهده وغاية طاقته مستخدما كل الخبرة والمعرفة الاجنبية فان افضل ما تستطيعه حينئذ هو المحافظة على الوضع الراهن والحيلولة دون تقهقر اكثر الى الوراء) وذلك كما ورد في كتاب مايلز كوبلند (لعبة الامم) .
صدر قرار جمهوري في ١٠ فبراير ١٩٥٧ باستخدام اللغة العربية في جميع العقود والتسجيلات .
في اغسطس ١٩٥٨ صدر القانون رقم ١١٤ ينص على ان مجالس الادارة لا تزيد عن سبعة ولا تقل عن ثلاثة ... والعضو لا يجمع بين مجالس ادارة اكثر من شركتين بعد ان كانت ستة والعضو المنتدب على شركة واحدة

... وحدد مكافأة ومرتبا وبدل حضور ومزايا العضو بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه في السنة فقط .

وكان قد صدر في ١٨ مارس ١٩٥٥ اول قانون للشركات بعد مناقشات طويلة يقول احمد فؤاد انها كانت تمتد احيانا طوال الليل وانتهت باخراج اعضاء مجالس الادارة الذين تجاوزوا الستين مع استثناء الاعضاء المنتدبين واصحاب الـ ١٠٪ من الاسهم وقصر عضوية مجالس ادارات البنوك على بنك واحد ومنع الجمع بين وظائف الحكومة والشركات .

ولحق ذلك قانون آخر في يناير ١٩٥٩ يلزم الشركات المساهمة بتجنيب ٥٪ من الارباح الصافية لشراء سندات حكومية ، تحديد الحد الاقصى للارباح عام ١٩٥٨ مضافا اليه ١٠٪ فقط ثم حدث تراجع عن هذا البند بعد ان تأثرت بورصة الاوراق المالية وكسد النشاط فيها .

وكانت بعض الشركات الامريكية ما زالت تربطها بمصر صلات تعاون ... مثل شركة بوز آلن آند هاميلتن التي تعاقد معها زكريا محيي الدين لتقديم خدمات لاجهزة المخابرات العامة واعداد دراسات مطلوبة حسب رواية فريد طولان مدير المعهد الاستراتيجي بالمخابرات العامة سابقا .

احدى هذه الدراسات اشارت بأن الحكومة المصرية لا يجوز ان تستخدم اكثر من ٢٠٠ الف موظف .

الشركات الامريكية تعرض صورة قائمة لاحتمالات تقدم المجتمع صناعيا واقتصاديا ... وتقيم سدا في وجه خريجي المعاهد والجامعات لزيادة العمالة عن حدودها .

رفض جمال عبد الناصر هذه النظرة المتشائمة التي قدمتها الشركات الامريكية ، واصر على تغيير المجتمع .

في وقت واحد ... البرجوازية الكبيرة تنتعش ... والدولة تزيد قبضتها في مجالات الصناعة والاقتصاد .

وفي وقت واحد ايضا ... تنمو العلاقة مع الاتحاد السوفييتي ... ويستجاب تنظيم الاتحاد القومي من البرتغال الدولة الفاشية .

تتعايش التناقضات في هذه المرحلة .

والاشتراكية الديموقراطية التعاونية ، مثل الفيل يراه الاعمى من المنطقة التي يلمسه منها .

في مجال الثقافة والاعلام :

والعسكريون ايضا يتولون المراكز الحساسة في توجيه الراي العام

... ويقتربون من مجال الفكر والثقافة .

حرص جمال عبد الناصر دائما على وضع العسكريين في رئاسة مجالس ادارات الصحف ورئاسة تحريرها .

مجلة التحرير تولى رئاسة تحريرها ثروت عكاشة بعد اعفائي من العمل فيها في نوفمبر ١٩٥٢ ، ثم ضمت الى دار الجمهورية حيث كان انور السادات رئيسا لها بعد اعفاء ثروت عكاشة ايضا .

المساء تولى رئاستها خالد محيي الدين ثم مصطفى المستكاوي .

الشعب تولاها صلاح سالم ثم لطفي واكد ، حتى انضمت الى جريدة الجمهورية .

بناء الوطن المجلة الشهرية رأسها امين شاكر .

الثورة مجلة اسبوعية اصدرتها منظمات الشباب ورأسها صاغ وحيد الدين جوده رمضان .

وعهد الي باصدار مجلة اسبوعية جديدة تحت اسم (الفجر) عام ١٩٥٦ ، وشكلت لها مجموعة تحرير ضمت محمود امين العالم ، سعد لبيب ، عبد المنعم القصاص ، منير حافظ ، صالح موسى ، سامي الليثي، بهيج نصار ، محمد صدقي ، راجي عنايت ، فهمي حسين ، جورج البهجوري ، ولكنها لم تصدر رغم طبع ثلاث اعداد منها للتجربة ولم يكن هناك جواب شاف .

كل الصحف التي صدرت عن الحكومة رأسها عسكريون ولكنها لم تكن جميعا تعبر عن رأي واحد .

جريدة المساء لعبت دورا في ظهور الفكر اليساري المتقدم ، ومخاطبة الجماهير بآراء يسارية متحررة ، واهتمت بالثقافة الجديدة ، وتابعت قضايا المجتمع متابعة موضوعية تميزت بها عن غيرها من الصحف اليومية .

بينما بناء الوطن كانت تدعو الى الاقتصاد الحر والثقافة الغربية .

وجريدة الجمهورية عانت من انقلابات ادارية وفكرية لكثرة تغيير الذين تولوا مسئوليتها بعد انور السادات ... الصاغ محسن عبد الخالق ثم القائمقام عبد الرؤوف نافع ثم صلاح سالم اداريا ... وحسين فهمي واحمد قاسم جوده وجلال الدين الحمامصي وكامل الشناوي ثم صلاح سالم تحريريا .

الايديولوجية ما زالت غائبة ... والحيرة طابع التصرفات ... والتجربة هي اساس الحركة .

جمال عبد الناصر يفكر في عمل مدرسة كادر يعهد بها الى خالد محيي

الدين في خريف ١٩٥٨ ثم ينتهي المشروع مع حوادث العراق وخروج خالد من المساء .

ويقترب العسكريون من مجال الفكر والثقافة ، وتتعدد محاولات الوصول الى الوضوح .

انشئت وزارة الثقافة عام ١٩٥٧ واتاحت للدولة رعاية جميع صور التعمير غير الرسمي والثقافة غير الاكاديمية ... اول وزير لها كان فتحي رضوان .

وتكونت جمعيات اخرى غير رسمية .

جمعية الخريجين التي رأسها محمد فؤاد جلال الذي تولى وزارة الارشاد لفترة محدودة بعد استقالة صلاح سالم ثم خرج من الوزارة لينشط في ميدان العمل السياسي بمحاولة تجميع البرجوازية والمتعلمين العرب حول ثورة ٢٣ يوليو ، وكان له نشاط واضح في المشرق العربي .. وفي افريقيا .

كان فؤاد جلال وطنيا مجردا ... ليست له نظرة اجتماعية ... وكان نشاطه متناسبا تماما مع المرحلة ... مرحلة البحث والحيرة .

رابطة اشتراكية عربية يرأسها كمال رفعت .وتضم مهدي بن بركة ، كلوفيس مقصود ، جبران مجدلاني ، فؤاد الركابي ، محمد عودة ، احمد بهاء الدين ، لطفي الخولى ، وهي رابطة تستهدف مناقشة الفكر الاشتراكي ومحاولة ربطه بالقومية العربية .. وهي في مضمونها كانت تأخذ طريقا آخر غير الماركسية .

ورابطة مصرية للعلوم السياسية يرأسها عبد القادر حاتم ، وهي رابطة تضم مجموعة من المشتغلين بالعلوم السياسية من اساتذة الجامعة والمحيطين بهم ، وهي لم تسهم بتقديم جديد للفكر العربي المعاصر .

ورابطة الوعي الوطني يرأسها امين شاكر وتضم الضابطان محمود الجوهري والمهندس محسن ادريس ، والدكتور رشاد رشدي والمهندس صلاح عامر والاطباء احمد ابو ذكرى والنبوي المهندس . وتميزت هذه الرابطة بأفكارها الليبرالية المحافظة ، التي جعلتها معزولة عن الواقع الحي للمجمع .

(ولجنة التربية الوطنية) يرأسها صلاح دسوقي وتضم مراد غالب والدكاترة ابراهيم حلمي عبد الرحمن وعبدالله العريان ورفعت المحجوب ونظمي لوقا وسعيد النجار والاساتذة احمد مختار قطب وسعيد العريان .

وكانت هذه اللجنة تعبيرا ايضا عن طبيعة المرحلة حيث لا يتوفر الوضوح لشيء ، وتغلب الحيرة كل شيء ... وتختلط الامور الفرعية مع الرئيسية .. ويغيب صراع القوى الاجتماعية .

وكون كمال رفعت (رابطة لدرس الاشتراكية المعاصرة على الصعيد النظري) تضم مراد غالب ، احمد بهاء الدين ، صلاح دسوقي ، وابراهيم حلمي عبد الرحمن ، وهي امتداد مصري للرابطة العربية السابقة .

وكانت هناك ايضا لجنة قراءة المسرح القومي التي شكلت اثناء ادارتي له ووجود يحيى حقي مديرا لمصلحة الفنون وشكلت من الدكاترة محمد مندور ومحمد القصاص وعلي الراعي وعبد القادر القط .

كل هذه الروابط واللجان كانت ذات نشاط في مجال المثقفين ولكنه محدود فلم يكن لها تأثير في مجال الرأي العام .

ولكن لجنة قراءة المسرح القومي لعبت دورا ايجابيا في مساعدتي على وقف زحف التيار الذي كان طاغيا على المسرح ، وهو تقديم المسرحيات المترجمة او المقتبسة لكتاب غير معاصرين . كانت ظاهـرة غريبـة ان كافة المؤلفين الاجانب كانوا ممن ماتوا فعلا ... اما المسرح العربي فكان مقصورا على خمسة فقط من الكتاب هم الذين تكرر تقديم مسرحيات لهم ... احمد شوقي وعزيز اباظة ومحمد تيمور وعلي احمد باكثير وتوفيق الحكيم وهو الوحيد الذي استمرت صلته بالمسرح وثيقة حيوية ومتجددة حتى اصبح المؤسس الحقيقي للدراما المصرية .

ساعدت لجنة القراءة على وقف زحف المسرحيات الجامدة الاسلوب والفكر معا .. واتاحت للمسرح القومي تقديم جيل جديد مـن الكتـاب التقدميين ، حمل لواء المسرح بعد ذلك ومضى به في طريق التقدم ... نعمان عاشور ويوسف ادريس وسعد الدين وهبه والفريد فرج ورشاد رشدي وغيرهم .

وظهر الكتاب التقدميون على خشبة المسرح لاول مرة يكتسبون تأييد الجماهير والمثقفين معا ، في مرحلة كان الناس فيها يتطلعون الـى كل جديد يضيء لهم الطريق .

كتب دافيد كوان في كتاب مصر منذ الثورة (المسرح لقي من الثورة دفعة كبيرة جدا واخذ يصبح قوة جبارة في الحياة المصرية رغم انه ما زال صغيرا في حجمه) .

وهكذا كانت الجماعات المختلفة تتبنى افكارا متباينة واحيانا متنافرة .

وجمال عبد الناصر يترك لها حرية التعبير في صورة محدودة مـن

عبارة ماوتسي تونج (دع مائة زهرة تتفتح) .

الحرية للجماعات التي يوجد العسكريون في مركز التوجيه فيها ... اما المنابر والجماعات الاخرى فالامر يختلف .

كانت الصحافة ما زالت حتى هذه الفترة ملكا لاصحابها حرة في تصرفاتها وتوجيهاتها بعد ان الغيت الرقابة تماما بعد عام ١٩٥٦ .

ولم يكن مرضيا لطبيعة النظام ان تنفرد بعض الصحف باتجاهات لا تساير رغبة قيادة الثورة في تغيير المجتمع .

وكان الوضع مثيرا للدهشة فعلا ... كل اجهزة الدولة تعرضت للتطهير مع بداية الثورة حتى الجيش نفسه ... وخرج الذين احاطت بهم الشبهات او الذين اعتبروا في موقف العداء .

ولكن الصحافة ظلت ملكا لاصحابها قبل الثورة ... فلم تكن هناك مصادرة او تأميم خارج نطاق قانون الاصلاح الزراعي ... كل انواع الملكية تتعايش في المجتمع .

ولكن قيادة الثورة تريد ان تشق طريقا خاصا واجهزة الاعلام والصحافة هي مدفعيتها الثقيلة ... جزء منها تملكه ... الاذاعة وصوت العرب الذي بدأ برنامجا محدودا مدة ارساله ساعتان الا ربع تابعا للمخابرات العامة عام ١٩٥٣ ، تحول في عهد ولاية صلاح سالم لوزارة الارشاد وتعيين احمد سعيد مديرا للبرنامج الى جهاز دعائي مؤثر ارتفعت ساعات ارساله في العام الاول الى ثمانية ساعات ثم وصلت في عهد صلاح سالم ايضا الى ٢٢ ساعة هي مدة ارساله اليومي حتى الآن .

شارك صوت العرب في معارك التحرير العربية ... اعلن ساعة الصفر لثورة الجزائر في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ باذاعة بيان جبهة التحرير عن انفجار ٢٤ قنبلة في اماكن مختلفة واعد لها اذاعة سرية خاصة ... ووجه طعنات حادة لحلف بغداد ، وللحكام المتهاونين مع الاستعمار ... وكان عاملا مؤثرا ضد الدعاية الاستعمارية .

كانت المبالغة الشديدة والهجوم اللاذع تدمغ برامج صوت العرب احيانا ، ولكنها في النهاية أدت دورا متناسقا مع طبيعة الحركة الثورية في مصر .

ولكن الصحافة المصرية التي تعتبر من أجهزة الدعاية شديدة التأثير في العالم العربي فكانت بعيدة عن التجاوب الحقيقي الفعال مع افكار الثورة المتوهجة ، خاصة وان الرقابة كانت قد الغيت تماما عام ١٩٥٦ .

وكان ذلك امرا طبيعيا ... معظم اصحاب الصحف ورؤساء تحريرها كانوا من اتباع النظام الملكي المنهار ، المروجين له ... الصحف الوفديه التي تولت ـ الى حد ما ـ معارضة الملك وتجاوبت مع ارادة الجماهير صودرت واختفت ... المصري وصوت الامة والطليعة ... وكل الجرائد والمجلات اليسارية صودرت ايضا كما سبق ذكره .

صحف اخبار اليوم يملكها التوأمان علي امين ومصطفى امين ودورهما في تأييد الملك وفي دعم صحافة الاثارة ، والترويج للسياسة الامريكية معروف .

صحف دار الهلال يملكها الاخوان اميل وشكري زيدان وحرصهما شديد على ان تظل مجلات الدار كلها بعيدة عن الانفعال الحي مع واقع المجتمع المصري .

والاهرام كانت ملكا لاسرة جبرائيل تقلا ، وظلت خلال تاريخها الطويل بعيدة عن المساهمة الايجابية مع الادارة الشعبية المصرية مغلبة الاعتدال والاتزان على كل شيء .

صحف روز اليوسف يملكها احسان عبد القدوس ويشاركه في صدورها مجموعة من الشباب ذوي الآراء السياسية المختلفة وهي تحتضن الشيوعيين كما تحتضن الاخوان المسلمين ... وهي في آرائها السياسية واسلوبها الصحفي المتميز بالنقد لا يمكن ان تكون تابعة في سكون .

ولم يتغير احد من المسئولين عن تحرير هذه الصحف بعد الثورة ولم يؤثر نشر كشف المصاريف السرية عام ١٩٥٤ على موقع احد في المسئولية، ولم يدخل التطهير دارا من دور الصحف .

ولم تكتف الثورة بما اصدرت من صحف يومية واسبوعية وشهرية .

وتقرر تنظيم الصحافة في سبتمبر ١٩٦٠ أي تمليكها للاتحاد القومي واعطائه سلطة الاشراف عليها ، وكان ذلك من مؤشرات التأميم والمبكرة مثل بنك مصر الذي امم ايضا مع البنك الاهلي في ١١ فبراير من نفس العام .

عبر جمال عبد الناصر عن افكاره بالنسبة لتنظيم الصحافة بقوله في اجتماع عقده مع رؤساء التحرير انها دابت على نشر اخبار الطبقة البرجوازية في نوادي القاهرة وانصرفت عن نشر اخبار الفلاحين والكادحين ... (بلدنا هي كفر البطيخ ... اللي عاوز يكتب عن بلدنا يروح هناك ويشوف الناس اللي لابسين برانيط قش الارز طول النهار علشان يعيشوا ... كنت افضل بدل الكلام عن هذا النوع من السيدات ان يكتب عن العاملات مثلا ... فيه عاملات طلعوا ياكلو عيش بعرق جبينهم ويكافحوا

بشجاعة وشرف) .

وعندما شكلت مجالس ادارات الصحف الجديدة كان صلاح سالم في موقعه رئيسا لدار التحرير ، وعين محمد حسنين هيكل الصحفي المقرب من جمال عبد الناصر رئيسا لمؤسسة الاهرام ودار الهلال بعد ضمهما لبعضهما ، وتولى رئاسة مؤسسة اخبار اليوم .

وتولى منصب العضو المنتدب للمؤسسات الصحفية ضباط ايضا ... القائمقام عبد الرؤوف نافع في دار الهلال ويوسف السباعي في روز اليوسف وسيد ابراهيم في دار التحرر .

وبذا اصبح الجيش وقد وضع يده على المراكز الحساسة في مجالات الصناعة والاقتصاد والاعلام والثقافة سندا للحكم الوطني الجديد ... ليس سندا مسلحا فقط بل سندا اداريا وتوجيهيا ايضا .. واصبحت معظم الامور في المجتمع رهنا بدرجة امانة ومتانة هذا السند .

وطبيعي ان تبرز داخل سلك الضباط وجهات نظر مختلفة حول دور الدولة الوطنية وطابعها وآفاق تطورها ... البعض يتخذ مواقف محافظة ويعادي مشاركة الشعب في التوجيه ، ويبث روح الديموقراطية ... والبعض منهم يستفيد من اختلاطه بالجماهير في مجالات العمل ، ويتطور فكريا ، ويسهم بقدراته في تطوير المجتمع .

لم تصل وجهات النظر المختلفة ، او الآراء المتنافرة الى درجة الصدام ... لان الجميع كانوا ينظرون الى جمال عبد الناصر نظرة الزعيم الذي اصبحت المسافة بينه وبينهم شاسعة .

وكان جمال عبد الناصر يعتمد على تأيد الشعب كما يعتمد على سلطة الجيش .

لم يجد في ذلك تناقضا ... فالجيش طيع بين يديه ، والشعب مؤمن بـه .

كان متاحا لجمال عبد الناصر في هذه المرحلة ان يفتح الطريق امام القوى الوطنية والديموقراطية ، وان يبني اسس النظام على حريات تؤمن مستقبله ... وكان متاحا له ايضا أن يستوعب الطبقات المختلفة في جبهة وطنية بعد الاعتراف بكياناتهم المستقلة ، على غير الاسس الحزبية القديمة.

كان جمال عبد الناصر قادرا خلال هذه المرحلة على تجميع القوى المختلفة الاتجاهات والمواقع السياسية والاجتماعية والطبقية ، وله في ذلك تجربة ناجحة ... قيادته لتنظيم الضباط الاحرار وهم من اتجاهات سياسية واجتماعية مختلفة .

ولكن جمال عبد الناصر آثر ان يطور المجتمع بأجهزته الخاصة ، وشعبيته الهائلة .

الايديولوجية ما زالت غائبة ، وليس هناك اهتمام خاص بها حتى هذه اللحظة ... كان التركيز كله على القضايا الوطنية بصورتها العامة .

قال جمال عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ (لم يكن مطلوبا مني في يوم ٢٣ يوليو ان اطلع ومعي كتاب مطبوع واقول ان هذا الكتاب هو نظرية ... مستحيل) ... ويقارن ذلك بالاسلام فيقول (كان يقدر ينزل مع سيدنا جبريل كتاب مطبوع ومجلد ويقول : هذه هي النظرية ، هذا هو القرآن ... ابتدأ الاسلام باشهد ان لا اله الا الله وان سيدنا محمدا رسول الله ... ابتدأ الاسلام بهذا ... جملتان ... لم يبدأ بكل ما هو موجود في القرآن) .

بعد سبع سنوات من الثورة قال ان ظروف مصر تختلف عن ظروف غيرها ، وان النموذج الذي يجب ان تطبقه هو الاشتراكية الديموقراطية التعاونية .

ويقول دكمجيان في كتابه (مصر في عهد ناصر) (ان طبيعة الحرب الباردة وخبرة مصر مع الاستعمار مرتبطة بالتقدم التجريبي للقادة العسكريين كان لها تأثير كبير في عدم الانحياز الايديولوجي الى الغرب او الى الاتحاد السوفييتي .

ويبدو انه مع نهاية ١٩٥٥ تبين القادة العسكريون الاضرار والاخطار التي يتعرضون لها في حالة اختيار وتحديد ايديولوجية معينة ، او اتخاذ موقف واضح الى جانب احدى الكتلتين ... كما انهم تبينوا ايضا المكاسب التي تعود عليهم من الابتعاد عن الاختيار ... وقد أدى هذا الى خلق توجيه ايديولوجي حيادي في السياسة الخارجية ، وعقيدة اشتراكية مستعارة للتغير الداخلي) .

عدم استقرار الموقف السياسي الخارجي كان له ولا شك تأثير كبير في غياب ايديولوجية الثورة ... واختيارها للاسلوب التجريبي الذي مارست به مسيرتها منذ اليوم الاول ...

وصلت القيادة بذلك الى براعة تكتيكية في مواجهة المشاكل والمواقف اليومية ... ولكنها لم تحدد بعد خطا استراتيجيا ... ولم تكتب برنامجا نظريا .

ولا شك ان محصلة تجارب الثورة في مواجهتها للمشاكل سوف تثري خبرتها وتوفر لها فرصة الوصول الى ايديولوجية محددة .

واذا كان الموقف في مجالات الصناعة والثقافة والاقتصاد قد سجل تطورا لمصلحة الجماهير عن طريق تدخل الدولة ... فانه لم يسجل تبعية الجيش لطبقة معينة .

البرجوازية الكبيرة تحاصر ، والبرجوازية الصغيرة تنمو ، والطبقة العامة تزيد وتنتشر والفلاحون يتغير واقعهم في بطء شديد ... والجميع بلا تنظيمات تعبر عنهم ... والمثقفون معزولون .

الموقف الداخلي في المجتمع ليس مستقرا بما يفرض ايديولوجية معينة ، والقيادة في حركتها اليومية تختار الطريق البسيط ، ولا تعتبر غياب الايديولوجية قضية رئيسية .

السياسة الخارجية

والسياسة الخارجية ايضا تفرض نفسها على الموقف ... تسهم في خلق حالة من التردد ... وتأجيل اختيار الطريق .

حكومة الولايات المتحدة اعتبرت ان خروج انجلترا وفرنسا من مصر سوف يترك فراغا .. ايزنهاور يبادر يوم ٥ يناير ١٩٥٧ بتقديم مشروع الى الكونجرس يخول حكومة الولايات المتحدة تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لدول المنطقة تفاديا للتسلل الشيوعي .

جمال عبد الناصر يرى في المشروع صورة جديدة من حلف بغداد .

وامريكا تريد تطويق مصر لفرض المشروع بتقديمه عن طريق الملك سعود ... وحشد قوات تركية على حدود سوريا ، واعلان الحكومة الامريكية باقامة جسر جوي لامداد تركيا ولبنان والاردن والعراق بالاسلحة .

الملك سعود يتراجع عن موقفه ويعلن تأييده لسوريا ، والامير فيصل ولي العهد يزور بيروت ودمشق ... ومصر ترسل قواتا عسكرية الى اللاذقية للدفاع عن سوريا ضد أي اعتداء .

فرصة نجاح مشروع ايزنهاور تضيق .

وجمال عبد الناصر ينظر الى امريكا باعتبارها الدولة التي تنتظر وراثة مصالح انجلترا وفرنسا بدلا من تمصيرها ... وهو لا ينسى رفض دالاس الافراج عن بعض الارصدة المجمدة في امريكا لشراء ادوية ومضادات حيوية ، بينما لبى السوفييت طلبه في الحال .

الاعتقاد يميل الى اشتراك امريكا في مؤامرة العدوان الثلاثي ، كشريكة بتمثيل دورها في البقاء جانبا الى ان يحين موعد تدخلها ... ومشروع ايزنهاور هو بداية الدور .

ولكن فرصة نجاحه اقل من فرصة نجاح حلف بغداد ، لانه يأتي بعد

انتصار مصر على عدوان ١٩٥٦ ، وتأكيد زعامة عبد الناصر في العالم العربي ... وتعلق الجماهير باذاعة صوت العرب التي كانت تهاجم الملوك بلا تحرج.

العسكريون في مصر يواجهون الغرب ... وعلاقتهم مع الشرق تزداد نمـوا ...

هذا رغم ان حياة العسكريين في الجيش قبل الثورة كانت تسيـر باسلوب خاضع لدعاية تجعل الحياة الغربية محل اعجاب ، وتخلق من دول الغرب نماذج تحدي .

النموذج الجذاب للعسكريين المصريين كان قائما في الغرب حيث درس بعضهم ، وتعامل معظمهم مع ضباط البعثة العسكرية ، وانبهر عدد منهم بتقاليد الحياة البريطانية .

الخروج من دائرة الغرب، المطبقة على كل الدول التي كانتمحتلة، الى آفاق جديدة لم يكن بالرغبة الذاتية ، وانما اضطرارا امام اختيار صعب ... اما الخضوع والتبعية الدائمة للامبريالية او المحـافظة علـى الحرية والاستقلال الوطني .

ينمي هذا الاتجاه المؤامرات التي اكتشفت ضد سوريا من المخابرات المركزية الامريكية عندما اعتقل دبلوماسي امريكي يحاول تهريب مهـاجر سوري في عربته عبر الحدود مع لبنان وكشف الستار عن مؤامرة نوري السعيد لغزو سوريا اثناء العدوان الثلاثي .

المؤامرات الامريكية يمكن ان تصل الى مصر ايضا ... وهذا موضع الحـذر .

وروح باندونج تعطي ثمرة في القاهرة ... مؤتمر الشعوب الاسيوية الافريقية ينعقد في القاهرة يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧ بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة ... حضر ٥٣٧ مندوبا يمثلون ٤٨ شعبا تؤلف في مجموعها ٥٠٠ر١ مليون شخص ... أي ٧٠٪ من سكان العالم .

انتخب المؤتمر انور السادات رئيسا له ... هذا مفهوم .

ولكنه انتخب يوسف السباعي سكرتيرا عاما ... ويوسف ضابط اديب بدأ حياته الصحفية في مجلة مسامرات الجيب ونشر عددا من القصص والروايات ، وليس له اهتمامات سياسية مطلقا ، ولم يكن من الضبـاط الاحرار .

كان هذا اختيار جمال عبد الناصر شخصيا ...

قال لي يوسف السباعي أنه ابلغ عبد الناصر عند ابلاغه نبأ التعيين بأنه بعيد عن السياسة ولا يهتم بها كثيرا .. وان الادب يشغل حياته .

وهو اختيار يــدل علــى الرغبة فــي تعيــين شخص بعيــد عــن الاهتمام السياسي في هذا المركز الهام الذي يمكن ان يؤدي دورا اساسيا بارزا في حياة الشعوب الاسيوية والافريقية .

واذا كان اختيار العسكريين ضروريا فانه كان بينهم من يستطيع بحكم ميوله الذاتية واهتماماته السابقة وخبرته في الاعوام الماضية ان يــؤدي دورا ايجابيا ... لا يترك مؤتمر التضامن السيوي الافريقي في القاهرة مقرا هامشيا بلا فعالية او أثر .

ربما كانت الخشية من زحف الافكار اليسارية ، او الخوف من تأثير الافكار التحررية على موقف السكرتير العام وهو في موقع لا يتبع القيادة في مصر من الوجهة الرسمية او القانونية .

الخلاف مــع الشيوعيين

كان هذا الاختيار انعكاسا لظروف المرحلة ، حيــث اختفت كــافة التنظيمات عدا التنظيمات الشيوعية السرية التي مرت في عــدة مراحل تنظيمية .

وكان وجود هذه التنظيمات دافعا الى بروز عدد من الاسماء اللامعة في مجالات الفكر والثقافة والصحافة .

موقف الثورة من الشيوعيين يكاد يعتبر في هدنة ... ولكن النظرة الى تنظيماتهم موضع حذر ، تماما مثل احتمال المؤامرات الامريكية .

وفجرت الوحدة مع سوريــا بعض التناقضات ، سكرتير الحــزب الشيوعي خالد بكداش عضو مجلس النواب السوري حضر الى مصر في وفد برلماني قبل الوحدة وقابل جمال عبد الناصر ، ولكنه عندما اعلنت الوحدة رحل عن سوريا .

اعتبر الشيوعيون ان الوحــدة قــد خدمت مصلحــة كبــار المــلاك والرأسماليين العرب الذين تدفقوا على مصر وخاصة البرجوازية السورية التي وجدت فيها استقرارا لها ووقفا للتيار الماركسي الذي كــان ينمــو وينتشر هنــاك .

وجهات النظر المتعارضة لا تنبت بين الشيوعيين والسلطة فقط ، ولكن بين الشيوعيين انفسهم داخل تنظيماتهم المختلفة .

وعودة الى الماضي القريب تفسر هذه الحقيقة .

فجر ٢٣ يوليو كانت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) قد اصدرت منشورا بتأييد الحركة الوطنية للجيش .

اما الحزب الشيوعي المصري فلم يعلم بالحركة الا من الاذاعة والصحف

حيث لم يكن فيه قسم خاص للجيش ويقول الدكتور فؤاد مرسى سكرتيره العام في ذلك الوقت انه اصدر منشوران احدها للجيش والآخر للشعب يطالب بالافراج عن المسجونين والمعتقلين ومواصلة الكفاح المسلح واعلان النظام الجمهوري . ضمن تأييد عام للحركة لم يستمر اكثر من ثلاثة ايام فقط ، عندما تبين ان الحركة قد قررت اخراج الملك دون محاكمة ، وان ذلك قد دفع الحزب الشيوعي الى سرعة اتخاذ موقف المعارضة ، بعد ثلاثة ايام فقط ، صنفت فيه الحركة بأنها حركة عسكرية ستسير في اتجاه فاشي لمصلحة اعداء البلد والاستعمار الانجلو امريكي .

ولم يقبل جمال عبد الناصر التفسيرات التي قدمت له للتمييز بين الاتجاهين .. اتجاه حدتو واتجاه الحزب الشيوعي .. اذ وجد ان ذلك امرا يصعب تفسيره للجماهير .. وانه شخصيا غير مقتنع به وانه يطالب بموقف موحد للشيوعيين ... وكان ذلك الحديث في منزل احمد فؤاد ، وقد حضرت هذا اللقاء مع عدد من المسئولين في حدتو .

كان موقف الحزب الشيوعي في ذلك الوقت شديد التطرف والتفتت، فان خروج الملك في ذاته كان يعتبر خطوة ايجابية ، لا يجوز تعطيلها بدعوى ضرورة محاكمة النظام الملكي كله ، في وقت لم تكن حركة الجيش فيه تستند الى تنظيمات شعبية قوية .. ولم يكن مفروضا فيها ان تتصرف كما لو كانت قيادتها ماركسية .

ظلت وجهات النظر المختلفة الى حركة الجيش مستمرة من جانب التنظيمات الشيوعية ، ولو ان بعض الاحداث قد ساعدت على رفع شعار مشترك للمعارضة ضدها عندما اعدم خميس والبقري وصدرت القوانين المعادية للديمقراطية بوقف الدستور وحل الاحزاب .. كما ان بعض الاحداث قد جمعت الشيوعيين مع السلطة الجديدة في جهة واحدة كما حدث في مقاومة العدوان الثلاثي بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ وفي تأييد خطوات النضال ضد الاحلاف العسكرية وكسر احتكار السلاح وبداية خلق علاقات تعاون وصداقة مع الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي .

وعندما اتحد الشيوعيين عام ١٩٥٨ في الحزب الشيوعي الموحد ظل هناك عدة تيارات رئيسية داخل الحزب .. تيار يقول بأن النظام هو ثالث يعتبرهم برجوازية وطنية صغيرة .

حيرة الحركة العسكرية وترددها في اختيار طريق واضح انعكست مباشرة على تحليلات التنظيمات الشيوعية .

وساعد على ذلك ايضا ما تم في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٥٦ .

كانت اعادة تقييم دور البرجوازية الوطنية في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، وظاهرة التفتح التي ظهرت في كلمات ماوتسي تونج بالصين دافعا الى حدوث مراجعات فكرية في التنظيمات الشيوعية أدت الى نبذ أفكار الرفض الكامل والجنوح الى التأييد والتحالف .

يقول جان لاكوتير (ان اتجاه المؤتمر العشريني قد ساعد ناصر على الا يصبح ديكتاتورا) .

ذلك صحيح لانه جعل الاتحاد السوفييتي يقدم له العون على تطوير المجتمع ، ولم يدعه يسقط فريسة للامبريالية يعادي بعدها كل الوطنيين والاحرار .

اصطدم التياران وفصل الحزب ممثلي الاتجاه الثاني شهدي عطية الشافعي وكمال عبد الحليم ومبارك عبده فضل واحمد رفاعي بعد ٤ شهور فقط من توحيد الحزب .

وحدث لقاء مثير في اكتوبر ١٩٥٨ في منزل انور السادات بينه وبين محمود امين العالم ممثل المكتب السياسي للحزب الشيوعي الموحد ... رتب المقابلة الدكتور يوسف ادريس عضو (حدتو) سابقا ، والقريب من انور السادات في ذلك الوقت .

امتدت المقابلة من العاشرة مساء حتى الرابعة صباحا ... كانت جافة وحادة .

دعا انور السادات الشيوعيين الى دخول الاتحاد القومي كأفراد ... واظهر العالم استعدادهم للتعاون بشكل تنظيمي داخل الاتحاد القومي على برنامج معين محتفظين بمنبرهم المستغل .

انتهت المقابلة دون اتفاق ...

وكانت ردود الفعل مختلفة عند الشيوعيين ... نظر الدكتور اسماعيل صبري عبدالله الى الموقف على ان الحكومة في حالة ضعف ولذا تلجأ للشيوعيين لتستوعبهم ، فتضلل الجماهير ... وتمادى في تحليله فتوقع ان تدعوهم للمشاركة في الحكم .

ولكن لم تكد تمضي على هذه المقابلة عدة ايام حتى بدأت حركة اعتقالات فردية للشيوعيين .

ولم يكن انفجار التناقض في مصر وحدها ... ولكنه كان في سوريا ايضا بصورة اكثر وضوحا .

عندما حاول اللواء عفيف البزري رئيس اركان الجيش السوري ابداء رأيه في توحيد الجيش ، وكان معروفا بصلاته الوثيقة مع الشيوعيين ، صدر قرار جمال عبد الناصر بخروجه من الجيش ومعه الضباط اليساريون الموالون له في التفكير .

لم يصدر هذا القرار في مصر لسببين اولا ان الضباط الشيوعيين الذين ظهروا كمتعاونين في حركة الضباط الاحرار كانوا اما قد خرجوا من الجيش خلال السنوات السابقة او ذابوا في صفوف الضباط لم يعرفهم احد .

وبذا لم تشن حملة ضد الضباط الشيوعيين في مصر ... ولم تشن ايضا في سوريا كما حدث في ايران عندما حوكم ٦٥٠ ضابطا بتهمة الانتماء الى حزب توده وحكم على عشرات منهم بالاعدام في اواخر ١٩٥٤ ، أو كما حدث في باكستان عندما حوكم عشرة ضباط منهم اللواء احمد خان واللواء و. احمد والامير الامام لطيف في مارس ١٩٥٣ بتهمة اعداد مؤامرة شيوعية ضد نظام الحكم .

لم يسلك جمال عبد الناصر سلوك القيادات الرجعية في معاملة الضباط الشيوعيين لان سلوك الشيوعيين نحو قيادته كان مختلفا .

كان حرصهم على التعاون معه في مواقفه الوطنية يزداد وضوحا يوما بعد يوم ... ولم تكن هناك تناقضات رئيسية بينه وبينهم .

ولكن ثورة العراق فرضت على الموقف ايضا مزيدا من الاضطراب ... وتناقض جديد بين السلطة العسكرية في مصر والسلطة العسكرية في العراق كما سيأتي تفصيلا فيما بعد .

أدت هذه العوامل الى تغيير جاد في مسلك الثورة من الشيوعيين ... وبدأ الهجوم عليهم في خطب جمال عبد الناصر تلميحا ثم تصريحا في خطبته يوم عيد النصر في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٩ في بورسعيد المدينة التي قام فيها الشيوعيون مع العسكريين بدور وطني بارز في مقاومة المعتدين .

وكانت جريدة المساء هي المنبر الذي يطل منه الشيوعيون على الرأي العام ... وكتب الدكتور عبد العظيم انيس مقالا بعنوان (الحركة الوطنية العربية) اعتبره جمال عبد الناصر خروجا على خط القومية العربية ، وطلب من خالد محيي الدين منع الدكتور عبد العظيم انيس من الكتابة ووقعت المساء في حيرة شديدة بين اتجاهات القومية العربية ، والاتجاهات اليسارية في العراق ... بل انها لم تنشر ما ورد في خطبة جمال عبد الناصر من هجوم على الشيوعيين يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨ في بورسعيد .

ويقول خالد محيي الدين انهم حرصوا على عدم نشر شيء الا الانباء المؤكدة التي تجمع عليها وكالات الانباء .

وعندما لم تنجح ثورة الشواف في العراق ، نشرت المساء (مانشيت) رئيسيا بعنوان (انتهت الثورة) واعتبر جمال عبد الناصر ذلك خروجا على الخط وقرر عزل خالد محيي الدين من رئاسة المساء فأبلغه انور السادات بذلك يوم ١٢ مارس ١٩٥٩ .

وتوالت خطب جمال عبد الناصر تتهم الشيوعيين بالعمالة .

وفي يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٨ وصل يوجين بلاك يحمل عرضا بقرض من البنك الدولي وفي ليلة رأس السنة هاجم البوليس منازل مئات من الشيوعيين تم ترحيلهم الى المعتقلات .

صرح زكريا محيي الدين وزير الداخلية لسيمون لاكوتير المحررة في مجلة (فرانس اوبزرفاير) قائلا (في سوريا تشكل الشيوعية خطرا اما في مصر فهي لا تزيد عن كونها مشكلة فهنا نعرف الشيوعيين كلهم) .

وفي اليوم التالي لحركة الاعتقالات ٢ يناير ١٩٥٩ .نشرت الصحف صورة برقيتين متبادلتين بين نيكيتا خروشوف وجمال عبد الناصر للتهنئة بمناسبة توقيع اتفاقية السد العالي .

ولكن هذه البرقيات المتبادلة لم تمنع مواصلة اتهامات عبد الناصر للشيوعيين بالعمالة ، ومواصلة نيكيتا خروشوف لمهاجمة عبد الناصر في حفلات الاستقبال وفي المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي .

تفجر الموقف بين قائد حركة التحرر الوطني في مصر وسكرتير الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي .

ولكن جمال عبد الناصر اعلن في خطابه بميدان الجمهورية في العيد الاول للوحدة انه ارسل خطابا الى خروشوف وتلقى منه ردا (قويا — على حد تعبيره — من عشر صفحات) قرأ بعض فقراته على الجماهير بعد ان قال ان هناك احاديث سببت بلبلة للناس مثل القول بوقف السلاح والمعونة والعلاقات الاقتصادية والمشاريع الصناعية بل والسد العالي .

قال خروشوف في رده (اذا نظر الانسان الى الموقف الحالي نظرة عملية لتمكن بسهولة من ان يرى اعداء الصداقة بين الاتحاد السوفييتي والجمهورية العربية المتحدة يريدون في الوقت الحاضر ان يجنوا ارباحا جشعة في الخلافات العقائدية بيننا) ... وقال ايضا (اما فيما سيتعلق بموقفنا من الشيوعية في الجمهورية العربية المتحدة فان الاتحاد السوفييتي لا يرغب في التدخل في الشئون الداخلية) .

دخلت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي في مرحلة فتور ... ولكن الخطابات ظلت متبادلة ... خروشوف يستند الى مثل شعبي أولي الى مثل عربي يقول (يد واحدة لا تصفق) .
يقول (لا تبصق في بئر قد تحتاج الى مياهه) وجمال عبد الناصر يستند
جمال عبد الناصر يحرص على عدم هدم العلاقات المصرية السوفيتية التي تقدم له العون في مختلف المجالات ... ولكنه ايضا يود ان يؤكد سلطته داخل مصر ، فيصدر اوامره باعتقال مئات آخرين من الشيوعيين في شهر ابريل ١٩٥٩ .
كان جمال عبد الناصر يتصرف كرجل دولة في حرصه على العلاقة مع السوفييت ، وكزغيم له طبيعة عسكرية في التعامل مع المعارضين له في الجبهة الداخلية .

ويقول انطوني ناتنج (في كتابه ناصر) ان جمال عبد الناصر لم يفعل ذلك حفاظا على سلطته ، او حماية للوحدة مع سوريا فقط ... ولكنه اراد ان يثبت للعالم عامة وللولايات المتحدة خاصة أن سياسته بعد السويس ليست مرتبطة بالايديولوجية الشيوعية كما سبق له ان قال .
وانتهزت حكومة الولايات المتحدة الفرصة وانتعشت آمالها في العودة الى مركز النفوذ في المنطقة من جديد .
واستأنفت مساعدتها الاقتصادية لمصر ... واعلن دالاس ذلك في ١٢ اكتوبر بمساعدة اولية مقدارها ١٣ مليون دولار ، وبيع القمح بالنقد المصري .
وعادت العلاقات مع بريطانيا ايضا في ديسمبر ١٩٥٩ بتعيين كولين كووفائما بالاعمال ولكن جمال عبد الناصر لم يقابله ابدا حتى اعيدت العلاقات الديبلوماسية كاملة مع بريطانيا في مارس ١٩٦١ بتعيين سير هارولد بيلي سفيرا في القاهرة .
اما فرنسا فلم تعد العلاقات معها الى طبيعتها بعد اعتقال مدير بعثتها مسيو ماتي واتهامه بالتجسس في نوفمبر ١٩٦١ وعدم الافراج عنه الا بعد خمسة شهور عندما قرر ديجول اعلان استقلال الجزائر .
محاولة استغلال الحكومة الامريكية للموقف عن طريق عودة المساعدات (كانت مكشوفة لدرجة انها لم تفلح) كما يقول انطوني ناتنج .
ولم يحدث تبادل للاتهامات في الخطب او حفلات الاستقبال ... وفوجئت يوما بصلاح سالم يحدثني عن رغبته في مقابلة خروشوف واجراء حديث معه .

وكان العرض من الغرابة في وقت تستعر فيه الحملة ضد الشيوعية الى الحد الذي تبينت منه انه محاولة من جمال عبد الناصر لرأيه الصريح دون ان يصرح صلاح سالم بذلك .

وفي اجتماع حضره صلاح ومستشار القاهرة السوفيتية فاديم سنينليكوف وانا تم الاتفاق على ابلاغ موسكو برغبة صلاح سالم .. وجاء الرد بعدها بأيام بالموافقة .

سافرت مع صلاح سالم ومعنا الزميل الصحفي اليساري عبد العزيز فهمي الى الاتحاد السوفيتي يوم ٣ نوفمبر ١٩٥٩ ... واستقبل خروشوف صلاح سالم في مكتبه بالكرملين واجرى معه حديثا لجريدة الجمهورية نشر فيها .

ولكن الرحلة كانت تمهيدا للاتفاق على تنفيذ المرحلة الثانية من السد العالي وضمان استمرار الامداد بالاسلحة .

وافق خروشوف دون تردد ... وكانت بعثات الضباط المصريين ما زالت موجودة تواصل دراستها .

وفي هذا اللقاء تحدث خروشوف مرة اخرى عن عدم جدوى اعتقال الشيوعيين وان الوحدة مع سوريا بدأت تتعثر ... وكان عبد الحكيم عامر وقت المقابلة في دمشق بصفته نائبا لرئيس الجمهورية ، ولم يتورع خروشوف عن القول بأن عامر يعيش في سوريا فو (خازوق) في مقعده .

ارسل صلاح سالم صورة الحديث لناصر ومعه ملخص بما تم في المقابلة ، على ان نسافر معا الى المغرب في محاولة لدخول الجزائر من مدينة (اوجوا) ولكنه تلقى برقية من عبد الناصر بالعودة فورا الى القاهرة ، وعاد بفردة حذاء وفردة شبشب من آلام النقرس التي كان يعاني منها .

(نشر الحديث في جريدة الجمهورية يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٩ تحت هذه العناوين الرئيسية على لسان خروشوف (لا صلة بيننا وبين الاحزاب الشيوعية في البلاد العربية ـ الموقف في البلاد العربية غير صالح الآن لقيام نظام شيوعي ـ عواطفنا مع اللاجئين الفلسطينيين ولا نريد ان تكون لنا مصالح مع الصهيونية ـ الاستعداد لتسليح الجيش والمرحلة الثانية من السد العالي وتنمية الاقتصاد) .

وتحسنت العلاقات الرسمية قليلا وخفت حدة موجة الهجوم على الشيوعية ولكن اذاعة صوفيا ظلت منبرا للشيوعيين العرب ينتقدون فيها النظام الذي كان يهاجمهم من صوت العرب هجوما شديدا .

وحدث ان اذاعت المحطة في اوائل عام ١٩٦٠ خبر اعتقال القائمقام

يوسف صديق ووفاته في المعتقل ... ولم يكن الخبر صحيحا .

وتوجه يوسف صديق بنفسه الى سفارة بلغاريا في القاهرة وابلغهم ان اذاعة مثل هذه الاخبار لا تفيد شعب بلغاريا ولا تفيد ايضا شعب الجمهورية العربية المتحدة .

ولكن اخبار اذاعة صوفيا لم تكن كلها غير صحيحة ... كان الشيوعيون الذين اعتقلوا اولا في الفيوم ثم رحلوا الى معتقلات انشئت في الواحات والوادي الجيد يعانون من المعاملة السيئة والتعذيب والاضطهاد .

وبلغ التعذيب غايته في سجن ابي زعبل حيث عومل كبار المثقفين المصريين وطليعة العمال والفلاحين معاملة وحشية وتعرضوا لاهانات لا تتفق مع الكرامة الانسانية ، مما جعل سمعة النظام المصري في الدول الاشتراكية وبين الاحزاب التقدمية يتعرض الى اساءة بالغة .

وفي يوم كان قد عاد من الاسكندرية عدد من الذين كانوا يحاكمون امام محكمتها العسكرية ، واستقبلهم بعض رجال السجن بالضرب الشديد ، وسقط المناضل شهدي عطيه الشافعي احد الرواد الاوائل في الحركة الشيوعية المصرية قتيلا تحت ايدي المجرمين .

كان جمال عبد الناصر اثناء ذلك في زيارة تيتو في يوغوسلافيا عندما بلغه النبأ فأصدر اوامره بطرد اللواء اسماعيل راغب همت احد ضباط الجيش الذين زحفوا ايضا حتى الى مصلحة السجون والتحقيق معه ومع عدد من ضباطه .

ولم يكن المناضل شهدي عطية الشافعي هو الشهيد الوحيد .

توفي ثمانية معتقلين شيوعيين من آثار التعذيب والمعاملة السيئة في السجن في الفترة ما بين ١٢ ابريل ١٩٥٩ ، ٢٣ يوليو ١٩٦٠ وهم المناضلون موظف محمد عثمان بطنطا وطالب مصطفى شوقي والدكتور فريد حداد وموظف سيد التركي وعامل علي متولي الديب ومرتد محمد رشدي خليل وعامر سيد محمد .

لعبة التوازن

ومضت اكثر من سنتين لم يقابل فيها جمال عبد الناصر خروشوف حتى اتيحت لهما الفرصة في سبتمبر ١٩٦٠ عند افتتاح الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة للامم المتحدة ، بعد ان كان الاتحاد السوفيتي قد رصد لمصر ٩٠٠ مليون روبل في ٢٨ اغسطس ١٩٦٠ وقال له جمال عبد الناصر انه اذا كان قد حظر الحزب الشيوعي في مصر فانه فعل ذلك لان الشيوعيين

اخطأوا في تحليل الطريقة التي يجب تطوير البلاد بها كذلك ابلغه انه لا يشترك في أي حرب صليبية عامة ضد الشيوعية وانه ليس معاديا للشيوعية .. وذلك كما ذكر محمد حسنين هيكل في كتابه (عبد الناصر والعالم) .

ولم يقابل جمال عبد الناصر خروشوف فقط في نيويورك وانما التقى مع عدد كبير من زعماء العالم الذين احتشدوا في هذا الاجتماع التاريخي العاصف ... والتقى ايضا بايزنهاور رئيس الولايات المتحدة ، وتحدث معه في العلاقات ما بين البلدين وفي تطوراتها وفي ضرورة النظر اليها على ضوء جديد يتماشى مع ما نتطلع اليـه جميعا من سلام قائم على العدل ... ولكن مدة رئاسة ايزنهاور كانت في شهورها الاخيرة ومن ثم لم يتح للمحاولة الجديدة ان توضع موضع الاختبار .

جمال عبد الناصر حريص على وجود علاقة طيبة مع العسكريين ... العلاقات مع الاتحاد السوفيتي تتحسن ... والولايات المتحدة تمد مصر بالمساعدات بأمل محدود في استعادة مواقعها .

كان المستثمرون الغربيون الذين كان يحتمل أن يوظفوا ثرواتهم في مصر قد اعتقدوا أن مشاريع ناصر الكبرى ليست سوى نـوع من (الاقتصاد الامبراطوري) الذي يهدف الى جعل مصر المركز الصناعي لامبراطورية عربية حديثة كما كتب جيلبـر شيلورك في عـدد اكتوبر ٥٨ مـن مجلـة فورتشن ...

المساعدات الامريكية لم تكن تلعب دورا كبيرا في تطوير المجتمع ، ولكنها كانت ذات فائدة في التموين وبعض الخدمات ، واسهمت في بعض مشاريع السنوات الخمس بمبلغ ١٦٢ مليون دولار مقابل ١٧٣ للاتحاد السوفيتي وحصلت هيئة قناة السويس على قرض قيمته ٥٦ر٥ مليـون دولار من البنك الدولي في ديسمبر ١٩٥٩ بالاضافة الـى خمسة ملايين من المصارف الامريكية لتحسين القناة .

واقتربت المانيا الغربية ايضا من مصر ... سافر اليهـا ٥٠٠٠ طالب في منح وبعثات ، وقدمت مساعدات قيمتها ٤٨ر٤ مليون دولار فـي مشروع السنوات الخمس الاولى .

وانتهـز جمـال عبـد النـاصر فرصـة انتخـاب جـون كنيـدي رئيسا للولايات المتحدة وارسل له خطابا في ٢٠ فبراير ١٩٦١ بمنـاسبة اغتيال الزعيم الكونغولي باتريس لومومبا .

وبادر الرئيس الامريكي بالـرد علـى جمال عبد الناصر في ٢ مارس

١٩٦١ ... وبدأت علاقة مراسلات ودية بين الرئيسين .

وحدث تحول ظاهر في العلاقات عندما طلب جمال عبد الناصر تحويل طلبة البعثات المصريين في الاتحاد السوفييتي الى الولايات المتحدة ووافقت الاخيرة على ذلك وانتقل فعلا ٢٤٠ طالبا الى هناك .

واستمرت الخطابات متخطية عقبة محاولة الغزو الامريكي لخليج الخنازير في كوبا التي وقف عبد الناصر وتيتو فيها موقف التأييد لفيدل كاسترو ، في محاولة لاقامة صداقة مصرية امريكية على اساس عدم التدخل او التنازل عن الحرية والاستقلال الوطني .

هكذا كان جمال عبد الناصر يحاول خلق علاقات طيبة مع الاتحاد السوفييتي ومع الولايات المتحدة في وقت واحد ... لم يتورع عن الدخول في مصادمات علنية عندما وجد ان في ذلك ما يعتبر محاولة للتدخل في شئون مصر ، ولكنه لم يلبث ايضا ان غلبمصلحة مصر فوق شحنة عواطفه المتفجرة .

كان جمال عبد الناصر حريصا على ان يلعب لعبة التوازن بمهارة في السياسة الخارجية .

لا يمكن القول بأن جمال عبد الناصر كان مواليا للسوفييت او مواليا للامريكيين ولكنه كان مواليا لمصر في حدود يقينه واقتناعه ... وقد برزت شخصيته في المجال العالمي نتيجة مواقفه الوطنية ... واصبح زعيما له شهرة عالمية تدفع الناس في انحاء العالم اذا ما قابلوا مصريا في بلدهم ان يقولوا (اوه ... ناصر) .

ولكن هذا التميز الواضح والوصول الى طليعة زعماء العالم الثالث ، لم ينعكس تطورا على اسس علمية سليمة في المجال الداخلي .

اختار جمال عبد الناصر الطريق السهل ، واعتمد على العسكريين في اقامة نظامه ، ولم يبذل جهدا حقيقيا في تكوين كادرات قيادية في مجال العمل السياسي ، مع اتخاذه موقفا عازلا بينه وبين العناصر التي مارست السياسة في تنظيمات اخرى .

وأدى لمعان شخصيته في المجال العالمي وانتصاراته في المجال الوطني الى خلق فارق واسع بينه وبين زملائه العسكريين ، فأصبح لهم زعيما لا ينازع وقائدا لا يتطاول الى قمته احد .

وادى ذلك الى تغييرات حقيقية في شخصيته وفي اسلوبه ، وخاصة بعد الوحدة مع سوريا واتساع رقعة البلاد ، وظهور محبة الشعب هناك له وحملهم لعربته فوق الاكتاف في مدينة حلب وغيرها .

اصبح صعبا عليه أن يمارس حياته التي اعتادها ... يقابل زملاءه في بساطة دون تحديد موعد ، يستقبلهم احيانا في غرفة نومه ، يستمع الى مزاحهم ونكاتهم يحرص على مناقشة آرائهم ويتعرف على اخبارهم .

اصبح ذلك مع الوقت صعبا عليه لان وجوده في قمة السلطة جعل الجميع يتجهون اليه ويحاولون الوصول الى اغراضهم عن طريقه ، ويبددون وقته واحيانا يثيرون اعصابه .

ولذا دخل الزعيم الذي بدأ حياته رجلا عاديا بسيطا لا يهتم بالمظاهر دائرة حصار من العزلة ... دخلها بارادته ولم يعد سهلا على احد ان يقتحم عليه عرينه الا اذا كان مطلوبا او بناء على موعد سابق .

واصبحت صلته الرئيسية بالناس خلال اجهزته وخلال مكتبه ... فكان يرى صورة المجتمع في اوراق وتقارير تقدم له ...

ولا يعني هذا انه فقد حسه الشعبي ... خطبه تظهر انه كان يعرف مشاعر الناس واحلامها ومتاعبها ... والاجراءات التي كان يتخذها كانت تعبيرا عن رغبته في تخفيف متاعب الناس .

قوانين الخدمات التي توالى صدورها وقفت بانشاء المجلس الدائم للخدمات العامة ، والوحدات المجمعة ، والمساكن الشعبية ، ومجانية التعليم وزيادة عدد المدارس ، وخفض ايجارات المساكن التي انشئت بعد ١٨ سبتمبر ١٩٥٥ بمقدار ٢٠٪ والحد من السفر للخارج لتوفير ١٠ ملايين جنيه للدولة ، وصدور قانون الجمعيات التعاونية .

كل هذه القوانين كانت تظهر موقف القيادة الواضح في تخفيف متاعب الناس عموما ودعم البرجوازية الصغيرة خصوصا .

ورغم وضوح هذا الموقف يوما بعد يوم الا ان الاتحاد القومي ظل عاجزا عن استيعاب هذه الافكار والسير في هذا الاتجاه ... لان قوانينه كانت تحوي عبارات عامة (يعمل على بناء المجتمع العربي الاشتراكي الديموقراطي التعاوني الذي يعمل بجميع منظماته وافراده على تحمل مسئولية مجتمع تسوده الرفاهية ويتحقق فيه القضاء على الاقطاع والاستغلال وان توجه الملكية الفردية وظيفتها الاجتماعية لمصلحة المجتمع والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم وان يقوم القطاع الاشتراكي في مجالات الصناعة والتجارة والمرافق العامة بجانب النشاط الخاص) .

عجز التنظيم وتعلق الجماهير بارادة الزعيم اصابت المجتمع بنوع

من السلبية والتواكل ، انعكست في النهاية على مسار الثورة فتعثرت في أزمة الانفصال كما سيأتي تفصيلا فيما بعد .

وكانت هذه هي نهاية الاتحاد القومي كتنظيم سياسي ، حيث تكشفت نواحي العجز والقصور فيه ، وتبين انه لا يصلح تنظيما في بلد وطني يحرص على مصلحة طبقة جديدة لم تستكمل نموها بعد وهي البرجوازية الصغيرة .

لم يكن الوضع في مصر مشابها للوضع في البرتغال حيث يحكم نظام ديكتاتوري ارهابي لا يهتم الا بمصلحة الاقطاعيين وكبار الاحتكاريين والرأسماليين .

ومارس جمال عبد الناصر النقد الذاتي لاول مرة امام الجماهير وهو يقول في مناقشات المؤتمر الوطني عام ١٩٦٢ (ان الفكر الثوري قد وقع في الخطأ حين توهم ان الطبقة المحتكرة التي كان لا بد ان تسلبها الثورة امتيازاتها الاستغلالية يمكن لها ان تقبل الوحدة الوطنية) .

ويفسر ذلك فيما بعد بكلماته البسيطة فيقول في عيد السد العالي ١٥ يناير عام ١٩٦٧ (الاساس الذي بني عليه الاتحاد القومي لم يكن بالاساس السليم ، شيء ضد العقل ... وضد الطبيعة واحنا كنا طيبين جدا وعازين نلم الاقطاعي اللي خدنا منه الف فدان مع الفلاح اللي وزعنا عليه خمس افدنة وكنا بنعتبر انه حينسى ويقول ان احنا بنمشي في المجتمع الجديد) .

ليس هذا فقط ... بل ان جمال عبد الناصر يعتبر ان مهادنته للرجعية العربية كانت خطأ ... ويقول (كنا نرفض المصالحة مع الاستعمار ولكنا وقعنا في خطأ المصالحة مع الرجعية ، تصورنا انهم ابناء نفس الوطن وشركاء نفس المصير ، ولكن التجربة اثبتت خطأ ما كنا نتوهمه) .

وحدد جمال عبد الناصر طريقه الجديد في خطابه يوم ١٦ اكتوبر ١٩٦١ (من هنا كان اهم ما يواجهنا هو اعادة التنظيم الشعبي ليكون الاتحاد القومي اداة ثورية للجماهير الوطنية وحدها ، صاحبة الحق والمصلحة في التغيير الثوري) .

اقتنع جمال عبد الناصر بأن بقايا الاقطاع والبرجوازية الكبيرة لا يمكن ان ترتفع فوق مصالحها الانانية الضيقة .

واقتنع ايضا بأن محاربة الامبريالية في الخارج لا تفترق عن محاربة الرجعية المتعاونة مع الاستعمار في الداخل .

واقتنع اخيرا بأن وجود التنظيمات السياسية بغير وثيقة فكرية توجه افرادها هو امر يبدد طاقتها في وجهات نظر متباينة وصراعات فكرية متعددة .

ولم يعد غياب الايديولوجية مقبولا ...

ولم يعد الاتحاد القومي تنظيما صالحا .

ووضح الاختيار ليقضى على الحيرة .

البابُ الثالث

مجتمع عبد الناصر

الفصل السابع

محاولة ... لنظرية جديدة

(لا بد لنا ان نقاتل الاستعمار في قصور الرجعية .. وان نقاتل الرجعية في احضان الاستعمار)

جمال عبد الناصر

لم يتغير واقع المجتمع ، ولم يرتفع مستوى المعيشة كثيرا رغم كل الاجراءات التي اتخذت في الخمسينيات ... قانون الاصلاح الزراعي تخفيض ايجار المساكن ، مصادرة اموال الاسرة الملكية ، تأميم القناة ، تمصير البنوك والشركات البريطانية والفرنسية ، تشجيع رؤوس الاموال الاجنبية ورفع نسبتها في الشركات الى ٥١٪ .

لم يتطور المجتمع عن طريق التقدم الراسمالي ... احجمت البرجوازية المصرية الكبيرة عن الاسهام الايجابي في دعم الاقتصاد القومي .. وقدراتها في ذلك عموما كانت محدودة ... الاستثمار الصناعي عام ١٩٥٢ كان ٢٫١٠٠٫٠٠٠ جنيه فقط .

وبذلك اثبتت ان قدراتها في تحقيق خطط التنمية محدودة .

وحتى في هذا الوضع اخذت البرجوازية تتذمر وتفكر بالخلاص من كل رقابة من جانب الدولة خاصة وان قيادة الثورة كانت تقترب تدريجيا من التدخل عن طريق قوانين الشركات ، ووضع بعض العسكريين في مواقع النفوذ ، واستيلاء الدولة (القطاع العام) على الشركات الممصرة .

ونضح التناقض بين مطالب الامة الديموقراطية العامة وبين مصالح

المستثمرين الطبقية ... ولم تعد (الاشتراكية الديموقراطية التعاونية) صيغة مناسبة لتطوير المجتمع لما احاط بها من غموض وغلفها فـي نوايـا طيبة غير واقعية .

الهدف ... رفع مستوى المعيشة لا يتحقق بالصورة المرضية ... مـا زال الفلاح في تخلفه وفقره والعامل في معاناته ... ولكن الطبقة الوسطى تنمو وتتدعم ، ومع ذلك فالحياة ما زالت تطحنها .

ولم يكن استمرار الوضع على مـا هـو عليـه مقبـولا ... الثوار العسكريون لا يريدون ان يتحولوا الى حكام فقط ... والقادة الوطنيون الذين حصلوا على تأييد شعبي ساحق في خطواتهم الوطنية لا يرتضون ان يقفوا موقف العجز امام الشعب في خطواتهم الاجتماعية .

عندما قرر جمال عبد الناصر تأميم بنك مصر استدعى اليه احمد فؤاد وقال له انه يشعر بأن السلطة في يد كبار الرأسماليين .

ولكن تأميم البنك الاهلي وبنك مصر لم يكن كافيا لازالة الشعور بسيطرة كبار الرأسماليين ... ولم يكن عاملا مؤثرا في القضاء على مشاكل المجتمع .

والاشتراكية هي اكثر الكلمات بريقا واغراء في مجال التقدم الاجتماعي ... ولكنها استخدمت احيانا في غير مجالها ... هتلر اطلق على حكمه النازي اسم (الاشتراكية الوطنية) ... وكلمتا الديموقراطية والتعاونية لم يتحولا الى جناحين تحلق بهما الاشتراكية في مصر الى آفاق جديدة رغم قول جمال عبد الناصر في المؤتمر التعاوني بجامعة القاهرة يوم ٥ ديسمبر ١٩٥٧ (اننا نهدف الى اقامة مجتمع اشتراكي ديموقراطي تعاوني متحرر من الاستغلال السياسي والاستغلال الاقتصادي والاستغلال الاجتماعي) .

الموقف يزداد صعوبة امـام القيـادة الطموحة ... والذين بشروا بالاشتراكية في مصر من قبل الثورة كانوا معتقلين في السجون من ليلة رأس السنة لعام ١٩٥٩ ... تلاحقهم الاتهامات انهم شيوعيون وانهم عملاء .

ولكن هذه الحقيقة لم تقف عقبة في وجه جمال عبد الناصر ...

ابقى الشيوعيين او الاشتراكيين الحقيقيين في المعتقلات ... وبدأ يدبر ثورة جديدة بسرية كاملة ... بصورة تختلف قليلا عمـا حدث قبل ٢٣ يوليو .

الثورة الاجتماعية تدبر من السلطة بعيدا عن المناقشة الحرة المفتوحة ... والذين اشتركوا في تدبيرها عدد محدود .

يقول زكريا محيي الدين وعبد اللطيف البغدادي ان تأميمات ١٩٦١

لم تعرض على اعضاء مجلس القيادة السابقين في جلسات عمل رسمية ... وانما اثير الموضوع للمناقشة في جلسة واحدة خاصة بالاسكندرية حضرها جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادي وزكريا محيي الدين وكمال الدين حسين فقط .

لم تكن هناك صورة واضحة عن المدى الذي كان يراه عبد الناصر في موضوع التأميم .

كانت هناك آراء بديلة من بعض اعضاء مجلس القيادة السابقين ... تحديد ملكية الاسهم في الشركات للفرد والاسرة ... عدم تأميم أي مشروع الا اذا كانت هناك قدرة على ادارته ادارة جيدة .

ومع ذلك فلم يعترض احد من اعضاء مجلس القيادة على مشروع قوانين التأميمات ... جميعا وافقوا عليها ... ولم يبذل احد منهم جهدا في دراستها لانها لم تعرض عليهم تفصيلا .

رتب جمال عبد الناصر مشروعات القوانين مع عبد المنعم القيسوني وحسن عباس زكي وكلاهما غريب عن الاشتراكية ، بعيد عن الاقتناع بهـــا ...

واحمد فؤاد الاشتراكي الذي احتفظ بعلاقته مع عبد الناصر لـم يستشر ايضا ، كما استشير عند تأميم بنك مصر ... وسمع القوانين من الاذاعة وقرأها في الصحف كما حدث مع الشعب في مصر وسوريا .

وعزيز صدقي وزير الصناعة استبقاه جمال عبد الناصر في استراحة المعمورة بعد استقبال وفد من نيجيريا ، واطلعه على الدليل الصناعي حيث كان قد اشر بالقلم الرصاص على اسماء شركات عديدة ثم قال له (الدولة ليس لها رقابة ... وانا اريد تأميم الصناعة) .

وقدم عزيز صدقي مذكرة يقترح فيها تأميم الصناعات الاساسية ... الغزل والاسمنت والمناجم .

كانت فكرة التأميم التي استولت على جمال عبد الناصر وليدة رغبته في التغيير الاجتماعي ، ونتيجة طبيعية لحركته التجريبية ، مع توفر الجدية والقدرة على الاستفادة والوصول الى نتائج جديدة ... تدفعه الـى ذلك طبيعته العسكرية التي يعبر عنها زكريا محيي الدين بقوله (ان جمال عبد الناصر لم يكن فيلسوفا ولكنه كان ثوريا جامحا) .

كانت ارادة جمال عبد الناصر في التغيير اقوى من ان تقف عندها حواجز التقاليد القائمة في المجتمع ، وكان اسلوبه السري في التدبير مـا زال مسيطرا عليه .

لم يكن جمال عبد الناصر من المعتنقين للفكرة الاشتراكية العلمية مثله مثل كل العسكريين الذين اصبحت السلطة كاملة في ايديهم ، ولكنهم جميعا بالتأكيد كانوا يريدون تغيير المجتمع ، ويريدون ايضا ان يتحرروا من أية سلطة لرأس المال ، بعد ان تحرروا من كل القوى والهيئات والتنظيمات السياسية .

ولكن صلات جمال عبد الناصر الخارجية ، وتركيزه على العمل السياسي ، وجديته في مواجهة المشاكل ، كانت تدفعه دفعا الى اعتناق منهج فكري جديد تؤهله له موهبته ورغبته في التعليم وحسن استماعه .

ولم يكن هناك من سبيل الا الاشتراكية بعد بلورتها واخراجها من غموض الفترة السابقة التي اقترنت فيها بالديموقراطية والتعاونية .

احد الذين اثروا على تفكير جمال عبد الناصر في هذه الفترة كان جوزيف بروز تيتو الذي تعددت اجتماعاته به ومناقشاته معه ... وكان جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة يواصل تبادل الخطابات مع كيندي ... ولكن علاقاته مع خروشوف كانت باردة .

وتطور جمال عبد الناصر في هذا المجال كثيرا عن زملائه من الضباط الذين احاطوا بـه وكانت نظرتهم ثابتة غير متطورة ... وكان اليساريون او الاشتراكيون الحقيقيون من الضباط اقلية قبل الثورة ، اما بعدها فقد عزلوا أو اصبحوا أقل نفوذا .

لم يكن هناك يساري واحد مقرب من جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة ... يوسف صديق وخالد محيي الدين في المعاش بالمنزل ، واحمد فؤاد لم يكن مقربا .

ولكن جمال عبد الناصر كان يريد تحطيم الحصار الذي حاولت البرجوازية المصرية ان تفرضه حوله وتقيده به ... فانها لم تكتف بالاستقرار الذي يثبت الحكم العسكري دعائمه ، وانما ارادت المشاركة في السلطة ووقف تدخل الدولة .

ولم يكن هناك من سبيل لتنفيذ ما يبقى سوى السلطة الادارية وحدها ... التنظيم السياسي كان عاجزا عن الحركة وليس فيه كادرات قيادية واعية ... والاشتراكيون الحقيقيون ما زالوا في السجون والمعتقلات .

وفجأة ... وبلا أي تمهيد ... ودون حشد للجماهير او تعبئة

للافكار ... او محاولة لتحريك التنظيم اخذت وسائل الأعلام من صحف واذاعة تصدر بقوانين جديدة .

يخصص ٢٥٪ من ارباح الشركات للموظفين والعمال .

اشراك اربعة اعضاء منتخبين من الموظفين والعمال في مجالس ادارة الشركات .

تحديد الحد الاعلى للمرتبات ٥٠٠٠ جنيه في العام .

اقرار الضريبة التصاعدية لتصبح ٩٠٪ على الدخول التي تزيد عن ١٠٠٠٠ جنيه .

قانون ١١٧ بتأميم ١٤٩ شركة تتحول اسهمها الى سندات اسمية على الدولة لمدة ١٥ سنة بفائدة ٤ر٥٪ ... وكان منها ١٧ بنكا ، ١٧ شركة تأمين .

قانون ١١٨ باشراك القطاع العام في ٩١ شركة بحصة لا تقل عن ٥٠٪ من راس المال .

قانون ١١٩ بتحديد ملكية الفرد في الشركات بما لا تزيد قيمته السوقية عن ١٠ر٠٠٠ جنيه او ١٠٠ر٠٠٠ ليرة وتؤول الى الدولة ملكية الاسهم الزائدة .

قانون رقم ١٢٠ تنظيم منشئات تصدير القطن في الاقليم الجنوبي بحيث تأخذ شكل شركة مساهمة عربية لا يقل رأس مالها عن ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه وتشترك فيها احدى المؤسسات العامة بحصة لا تقل عن ٥٠٪ من رأس المال .

قانون رقم ١٢٣ باسقاط التزام استغلال مرفق النقل العام للركاب بالتزام والتروللي باس بمدينة القاهرة على أن يؤول الى مؤسسة النقل العام بعد نقل كل العمال اليها .

وكذلك قانون ١٢٢ باسقاط التزام شركة ليبون (الفرنسية) .

قانون بتعديل بعض احكام قانون الاصلاح الزراعي ليكون الحد الاقصى للملكية الزراعية ١٠٠ فدان والحد الاقصى للايجار والانتفاع ٥٠ فدانا .

قانون ١٢٨ بتخفيض الديون الى النصف للمنتفعين بقوانين الاصلاح الزراعي .

قانون ١٢٩ بزيادة الضريبة على العقارات المبنية .

وقرار بقانون بمنع تعيين اي شخص في اكثر من وظيفة واحدة .

خلال اربعة ايام بدأت من ١٩ يوليو وانتهت يوم الاحتفال بعيد الثورة التاسع كانت قد صدرت كل هذه القوانين التي تمت بطريق الصدمة ،

وغيرت من واقع المجتمع ، وتلقاها الناس المسئولون والبسطاء كمفاجأة سعدت لها الاغلبية وصدمت منها الاقلية .

سميت هذه القوانين باسم القوانين الاشتراكية .

من هم الذين سيقودون المجتمع بعد هذا التغيير ؟

يقول جمال عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية (من الذي سيقوم بالقيادة ...؟ عندما نقول اشتراكية لا بد لها من اشتراكيين ... انا اريد للاشتراكية اناسا لا هم رجعيون ولا هم رأسماليون مستغلون) .

جمال عبد الناصر يريد ان يعزل الرجعيين والرأسماليين ... ولكنه لا يريد التعاون مع الاشتراكيين الحقيقيين ... انه لا يريد للاشتراكية كادرا من الاشتراكيين ، ولكنه يكتفي بالقائمين على السلطة .

الاتحاد القومي ما زال هو التنظيم السياسي ... وكمال الدين حسين ما زال هو المشرف العام المشجع لصدور هذه القوانين والمؤيد لها في مؤتمرات الاتحاد ، رغم انها لا تتجاوب تماما مع افكاره ومعتقداته ... وكثيرا ما جاب المحافظات يدافع عنها ويروج لها .

لا شيء يتغير في الفئة الحاكمة .

كل مسئول في موضعه ... الوزراء والمحافظون ... وفيض جديد من رؤساء مجالس الادارة والمديرين ... اغلبيتهم العظمى بعيدة تماما عن الفهم الصحيح او الاقتناع بالاشتراكية ، ونسبة العسكريين فيهم ما زالت واضحة ... فتح مجال هائل للترقية امام التكنوقراط والبرجوازية الصغيرة .

الاشتراكية يبدأ تطبيقها بالمجموعة الحاكمة المسيطر عليها العسكريون ... والاشتراكيون الحقيقيون في معتقل الوادي الجديد يرسلون برقيات التأييد لجمال عبد الناصر على خطوته الثورية التقدمية .

معتقدات الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني تعتقد في ان قيادة عبد الناصر وطنية وفي تحالف مع القوى العاملة .. على غير ما كان ينادي به البعض من انه يمثل البرجوازية الاحتكارية المتحركة في خدمة الامبريالية.

وتحول المديرون والمسئولون فجأة الى اشتراكيين ... غيروا افكارهم كما يغيرون ثيابهم .

وتمادى بعضهم في محاولة الظهور بمظهر اشتراكي عن طريق التطرف والمغالاة .

والاتحاد القومي ما زال هو التنظيم المساند للتغيير الحادث في المجتمع مهتديا بفكرة المصالحة بين الطبقات ... (السلام والتعاون بين

الطبقات قد تحقق لاول مرة في التاريخ) هكذا قال جمال عبد الناصر في يوليو ١٩٦١ .

الصراع الطبقي ما زال مرفوضا .

وهنا يحق لنا ان نتساءل عن العلاقة بين الانقلابات العسكرية في الدول النامية وما اذا كانت تستهدف الاستيلاء على ثمار الحركات الشعبية المتصاعدة لمنع الوصول الى حرب طبقية ... وما اذا كانت القوانين والاصلاحات الاجتماعية تتم بوساطة السلطة العسكرية لتفادي وصول الصراع الطبقي الى نقطة الانفجار .

رغم هذه القوانين التي تهدم سلطة البرجوازية الكبيرة ، فان الطبقة الحاكمة لا تريد تفجير الصراع الطبقي لانها بدأت تعبر فعلا عن واقع البرجوازية الصغيرة التي اخذت تنمو وتتدعم ... وتفجير الصراع الطبقي سوف يغلب فرصة الطبقة العاملة النامية والمتعاونة مع الفلاحين في تحقيق اهدافهم لمنع الاستغلال نهائيا ، والتعبير عن انفسهم بالمشاركة في السلطة القائمة .

النقد الذاتي .. متأخرا

ولكن السلام والتعاون بين الطبقات لا يدوم ... والذين صودرت ممتلكاتهم وخفضت ارباحهم تحولوا الى اعداء متربصين .

ولم يطل الامر بهم كثيرا ... بعد شهرين فقط من صدور هذه القوانين وبداية تطبيقها في مصر وسوريا ، حدث الانفصال الذي فرق الجمهورية العربية المتحدة .

رئيس الوزراء الذي تولى الحكم بعد الانفصال ... مأمون الكزبري كان امينا للاتحاد القومي في دمشق .

ليس هذا فقط بل انه كان متهما فيما عرف باسم قضية (الدندشي) التي اعترف فيها بمن اخذوا نقودا لتدبير انقلاب قبل الوحدة وفي مقدمتهم مأمون الكزبري وصبري العسلي .

ولكن جمال عبد الناصر الذي كان بريق الوحدة يستهويه ويتصور انه سوف يفتح صفحة جديدة للقومية العربية خالية من التحركات والانقلابات الرجعية ، رفض محاكمة الكزبري والعسلي واخذ على حد قوله في مناقشات اللجنة التحضيرية بعد ذلك بمبدأ (عفا الله عما سلف) .

كانت القومية تمارس تأثيرا كبيرا على اوساط القيادة العسكرية ... ولكنها لم تؤخذ كحركة تقدمية تستهدف تغيير المجتمع وتحرير الطبقات المستغلة ، وانما وجدت فيها البرجوازية فرصة لهيمنة نظرياتها الاصلاحية،

وخداع الفئات المتخلفة سياسيا ، ودعم الاوهام القائلة ان السلطة ترعى (مصالح الامة بأسرها) .

واستكان مأمون الكزبري عندما كانت الوحدة توفر للبرجوازية استقرارا مناسبا للنمو ومزيدا من الربح ، ولكن عندما صدرت القوانين الاشتراكية انتهى دور العسكريين المصريين في دعم الفرصة للبرجوازية وتحركت المؤامرة للانفصال ، بمن سبق لهم ان تآمروا للانقلاب قبل الوحدة .

واقعة الانفصال كانت ضياعا لآمال جمال عبد الناصر الذي عشق سوريا ، وكانت صدمة لافكاره ايضا التي خيلت له انه يمكن ان يمضي في مسيرته مهما اصدر من قوانين محتفظا بالسلام والتعاون بين الطبقات .

القوى الانفصالية في سوريا هاجمت القرارات الاشتراكية وجمال عبد الناصر قال للشباب العرب يوم ٢ اكتوبر ١٩٦١ (اخطأنا اولا في امتنا آمنا الى الرجعية وخدعنا بالرجعية ... واخطأنا ايضا في اننا هادنا الرجعية العربية) .

وحدد الاخطاء التي وقع فيها في خطاب عام للشعب يوم ١٦ اكتوبر ١٩٦١ .

اولا ... رفض مصالحة الاستعمار مع خطأ المصالحة مع الرجعية .

وتغيرت لهجة الحديث وقال عبد الناصر (لا بد لنا ان نقاتل الاستعمار في قصور الرجعية) .

ثانيا ... عدم كفاية التنظيم الشعبي .

ثم يتحدث عن (اعادة التنظيم الشعبي ليكون الاتحاد القومي اداة ثورية للجماهير الوطنية وحدها صاحبة الحق والمصلحة في التغيير الثوري) ... ما زال الاتحاد القومي هو التنظيم القائم .

ثالثا ... عدم بذل الجهد الكافي في توعية الجماهير الواسعة بحقوقها .

واجاب على القائلين بأن الجيل تحمل مسئوليات في النضال تنوء بها اجيال بقوله (اذا توقفت الثورة الشعبية قبل بلوغ اهدافها فانها لا بد وان تنتكس) . وكان هذا تطورا في رأيه بعدما اعلنه في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٩ في بور سعيد عند الحديث عن خلافه مع الشيوعية من القول بأنه لا يريد ان يتحمل جيلنا كل تضحيات بناء الاشتراكية .

رابعا ... استمرار العمل بنظم ولوائح قديمة مما سلب من الجهاز الحكومي القدرة الكاملة على ان يكون من ادوات الثورة .

خامسا ... وجود ثغرات كثيرة لتسرب الانتهازيين (لقد كان الثمن الذي دفعناه غاليا لتسلل بعض العناصر الانتهازية ... فان بعض العناصر المؤمنة وجدت نفسها مرغمة على اتخاذ موقف سلبي ضد حركة النضال الشعبي) .

كانت افكار عبد الناصر قد تطورت في مواجهة الواقع بمرونتها التجريبية .

اصبح التغيير حتميا .

الحركة الانفصالية اثبتت لجمال عبد الناصر ان هناك مسافة طويلة بينه كثائر وبين ان يصبح حاكما في نظام مستقر لا تهدده الانقلابات .

واثبتت له ايضا ان القوانين الاشتراكية كانت بذورا صالحة القيت في ارض غير ممهدة ، وليس هناك من يرعاها لتنمو وتثمر .

وبدأت حملة جديدة من الاعتقالات ... فؤاد سراج الدين وابراهيم فرج و ٩٨ من السياسيين القدامى ظلوا في سجن القلعة حتى فبراير ١٩٦٢ .

كانت الاعتقالات هي الاجراء الاداري الاسهل لمقاومة الرجعيين دون محاولة جادة للسير في الطريق الصعب بتصفية الرجعية فكريا واعداد تنظيم قوي قادر على حماية القوانين الاشتراكية ، خاصة وان ثلثي الاقتصاد المصري ظل في يد القطاع الخاص ... ٧٩٪ من التجارة ، ٦٧٪ من المباني ، ٥٦ ٪ من الصناعة عموما ... واكثر من نصف عمال مصر يعملون في القطاع الخاص (٥٧٪ في الزراعة والمباني) .

وفي هذه الفترة تمت بعض الافراجات المحدودة للمعتقلين الشيوعيين، واليساريين ، دكتور لويس عوض ، سعيد خيال ، لطفي الخولي وغيرهم .

ولكن اغلبيتهم العظمى ظلت خلف جدران معتقلات الوادي الجديد .

ديموقراطية .. في لجنة

وبعد شهرين تقريبا من الانفصال ، عقد في ٢٥ نوفمبر الاجتماع الاول للجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية ... وهي لجنة معينة والبرلمان لم يعد قائما .

تشكلت اللجنة من ٢٦٠ عضوا بينهم ٥٥ من العسكريين ولو انهم في مراكز مدنية ، الى جانب الوزراء والمحافظين كان هناك ٣٩ من اساتذة الجامعات ، ٢١ من ممثلي العمال ، ١٩ من سكرتيري الجمعيات التعاونية

للاصلاح الزراعي ممثلين عن قطاع الزراعة وليس بينهم فلاح يعمل بيده، ٧ من رجال الصحافة والاعلام ، ١١ سيدة .

لم يكن في اللجنة شيوعي واحد لانهم كانوا في المعتقلات ولم يكن فيها احد من رجال الاحزاب السابقين ، كما لم يكن فيها عضو واحد من الاخوان الذين كانوا ينفذون احكام السجن الصادرة بحقهم من محاكم الشعب والثورة .

عين انور السادات امينا عاما للجنة ، وعبد السلام بدوي سكرتيرا عاما لها ، وهو احد الضباط ايضا .

وبدأ جمال عبد الناصر يلمس نواحي الضعف في المجتمع ويصارح بها المجتمعين من اعضاء اللجنة .

تضاعف عدد الذين يربحون اكثر من ١٠٫٠٠٠ جنيه في العام .

مليونير يسدد في عام واحد مبلغ ٣ مليون جنيه كان مدينا بها للحكومة .

الجامعات تدرس نظرية آدم سميث في الاقتصاد الحر بينما تصدر القوانين الاشتراكية .

رأس المال الاجنبي الذي دخل مصر للاستثمار من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٦١ ٨٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه فقط ... ثم يفسر تفضيله للقروض الاجنبية غير المشروطة فيما عدا الصناعات التي تحتاج الى ابحاث مثل البترول والادوية .

المعونات ... ثم القروض غير المشروطة ... ثم الاستثمارات الاجنبية .

كانت اجتماعات اللجنة التحضيرية تذاع على الهواء وشاشة التليفزيون مباشرة ، المناقشات فيها عامرة بالحيوية ... الآراء تعبر عن اصحابها وتظهر الاتجاهات الفكرية العميقة والضحلة ، الصادقة والمنافقة .

صدرت التعليمات بأن ينشر كل شيء على الشعب ... لا تحذف كلمة واحدة مما يقال ، حتى تتبين ردود الفعل كاملة .

الديموقراطية تستهوي الشعب .. وصدور الناس تريد ان تعبر عما فيها .

خالد محمد خالد يطالب بالديموقراطية ... ومحمد فؤاد جلال يتعرض له مطالبا بعدم اعطاء الحرية لاعداء الشعب قائلا (ربما كان من الاخطاء التي حدثت ان الثورة احتوت جميع العناصر ولم تقص عن محيط العاملين اولئك الذين كان يجب ان يقصوا) .

وخالد يرد (اعلم ان قبل الثورة كان ثمة حياة سياسية تنطوي على كثير من الفساد ، ولكني اعلم ايضا ان هذه الحياة السياسية كانت تنطوي على كثير من الجد والعمل الطيب ، انا ابن هذا الشعب وثورة ٢٣ يوليو وليدة هذا الشعب) .

الدكتور عبد الفتاح اسماعيل وكيل وزارة التعليم العالي يقول (اننا كنا شعبا من العبيد) ... وجمال عبد الناصر يصحح له كلمته .

ويرد جمال عبد الناصر ايضا على خالد محمد خالد مظهرا مسئولية رجال الثورة في حماية الشعب من اعدائه ، دافعا عنها شبهه المظالم .

الحديث صريح عن محاكمات الاخوان ... يتساءل جمال عبد الناصر (هل حاكمناهم افتراء ؟ ام لانه كان يوجد جيش مسلح للانقضاض على هذا الشعب . ألم يحدث هذا في سنة ١٩٥٤ ؟ هل بدأنا بالعدوان ؟ وهل تركناهم في السجون ؟ خرجوا من السجون واكثرهم افرج عنه قبل ان تنتهي مدة العقوبة ، واكثرهم ممن كانوا في وظائف وفصلوا وضع لهم قانون خاص بأن يعودوا الى وظائفهم ... هذا هو العدل الذي كنا نتبعه ونسير عليه) .

والحديث صريح ايضا عن الموقف من الشيوعيين ، وجمال عبد الناصر يقول (نحن لسنا ضد الماركسية ابدا بأي حال من الاحوال ولا ضد اليسار بل اننا ضد اخذ تعليمات من دول اجنبية ، وأي شخص يأخذ تعليمات من دولة اجنبية خائن لهذا الوطن) ويستطرد (يوجد شيوعيون طلقاء وانت تعرف ذلك ولكنهم لا يأخذون تعليمات من دول اجنبية ... فالحزب الشيوعي المصري يأخذ تعليمات من صوفيا ، وقيادته موجودة في صوفيا ويأخذ تعليمات من بلغاريا ... قلت هذا الكلام وقلت أن هؤلاء عملاء ولا يمكن ان اترك للعملاء سبيلا لكي يغرروا بالشعب) .

في بداية الثورة قال جمال عبد الناصر (إنهم كانوا يتلقون التعليمات من الحزب الشيوعي الايطالي) .

موقف العداء من الشيوعيين ما زال مستمرا والاتهام الظالم بالعمالة ما زال هو السند في أسلوب القهر والابعاد ، رغم ارهاصات الاشتراكية التي ظهرت في كلمات كثير من المتحدثين في اللجنة .

وخالد محمد خالد ما زال يحاور دفاعا عن الديموقراطية ، وجمال عبد الناصر يرفض فكرة تشكيل الاحزاب لانها تعبير عن مصالح اجتماعية متنافرة لا يريد لها ان تجمع الى اليمين الرجعي او اليسار الشيوعي .

ويعاود خالد محمد خالد حديثه عن الديموقراطية قائلا انها

والاشتراكية شيء واحد لان الاقتصاد لا ينفصل عن السياسة بل يؤثر فيها ويحركها ... ويبرر قوله بشعار ماوتسي تونج (دعوا الازهار جميعها تتفتح) وبقوله ان هناك احزابا اخرى غير الحزب الشيوعي في الصين .

ويستمر الحوار مفتوحا ، ولكن يتغيب عن الاجتماعات منذ الجلسة السادسة التي عقدت في ٤ ديسمبر المشير عبد الحكيم عامر وهي نفس الجلسة التي تغيب فيها جمال عبد الناصر ايضا عن الحضور ... ومع الجلسة التاسعة بدأ تغيب اعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين جميعا ، وارتفع عدد المعتذرين الى ٦٧ عضوا ، واستمر الحال كذلك حتى انتهت اجتماعات اللجنة بعد ١٨ جلسة انتهت في ٣١ ديسمبر ١٩٦١ .

الآراء المتشبعة التي طرحت في اجتماعات اللجنة كانت بداية لتغييرات جذرية في الحياة السياسية المصرية .

الاتحاد القومي بدأ يعد لاجتماع المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ... المؤتمر له امينان عامان (سكرتيران) انور السادات الامين العام السابق للاتحاد القومي والامين العام للجنة التحضيرية ... وكمال الدين حسين المشرف على الاتحاد القومي .

وفي الجلسة الاولى التي عقدت يوم ٢١ مايو ١٩٦٢ جلس انور السادات على يمين جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين على يساره ... وكان ترتيب أعضاء مجلس قيادة الثورة قد تحدد بأقدمية الرتب العسكرية السابقة ، ولكن تعيين انور السادات امينا اولا كان ايذانا بانتهاء دور كمال الدين حسين في التنظيم السياسي كما حدث مع ابراهيم الطحاوي في هيئة التحرير .

كانت انتخابات اعضاء المؤتمر قد تمت على مراحل تبعا للفئات المختلفة، بدات يوم ٥ فبراير ١٩٦٢ وانتهت يوم ٢٤ فبراير ١٩٦٢ .

وتشكل المؤتمر من ١٥٠٠ عضو منهم ٣٧٩ يمثلون الفلاحين ، ٣١٠ يمثلون العمال ، ١٥٠ من الرأسمالية الوطنية ، ٢٩٣ من النقابات المهنية ، ١٣٥ موظفا ، ٢٣ سيدة ، ١٠٥ من اساتذة ومدرسي الجامعات والمعاهد العليا ، ١٠٥ طلاب من القسم الثانوي والجامعات يضاف اليهم اعضاء اللجنة التحضيرية .

تولى مدير هيئة السكرتارية عبد المجيد شديد مدير مكتب المشرف العام كمال حسين .

الميثاق .. والاتحاد الاشتراكي

قدم جمال عبد الناصر الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية وثيقتين

... الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي العربي .

وكان جمال عبد الناصر قد طلب الى عدد من زملائه اعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين اعداد مشروع للميثاق حسب ما يتصورون ... واجتهد بعضهم في صياغة افكاره وتقديمها اليه مثل عبداللطيف البغدادي كما قال لي .

وقد جمع جمال عبد الناصر هذه المشاريع واضاف اليها افكاره ومناقشات اللجنة التحضيرية وعكف على دراستها وتبويبها وعهد الى محمد حسنين هيكل بصياغتها في الصورة التي عرفت باسم (الميثاق) وقدمت للمؤتمر .

كان الميثاق اول دليل عمل مكتوب تستند اليه الفئة الحاكمة في توضيح موقفها السياسي والاجتماعي ... والمناقشات التي دارت حوله في المؤتمر كانت مطلقة السراح وانتهت الامور الى تشكيل لجنة من مائة عضو تولت اعداد الرد على مشروع الميثاق .

اختارت اللجنة الدكتور حسين خلاف مقررا للجنة صياغة الرد ولكن كمال الدين حسين تدخل وفرض الدكتور سليمان حزين رئيسا للجنة الصياغة .

وحرص كمال الدين حسين وصلاح دسوقي على الجلوس مع مجموعات من اعضاء اللجنة لمناقشتهم عن رد فعل الميثاق في نفوسهم بعد قراءة عبد الناصر له ... واستدعى بعض اعضاء اللجنة ايضا الى استراحة الهرم لمناقشة تقرير اللجنة كما ذكر لي احمد بهاء الدين .

دارت مناقشات اللجنة في فرعيات مختلفة ، واعترض الدكتور محمد لبيب شقير والدكتور رمزي استينو عضوا اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي فيما بعد على فقرتين هما الاشتراكية العلمية والنقد الذاتي .

وجاء تقرير اللجنة متخلفا عن الميثاق ... لم يقرن لفظة العلمية بالاشتراكية التي اطلق عليها اسم (الاشتراكية العربية) رغم عدم ورود ذلك في الميثاق .

وتقول بعض فقرات التقرير :

(في مجتمعنا الاشتراكي يعتبر العمل اساسا لتقرير مكان الفرد في المجتمع وما دام الافراد لا بد وان يتفاوتوا في الاستعداد والنشاط فان النتيجة المنطقية لذلك ان يتفاوتوا فيما يحققون من نتائج) .

يوحي ذلك باتاحة الفرصة لنشاط الفرد في الاستثمار والربح .

ويقول التقرير ايضا :
(ان تذويب الفوارق بين الطبقات هو البديل السلمي لما نرفض الاخذ به من الصدام الدموي بين الطبقات) .
وكان ذلك ابتعادا عما ورد في الميثاق من القول بضرورة ازالة الطبقة المستغلة (ولكن ازالة هذا التصادم بازالة الطبقة التي فرضت الاستغلال توفر امكانية السعي الى تذويب الفوارق بين الطبقات سلميا) .
وفي كلمات .. جدد التقرير سمات الاشتراكية العربية بهذه الكلمات (انتهى التطبيق الاشتراكي في بلادنا الى اقامة اشتراكية عربية متميزة فهي تؤمن بالله وبرسالاته وبالقيم الدينية والخلقية) .
المحاولة مستمرة للفصل بين حق الانسان في الاشتراكية وبين حرية اختياره للرسالة الدينية التي يؤمن بها .
تقرير اللجنة يعرض على المؤتمر ولكنه لا يناقش ... اقتراح من ٥٥٠ عضوا بقبوله دون مناقشة وكان ذلك ايذانا بقبول الميثاق ... واعلانا عن وجود خلاف فكري بين جمال عبد الناصر من جهة وكمال الدين حسين الذي احتضن مشروع لجنة المائة من جهة اخرى .
وقف الامينان العامان والاعضاء جميعا عند قراءة كلمات اعلان الميثاق .
وجاءت الوثيقة الثانية ... قانون الاتحاد الاشتراكي العربي ... الاسم الجديد للتنظيم السياسي بدلا من الاتحاد القومي .

فوض المؤتمر جمال عبد الناصر في تشكيل لجنة تنفيذية عليا مؤقتة للاتحاد الاشتراكي تقوم باعداد القرارات واتخاذ الخطوات لتكوين مؤتمرات الاتحاد الاشتراكي ولجانه التنفيذية ... ولكنه لم يصدر قرار بتشكيلها .
وكان اول قرار هو تشكيل امانة عامة للاتحاد الاشتراكي العربي من انور السادات وحسين الشافعي وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وعلي صبري والدكتور نور الدين طراف والمهندس احمد عبده الشرباصي وكمال الدين رفعت وعباس رضوان والدكتور محمد عبد القادر حاتم ومحمد طلعت خيري وانور سلامة .
ولكن عقب زيارة جمال عبد الناصر لبور سعيد يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٦٢ جمع اللجنة العامة وقال انه اثناء هذه الزيارة شاهد الشعب كله يخرج مرحبا ، واثقلت هذه الصورة صدره وجعلته يتساءل عمن يختار للاتحاد الاشتراكي وعمن يترك .
وقال لهم جمال عبد الناصر (اني اطرح هذه القضية عليكم واريد

سماع راي كل واحد منكم) .

كان يجبر كل واحد من الحاضرين على الكلام حتى ولو لم يكن عنده راي جديد .

واستمرت المناقشة ثلاث جلسات متصلة ، وانتهت الى الغاء مبدأ الاختيار للتنظيم والاكتفاء بالاستبعاد .

فتحت الابواب لدخول التنظيم في اول يناير ١٩٦٣ وبلغ عدد الذين قيدوا انفسهم ٤ر٨٨٥ر٩٣٢ شخصا في ٢٠ يوما ... وكان هذا دافعا الى ترجيح وتأكيد الرأي بالاستبعاد دون الاختيار .

وصدرت كشوف الاستبعاد لمن سبق ان اعتقلوا او حددت اقامتهم او اممت لهم اموال تزيد على عشرة آلاف جنيه ، او ادانت التقارير سلوكهم ... وكان معنى ذلك استبعاد كل افراد القـــوى السياسية القديمة ، والاخوان المسلمين والشيوعيين ، والاقتصار على الذين بدأت اهتماماتهم السياسية بعد الثورة .

ثم استثنت اللجنة التنفيذية العليا من هذه الاسماء سبع فئات ... الضباط الذين اشتركوا في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ واعضاء هيئات التدريس في الجامعات والمعاهد العليا والمدرسين والنظار والصحفيين والمنتمين لاجهزة الاعلام واعضاء مجالس النقابات العمالية والمهنية واعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية واعضاء المؤتمر ، ومن طبقت في شأنهم قرارات اشتراكية بما لا يزيد عن ٠٠٠ر١٠ جنيه .

ولم يعد هناك فارق كبير من الناحية التنظيمية بين الاتحاد الاشتراكي والاتحاد القومي ... تكوين التنظيم من مركز السلطة دفع الجماهير الـى الانضمام اليه بالملايين دون تفرقة بين المقتنعين بالتغيير الاجتماعي واصحاب المصلحة الحقيقية فيه ، وبين المنضمين اليه تملقا وتقربا من مراكز النفوذ .

وكما كان الاتحاد القومي خاضعا لنفوذ العسكريين كـان الاتحـاد الاشتراكي ايضا كما هو واضح في تشكيل الامانة (٩ ضباط ، ٣ مدنيين) .

ولكن الفرق مع ذلك كـان موجودا بين الاتحـاد القومـي والاتحاد الاشتراكي ... ففي الاتحاد القومي لم يكن هناك تنظيم هرمي بالمعنى المعروف ، ولم تكن هناك صلات تنظيمية ثابتة ، وكان الاعتماد سائدا على كثير من الشخصيات ذات النشاط او المركز الاجتماعي المرموق ، دون اهتمام بالتفكير السياسي .

ولكن مع الاتحاد الاشتراكي خلق حد ادنى من الانضباط التنظيمي، وصورة هيكل محدود لبناء تنظيمي .

ولا شك ان الميثاق قد اضاف للاتحاد الاشتراكي قوة دافعة فقد كان هناك مرجع يرجع اليه المسئولون في الاتحاد ، ويلتزم به اعضاء القيادات المختلفة ، رغم امكانية تباين وجهات النظر في تفسير الميثاق .

ولا شك ايضا ان القيادات التي عينت في الاتحاد الاشتراكي سواء اللجنة التنفيذية او الامانة العامة وفي المحافظات قد استفادت من الاتصال بالجماهير وخاصة العسكريين الذين استفادوا وتطوروا بالتأكيد من اللقاء مع الشعب في مواقع العمل والسكن ، وذاب من بعضهم قناع الجمود والتزمت .

وتعتبر هذه المحاولة الجادة لوضع وثيقة فكرية وتكوين تنظيم جماهيري ... خطوة ايجابية هامة تظهر ان ضباط الجيش في مركز السلطة تحت قيادة رجل توفرت لـه قدرات واخلاص عبد الناصر يمكن ان يجعلوا من تدخل الجيش في السياسة حركة تنتهي الى ثورة فعلا .

لقد وجد ولا يزال يوجد من يقفون موقف الرفض والعداء لاي نوع من انواع تدخل الجيش في الحياة السياسية ، ويعتبرون أن مثل هذا التدخل من العسكريين عمل رجعي خالص ... وهم يطلقون على هذا الاتجاه فـي امريكا اللاتينية اسم (العقلية المدنية) أي التمسك بالاساليب والمظاهر المدنية في الحكم .

ولكن البروفيسور كوسوك الاستاذ بجامعة كارل ماركس في لايبزج بالمانيا الديموقراطية يقول (يهمل انصار هذا المذهب من ممثلي الاوساط البرجوازية اليمينية عن قصد الجانب الطبقي لقضية الحكم ، ويجعلون شكل الحكم مسألة مطلقة) .

جمال عبد الناصر في محاولته لتقديم دليل عمل ثوري جديد ، واقامة تنظيم جماهيري يؤمن بالتحول الاشتراكي ... كان يغير تغييرا حقيقيا في طبيعة حكم العسكريين ، ويضرب مثلا بامكانية تواجد قادة وطنيين تقدميين يستطيعون ان يسايروا رغبات الشعب من صفوف الجيش .

وكان يحاول بهذا التنظيم ايضا خلع الثوب العسكري عـن جهاز الحكم حتى يكسب ايضا اصحاب (العقلية المدنية) ... ويبني مجتمع جمال عبد الناصر في ثياب مدنية .

ومن دلائل اهتمام جمال عبد الناصر بهذا التنظيم الوليد تعيين زكريا محيي الدين مسئولا عن محافظة القاهرة وحسن ابراهيم مسئولا عـن محافظة الاسكندرية وكمال رفعت مسئولا عن محافظة الجيزة ... وهي مراكز التجمع الرئيسية في مصر .

قال لي حسن ابراهيم انه قد شكل شبكة تنظيمية في الاسكندرية تضم افضل العناصر ـ حسب رأيه ـ وكانوا جميعا من الذين استطاع الميثاق ان يقرب وجهات النظر بينهم ... وفي ذلك يقول حسن ابراهيم انه وافق على القرارات الاشتراكية بلا تحفظ عندما عرضها جمال عبد الناصر عليه باعتبارها اجراء تأمينيا للثورة .

الجوهر الرئيسي الذي استند اليه جمال عبد الناصر في وثيقته الفكرية هي تحديد القوى الاجتماعية التي يضمها تحالف واحد وهم العمال والفلاحون والمثقفون والجنود والرأسمالية الوطنية .. وهي قوى وفئات يمكن بتحالفهما فعلا ان تعبر مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية .

وخارج هذا التحالف بقيت العناصر الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة التي طبقت عليها القرارات الاشتراكية ... وكان هذا الاجراء كفيلا ـ الى حد ما ـ بابعاد الرجعية عن المشاركة الايجابية في الحياة السياسية ... ولكنه لم يكن كافيا لان تلعب الطبقات والفئات المشتركة في التحالف دورها القيادي الطبيعي .

والدستور المصري المؤقت الصادر في ٢٥ مايو ١٩٦٤ نص لاول مرة في تاريخ الدساتير المصرية على ان (الجمهورية العربية المتحدة دولة ديموقراطية تقوم على تحالف قوى الشعب العامل) كما سجلت المادة التاسعة منه (ان النظام الاقتصادي للدولة هو النظام الاشتراكي) .

وهكذا تحدد اتجاه النظام ... لبناء مجتمع جديد .

الفصل الثامن

في كواليس القيـادة

(كانت كواليس القيــادة مليئة بالتناقضات
والخلافات الشخصية ، ولكنها كانت محجوبة
عن الجماهير بستار كثيف)

شكل نظام الحكم تغييرا ايضا بعد صدور الميثاق ... صدر اعــلان دستوري في ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ بتشكيل مجلس رئاسة من جمال عبد الناصر رئيسا وعضوية عبد اللطيف البغدادي وعبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وكمال الدين حسين نواب رئيس الجمهورية وانور السادات وحسن أبراهيم وعلي صبري (رئيس المجلس التنفيذي) والدكتور نور الدين طراف والمهندس احمد عبده الشرباصي وكمال الدين رفعت (عشرة عسكريين ومدنيان) .

كانت هذه الخطوة تغييرا واضحا في اسلوب الحكم ونقطة تحول بارزة في اتجاه جمال عبد الناصر فقد تولى رئاسة المجلس التنفيذي أي مجلس الوزراء علي صبري وهو ضابط من خارج مجلس قيادة الثورة كان يعمل مديرا لمكتبه لمدة سنوات طويلة بدلا من كمال الدين حسين وكانت هذه علامة واضحة على رغبته في تركيز الحكم بين يديه .

عين حسين الشافعي امينا للاتحاد الاشتراكي ، وانتهت بنهاية الاتحاد القومي مسئولية كمال الدين حسين في التنظيم السياسي ايضا .

وفي بداية هذا العام ... فبراير ١٩٦٢ فقد مجلس قيادة الثورة عضوا بارزا من اعضائه ... صلاح سالم رئيس مجلس ادارة دار التحرير، الذي كان قد اعتنق الافكار الاشتراكية ، وخاصة بعـد زيارته للاتحـاد السوفييتي ومقابلته لخروشوف في نوفمبر ١٩٥٩ ، وهي الزيارة التي صحبته فيها ونشر بعدها حديثه الشهير ...

مات صلاح سالم بعد مرض عضال تعذب فيه كثيرا ، وعلى فراش الموت قال لجمال عبد الناصر الذي كان يواظب على زيارته بمستشفى القوات

الجوية بالعباسية انه قد تأثر بالافكار الماركسية وذلك حسب رواية خالد محيي الدين الذي كان قد أنشأ معه هو ومجدي حسنين – والاثنان كانا قد اصبحا عضوين في المجلس المصري للسلام – علاقة وثيقة شاركهما فيها بعض كتاب الجمهورية مثل الدكتور محمد مندور والدكتور لويس عوض .

كانت جنازة صلاح سالم شعبية لم تشهد لها القاهرة مثيلا حتى ذلك الوقت واختلط فيها الوزراء والمسؤولون مع بسطاء الناس .

تشكيل مجلس الرئاسة تم من الاعضاء غير المستقيلين او المبعدين الذين كانوا يمارسون اعمالا ادارية او تنفيذية – ٨ اعضاء من ١٣ عضوا هم اصل مجلس القيادة الذين كانوا يمارسون اعمالا ادارية وتنفيذية .

كان مجلس الرئاسة محاولة للقيادة الجماعية بعد انفصال سوريا – على حد تعبير جمال عبد الناصر .

يقول زكريا محيي الدين ان المجلس في جلساته الاولى بدأ البحث في اختصاصاته .. .وبدأ البحث ايضا في الحد من سلطات المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة بالنسبة للنواحي العسكرية بعد تجربة ١٩٥٦ ، وبعد ما حدث في الانفصال عندما كان موجودا في دمشق ومعه سلطات رئيس الجمهورية ومع ذلك وقع الانفصال من ضباط في مكتبه ، وهو هناك عاجز عن التصرف او تغيير دفة الانفصاليين رغم تطعيمه لمعظم المراكز الحساسة بضباط مصريين من المقربين اليه كما سيأتي تفصيلا فيما بعد .

ويقول عبداللطيف البغدادي ان جمال عبد الناصر هو الذي اعد قرار تحديد اختصاصات المشير عبد الحكيم عامر بما يجعل سلطة تعيين قادة الوحدات في القوات المسلحة من مسئولية مجلس الرئاسة وليس مسئولية المشير .

اعد جمال عبد الناصر المشروع ولكنه لم يحضر الجلسة التي تولى رئاستها عبد اللطيف البغدادي بحكم منصبه واقدميته ... وعندما عرض المشروع طلب المشير عامر تأجيل نظره وايده في ذلك كمال الدين حسين فقط الذي كان قد بدأ يقترب من دائرة الظل ، ويبتعد عن مناصبه التي شملت في وقت واحد (رئيس المجلس التنفيذي ، والمشرف العام على الاتحاد القومي ، ووزير الادارة المحلية ، ورئيس المجلس الاعلى للعلوم ، ورئيس المجلس الاعلى للفنون والاداب ، ورئيس المجلس القومي للبحوث ، ونقيب المعلمين ، ورئيس المجلس الاعلى للجامعات ، ورئيس المعاهد القومية) (تسعة مناصب في وقت واحد) .

الاغلبية وافقت على القرار واصدرته ... وخرج المشير عبد الحكيم

عامر غاضبا من الاجتماع ... كتب استقالته وسافر الى مرسي مطروح دون ان يبلغ احدا من زملائه .

كانت استقالة المشير عبد الحكيم عامر تطالب بتكوين حزبين مع اعطاء الحرية للصحافة وللجماهير .

وكان مضمون الاستقالة متناقضا مع موافقة المشير الكاملة على الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي وعدم ابدائه اية معارضة اثناء المناقشة سواء في جلسات عبد الناصر الخاصة او في الجلسات العامة .

هزت الاستقالة جمال عبد الناصر فلم يكن يتوقع من عبد الحكيم عامر ان يتصرف بمثل هذا التصرف ، خاصة وان قادة القوات البرية والبحرية والجوية وبعض كبار القادة قدموا استقالاتهم ايضا .

وكان جمال عبد الناصر حريصا على تماسك الجيش وعدم حدوث أي اهتزاز فيه ... فقدر موقفه بين قبول الاستقالة ومعالجة أمور الجيش على اسس جديدة تماما ، او رفض الاستقالة والاحتفاظ بعامر مع احتمال ما يسببه ذلك من جفاء مع اعضاء مجلس الرئاسة ، وخاصة عبد اللطيف البغدادي .

واختار جمال عبد الناصر الحل الثاني ، وقرر رفض الاستقالة .

وبعد بحث طويل عنه اتصل به شمس بدران وصلاح نصر وعباس رضوان عند محافظ مرسي مطروح فؤاد الهداوي ... ونزل المشير الى القاهرة استجابة لرغبة جمال عبد الناصر ، بعد أن وضح له ان استقالة عبد الحكيم عامر قد اهاجت عددا كبيرا من قادة القوات المسلحة القربين من المشير ، وانهم اجتمعوا في القيادة واصروا على عودته الى موقعه .

وكان مجلس الرئاسة قد اتخذ قرارا بعزل قائد القوات الجوية الفريق محمد صدقي محمود الذي سبق ان تقرر اخراجه عام ١٩٦١ نتيجة تأخره في ارسال امدادات لقوات اللاذقية التي ظلت تقاوم الانفصال حتى المغرب، وعندما وصل الفوج الاول كانت المقاومة قد توقفت واعتقل الهابطون بالمظلات .

واعترض المشير على ذلك للمرة الثانية ... وبدا امام قادة القوات المسلحة بمظهر المدافع عنهم .

وقد حدث خلاف ايضا بين عبد الناصر وعامر حول عودة بعض قيادات الجيش في سوريا للعمل في مصر ... اعترض عبد الناصر على عودة اللواء انور القاضي رئيس اركان حرب الجيش السوري واللواء احمد زكي عبد

الحميد رئيس هيئة التنظيم والادارة والعميد احمد علوي كاتم الاسرار والعقيد محمد استامبولي مدير المخابرات ... وبقي هؤلاء الضباط عاما كاملا بلا عمل .

وهكذا لم يجد جمال عبد الناصر فرصة لتنفيذ القرار الذي اعده بنفسه ... ولم يجد مجلس الرئاسة ايضا فرصة لتنفيذ القرار الـذي اصدره .

وكان الاتفاق قد تم بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر – حسبْ رواية البغدادي وحسن ابراهيم – على اخراج قادة القوات البرية والبحرية والجوية من الخدمة على ان يتم ذلك خلال فترة يتم فيها التمهيد لاصدار القرار .

ولكن القرار لم يصدر ... فقد لحقته ثورة اليمن ، فاعتبـر كـأن لـم يكـن .

وكان هذا الموقف الذي انتهى الى مصالحة بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بداية انشقاق حقيقي بينهما ... ادرك عامر انه يستمد سلطته من القوات المسلحة فوثق صلته بقادتها ، وظل يواصل العطاء لكل من يطلب ، ويقرر المنح ويقدم الخدمات ... واهلته طبيعته الشخصية لذلك حتى اكتسب حب كل المحيطين به .

وادرك جمال عبد الناصر ان القوات المسلحة لم تعد طيعة في يده كما كانت في الخمسينيات ، وان الصديق الوفي الذي عين قائدا عاما رغم انه لا يملك من مؤهلات القيادة الا الاخلاص والحب لصديقه جمال عبد الناصر قد تحول مع الزمن الى ند له يحسب حسابه ، ويخشى بأسه .

كان (الطفل المدلل) – حسب تعبير عبد الناصر لحسن ابراهيم – قد اصبحت له انياب واظافر ... ولم يعد عبد الحكيم القديم .

ولكن عبد الحكيم عامر لم يكن من المؤهلين بحكم شخصيته للقيام بانقلاب عسكري ضد جمال عبد الناصر لانه كان من المدركين ان جمال هو المخطط والمنفذ لحركة الثورة ، وقد اعفى نفسه من الدخول في مشاكل التفكير والتخطيط وترك المسئولية له طوال السنوات السابقة ، وكان مدركا ايضا ان شخصية جمال عبد الناصر قد احتلت مكانا مرموقا في نفـوس المصريين والعرب واصبح شخصية تسهم في تحريك السياسة العـالمية ويصعب الانقضاض عليها ... واخيرا فانه كان ما زال محتفظا في نفسه بعلاقات الود والصداقة القديمة لا يتصور بحكم التقاليد انـه قادر على تمزيقها .

كانت خطورة الانقلاب العسكري محدودة او معدومة من ناحية عبد الحكيم عامر ... ولكن جمال عبد الناصر ظل محتفظا بيقظته مـن القوات المسلحة ، متخذا جانب الحذر في تعامله مع عبد الحكيم عامر ، معتمدا على (الصاغ) شمس بدران.مدير مكتب المشير الذي كان قد بدأ يؤدي دورا أكبر من رتبته معتمدا على منصبه وثقة المشير بـه ، ومعرفته لطبيعته التي تتجنب المشاكل وتتحاشى الدخول في تعقيدات .. الى جانب دفع جمال عبد الناصر له شخصيا واتصاله به اتصالا مباشرا ، في محاولة لايجاد نوع من التوازن داخل القوات المسلحة .

كانت هذه هي الحالة داخل القوات المسلحة وفي مركز السلطة اثناء بناء الاتحاد الاشتراكي الامر الذي خلق تناقضا من البداية بين التنظيم العسكري (القوات المسلحة) وبين التنظيم الجماهيري الاتحاد الاشتراكي.

نص الميثاق على (ان دور القـوات المسلحة في الجمهورية العربيـة المتحدة هو ان تحمي عملية بناء المجتمع ضد الاخطار الخارجية ، كما انه يتعين عليها ان تكون مستعدة لسحق كل محاولة استعمارية رجعية تريد ان تمنع الشعب من الوصول الى آماله الكبرى) .

واجب محدد ضد الاخطار الخارجية بالحرب ... وضد الاخطـار الداخلية بالقمع للرجعية .

ويقول الميثاق ايضا (ان فعالية الجيوش الوطنية تكمن في القـوة الوطنية الاقتصادية والاجتماعية ، فان التقدم هـو المستودع العظيم الذي يمد اداة القتال باحتياجاتها المادية والبشرية التي تتمكن بها من رد التحدي واحراز النصر وتعزيزه) .

ربط الميثاق بين احتياجات الدفاع واحتياجات التنمية ويحذر من طغيان واحدة على الاخرى ، ويرى ضرورة التنسيق بينهما .

ولذا نص قانون الاتحاد الاشتراكي على عضوية افراد القوات المسلحة في الاتحاد الاشتراكي كما نص ايضا على عضوية رجال الشرطة ورجـال القضـاء .

ولكن ذلك لم ينفذ ابدا ... وظـل رجال القـوات المسلحة والشرطة والقضاء طالما هم يمارسون العمل بعيدين عن عضوية الاتحاد الاشتراكي .

الصيغة الملائمة لدخولهم في صفوف التنظيم الجماهيري السياسي الوحيد لم تتحدد مطلقا ... والرغبة الكامنة في ابعاد الجيش عن السياسة ظلت سائدة ... ومحاولة ادخال السياسة الى الجيش ظلـت تلاقـي ابوابا موصدة .

وكان نمو التناقض الخفي بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر سببا في تأجيل هذا الموضوع وعدم اثارته بطريقة جدية .

كانت القيادة العسكرية ترى ان دخول السياسة الى صفوف الجيش خطر يحسن تفاديه ... وهي حقيقة عملية طالما لا يوجد كوادر حزبية قادرة على ممارسة دور الموجهين السياسيين في الجيش وطالما لا يوجد حزب سياسي بالمعنى الحقيقي الذي يتيح تفرغ جيل من الشباب المؤمن باهدافه ، يدخل الى الكلية الحربية فيتخرج ضابطا ملتزما عسكريا وسياسيا ايضا .

غيبة الحزب السياسي كانت عاملا رئيسيا في عدم تنفيذ دخول رجال القوات المسلحة والشرطة والقضاء الى التنظيم الجماهيري .

وأدت التناقضات التي ظهرت بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ــ رغم بقائها مغلفة بالسرية وبعيدة عن التأثير في الحياة العامة ، والحديث فيها لا يكاد يتردد الا بين عدد محدود جدا ــ الى خلق تناقضات جانبية بين القوات المسلحة وبين الاتحاد الاشتراكي رغم ان قيادته كانت من العسكريين الذين خلعوا ثيابهم العسكرية .

وبقيت المشكلة الدائمة هي العلاقة بين المجموعة العسكرية الحاكمة وبين الجماهير ... واستمر التناقض قائما بين الرغبة في استمرار القبضة العسكرية تمارس سطوتها ... وبين الرغبة في اكتساب تأييد الجماهير .

كان مركز السلطة الحقيقي في الدولة في يد دائرة القيادة التي تسلل اليها العسكريون عن طريق المشير وشمس بدران مرة اخرى ، بينما ضعف موقف العسكريين الآخرين من اعضاء مجلس القيادة يوما بعد آخر حتى تلاشى تماما .

كان دور القوات المسلحة يعاود الظهور بصورة سافرة ، مثلما كانت الحال في سنوات الثورة الاولى ولكن بطريقة مختلفة ، فقد كانت معالم السلطة قد تحددت .

وبعدما كانت المباحث الجنائية العسكرية قد اختفت منذ ابعاد احمد انور عن قيادة البوليس الحربي وتتبيع وحداته لتشكيلات الجيش المختلفة، عادت مرة ثانية الى الظهور لتمارس دورا تأديبيا جديدا .

كانت المباحث الجنائية العسكرية التي يقودها حسين عرفة قد تعرضت بعد ابتعاد احمد انور شقيق زوجته الى حصار البوليس الحربي لها بأوامر من شمس بدران الذي كان قد بدأ ينمي قوات الصاعقة ويعمل في نفس الوقت على تصفية المباحث الجنائية العسكرية .

وكاد يحدث احتكاك مسلح بين القوتين قال فيه حسين عرفة ــ حسب روايته ــ (نحن نخدم جمال عبد الناصر) ورد قائد البوليس الحربي (ونحن ننفذ اوامر المشير) .

صفيت المباحث القديمة فعلا .

واذا كان احمد انور قد اصدر امرا باعتقال احسان عبد القدوس رئيس تحرير روز اليوسف في عام ١٩٥٤ دون ابلاغ جمال عبد الناصر او عبد الحكيم عامر ... فان شمس بدران قد اصدر اوامره باعتقال قائد المباحث العامة في الاسكندرية عام ١٩٦٣ لانه تجرأ على مساءلة ضابط من ضباط القوات المسلحة دون ابلاغ جمال عبد الناصر او عبد الحكيم عامر ايضا .

وكان في هذا الموقف تكرار لاسلوب قديم ، يظهر فيه جموح بعض العسكريين في السلطة واستهانتهم بالتقاليد والقوانين في غمرة اندفاعهم وحرصهم على تنفيذ ما يصدر لهم من تعليمات .

وكأنما انفلت الشيطان من عقاله ، فقد بدأت المباحث الجنائية العسكرية تمارس دورها القديم ، بتشكيل يتألف من ٣٠ ضابطا ، ٥٠٠ جندي يلبسون ثيابا مدنية ويؤدون دور المباحث العامة ، ومارس ضباطها سلطة الضبطية القضائية التي سبق ان منحت لهم ، يقودها احد اتباع شمس بدران الصاغ حسن خليل الذي تولى قيادتها بعد أزمة المشير في ١٥ نوفمبر ١٩٦٢ .

بدأ نشاط المباحث الجنائية العسكرية في مجال الحياة العامة عقب خطبة لجمال عبد الناصر في مجلس الامة اعلن فيها انه سيوجهها الى المجمعات الاستهلاكية ، وبعد ذلك توالى تدخلها في قضية حسين توفيق ومحاولته اغتيال عبد الناصر ، واعتقالات الاخوان المسلمين ، والتدخل في مؤسسات القطاع العام مثل مؤسسة المطاحن وجريدة الجمهورية وشركة سينا للمنجنيز وغيرها ، ثم حادث كمشيش ولجنة تصفية الاقطاع كما سيرد تفصيلا فيما بعد .

سلطة الديكتاتورية ... وثياب الديموقراطية :

ولم يقابل هذا الاجراء بالصمت المطبق... فقد حدثت مناقشة حامية في مجلس الامة .

وكانت عضوية الاتحاد الاشتراكي شرطا للترشيح لمجلس الامة ... ولم يكن للاتحاد حق الاعتراض على مرشح طالما هو عضو كما كان الحال في الاتحاد القومي .

كانت اول انتخابات للاتحاد الاشتراكي قد اجريت بعد عام كامل من اعلان الميثاق ... ومجلس ١٩٦٤ ترشح له في البداية ٣٥٧٠ مرشحا في ١٧٥ دائرة لانتخاب ٣٥٠ عضوا ، وهو اكبر رقم تقدم للانتخابات في تاريخ مصر ثم تعددت الانسحابات وتقدم فقط ١٧٤٨ منهم ٥١٢ عاملا ، ٤٨١ فلاحا ٢٨ سيدة .

نجح في انتخابات المجلس ٣١ ضابطا ... تولى ٥ منهم رئاسة لجان من لجان المجلس البالغ عددها ١٨ .

وظهرت في صفوف المجلس آراء معارضة ، تماما كما حدث في مجلس ١٩٥٧ عندما طلب الصاغ محمد ابو الفضل الجيزاوي من رئيس المجلس عبد اللطيف البغدادي تخصيص مكتب للمعارضة ...

كان تدخل المباحث الجنائية العسكرية يزداد وينتشر حتى وصل الى حد الاشراف على مرفق النقل العام سنة ١٩٦٤ .

واعترض بعض اعضاء مجلس الامة في جلسة ٢ ديسمبر ١٩٦٤ على تدخل الجيش في الاعمال المدنية ولو تحت شعار اصلاح الفساد .

وتأزمت الامور ، والقى علي صبري رئيس الوزراء بيانا يؤيد فيه نظرية الاستعانة بالجيش في بعض الاعمال المدنية ، وضرب مثلا لذلك بمشاركة الجيش في تنظيم العمل في منطقة بناء السد العالي ، والاسهام في تنفيذ مشروع الوادي الجديد تحت ظروف معيشية صعبة ، والقيام بأعمال البناء والتعمير في بعض المدن والقرى ... وقال ايضا ان الجيش يسهم في تصليح العربات المعطلة في مرفق النقل العام وينظم حركتها ... واختار علي صبري نموذجا بالجيش والبحرية الامريكية التي تقوم بأعمال الانشاء وخاصة في الموانيء .

ولم يقتنع بعض اعضاء المجلس بذلك لان علي صبري لم يفسر سبب استخدامه في الاعمال البوليسية ايضا ... وقال حلمي الغندور انه مع تقديره لحسم الجيش في اصلاح الخطأ الا انه لا يتصور ان يكون الملجأ الذي تلجأ اليه كلما واجهنا انحرافا ما ... وتساءل عما يمكن ان نفعله لو فسد التعليم وهل يقوم بارسال فرقة من الجيش للتدريس .

دفاع علي صبري عن تدخل الجيش في اعمال السلطة التنفيذية لم يكن نابعا من اقتناع بذلك ، وانما كان تبريرا لامر واقع لا يسهل منعه او تحاشيه ... فلم يكن في العلاقة بين علي صبري وعبد الحكيم عامر ما يمكن ان يعتبر حافزا على هذا الدفاع ـ كان عامر ينظر الى علي صبري نظرته

الى متسلل لمركز السلطة ، وقد شاركه في هذا الشعور بدرجات متفاوتة معظم اعضاء مجلس قيادة الثورة .

وبقي الاتحاد الاشتراكي هيكلا للتنظيم بعيدا عن القدرة على تحريك الجماهير او اقناعها بوجوده .

كان العسكريون في الاتحاد الاشتراكي أقل نفوذا من العسكريين في الجيش ... وكانت طبيعتهم ما زالت مسيطرة لا تتفاعل مع الجماهير في سهولة ، رغم استفادتهم من هذا الاحتكاك .

وظلت المشكلة الدائمة هي حرص المجموعة العسكرية على امتصاص النشاط العام او اسكاته ... وكانت تقع دائما في تناقض شديد بين الرغبة في اكتساب ثقة الجماهير مع اضعافها وشل فعاليتها .

معضلة بلا حل ... الحرص على سلطة الديكتاتورية والرغبة في لبس ثياب الديموقراطية .

رصيد جمال عبد الناصر الكبير خلال انتصاراته الوطنية دعم ثقة الجماهير به ، وخلق بينه وبينها اتصالا مباشرا ، أقوى من صلته بها خلال التنظيمات .

وخفيت عن الناس في هذه المرحلة الصراعات والتناقضات النامية في مركز السلطة ، والتي لم يعرف الشعب عنها شيئا سوى عودة الملابس الكاكية للظهور في غير ما اهلت له .

شخصية المشير عبد الحكيم عامر تنمو ويصبح لها نفوذ خاص تدعمه قوة الجيش .

وعلي صبري في رئاسة الوزارة تسنده قوة جمال عبد الناصر مع ١٠ وزراء عسكريين ، ١٩ مدنيين ، يطبق الخطة الخمسية الاولى ... وهي الخطة الوحيدة التي طبقت كاملة في عهد الثورة .

وحسين الشافعي في الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي ، يصرح لي في حديث نشر في مجلة روز اليوسف يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٥ قائلا :

(عندما نحمل الاتحاد الاشتراكي مسئوليات كبيرة في هذه المرحلة فاننا نتجاهل بذلك طبيعة تكوين الاتحاد انه يضم تقريبا مجموع الناخبين حوالي ٧ ملايين ... ونحن لا ندعي ان في استطاعتنا تحقيق وحدة مصلحة وارتباط وفكر على هذا المستوى الضخم) .

ويعلق على الاستثناء الذي اقرته اللجنة التنفيذية بدخول بعض الفئات دون قيد ولا شرط ، وهي الفئات السبعة التي اشرنا اليها سابقا فيقول (كانت النتيجة هي تسرب بعض المعزولين ومن صدرت ضدهم احكام

سابقة بالسجن ... واصبح من حق هؤلاء ان يقوموا بنشاط سياسي داخل صفوف الاتحاد الاشتراكي) .

الاتحاد الاشتراكي في عهد حسين الشافعي يكاد يكون صورة للاتحاد القومي ولكن بوثيقة فكرية هي الميثاق ، وبوضوح سافر في اننا نعبر مرحلة انتقال اجتماعية من الرأسمالية الى الاشتراكية .

انور السادات يرأس مجلس الامة .

ومجلس الرئاسة يتحول الى قيادة جماعية شكلية بعد التراجع عن اتخاذ القرار الذي كتبه جمال عبد الناصر للحد من سلطة المشير عامر .

يقول زكريا محيي الدين ان مجلس الرئاسة كان تشكيلا يستهدف ابعادهم عن السلطة التنفيذية الفعلية ... وانه لم يتحول ابدا الى قيادة جماعية .

استقالة كمال الدين حسين

كمال الدين حسين يعترض على بعض تصرفات حملة اليمن كما سيأتي تفصيلا فيما بعد ... ويقدم استقالتين في عام ١٩٦٢ ثم عام ١٩٦٣ ، ولكن جمال عبد الناصر يقنعه بسحبها .

لمح جمال عبد الناصر الى خلافه مع كمال الدين حسين في محادثات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق في جلسة ١٤ مارس ١٩٦٣ عندما قال ان كمالا يسأله (لماذا تحمل نفسك وحدك المسئولية ؟) ويجيب عبد الناصر مستطردا (ولكني لصالح النضال العربي على استعداد لتحمل أي تضحيات) ... وكان كمال الدين حسين حاضرا في هذه الجلسة .

كان موضوع استقالات عامر وكمال الدين حسين يشغل بال عبد الناصر ، وقد دفعه ذلك الى التلميح به في جلسات محادثات الوحدة ايضا ، محتجا على انسحاب الوزراء السوريين من العمل قائلا في جلسة ١٩ مارس ١٩٦٣ (يعني افرض النهاردة عبد الحكيم عاوز يستقيل تسول له نفسه انه يروح يتفق مع كمال حسين ومع بغدادي ومع علي صبري علشان يستقيلوا ... لا يمكن يحدث هذا اخلاقيا ... اوعى تفتكر ان أي واحد فيهم ما فكرش يستقيل مرة او اثنين ... استقالوا ، بس ما حدش ابدا في هذه العملية حولها الى مناورات سياسية ... يمكن ما حدش كان يعرف الا مني انا ... كانوا يعرفوا ان فلان استقال مني انا ... ليه احنا النهارده محافظين على وحدتنا ١١ سنة ... لان الحقيقة التعامل كان على اساس اخلاقي) .

لم يكن احد قد استقال وغادر موقعه حتى هذه الجلسة ... ولكن كمال الدين حسين بدأ يمتنع عن الذهاب الى مكتبه منذ اغسطس ١٩٦٣ حتى مارس ١٩٦٤ دون ان يعلن استقالته ودون ان يلتقي بجمال عبد الناصر ايضا .

وتصادف ان التقى الاثنان يوم ٤ مارس ١٩٦٤ في جنازة المستشار القانوني لرئاسة الجمهورية محمد فهمي السيد ، فدعاه جمال الى اجتماع حضره عبد اللطيف البغدادي وعبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وانور السادات .

واستمر الاجتماع ثمانية ساعات متصلة من موعد الجنازة الى موعد الذهاب الى سرادق العزاء ليلا .

ناقش الحاضرون موضوع اليمن ثم انتقل النقاش الى الموقف السياسي فقال كمال الدين حسين حسب روايته لي ان الميثاق له وجهين ... وجه ماركسي والوجه الآخر اسلامي عربي ... وانه يعترض على الاندفاع لتطبيق الاشتراكية معلنا ان هذا سقوط في هوة الشيوعية ...

وطالب بأن يكون تقرير لجنة الميثاق جزء لا يتجزأ من الميثاق .

حاول جمال عبد الناصر ان يوضح لكمال الدين حسين ان الاتجاه الى الاشتراكية ضرورة حتمية تفرضها مسئولية الثورة لرفع قبضة الاستغلال عن الجماهير ... ولكن كمال الدين حسين قال في اصرار ان ما ورد في الدين كفيل برفع الاستغلال .

وحاول جمال عبد الناصر ان يقنعه بأن الاشتراكية العلمية التي وردت في الميثاق ليست ضد الاسلام ... وان النبي محمد عليه الصلاة والسلام كان يقول (الناس شركاء في ثلاث ... الماء والنار والكلأ) وهي العناصر الرئيسية للحياة في ذلك الوقت .

وذكره بأن عدد المساجد قد زاد في عهد الثورة حتى كاد يتضاعف من ١١ الف مسجد الى ٢١ الف مسجد .

كما اظهر له في انه ليست هناك نية للتراجع عن الميثاق او التطبيق الاشتراكي ، حتى ولو وصل الامر الى تأميم المحلات التجارية الصغيرة .

وهنا كانت المناقشة قد بلغت ذروتها من العنف وكان كمال الدين حسين الذي سلبت منه مناصبه المتعددة قد وصل الى موقف الرفض الكامل لكل ما يدور حوله ... يشعر انه غريب عنه ، ومعتقداته التي ربطته يوما بجماعة الاخوان المسلمين قبل الثورة ، عادت فسيطرت عليه .

يقول عبد اللطيف البغدادي انه لم يحدث ان بلغت المناقشة هذه الدرجة من العنف بين اعضاء المجلس .

ويقول زكريا محيي الدين ان موقف كمال الدين حسين كان جامدا ، وعاجزا عن اقناع زملائه برأيه .

وقدم كمال الدين حسين استقالته الاخيرة قال فيها (انا لو بقيت سأفقد نفسي ، وانا لا اريد ان افقد نفسي ولا اظن ان من مصلحة وطني ان افقد نفسي) .

لم يستقل كمال الدين حسين وحده ... ولم يكن هذا هو التناقض الوحيد .

كان هناك تناقض آخر بين جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي.

خلافات حول الصناعة .

كان البغدادي مشحونا منذ البداية بالتراجع عن قرار المشير عامر الذي اتفق عليه مع جمال عبد الناصر ... وبقي البغدادي وعامر عدة سنوات لا يلتقيان من ١٩٦٢ الى ١٩٦٤ .

وعندما عرض جمال عبد الناصر على مجلس الرئاسة مشروع تأميم المطاحن ومضارب الارز ومحالج القطن اعترض عبد اللطيف البغدادي بدعوى مخالفة ذلك للميثاق ... وطالب بعرض القانون على مجلس الامة قبل صدوره ، ولكن عبد اللطيف البغدادي يقول ان القرارات الجمهورية قد صدرت بالتأميم .

كان خلاف وجهات النظر حول الصناعة والتأميم هو اكبر خلاف صادف رجال الثورة في مسيرتهم وتبلورت حوله افكارهم وتحددت مواقعهم ...

كان خلافا حول تشكيل المجتمع ، وليس حول قضية وطنية يواجهون فيها عدوا مشتركا .

كان جمال عبد الناصر مقتنعا بأنه لا سبيل للتقدم الا بمزيد من القوانين الاشتراكية ... يصدر قانون بتحديد ايجار المساكن (١) وقانون بتنظيم اجراءات الترشيح والانتخاب لعضوين من الموظفين والعمال بمجالس ادارة الشركة او المؤسسة (٢) وتحديد الحد الادنى لاجر العامل بخمسة

---

(١) قانون ٦٤ في ٣١ يناير ١٩٦٢ .
(٢) قانون ٦١٧ في ١٢ فبراير ١٩٦٢ .

وعشرين قرشا في اليوم (٣) وقانون بتحديد الحد الاقصى لمرتب رئيس مجلس الادارة بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه سنويا مع بدل تمثيل لا يتجاوز ١٠٠٪ من الاجر الاصلي ، بينما الحد الادنى لمرتب الدرجة الثانية عشرة هو ٦٠ جنيها فقط (٤) .

وهل عام ١٩٦٣ بتأميمات جديدة شملت منشآت تصدير القطن ومحالج القطن (٥) ، يحظر تملك الاجانب للاراضي الزراعية (٦) وتأميم شركة المقاولات والكراكات (احمد عبود وشركاه (٧) ، واصدار قانون التأمين والمعاشات لموظفي الدولة ومستخدميها وعمالها المدنيين ، ثم صدرت قرارات جمهورية بتأميم المطاحن (٨) وشركات مقاولات ونقل وملاحة ، ١٤ شركة ادوية مع سحب تراخيص ٤٠ مصنع ومعمل ادوية) .

وصدر قرار بقانون رقم ٧٢ في ٨ اغسطس ١٩٦٣ بتأميم ١٨ شركة كانت تخضع للقانونين ١١٨ ، ١١٩ لعام ١٩٦١ تأميما كاملا وكانت تسهم الدولة فيها بنصيب اقله ٥٠٪ ، ٧ شركات ومصانع كانت تحت الحراسة ، ٣٧ شركة جديدة وكلها تبعت للمؤسسة المصرية العامة للغزل والنسيج .

كما اممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية ٢٧ شركة كانت خاضعة للقانونين ١١٨ ، ١١٩ ، ٧ شركات تحت الحراسة ، وشركتي قطاع عام ، ٣٨ شركة جديدة .

واممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة للصناعات الكيماوية ٢٢ شركة خاضعة للقانونين ١١٨ ، ١١٩ وشركة قطاع عام لم تخضع لقوانين التأميم ، ١١ شركة جديدة :

واممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة للصناعات الهندسية ١٤ شركة خاضعة للقانونين ١١٨ ، ١١٩ وشركتي قطاع عام لم تخضعا لقوانين التأميم ، ٤ شركات تحت الحراسة ، ١١ شركة جديدة .

واممت وتبعت للمؤسسة المصرية العامة لمواد البناء والحراريات ٣ شركات تخضع للقانون ١١٨ و ١١٩ وثلاث شركات تحت الحراسة وشركتان جديدتان .

اما المؤسسة المصرية للتعدين فتبع لها ٨ شركات جديدة مؤممة .

---

(٣) قانون ١٠٢ في ٣ يونيو ١٩٦٢ .
(٤) قرار جمهوري ٣٥٤٦ في ٢٩ ديسمبر ١٩٦٢ .
(٥) قانون رقم ١٥ في ١٤ يناير ١٩٦٣ .
(٦) قانون رقم ١٥ في ١٤ يناير ١٩٦٣ .
(٧) قرار جمهوري رقم ٣٦ لسنة ١٩٦٣ .
(٨) ١٧ مطحن .

ومؤسسة التعاون الانتاجي ١١ شركة جديدة مؤممة ايضا .
ثم صدر قرار بقانون رقم ٧٣ في ٨ اغسطس ١٩٦٣ يقضي بانهاء عقود بحث واستغلال المناجم وعقود استغلال بعض المحاجر الممنوحة للقطاع الخـاص .
ثم اممت ٢٩ شركة نقل بري في ١٢ اغسطس .
واممت ١٤ شركة نقل نهري في نفس اليوم .
وهكذا اممت معظم شركات القطاع الخاص في مختلف المجالات ...
واستكملت قوانين ١٩٦٣ ما سبق ان بدأته قوانين يوليـو ١٩٦١ ...
ووضح انه لم يكن هناك شبهة تردد او تراجع في اتجاه الدولة نحو التأميم .
لم يكن عبد اللطيف البغدادي في اعماقه متحمسا لهذه التأميمات ...
ولم يكن من انصار الاندفاع في طريق التطبيق الاشتراكي بهذه الصورة ..
فهو ــ رغم موافقته على الميثاق وقوانين يوليو الاشتراكية ١٩٦١ لم يتصور ان مزيدا من الاجراءات سوف يتوالى ويحاصر حرية الاستثمار الفردي التي تنمي عند الفرد ــ حسب قوله ــ روح الاجادة والمنافسة .

ولم يكن عبد اللطيف البغدادي منفردا برأيه في ذلك .. كان عدد مـن زملائه اعضاء المجلس يشاركونه الرأي بصوت خفيض (قال لي حسن ابراهيم انه عارض تأميم محلات بنزايون وعدس وشملا بعد تأميم محلات عمر افندي وذلك لاقتناعه بنقص القدرة الكافية في ادارة هذه المحلات بنجـاح) .
قال لي زكريا محيي الدين ايضا انه كان يؤمن بأن الملكية الخاصة ضمان للحرية السياسية وان القطاع العام غير مضمون من نواحي الادارة، كما انه لا يجوز تأميم شيء الا اذا كان هناك الكادر القادر علـى ادارته ادارة جيدة .

ويستطرد زكريا محيي الدين موضحا افكاره بقوله انه كان يفضل تحديد ملكية الاسهم في الشركات للفرد والاسرة وبذا يضرب سيطرة رأس المال على الحكم .. وينهي تصويره للموقف بأن جانبا من هذه الاجراءات كان يستهدف سيطرة الحاكم على موارد الرزق او لقمة العيش ــ حسب تعبيـره .

ويعلل زكريا محيي الدين عدم اتخاذه موقف المعارضة المعلن مثل زميله عبد اللطيف البغدادي بقوله انه كان حتى ذلـك الوقت على ثقة اكيدة بقيادة جمال عبد الناصر وانه كان يتذكر قوله له دائما عـام ١٩٦٢ بأنه

يريد يدا حرة مطلقة يتصرف بعدها بارادته المتكاملة حتى يكون مسئولا عن تنفيذ برنامجه .

(ثم يقول زكريا محيي الدين انه كان مع اعطاء جمال عبد الناصر كامل المسئولية واطلاق يده بحرية كاملة .. على غير ما كان يراه عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين .

وكذلك كان باقي أعضاء مجلس القيادة المشاركين في الحكم يبلعون آراءهم الخاصة غير المتبلورة في برنامج واضح ، المتأثرة غالبا بالمحيطين بهم من ابناء الطبقات الذابلة ، او المتطلعين الى حياة البرجوازية الكبيرة الناعمة .

كان موقف جمال عبد الناصر الصلب ورؤيته الخاصة لافاق المستقبل هي الضمان الاول لاندفاع الثورة في هذا الطريق .. ويبدو انه كان مدركا ان زملاءه الذين خطوا معه خطوات الثورة الاولى قد ارهقهم جهد المسيرة في مواجهة المصاعب .. ولذا كان يزداد اعتماده على عناصر اخرى جديدة يتبناها ويرعاها .

مسئولية الصناعة مثلا تركزت في يد الدكتور عزيز صدقي الذي عقد اول اتفاقية لتمويل الصناعة المصرية مع الاتحاد السوفييتي يوم ٢٩ يناير ١٩٥٨ .

كان معظم اعضاء مجلس القيادة يتخذون موقف الجفاء من عزيز صدقي لاختلاف وجهات نظرهم التي كانت لا تشجع المزيد من سيطرة الدولة على الصناعة .

ويلاحظ ان التأميمات قد ضاعفت العبء على وزارة الصناعة ومنحت التكنوقراطيين والفنيين فرصا هائلة للترقي والوصول الى مناصب المديرين ورؤساء مجالس الادارة .

جملة الشركات المؤممة عام ١٩٦٣ بلغ ٢٩٣ شركة احتاجت جميعها الى قيادات ادارية وفنية لم تكن مهيأة من قبل لتولي هذه المسئوليات في وقت مبكر .

وللمقارنة نشير الى تقرير اتحاد الصناعات عام ١٩٥١ .

والاستثمار الصناعي كله كان ٢٫١٠٠٫٠٠٠ جنيه فقط .

عدد المديرين في مختلف الشركات كان ١٤٠٦ منهم ٣٥٪ مصريون ومن بينهم ١٨٪ يهود ٣٠٪ اوروبيون ، ١١٪ سوريون ، ٨٪ ارمن ويونانيون .

المصريون اصلا لم يتجاوزوا بذلك ١٧٪ فقط من المشتغلين بالادارة

الصناعية التي كانت رغم كل شيء محدودة .
كان التوسع الهائل في تأميم الشركات واستيلاء الدولة عليها غير مضمون بتوفر كـادر قيادي مـن الاداريين والفنيين المؤمنين بالاشتراكية والقادرين على التفـاعل مـع العاملين وادارة المؤسسات والشركات ادارة ديمقراطية .
كان عبد اللطيف البغدادي وزكريا محيي الدين ومن يفكرون باسلوبهم من الاداريين المنتشرين في اجهزة الدولة يرون ان الحل يكون في التخفيض من مسئولية الدولة وعدم التوسع في القطاع العام .. لم يفكر احد منهم في ان انجازات الدولة في ميدان الصناعة والاقتصاد لا تكمل الا بتوفير ادارة ديموقراطية لوسائل الانتاج .. وهي لا تتحقق الا باسهام الاشتراكيين الحقيقيين في جهاز الحكم .
خلال هذا الزحف نحو التأميمات وتشجيع الصناعة ، كان الشيوعيون ما زال معظمهم في المعتقلات .
يقول لينين (يستحيل التغلب على الرأسمالية دون الاستيلاء علـى المصارف ، ودون الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتـاج . يستحيل تحقيق هذه الاجراءات الثورية دون تنظيم ادارةوسائل الانتاجالمنتزعة منالبرجوازية وادارتها ادارة ديمقراطية من قبل الشعب كلـه ، دون اشـراك جمهور الكادحين البروليتاريين منهم وانصاف البروليتاريين وصغار الفلاحين في تنظيم صفوفهم وقواهم ودولتهم تنظيما ديموقراطيا) .
كان تحقيق مثل هذه المشاركة الديموقراطية في ادارة وسائل الانتاج امرا بعيدا تماما عن افكار عبد اللطيف البغدادي ومن يفكرون مثله لانه كان من انصار السلطة الفردية في ادارة الانتاج .. كما ان ظروف المجتمع في ذلك الوقت كانت لا تتيح لجمال عبد الناصر فرصة خلق ادارة ديموقراطية حقيقية لاسباب سنعرفها تفصيلا في الفصل القادم .
ومع ذلك يقول الدكتور عزيز صدقي (انه لولا جمال عبد الناصر مـا كانت هناك صناعة) .. كان المساند الوحيد لها في وقت كان اعضاء مجلس قيادة الثورة ضدها ومعهم رجال الاقتصاد ايضا .

وكانت هذه الثغرة الفكرية بين جمال عبد الناصر من جهة . وبين عدد من زملائه من جهة اخرى تعبر عن عبور الثورة لمفترق طرق حاسم .
انتقلت التناقضات في مركز القيادة من تناقضات شخصية محدودة قد تمس اسلوب الحكم الى تناقضات اجتماعية تعبر عن خلافات في الانتماء الطبقي .. ووجهات نظر متنافرة في بناء المجتمع .

وازدادت هذه الفروق وضوحا عندما تبين ان بناء الصناعة لا يمكن ان يتحقق الا عن طريق مساعدات الدول الاشتراكية ... الصناعات التي اممت لم تكن وحدها كافية لبناء قاعوة صناعية متطورة ... خطة التنمية كانت تستهدف بناء صناعات جديدة .

يقول الدكتور عزيز صدقي (ان جملة الاستثمار الاجنبي عام ١٩٦١ كانت ٦٠٠٫٠٠٠ جنيه فقط ، مما جعل فكرة التأميم والاشتراكية ضرورة حتمية للنهوض بمستوى الشعب) .

ويؤكد الدكتور عزيز صدقي بأن رأس المال الخاص المستثمر في الصناعة بعد التأميم قد زاد عما كان عليه قبل التأميم .. وان حركة رأس المال الداخلي مع ذلك لا تتجاوز ٥٠ مليون جنيه ... وهذا ما يثبت ان قدرات القطاع الخاص مهما بلغت فهي محدودة .

ثم يقول (لولا قروض الدول الاشتراكية ما امكن اقامة المصانع) .

وكان هذا الاتجاه في ذاته محل اعتراض عبد اللطيف البغدادي الذي لم يكن من المجندين لسياسة التعاون مع الدول الاشتراكية بقدر متزايد .

لم يدرك ان الدول الاشتراكية تهتدي بقول لينين الذي اعلنه قبل انتصار ثورة اكتوبر (اننا سنبذل قصارى جهدنا التقارب مع المونغوليين والايرانيين والهنود والمصريين والاندماج بهم ، ونحن نعتقد ان من واجبنا ومصلحتنا ان نفعل ذلك ، والا تكون الاشتراكية في اوروبا غير وطيدة ، وسنبذل ما في وسعنا لنقدم لهذه الشعوب المتأخرة والمظلومة اكثر منا (المساعدة الثقافية النزيهة)، أي مساعدتها علىالانتقال الىاستخدام الماكينات وتسهيل العمل على الانتقال الى الديموقراطية) — العالم الثالث طبعة موسكو ١٩٧١ .

قضية التعاون مع الاتحاد السوفييتي والدول الإشتراكية أصبحت نقطة خلاف رغم الاتفاق على صفقة السلاح وبناء السد العالي .. وذلك بعد تجاوز مرحلة الخلاف بين جمال عبد الناصر وخروشوف عام ١٩٥٩ ، واستقرار الاوضاع بين الدولتين في هدوء على اسس تعاونية جديدة .

استقالة عبد اللطيف البغدادي

ومع ذلك لا يجوز اعطاء الامور اهمية أكثر مما تستحق ... فمعظم هذه الخلافات ووجهات النظر المتنافرة ، كانت تدور في حدود دائرة ضيقة عند القمة ، ولم تكن الجماهير تعرف عنها شيئا كثيرا .

لم تأخذ الخلافات صورة صراع الاحزاب القديمة التي تتبلور افكارها

من واقع طبقي محدد تفرضه صلتها بفئات معينة من الجماهير .. ولكنها كانت ذات طابع شخصي يتأثر بالصلات الخاصة والافكار الذاتية لاعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين .

لم يكن التناقض بين جمال عبد الناصر من جهة وبين عبد اللطيف البغدادي او كمال الدين حسين من جهة اخرى . يمثل خطرا على تماسك القيادة ، او يضعف من مركز عبد الناصر في القمة .

لم يكن هناك خطر من وجود هذا التناقض لان احدا من الاثنين او غيرهما من اعضاء مجلس القيادة لم يكن يملك نفوذا في القوات المسلحة منذ تولى عبد الحكيم عامر قيادتها العامة في يونيو ١٩٥٣ ، ولم يكن لاحد منهم تأثير جماهيري في وقت تركزت فيه كل الاضواء على شخصية الزعيم ، وفي وقت اقتنع به الجميع قائدا لهم يدينون له بالولاء .

ولم يكن التناقض بين جمال عبد الناصر وبينهما شبيها بالتناقض بينه وبين عبد الحكيم عامر .. ذلك ان المشير رغم كونه هو وعبد اللطيف البغدادي كانا الوحيدين من ابناء العمد اثرياء الريف نسبيا ، الا انه لم يكن صاحب فكرةنشطة يمكن ان تصطدم مع اتجاهات جمال عبد الناصر .. وكان الخلاف بينهما شخصيا في مضمونه اكثر منه مرتبطا بخلافات ايديولوجية .

اما الخلاف مع كمال الدين حسين فانه كما اوضحت كان صراعا بين اتجاه تقدمي يمثله جمال عبد الناصر واتجاه محافظ يمثله كمال الدين حسين... بدأ منذ الغاء الاتحاد القومي الذي كان كمال يخطب في اجتماعاته قائلا ان عبد الناصر شخصية موهوبة يكاد يوحى لها .. ثم اتخذ موقفه المعارض المعروف الذي اخذ يزداد حدة بعد تركه لمناصبه حتى انتهى به الامر الى الاستقالة .

كان كمال الدين حسين يقف عند فكرة ثابتة وجامدة يقول بأن كل اتجاه للتحول الاشتراكي هو ماركسية شيوعية يجب مقاومتها .. وبهذا المفهوم رفع شعار المعارضة لكل ما يتم في مصر ، وحمل معولا يحاول به تحطيم زعامة جمال عبد الناصر التي أسهم في خلقها :

لم يهدأ كمال الدين حسين بعد استقالته ، وانما حمل لواء المعارضة في الاوساط التي يتحرك فيها ، وكتب خطابا الى جمال عبد الناصر يحتج فيه على اعتقال الاخوان المسلمين الامر الذي انتهى الى تحديد اقامته يوم ١٥ اكتوبر ٦٥ في احدى الفيللات بمنطقة اهرامات الجيزة ، وظلت اقامته محددة تحت الحراسة حتى توفيت زوجته التي كانت تقيم معه فجأة بعد

ثلاثة اشهر وعندما خرج لتشييع جنازتها اطلق سراحه ولم يعد الى مكان تحديد اقامته .
ولكن الخلاف بين جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادي كان ذو طبيعة ثالثة .. فعبد اللطيف البغدادي رغم انه من ابناء برجوازية الريف ، ورغم انه كان على صلة تنظيمية مع الاخوان المسلمين وبعض الجماعات الارهابية او الفاشية قبل الثورة (جماعة اليد السوداء ـ عبد العزيز علي ـ وجيش التحرير ـ فوزي القاوقجي ـ) الا انه حضاري النزعة يؤمن بالديموقراطية الليبرالية ، وحاول أن يجعل من فترة رئاسة مجلس الامة محاولة لخلق تجربة ديموقراطية في اطار الثورة .
ولم تكن الخلافات التي نشبت بين البغدادي وعزيز صدقي موقفا منه ضد الصناعة ، ولكنه كان موقفا ضد ما يراه اندفاعا غير مخطط من وجهة نظره .. ولم يكن البغدادي مقتنعا بالتوسع في التأميمات التي تصل المشاريع الخاسرة ، بالاضافة الى رغبته في دعم اجهزة التخطيط التي سبق له ان تولى وزارتها حتى لا تنفرد الصناعة وحدها في مجال العمل .
ولا يعني هذا ان عبد اللطيف البغدادي كان اشتراكيا علميا يختلف فقط في اجراءات التطبيق ولكنه كان من المؤمنين بامكانية تطور المجتمع في طريق رأسمالي مع اتخاذ بعض اجراءات اشتراكية .. ولكنه لم يعلن عن اتخاذ موقف معارض صريح لمبادىء الميثاق او لاجراءات التأميم سواء عام ١٩٦١ او ١٩٦٣ .
تركز الخلاف بينه وبين عبد الناصر حول مشروعية تأميم المطاحن ومضارب الارز ومحالج القطن بقرارات جمهورية دون عرض الامر على مجلس الامة كما ذكرت .
ووصل الامر غايته وشعر عبد اللطيف البغدادي ان دور مجلس الرئاسة قد اصبح شكليا وانه لا يسهم في صنع سياسة الدولة ولم يجد سبيلا الا بتقديم استقالته .
ولم تكن هذه هي استقالته الاولى ، ولكنها كانت الاخيرة .
سبق ان قدم عبد اللطيف البغدادي استقالة اولى عام ١٩٥٤ خلال ازمة مارس عندما رفض الموافقة على عودة محمد نجيب وكان قد سبق له عدم الموافقة على خروجه ايضاً .
وقدم استقالته ثانية في ٢٤ أغسطس ١٩٥٨ عندما تلقى خطابا دوريا من جمال عبد الناصر ينبه اعضاء مجلس الثورة لعدم الدعاية في الصحف .. ولكن جمال عبد الناصر ارسل له وفدا من زكريا محيي الدين وكمال الدين

حسين وحسين الشافعي وانور السادات اقنعوه بالعودة حيث عاد يوم ٢٩ اكتوبر ١٩٥٨ .

وبعد استقالته الثالثة وقبل نشرها وضع شقيقه سعد البغدادي تحت الحراسة لامور لو صحت لاساءت اليه .. وضاعت في غمرة اخبار وضع شقيقه تحت الحراسة ، تساؤلات الناس عن اسباب الاستقالة .

نقد القطاع العام

ولم يكن موقف جمال عبد الناصر في موضوع التأميمات وبناء الصناعة متحيزا للدول الاشتراكية .. بل كان موقفا مصريا تمليه الظروف الموضوعية القائمة .

جمال عبد الناصر وافق على ان تختفي من قوائم التأميم شركات البترول او صرح بتكوين ثلاث شركات ادوية برأس مال اجنبي غربي ٦٠٪ ورأس مال خاص ٤٠٪ .

ويقول الدكتور عزيز صدقي انه وافق على ذلك تحت ادراك حقيقة ان هاتين الصناعيتين تحتاجان الى اموال هائلة للبحث لا تتوفر في ميزانية الدول النامية .. شركة فايزر للادوية كانت تصرف وقتها ٢٠ مليون جنيه سنويا للابحاث ، والبترول كان كامنا تحت ارضنا لا يجد من يدفع به الى السطح ، لخشية الشركات العالمية من قوانين التأميم .. الى ان توصل الدكتور عزيز صدقي عام ١٩٦٣ الى اتفاقية مع الحكومة الامريكية تنص على ان (الاستثمار الذي يتم في مصر تضمنه الحكومة الامريكية) .

عارض جمال عبد الناصر الاتفاقية اولا — كما يقول الدكتور عزيز صدقي — ثم اقتنع بها بعد مناقشة دارت حول اهمية استخراج البترول لبناء اقتصادنا القومي .

وبريجنيف ايضا سأل الدكتور عزيز صدقي عن سبب اعطاء الامتيازات البترولية لامريكا ، وهي باب عريض تدخل منه لارض مصر .

وكان رد الدكتور عزيز صدقي ان ذلك ناتج من عدم توفر راس المال المصري للبحث ، ذلك الى جانب وجود شركة وطنية في اكثر المناطق احتمالا لوجود البترول .

ولم يقتصر اعطاء الامتيازات البترولية للدول الغربية فقط .. تعاقدت وزارة الصناعة مع الاتحاد السوفيتي على القيام بعمليات التنقيب عن البترول في منطقة سيوة بالصحراء الغربية ، بشروط تختلف عن شروط الشركات الامريكية .. اذ يتم ذلك في صورة قروض تصرف على البحث حتى

اذا تم العثور على البترول انسحبت الخبرة السوفيتية تماما ولم يعد لها أي نوع من المشاركة في الانتاج الا بقدر ما دفعته من اموال في البحث .

اما الشركات الامريكية فانها تتقاسم مع الحكومة المصرية نصف الاموال التي صرفت في البحث ثم تستمر في الحصول على ٢٥٪ من الانتاج الى ان ينضب .

وخلال هذه الفترة التي بدأت فيها مسيرة الصناعة في مصر ، تعرضت افكار التخطيط لبعض الاخطاء فأقيمت مصانع في اماكن لا تتوفر فيها المواد الخام مثل مصانع اللبن ، واقيمت مصانع تعرضت للفشل مثل الترانزستور .

وانبرت مجلة روز اليوسف في عامي ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ توجه حملات نقد عنيفة لبعض الشركات والمؤسسات .

كنت رئيس تحريرها خلال هذه الفترة ، وكان حرصي شديدا على ان يكون القطاع العام صورة مضيئة للجماهير حتى يكون واجهة طيبة للاشتراكية .

كان النقد ينبعث من موقف الحرص على مساندة القطاع العام .. وليس من موقف الرغبة في الهدم والعودة الى الوراء .. الى سيطرة راس المال الخاص .

قال جمال عبد الناصر في مؤتمر المبعوثين بعد ذلك وهو يتحدث عن حرية الصحافة (الجرائد تنقد .. مثلا روز اليوسف لها نقد مر جدا للقطاع العام ، أي حاجة بتنتشر عن القطاع العام بيحصل فيها تحقيق ونتحرى لمعرفة هل هذا صحيح ام لا) .

كان هذا صحيحا فقد اكتشفت المباحث الجنائية العسكرية في حملاتها على القطاع العام صدق ما نشرناه عن تزوير الميزانيات في شركة سينا للمنجنيز وغيرها .

ويخطىء من يتصور ان الصناعة يمكن أن تستقر بغير اخطاء او بعيدا عن الانحرافات .. حتى مع احمد عبود تعرضت لذلك ، فقد وضع مبلغ مليون جنيه في منجم كبريت لا يوجد فيه كبريت، وكان ذلك بناء على نصيحة من شركة امريكية .

الدولة تقود عملية التنمية .. بعد ان اصبحت معظم الشركات مؤممة .

الدخل المتولد في الصناعة .. حجر الزاوية في تطوير اقتصادنا القومي ارتفع خلال الخطة الخمسية الاولى من ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥ من حوالي

٢٥٦ مليون الى ٣٨٥ مليون بنسبة تزيد عن ٥٠٪ بمعدل ارتفاع ١٠٪ سنويا كما وردت في كتاب (سنوات التحول الاشتراكي) لعلي صبري .

صراع في مراكز القمة

بعد استقالة كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي اتخذ جمال عبد الناصر قرارا بتعيين المشير عبد الحكيم عامر نائبا اول لرئيس الجمهورية وتعيين زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وحسن ابراهيم نوابا لرئيس الجمهورية يوم ٢٥ مارس ١٩٦٤ .. وسقطت اسماء المستقيلين بلا تعليق ، ولم يعد باقيا من مجلس قيادة الثورة الى جانب عبد الناصر سوى هؤلاء وانور السادات .. اقلية المجلس ٦ من ١٣ هي التي بقيت بعد ٨ سنوات من العمل المشترك .

وصدر قرار جمهوري ايضا في نفس اليوم بتعيين علي صبري رئيسا للوزراء ووزيرا للتخطيط بدلا من رئاسة المجلس التنفيذي ، وضم الى وزارته من اعضاء مجلس الرئاسة كلا من الدكتور نور الدين طراف والمهندس احمد عبده الشرباصي وكمال رفعت نوابا لرئيس الوزراء .

وهكذا انتهت قصة مجلس الرئاسة وقصة القيادة الجماعية.. وارتقى وضع المشير عامر ليصبح الشخصية الثانية من الوجهة العملية والرسمية ايضا ... كما ثبت ايضا وضع علي صبري في أقوى موقع تنفيذي .

ليس هذا فقط .. بل ان المشير عامر والمحيطين به من قادة القوات المسلحة كانوا يتصرفون احيانا وكأنهم وحدهم في الساحة لا يقيمون وزنا كبيرا للوزارة .

كثير من التعيينات الكبرى في الاجهزة الادارية والتنفيذية كانت تتم بترشيح من عامر .. وكثير من الذين مستهم تحقيقات الرقابة اداريا احتفظوا بمناصبهم لانهم كانوا مساندين بقوة المشير .

كان عبد الحكيم عامر قد قرر السير في طريق المتعة الشخصية بعد انتصاره في العودة بعد الاستقالة ... وكانت المجموعة المحيطة به كفيلة بالاساءة اليه وتهيئة كل وسائل اللهو والانحلال له .

وكان امرا معروفا ومتداولا ما يتم في هذا الجو من تدخين واتصال ببعض الفنانات وبذخ يصل الى حد السفه ... ولعب الدور الرئيسي في ذلك سكرتير المشير علي شفيق صفوت .

وكان هناك خلاف واضح بين شمس بدران وعلي شفيق حاول المشير ان يمنعه عبثا حتى عين الاول مديرا للشئون العامة والثاني سكرتيرا خاصا

.. ولكن ذلك لم يقض على التناقضات المتزايدة .

ولم تلبث اجهزة المباحث الجنائية العسكرية ان اكتشفت اثناء تتبعها لبعض الذين يتاجرون بأجهزة وآلات يحضرونها من اليمن .. اكتشفت ان اثنين من اعضاء مكتب المشير قد هربا عدة صناديق من دخان التمباك للمتاجرة فيها ــ حسب رواية الصاغ حسن خليل الذي رفع مذكرة الى الصاغ شمس بدران .

وعندما عرض الامر على المشير اصدر تعليماته بالتحقيق ... وآثر شمس بدران الابتعاد عن التحقيق الذي قام به الصاغ حسن خليل، والذي اكتشف فيه ان هناك عصابة في ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة تصدر أذونات صرف وهمية تستولي عليها ، وانها مرتبطة بعصابة اخرى في مكتب المشير يرأسها الصاغ عبد المنعم ابو زيد .

قدم المتهمون للمحكمة ولـم يحطهـم المشير بحمايته .. واصدرت المحكمة العسكرية التي رأسها اللواء محمد احمد صادق (وزيـر الحربية فيما بعد) احكامها بالسجن على عدد من اعضاء المكتب .

وانتهى الامر بعد كشف هذه الفضائح الى احالة علي شفيق صفوت الى المعاش في نهاية عام ١٩٦٦ .

الغريب ان المشير تزوج من برلنتي عبد الحميد وعلي شفيق تزوج من مها صبري ، وعبد المنعم ابو زيد من سهير فخري وهـن جميعا مـن الفنانات .

والغريب ايضا هو صدور القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٦ الذي قضى بجعل الاختصاص للنيابة والقضاء العسكري في كافة الجرائم التي ترتكب من العسكريين بسبب تأدية وظيفتهم او حتى في الجرائم الخارجة عن نطاق اعمال وظائفهم اذا انفردوا بالاتهام فيها دون اشخاص مدنيين .

وكان ذلك يعني وضع الجيش في وضع خاص فوق الطبقات الاخرى وحصر دائرة الاتهام في يد القيادة .

كان المستهدف من ذلك على حد قول احد المسئولين في القضـــاء العسكري عدم نشر الغسيل الوسخ امام الناس .

اما الحقيقة فكانت اعطاء حقوق شكليا مع سيطرة فعلية مـن اعلى

ولكن هذا التسيب والانحلال كان محاطا بجدار من الصمت والعزلة ولم يؤثر على سمعة المشير او نفوذه في القوات المسلحة .

وحرص لذلك جمال عبد الناصر على الا يناطح عامر في شئون القوات المسلحة الداخلية ... ترك له الانفراد بها معتمدا على وجود شمس بدران الشخصية التي اختارها لتكون ذات نفوذ وقريبة منه ... كما حرص ايضا على اخفاء الخلاف القائم بينه وبين المشير وحصره في أضيق نطاق ممكن معتمدا على ان عامر ليست له طاقة جادة على العمل ، وان نشر هذه الاخبار يضعف من مركز القيادة في نظر القوات المسلحة — والجماهير ايضا .

احتفظ الاثنان من الناحية المظهرية بعلاقاتهما الطيبة ... ووقف الاثنان جنبا الى جنب في نادي ضباط القوات المسلحة بالزمالك صيف عام ١٩٦٥ وهما يستقبلان المدعوين لحفل زفاف شقيق جمال عبد الناصر وكريمة عبد الحكيم عامر .

ولم تقف التناقضات والخلافات عند حدود قمة مركز السلطة ولكنها امتدت الى الدائرة الثانية ايضا ... حيث ظهر خلاف شديد بين علي صبري والدكتور عزيز صدقي ادى الى خروجه من الوزارة وتعيينه مستشارا لرئيس الجمهورية واستبداله بالدكتور مصطفى خليل وزير النقل .

واتسعت دائرة الخلاف حتى وصلت الى حسن ابراهيم الذي كان مقررا الاستقالة مع كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي في مارس ١٩٦٤ ، ولكنه كان موجودا في الخارج ... وعندما عاد صارح جمال عبد الناصر بأنه لا يود المشاركة في المرحلة المقبلة ، ولكن جمال عبد الناصر اقنعه في اجتماع ضم زكريا محيي الدين وحسين الشافعي وانور السادات بأن يبقى معهم في الحكم نائبا لرئيس الجمهورية .

وشعر حسن ابراهيم خلال ممارسته العمل بأن علي صبري يوقع بينه وبين عبد الناصر ، فصارحه بذلك قائلا (ان البعض يقدمون لك معلومات غير صحيحة ومنهم علي صبري) .. ويقول حسن ابراهيم ان عبد الناصر قال له (هل تتصور ان علي صبري يقدر يمشيني ؟ انه لا يزيد عن سكرتيري مهما كان في اي منصب) .

ولكن الامور لم تمض بالاسلوب الذي يرتضيه حسن ابراهيم فقد شعر انه بعيد عن مركز السلطة معزول عن المشاركة الايجابية الحقيقية في صنع القرار .

ولم يجد بدا من تقديم استقالته الثالثة والاخيرة في ١٨ يناير ١٩٦٦ بعد ان طلب مقابلة جمال عبد الناصر يوم ١٣ يناير ومضت خمسة ايـام بـلا جواب .

وهكذا كانت كواليس القيادة مليئة بالتناقضات والخلافات الشخصية ولكنها كانت محجوبة عن الجماهير بستار كثيف .. وكان التعلق بشخصية جمال عبد الناصر دافعا في ذاته الى عدم اهتمام الناس بما قد يصل اليهم من همسات اقتناعا منهم بأن كل شيء يمكن اصلاحه وكل خطأ يمكن علاجه طالما جمال عبد الناصر في قمة جهاز الدولة .

الفصل التاسع

طليعـة الاشتراكيين

« ان الحاجة ماسة الـى خلق جهاز سياسي جديد داخل اطار الاتحاد الاشتراكي العربي يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ويتحسس احتياجاتها ويسـاعد علـى ايجـاد الحلـول الصحيحة لهذه الاحتياجات » .

الميثـاق

لم يكن صدور الميثاق وتكوين الاتحاد الاشتراكي العربي مفتاحا سحريا يفتح ابواب المجتمع للتحول الجديد ... ولكنه كان علامة توجيه وخطوة اولى في الطريق الجديد .. ولكن المسيرة تحتاج الى جهد شاق وطويل .

والتنظيم الجديد يتلمس طريقه تحت تأثير الاتحاد القومي .. ومعظم العاملين والاداريين من غير القيادات ظلوا في مواقعهم لا يكادون يستشعرون فرقا في التغيير .

وانتقال الاتحاد الاشتراكي الى مبنى محافظة القاهرة الجديد المطل على النيل ، لم يكن في ذاته باعثا على تغيير طبيعة الاتحاد القومي ايام كان في قصر عابدين وفي ثكنات الحرس الملكي سابقا .

وتعيين حسين الشافعي امينا للاتحاد الاشتراكي لا يعبر عن تطور في التنظيم الجديد .. فليس هناك فارق فكري بينه وبين كمال الدين حسين الامين العام للاتحاد القومي .

والجماهير ما زالت بعيدة عن استشعار ما يدور في المجتمع ... والطبقة العاملة التي تكونت مع تطور الصناعة ما زالت بعيدة عن التفاعل الحي مع النظام عن طريق الادارة الديمقراطية .. والعسكريون والتكنوقراط ما زالوا سادرين في اسلوبهم الذي لا يطبق المشاركة ويدعو للانفراد .

والاتحاد الاشتراكي خلال هذه الفترة بعيد ايضا عن امكانية التفاعل مع المؤسسات والشركات الصناعية .. العلاقات ليست واضحة .. والحساسيات من جانب المديرين قائمة .. والملاحظات من جانب العاملين في الاتحاد الاشتراكي مستمرة .

الكتاب السنوي الثاني للاتحاد الاشتراكي لا يحدد دورا لتفاعل تنظيمات الاتحاد مع اجهزة الادارة ... وخطة العمل التي صدرت عام ١٩٦٤ لا تتضمن اكثر من هذه الفترة (اما الوسائل الخاصة بكل صناعة فان التقاء النقابات العامة وممثلي الادارة مع ممثلي التخطيط قد يكون مجالا مفيدا لتحديد المشاكل العامة التي تتعرض لها الصناعة بذاتها ، ويمكن ان تعود بعض هذه المسائل الى الوحدات الانتاجية في المصنع لتناقش بوصفها مصدر المعلومات الاساسي) .

ثم تواصل التوضيح قائلة (ولكي يكون العمل الذي يتم في هذه المؤتمرات مثمرا ومفيدا يجب ان يبتعد عن أي شكل من اشكال السلطة التنفيذية ليكون تعبيرا حقيقيا لا يتصف بالحرص او المجاملة ، وبذلك تتأكد معاني الديمقراطية كسلوك وممارسة على اساس ان الادارة والتنفيذ تخلع كل منهما عن نفسها ثوب السلطة عند المناقشة) .

خطة الاتحاد الاشتراكي عامة وغامضة ... وبعيدة عن الوصول الى قلب المشكلة .

دور الاتحاد الاشتراكي ليس واضحا ... ما زال يتحرك بروتينية بعيدة عن التأثير في الجماهير .

ولكن الامور لا تركن الى جمود ... تشكلت امانة جديدة في ١٣ ديسمبر ١٩٦٤ من ٢١ عضوا .. من بينهم ١٣ ضابطا وقسمت الى ١٥ امانة فرعية وضمت الاسماء الآتية :

حسن الشافعي ، د. نور الدين طراف ، احمد عبده الشرباصي ، كمال الدين رفعت ، عباس رضوان ، خالد محيي الدين ، سيد مرعي ، طلعت خيري ، انور سلامة ، د. حسين خلاف ، شعراوي جمعه ، كمال الحناوي ، علي السيد علي ، حسين ذو الفقار صبري ، محمد فتحي الديب ،

احمد عبدالله طعيمة ، عبد الفتاح ابو الفضل ، د. عبد السلام بدوي ، عبد المجيد شديد ـ د. ابراهيم سعد الدين ، د. رشدي سعيد .

خرج من الامانة السابقة انور السادات رئيس مجلس الامة ، وعلي صبري رئيس الوزراء ، وكمال الدين حسين المستقيل ، وحسن ابراهيم ، والدكتور محمد عبد القادر حاتم .

جميع الخارجين من الضباط ... والبعض منهم يقترب من دائرة الظل. ودخل اليها للمرة الاولى بعض اليساريين وكان هذا في ذاته انعطافا جديدا في مسار الثورة ... خالد محيي الدين الذي كان يتولى في ذلك الوقت رئاسة مؤسسة اخبار اليوم . لامانة شئون الصحافة والدكتور ابراهيم سعد الدين الذي فوجيء بتعيينه عضوا في الامانة العامة رغم انه كان معزولا سياسيا ، ولو انه كان عضوا عاملا بصفحة الرأي في جريدة الاهـرام .

تولى ابراهيم سعد الدين امانة المعهد العالي للدراسات الاشتراكية التي انفصلت عن امانة الدعوة والفكر التي كان يتولى شئونها كمال الدين رفعت والتي كانت تصدر نشرة (الاشتراكي) تضم عددا مـن المقـالات والاقتراحات ذات المضمون التقدمي .

ظهرت اسماء جديدة في مجال العمل السياسي ... شعراوي جمعه الذي كان محافظا للسويس واهتم خلال وجوده هناك بالعمل السياسي والثقافي فانشأ مركزا للدراسات الاشتراكية استعان فيه ببعض المثقفين اليساريين من القاهرة ، كما انشأ فرقة مسرحية للسويس تولى ادارتها ماركسي سابق هو يوسف غزولي خريج كلية العلوم والمهندس بشركات البترول في المدينة ... وكمال الدين الحناوي الذي عاد الى الصحافة رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير .

تغيير الامانة وتقسيمها الى امانات فرعية كان خطوة الى الامام ... ولكنها لم تكن خطوة كافية لانطلاق الجهاز الضخم الذي يضم عدة ملايين . واجتماعات الامانة تحددت الى نوعين :

الاول ... يحضره جمال عبد الناصر ويعطي فيه توجيهات وللحاضرين حق السؤال ... وكان منتظما في الحضور والمشاركة .

الثاني ... اجتماعات تعقد تحت رئاسة حسين الشافعي لتنفيذ توجيهات جمال عبد الناصر وتميزت هذه الاجتماعات حسب رأي الدكتور

ابراهيم سعد الدين بأن المناقشات فيها كانت اكثر انفتاحا وان بعض الآراء كانت احيانا تتعارض او تتنافر مع رأي عبد الناصر .

الامانة لم تكن تصدر أي نوع من القرارات .

كانت تثار بعض الاسئلة ، وجمال عبد الناصر يجيب ثـم ينفض الاجتمـاع .

تخلف عبد الناصر في احد الاجتماعات عن الحضور ، وانـاب عنـه عبد الحكيم عامر ففتح الاجتماع بقوله (نتكلم في أي حاجة على ما قسم) .

عدم انضباط الاجتماعات بجدول اعمال ومناقشة مفتوحة وقرارات مكتوبة كان ظاهرة في اعمال الامانة ورغم الاكثرية الواضحة من العسكريين المشهورين بالانضباط الا ان اجتماعاتهم كانت مفتوحة وغير منضبطة .

ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على العمل في الاتحاد الاشتراكي ولكنها كانت موجودة ايضا في مجلس الوزراء الذي قليلا ما كان يتقيد بجدول اعمال محدد ، وكثيرا ما اختل عقد جلساته في موعد محدد .

قال حسين الشافعي في حديث لي معه بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٩٦٥ (ان تمويل الاتحاد الاشتراكي لنفسه ذاتيا هو علامة صحة وايجابية) ولكن هذا لم يكن كافيا لانقاذ الاتحاد الاشتراكي من جموده وعدم فعاليته .

نادى ميشيل عفلق سكرتير حزب البعث في محادثات الوحدة بتعدد الاحزاب قائلا (تعدد الاحزاب القومية الاشتراكية هو ضمانة لحد ما للحرية السياسية) وجمال عبد الناصر يرد عليه (نحن لا نعتبر الاتحاد الاشتراكي حزبا ... لان الحزب بالطبيعة تعبير عن مصالح فئة او طبقة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية) .

ويستطرد جمال عبد الناصر مفسرا مسئولية الاتحاد بقوله في جلسة ١٩ مارس ١٩٦٣ (الاتحاد الاشتراكي تحالف لقوى الشعب العاملة ويتكون في داخله جهاز سياسي هو اصلا الكادر ، يعني الناس ذوي الفعاليات السياسية والقدرة على تحريك التفاعل الثوري) .

بداية طليعة الاشتراكيين

ويفكر جمال عبد الناصر في تطبيق ما ورد بالميثاق حـول الجهـاز السياسي من القول بأن الحاجة ماسة الى تكوينه داخـل اطـار الاتحاد الاشتراكي لتجنيد العناصر الصالحة للقيادة وتنظيم جهودها .

ويبدأ في التنفيذ بعد اسابيع من جلسات مباحثات الوحدة ... ويعقد جمال عبد الناصر اجتماعا في يونيو ١٩٦٣ يدعو اليه علي صبري ومحمد

حسنين هيكل واحمد فؤاد ، ويحضر سامي شرف سكرتيرا للجلسة .

تحضير الجهاز السياسي للاتحاد الاشتراكي يتم بعيدا عن جميع اعضاء مجلس قيادة الثورة السابق ... حتى الامين العام للاتحاد الاشتراكي كان غائبا عن الاجتماع الاول ...

السبب غير مفهوم ... الا اذا وضع في اطار الثقة الشخصية من جانب جمال عبد الناصر في ان يكون الحاضرون من المقتنعين بالتحول الاجتماعي عن طريق الاشتراكيين ... واذا كان حكما من جمال عبد الناصر بأن زملاءه السابقين القابلين لمواصلة المسيرة معه انما يفعلون ذلك بدافع الرغبة في البقاء داخل دائرة السلطة والاستفادة بمزاياها اكثر من ايمانهم بالتحول نحو الاشتراكية .

وكان هذا ايذانا بأن دور البغدادي وكمال الدين حسين قد وصلت به التناقضات الى نهايته عمليا قبل ان يعلن ذلك رسميا .

فكرة الجهاز السياسي داخل الاتحاد الاشتراكي ، تتشابه مع تنظيم رابطة الشيوعيين اليوغسلاف داخل الاتحاد الاشتراكي في يوغوسلافيا وقد اطلق عليها في مصر اسم (طليعة الاشتراكيين) .

وحي التنظيم انتقل من البرتغال الدولة الفاشية حيث اقتبس نظام الاتحاد القومي الى يوغوسلافيا الدولة الاشتراكية ذات الطابع الخاص وكان جمال عبد الناصر قد ارسل صلاح دسوقي في بعثة الى يوغوسلافيا لدراسة النظام هناك .

والمجموعة التي اعتمد عليها جمال عبد الناصر كبداية واساس لتكوين الجهاز السياسي كانت ذات ميول فكرية متباينة ... الوحيد الذي ارتبط منهم خلال ماضيه بحركات سياسية اشتراكية كان احمد فؤاد عضو الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني .

وعندما استفسر احمد فؤاد من جمال عبد الناصر عن مدى التجانس بين أفراد هذه المجموعة ، قال له ان علي صبري ومحمد حسنين هيكل هما اكثر الافراد تأثرا بفكره وانهما رغم اصولهما الفكرية البعيدة عن الاشتراكية الا انهما يعبران مرحلة من مراحل التحول الفكري الى الاقتناع بها .

وطلب جمال عبد الناصر ان يتصل كل واحد من الحاضرين بمجموعة من الذين يثق فيهم وان يشكل منهم خلايا لا يتجاوز عدد افراد كل خلية عشرة افراد فقط .

قال لاحمد فؤاد انــه يريد تنظيما منضبطا مثل التنظيمات الشيوعية، وانــه لا يجـد خلافــا شديدا مــع الماركسية في الوجهــات الاجتمــاعية والاقتصادية .

كما اشترط جمال عبد الناصر ان يكــون التنظيم سريا ، والا يقبل الاعضاء فيه الا بعد عرض الاسماء عليه للموافقة عليهم ... وكان مفهوما انها تفرز بوساطة اجهزة امن خاصة .

السرية كانت ــ حسب تصور جمال عبد الناصر ــ كما قال لاحمد فؤاد وكما اوضحه في مؤتمر المبعوثين بعد ذلك لمنع تكتل القوى ضد العناصر المختارة ومحاولة الاساءة الى سمعتها اولا ، والنقطة الثانية هي حرصه على الا يستغل احد وجوده في الجهاز السياسي ليستفيد من ذلك في مكان عمله او في أي مكان آخر .

وكان جمال عبد الناصر قد اعلن في مؤتمر المبعوثين في اغسطس ١٩٦٦ عن وجود طليعة الاشتراكيين وعن انها تتكون سرا من سنتين .

كانت مجموعة البداية لا تبشر بامكانية خلق تنظيم كــادر منــاضل وصالح لتحريك الاتحاد الاشتراكي فلم يكن محتملا ان يخرج احد هؤلاء الافراد من دائرة طبقته واتصالاته الطبيعية ليرتبط بعناصر منــاضلة حقيقية .

كل فرد منهم بدأ يتصل بأقرب الناس اليه .

لم يكن المشير عبد الحكيم عامر بعيدا عن خطوات تكوين هذا الجهاز السياسي ... كان هو الوحيد الذي علم بخطوات التكوين مــن رئيس الجمهورية وقد كلف شمس بدران بتكوين الجهاز داخل القوات المسلحة ، كما اتصل بعباس رضوان الذي شكل مجموعة كان من بين اعضائها شعراوي جمعه محافظ السويس .

رئيس الوزراء علي صبري اتصل بالوزراء عبد المنعم القيسوني واحمد توفيق البكري وعبد القادر حاتم وعبد المحسن ابو النور وعبد العزيز السيد وبالعاملين في رئاسة الجمهورية محمد فايق وعبد المجيد فريد وسامي شرف وعبد المجيد شديد عضو امانة الاتحاد الاشتراكي ومحمد ابو نار (٨ ضباط ومدنيان) .

واقتصرت اتصالات محمد حسنين هيكل على عدد محدود جدا مــن العاملين في جريدة الاهرام . وامين هويدي الذي اتصل به جمال عبد الناصر شخصيا اثناء وجوده في القاهرة من بغداد قدم لعبد الناصر بعض الاسماء

كان من بينها اسماء بعض العاملين في المخابرات العامة والقوات المسلحة فرفضها جمال عبد الناصر فورا .

اما احمد فؤاد فقد اتصل بي وبدأنا تشكيل فرع ليس من بين اعضائه وزير او محافظ او سفير او ضابط سابق ... كل اعضائه من التقدميين الثوريين في مختلف المجالات ، وشكلنا له لجنة قيادية من احمد فؤاد والدكتور عبد المعبود الجبيلي وانا .

التقت هذه اللجنة في بداية تشكيل الفرع من المشير عبد الحكيم عامر بناء على تعليمات جمال عبد الناصر وتمت المقابلة في منزله بثكنات الجيش بالحلمية الجديدة ، وكان مفروضا ان يستمر الاتصال به ، ولكن ذلك لم يتكرر بعد مقابلات محدودة ... وتبين لنا ان المشير عامر وهو على قمة السلطة العسكرية لم يكن يجد في مثل هذا التنظيم شيئا له قيمة .

ونما فرعنا نموا سريعا واستقطب اليه معظم العناصر الناضجة فكريا وسياسيا في مجالات الثقافة والصحافة ، كما انضم اليه عدد من الشيوعيين الذين خرجوا من المعتقلات بعد خمس سنوات كاملة ، وذلك حتى لا يزور خروشوف مصر في زيارته التي تمت لتحويل مجرى النيل عند السد العالي في مايو ١٩٦٤ وهناك معتقل شيوعي واحد .

الشيوعيون وطليعة الاشتراكيين

بلغ عدد المنضمين الى فرعنا خلال فترة وجيزة ما يزيد عن ٢٥٠ عضو معظمهم يصلح كادرا قياديا مؤثرا في مجال عمله او سكنه .

كان موضع تساؤلنا عن سر تكليف عبد الناصر للمشير عامر الاتصال بفرعنا الذي يعتبر الفرع اليساري التقدمي في التنظيم كله .. ولم نجد لذلك جوابا الا ان يكون رغبة في ابلاغ المشير بأن القوات المسلحة ليست هي الوحيدة في ساحة العمل السياسي ... او انه أراد ان يضعف الحساسية في نفسه من ناحية الماركسية عن طريق اتصاله ببعض من كانوا اعضاء في تنظيماتها .

وخلال هذه الاتصالات لم يكن عبد الحكيم عامر نافرا من المناقشة او غير مستجيب لها ولكنه حسب طبيعته كان لا يريد للامور ان تصل الى ابعادها الحقيقية ومع ذلك فقد قدم لفرعنا بعض تسهيلات ادارية مثل شقة واسعة تطل على مبنى السفارة الامريكية كانت تحت تصرف ادارة الشئون العامة للقوات المسلحة ، ولكني رفضت استخدامها لاجتماعات

الفزع حرصا على السرية من ناحية وتحاشيا لما يمكن أن يدور حولها من تساؤلات ، فظلت مغلقة عدة شهور ثم سلمتها من جديد الى ادارة الشئون العـامة .

... وقد بدأنا الاتصال فوزا بالتنظيمين الرئيسيين (الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني) و (الحزب الشيوعي المصري) ، وكـان الافراج قد تـم عن كافة المعتقلين الذين امضوا في المعتقل سنوات طويلة الامر الذي أدى الى عدم اجتماع اللجنة المركزية لحدتو كاملة من ديسمبر ١٩٥٢ الـى مايـو ١٩٦٤ لوجود اكثر من نصفها داخل السجن .

ويلاحظ ايضا انه لم يسبق صدور عفو خاص عن اي قضية شيوعية طوال حكم الثورة الا في اواخر عام ١٩٦٤ .

مثل (حدتو) في هذه المقابلات احمد رفاعي المحامي وزكي مراد المحامي وفؤاد حبشي وتمت موافقتهم على الانضمام الى طليعة الاشتراكيين، واعدت لذلك خريطة كاملة باعضاء حدتو وتسكينهم مع اعضاء فرعنا في اماكنهم التي يعملون بها في القاهرة والاسكندرية والاقاليم ...

كما جرت عدة لقاءات مع الدكتور فؤاد موسى السكرتير السابق للحزب الشيوعي لم تنته الى قرار واضح .

وعندما حمل احمد فؤاد الخريطة التي تحمل اسماء فرعنا مضافا اليهم اعضاء (حدتو) اخذت الحاضرين (جمال عبد الناصر وعلي صبـري ومحمد حسنين هيكل وسامي شرف) الدهشة من سرعة التنفيذ .

ووضع الاقتراح الذي تقدم به جمال عبد الناصر شخصيا مع الخريطة التي اعددناها والاقتراحات التي حملها احمد فؤاد على الرف نهائيا .

كانت هذه هي المرة الاخيرة التي يشير فيها الى موافقته على دخول التنظيمات الشيوعية بصورة جماعية في اطـار طليعة الاشتراكيين دون قيد ولا شرط ... وان كانت عملية دخولهم كأفراد قد استمرت بعد ذلك .

لم يفعل جمال عبد الناصر مثل فيديل كاسترو ... ولم يربط جهازه السياسي بتنظيمات الشيوعيين .

ورغم ان الاقتراح قد صدر منـه شخصيا ، الا ان رؤيته للظروف التي احاطت به ، جعلته يتراجع نهائيا عن قراره ... ومضت فرصة استيعاب مئات مـن الكادرات السياسيين المؤمنين بالاشتراكية ليعملوا ويتفاعلوا تحـت قيادة عبد الناصر التـي كانت تكتسب ثقـة الجماهير وثقتهـم .

كانت بذور الشك والخوف ما زالت موجودة في قلب الطبقة الحاكمة

المعبرة عن الطبقة الوسطى من الطبقة العاملة والتنظيمات المعبرة عنها .

وقد أدى دخول بعض اعضاء التنظيمات الشيوعية الـى طليعـة الاشتراكيين ومنع البعض الآخر او التلكؤ في قبوله ، الى حدوث خلافات في وجهات النظر ، وقيام مناقشات على نطاق واسع ، وانتهت الى حدث تاريخي لم يحدث في أية دولة من قبل ... اذ اتخذ التنظيمان الشيوعيان الكبيران قرار بحل التنظيم بوجهات نظر مختلفة .

وسواء صحت وجهة نظر التنظيمين الكبيرين في قرار الحل ام اخطأت فان ما تم كان دليلا على توفر حد كبير من الثقة في قيادة جمال عبد الناصر ودوره في توجيه عملية التحول الاجتماعي ... ودليلا ايضا علـى مرونة الفكر الشيوعي في مجابهة المواقف المختلفة .

كان صعبا من الوجهة العملية ان تجد التنظيمات الشيوعية فرصة عمل تؤدي فيها دورا مميزا بعيدا عن قيادة عبد الناصر في هـذه المرحلة التي كان يتحرك كل شيء فيها نحو التطبيق الاشتراكي ، وكان اختيارا قاسيا لها ان ترفض فرصة الاندماج في التنظيم الرسمي والعلني الوحيد حيث تتاح فرصة عمل اكبر وسط الجماهير بطريقة قانونية .

ولكن قرار حل التنظيمات مع ذلك كان يعتبر من الوجهة الماركسية خطأ سياسيا كبيرا ، اذ لا يملك حزب الطبقة العاملة ان يحل نفسه وينهي دوره المعبر عن ارادتها واهدافها ... لانه لا يمكن القـول بامكـان بنـاء الاشتراكية بدون الدور القيادي للطبقة العاملة وحزبها الشيوعي .

كان يمكن التوفيق بين الامرين ... حل التنظيم وبقاء فكرته ... أي حله عمليا وبقاء فكرته نظريا دون تصفية .

ولكن الظروف في ذلك الوقت كانت تبشر بتغييرات اجتماعية حقيقية.

اما طليعة الاشتراكيين فقد انتقلت من نظام الفروع الذي يتشعب تحت عدد محدود من المسئولين والذي تتنافر طبيعة اعضاء كل فرع مع زيادة التجنيد ... فرق بيـن الذين جندهم علـي صبري مـن الوزراء والمحافظين والسفراء وغيرهم من كبار الموظفين ... وبين الذين جندهم فرعنا من الكتاب والمثقفين والشباب والمناضلين السابقين .

ليس هذا فقط ....بل ان بعض الفروع كانت تنمو بصورة واضحة ... والبعض توقف عند عدد محدود .

تنظيم حزبي لطليعة الاشتراكيين :

وتقرر ان تأخذ طليعة الاشتراكيين شكلا تنظيميا حزبيا .

وعهد جمال عبد الناصر الى شعراوي جمعــه احد الوزراء الثلاثة للوحدة مع العراق (مع كمال الحناوي وعلي السيد علي) ... عهد اليــه بمسئولية الامانة العامة وحدد معه اعضاؤها .

ويقول احمد كامل احد الضباط الاحرار وامين الشباب ورئيس المخابرات العامة فيما بعد انه شاهد تأشيرة جمال عبد الناصر وكان وقتها يعمل في الرئاسة بعد عودته من الرباط ومدريد حيث كان يعمل ملحقــا عسكريا .

يقول احمد كامل ان جمال عبد الناصر قد حدد شعراوي جمعه امينا عاما للامانة واحمد كامل لشئون التنظيم ومحمد المصري للنشاط السياسي، وكاتب هذه السطور للتثقيف .

تشكلت اول امانة لطليعة الاشتراكيين من شعراوي جمعة وعبد المجيد شديد والدكتور حسين كامل بهاء الدين وامين عز الدين واحمد شهيب ومحمد المصري واحمد كامل والدكتور عبد المعبود الجبيلي ويوسف غزولي ومحمد عروق ومني كاتب هذه السطور وانضم اليها بعد عدة شهور محمود امين العالم (٦ ضباط ، ٦ مدنيين) .

تولت الامانة العامة مسئولية توحيد الفروع وتنظيمها على اساس جغرافي او مهني ...

اكبر ما صدمنا به خلال هذه المرحلة هو الاصرار على ابقاء العناصر التي كان معروفا لاغلبيتنا مسبقا انها ليست اشتراكية وليست قادرة على النضال ، او مهيأة لاي نوع من انواع التضحية .

بيروقراطية المناصب لعبت دورا رئيسيا في عدم اعطاء التنظيم فعاليته المطلوبة ، وتركته تحت سيطرة الاسماء المعروفة ، وظهر منذ البداية صعوبة تحويله الى تنظيم نضالي يستطيع ان يسهم بدور ايجابي في عمليــة التحول الاجتماعي .

الظاهرة المميزة لتكوين الامانة هي عدم وجود حساسية عند اغلبية اعضائها مع الماركسية كنظرية اجتماعية ، وتواجد عدد مــن اليساريين فيهــا .

وانعكس ذلك ايضا علــى تكويــن لجنــة القاهرة الرئيسية لطليعة الاشتراكيين التي شكلت بقيادة علي صبري وعضوية الضباط السابقين حلمي السعيد وشعراوي جمعه وسعد زايد ومحمد قايق وسامي شــرف والدكاترة عزت سلامة ولبيب شقير وابراهيم الشربيني ثم احمد فؤاد واحمد بهاء الدين وممثلي العمال احمد فهيم وفتحي فوده (٦ ضباط ، ٧ مدنيين) .

الملاحظ ايضا زيادة نسبة عدد المدنيين وظهور اسماء جديدة في قمة العمل السياسي ... مع اختفاء اصحاب المناصب القيادية في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي العلنية ... ودخول عدد من التقدميين اليساريين لصفوف هذه التنظيمات بلا حساب .

امانة طليعة الاشتراكيين لم تضم سوى شعراوي جمعه وعبد المجيد شديد من امانة الاتحاد الاشتراكي .

بعض العناصر من قيادات الاتحاد الاشتراكي دخلت طليعة الاشتراكيين ولكنها لم تكن في القيادة المركزية .

طليعة الاشتراكيين تعمل سرا في مقرها بسراي الامير سعيد طوسون بالزمالك (مقر منظمة الشباب فيما بعد) ... ثم في مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة ، وتصدر نشرات دورية وتكون لجانا للمحافظات .

كان النشاط الشديد هو طابع عمل الامانة في ذلك الوقت ... تقارير سياسية يومية ترفع الى جمال عبد الناصر وتعود بتأشيراته في مساء نفس اليوم لترسل الى الوزراء والمسئولين بتوقيع طليعة الاشتراكيين ... وانتظم صدور النشرة التي اشرف على كتابتها اليساريون من اعضاء الامانة، وتناولت عددا من القضايا السياسية الهامة من وجهة نظر اشتراكية متحررة ... وتعددت الاجتماعات بين عدد من اعضاء الامانة ومسئولي الاتحاد الاشتراكي في المحافظات ... وكان المحافظون في معظم الحالات هم المسئولون السياسيون لطليعة الاشتراكيين فوق امناء الاتحاد الاشتراكي..

واستمرت دفقة النشاط في الامانة واضحة حتى حدث احتكاك مع بعض الوزراء الذين كان يسيئهم ان تصل اليهم تأشيرات الرئيس خلال طليعة الاشتراكيين رغم وصولها اليهم في خطابات مغلقة تحمل هذه الكلمات (سري للغاية وشخصي ولا يفتح الا بمعرفة سيادته) .

اعترض على اسلوب الخطابات بعض الوزراء مثل الدكتور عزيز صدقي وطلعت خيري وعندما رفع الامر الى جمال عبد الناصر طلب من طليعة الاشتراكيين ان تتوقف عن مخاطبة الوزراء حيث سيكون لهم تشكيل خاص.

وارتفعت عندئذ يد التنظيم عن الوزراء فضعفت قبضته على الجهاز الاداري والتنفيذي الى حد كبير .

واذا كان قانون الاتحاد الاشتراكي لم ينفذ بادخال رجال القوات المسلحة والشرطة والقضاء الى تنظيمه ، فانه قد بدأ ينفذ فيما يتصل بتنظيم طليعة الاشتراكيين .

ـ طليعة الاشتراكيين والقوات المسلحة

كانت السرية التي يتم بها تشكيل التنظيم ، والافضليةَ النسبية الناتجة من اختيار الافراد ، عاملا مشجعا على تكوين تنظيم لطليعة الاشتراكيين داخل الجيش .

كان المسئول عن هذا التنظيم الصاغ شمس بدران الذي كان يستمد قوته الهائلة المؤثرة في الجيش وخارجه من عاملين اولهما الثقة المطلقة غير المحدودة التي منحه اياها كلا من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ؛ وثانيهما منصبه كمدير لمكتب القائد العام لشئون الميزانية والافراد، الامر الذي اتاح له السيطرة على كل شيء في القوات المسلحة ، وسهل له وضع العناصر المرتبطة به شخصيا في المراكز القيادية الحساسة حتى اصبحت تشكل قوة رئيسية خاصة ومؤثرة داخل القوات المسلحة .

ولذا لم يكن تشكيل طليعة الاشتراكيين داخل القوات المسلحة عملية عسيرة او معقدة ... بل نفذت دون مصاعب ، وظلت سرا مجهولا على الكثيرين ، ولو انه عرف فيما بعد انها كانت تسير على نظير طليعة الاشتراكيين خارج الجيش فقد ضمت القادة مثل محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ ثم وزير الحربية بعد امين هويدي ومحمد احمد صادق رئيس اركان الحرب ثم وزير الحربية بعد مايو ١٩٧١ ، تماما كما ضمت طليعة الاشتراكيين الوزراء ورؤساء مجالس الادارة وغيرهم من اصحاب المراكز البعيدين عن الفكر السياسي الاشتراكي الاصيل .

والاتحاد الاشتراكي يحاول الحركة بطليعة الاشتراكيين ... ولكن تأثيره ما زال محدوداً في المجالات الجماهيرية وفي مواقع الانتاج ... ودوره ضعيف وغير ملموس في دفع عجلة البناء الاجتماعي الجديد .

وكلمة الاشتراكية تتردد على كل لسان ، وتدخل في كل مقال ، وينسب اليها كل انجاز ... ولكنها همسا وبين البرجوازية غير المقتنعة بعملية التحول القسري للمجتمع تصب على هذه الكلمة كل الاثام ... وتحولها الى مشجب تعلق عليه كل الاخطاء والانحرافات ... انها اصبحت (الاشتراكية المفتري عليها) كما كتبت في احدى المقالات بمجلة روز اليوسف.

وجمال عبد الناصر يحاول تفسير حقيقة الموقف فيقول عام ١٩٦٥ (احنا ما بقيناش دولة اشتراكية ... احنا في مرحلة انتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ...) .

ضاعت فرصة تكوين كادر اشتراكي حقيقي داخل الجيش .. كما

ضاعت خارجه .. ولم يسمح للاشتراكيين الحقيقيين اعضاء طليعة الاشتراكيين بالاتصال بالجيش .

واذا كان الشيوعيون قد احتفظوا بقوتهم في الجيش التي عبر عنها لينين بقوله في المؤلفات الكاملة ـ المجلد ٣٠ ـ (ان البلاشفة قد اكتسبوا في الجيش قبل نوفمبر ١٩١٧ قوة سياسية (ضاربة) ضمنت لهم التفوق الساحق في النقطة الحاسمة واللحظة الحاسمة) فان قيادة ثورة يوليو لم تحتفظ في الجيش بالكادر الذي اعتمدت عليه ، وانما انهت وجوده كتنظيم للضباط الاحرار ، ثم لم تبذل جهدا حقيقيا لخلق تنظيم حزبي ديموقراطي في صفوف طليعة الاشتراكيين داخل الجيش .

ويقول تبيتو لوبم عضو اللجنة السياسية للجنة المركزية للحزب الشيوعي الشيلي كما ورد في ندوة (دراسات اشتراكية ـ عدد يوليو ١٩٧٤) ان اراد الشعب ان يكون سيد مصيره لا بد له من ان يعمل على اشاعة الديموقراطية في القوات المسلحة، فهذا امر له اهمية حيوية .

ما لم يتحقق في شيلي وادى الى اطاحة الجيش بنظام الليندي الديموقراطي ، لم يتحقق بشكل آخر في مصر رغم ان القيادة الثورية نبتت في صفوف الجيش .

وظل الجيش بعيدا عن الوعي السياسي الديموقراطي معتمدا في حركته على ارادة قيادته وسيطرتها فقط .

ولم يطبق ما ورد في الميثاق او يتحقق .

ورغم ان جهاز السلطة فيمجموعه لم يكنجهازا اشتراكيا، الا ان وجود جمال عبد الناصر في مركز السلطة كان هو الضمان للعناصر التقدمية والثورية للنضال دون خوف الانقضاض عليها .

وخلال هذه المرحلة التي بدأت تنسج فيها خيوط اول تنظيم حزبي حقيقي تقوم بـه ثورة ٢٣ يوليو ، كان هناك تقدير اقل لقوة البرجوازية الموجودة في السلطة ، وتقدير اكبر في امكانية قيادة جمال عبد الناصر لعملية التحول الاجتماعي .

ولم يحاول جمال عبد الناصر ان يضعف من قوة البرجوازية التي تعشش في مواقع السلطة ، وتقبض على المراكز الحاكمة ... وتلبس على وجهها قناعا اشتراكيا ، وتطعم جعبتها بمصطلحات اشتراكية .. كما لم يحاول ان يعطى فرصة اكبر للعناصر اليسارية ، حتى تدعم التطبيق الاشتراكي .

كان يوجه ضرباته للبرجوازية خارج جهاز الحكم ، ولكنه تهاون مع

الذين يتولون المناصب في اجهزة الدولة ، وكثيرا ما قامت الرقابة الادارية بعمل تحقيقات واكتشفت انحرافات ، ولكنها غالبا ما كانت تتحول الى دوسيهات في الارشيف ، وليس كلمة اتهام في ساحة القضاء .

الفرصة الضائعة

كانت الفرصة متاحة امام جمال عبد الناصر لتطهير اجهزة الدولة والتنظيم السياسي من العناصر المعروفة بأنها رجعية ومعوقة ، ولكنه كان واثقا دائما ان هذه الشخصيات لا يمكن ان تتحرك حركة مضادة ضد النظام او ضده شخصيا ... وانها تتحرك خلال شريط ضيق محدود .

ولذا فهو لم يشترط بناء طليعة الاشتراكيين من العناصر المناضلة الشريفة وحدها ... وانما وافق على ان تكون الطليعة صورة مصغرة من الاتحاد الاشتراكي ... ربما بصورة افضل قليلا .

كل الظروف كانت مهيأة لبناء تنظيم سياسي فعال ... ليس شرطا ان يكون ماركسيا كما فعل فيديل كاسترو ... ولكن جمال عبد الناصر كان يخشى حدوث تطور اكثر يسارية مما رسم ... حتى لا يخرج الامر من قبضة العسكريين الذين اعتمد عليهم في معظم مجالات العمل ... كما انه كان على حذر دائم وبطريقة مبالغ فيها من خشية اية حركة تنبعث من صفوف الجيش ، وخاصة بعد استقالة عبد الحكيم عامر وعودته .

وقد تأثر جمال عبد الناصر خلال هذه الفترة بمعتقدات تيتو التي زاد تفي نفسه روح الحرص على الا يرتبط بايديولوجية محدودة ، حتى يكون اكثر مرونة في حركته ... ورغم ان تيتو شيوعي العقيدة ، الا انه منضم ومؤسس لفكرة عدم الانحياز ، ومتعاون بدرجات متفاوتة حسب الزمن والظروف مع الدولتين العظيمتين : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة .

هذا الى ان التمزق الذي حدث داخل المعسكر الاشتراكي نتيجة الخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتي قد انعكس ايضا على احتمالات اندفاع جمال عبد الناصر نحو اقتناع اوثق بالفكرة الاشتراكية .

كل هذه العوامل لم تدفع جمال عبد الناصر الى الاصرار على ان تبنى طليعة الاشتراكيين على قواعد حزبية سليمة واصيلة .. وتركها تنمو على الاسس الموجودة في المجتمع بكل ما فيها من سلبيات وايجابيات .

وجمال عبد الناصر كان قادرا على ذلك ... ولكنه لم يكن — فيما يبدو — راغبا فيه ، وبذا اضاع الى الابد فرصة خلق ظروف سياسية

مناسبة تتيح لقيادته النمو والاستمرار بخلق صلة تنظيمية وثيقة بين قيادة الطبقة الوسطى وقيادة الطبقة العاملة .

قال جمال عبد الناصر لامين هويدي في احدى المناقشات (انا استطيع ان ابني حزبا حقيقيا لو اردت) .

اذن هو لم يكن يريد ... فتكوين الحزب على قواعد متينة ومن عناصر مناضلة وغير انتهازية هو امر يخلق نوعا من المشاركة مع سلطته الفردية الكبيرة ، ويدخل افكاره في تعقيدات المناقشة الحزبية الصريحة ، رغم ان هذه كانت الوسيلة الوحيدة لدعم النظام ، وتثبيت اسس البناء الاجتماعي الجديد .

ولم تؤثر الانقلابات الرجعية التي قامت ضد نكروما في غانا وموديبو كيتا في مالي وسوكارنو في اندونيسيا في اتجاه جمال عبد الناصر .. كان مستمرا في انتهاج الاسلوب الذي درج عليه دون محاولة صادقة لدعم المجتمع ببناء سياسي حقيقي .

كان جمال عبد الناصر يهدف الى ازالة نفوذ الطبقة البرجوازية الكبيرة ... ولكن دون تغليب طبقة العمال .

انه كان يمضي على سياسة منح العمال او الفلاحين البسطاء ، دون ان يجعل منهم قوة سياسية فعالة مشاركة في الارض .

اثناء الاحتفال بعيد اول مايو ١٩٦٤ ، خطب انور سلامة وكان وزيرا للعمل مطالبا بحقوق جديدة للعمال بعد قانون التأمينات الاجتماعية الذي صدر في مارس ١٩٦٤ والذي يعتبر قمة القوانين العمالية ، دون ان يتحدث في ذلك مسبقا مع جمال عبد الناصر ، مما اغضبه غضبا شديدا ، وجعله يرد عليه .

قال جمال عبد الناصر في خطبته (احنا قلنا الحد الادنى للعامل يكون ٢٥ قرش ... هل هوه ده الاجر اللي يكفي ويخللي العامل يعيش عيشه سعيده ؟ انا بأقول لأ) وضج المكان بالتصفيق والهتاف .

ولكنه عندما استدرك قائلا (ولكن طبعا الخمسة وعشرين قرشا بالنسبة للماضي تعتبر مكسب) قوبل ذلك بوجوم وصمت تام .

ولم يعد ممكنا ان تنمو طليعة الاشتراكيين الجهاز السياسي للاتحاد الاشتراكي بعيدا عن قيادته العلنية .

وحدث تغيير في المناصب ... عين زكريا محيي الدين رئيسا للوزراء، وغادر علي صبري مقعده ليكون امينا للاتحاد الاشتراكي بدلا من حسين الشافعي .

وتشكلت امانة جديدة للاتحاد من علي صبري وكمال رفعت وعباس رضوان واحمد عبدالله طعيمة وشعراوي جمعه وكمال الدين الحناوي وعلي السيد علي وحسين ذو الفقار صبري ، وفتحي الديب ، وعبد الفتاح ابو الفضل ، وعبد المجيد شديد ، والدكتور ابراهيم سعد الدين ، والدكتور حسن كامل بهاء الدين ، وعبد الحميد غازي ، ومحمد ابو نصير واحمد شهيب (١١ ضابطا و ٥ مدنيين) .

كان محمد حسنين هيكل قد رتب اجتماعا بين علي صبري وكلا من الدكاترة ابراهيم سعد الدين وعبد الرازق حسن ومحمد الخفيف وهم من الماركسيين العاملين في صفحة الرأي بالاهرام ... وذلك قبل صدور قرار تعيينه امينا عاما للاتحاد الاشتراكي .

دارت المناقشة حول كيفية انشاء التنظيم ، وتبنى الماركسيون فكـرة التفرغ للمسئولين السياسيين ، وضرورة احياء فكرة الجهاز السياسي الواردة في الميثاق .

الذين استمروا في الامانة من عهد حسين الشافعي الى تولي علـي صبري المسئولية سبعة هم الضباط كمال رفعت وشعراوي جمعة وكمال الحناوي وحسين ذو الفقار صبري وفتحي الديب وعبد المجيد شديد وممثل العمال علي السيد علي .

واحتفظ شعراوي جمعه بمنصب وزير الدولة لشئون رئاسة الوزراء الى جانب منصبه كأمين للتنظيم وامين عام طليعة الاشتراكيين .

كان انتقال علي صبري لمنصب الامانةالعامة للاتحاد الاشتراكي، اتجاها لاعطاء ثقل معين لهذا التنظيم واقامة رابطة بينه وبين طليعة الاشتراكيين، وبعثا للحيوية فيه .

وزارة زكريا محيي الدين

هذا الى جانب ان عودة زكريا محيي الدين الـى مركز المسئولية الوزارية الاولى في اكتوبر ١٩٦٥ يعني تراجعا عن الاتفاق السابق الـذي استقر عليه رأي جمال عبد الناصر عند تكوين مجلس السيادة بعد الانفصال وهو اعفاء اعضاء مجلس « قيادة الثورة السابقين » من تولي منصب رئاسة الوزراء ليرفع عن نفسه الحرج ويتحمل المسئولية وحده كمـا سبق ان ذكرنـا .

ويقول زكريا محيي الدين انه لما راجع جمال عبد الناصر في ذلك عند تولي المنصب ، قال له جمال عبد الناصر ان الظروف قد تغيرت وانه يود

أن يبعث الحيوية في الاتحاد الاشتراكي والوزارة معا .

وقد اتفق الاثنان على برنامج الوزارة اثناء رحلتهما بالطائرة الى مؤتمر القمة الثالث في الدار البيضاء .

وكان تعيين زكريا محيي الدين لرئاسة الوزارة قد تم بعد فترة كان مسئولا فيها عن الجهاز المركزي للمحاسبات ، وتكشف له خلال عمله كثير من الاخطاء والانحرافات في اجهزة الحكومة والقطاع العام ... وكان الدكتور ابراهيم سعد الدين وقتها وكيلا للوزارة في الجهاز .

ويقول زكريا محيي الدين انه كان يرفع تقاريرا الى جمال عبد الناصر ببعض الحقائق التي تثير القلق وتوجب الحيطة ، ولكنها كانت تضيع بلا صدى اذ يتم تحويلها الى رئيس الوزراء علي صبري فيحولها بدوره الى الجهة المسئولة عن الانحراف .

لم يكن للجهاز المركزي للمحاسبات قوة تنفيذية ولم يكن له من تأثير سوى على زكريا محيي الدين نفسه الذي غلب عليه الاقتناع خلال فترة اشرافه عليه بأن ينظر الى الامور من زاوية الربح والخسارة بعيدا عن أي مؤثرات سياسية او اجتماعية اخرى .

ولذا عين زكريا في رئاسة الوزارة وهو يتبنى افكارا مسبقة وخططا واضحة في ذهنه . وردا على سؤال عما اذا كان جمال عبد الناصر قد أعاد تشكيل الوزارة لتحسين الصلة مع الامريكان والتقارب منهم ، اجاب زكريا محيي الدين بأن جمال عبد الناصر لم يكلفه بهذا الهدف ولم يشر اليه من قريب او بعيد بأي توجيه في هذا السبيل .

ويستطرد زكريا محيي الدين قائلا ان جمال عبد الناصر لم يكن من اهدافه التعرض للقوى الاجنبية او استفزازها دون سبب ولكنه كان يسحب سحبا لهذه التصادمات نتيجة تكوينه الشخصي وردود الفعل السريعة على تصرفات وتصريحات هذه القوى .

وعن الولايات المتحدة بالذات يقول زكريا محيي الدين ان التفكير في مصادقة الامريكيين هو امر قريب من المستحيل لان البناء السياسي لها يؤثر على استراتيجيتها ... ويدلل على ذلك بأنه خلال فترة الصداقة التي قامت بين مصر والولايات المتحدة في السنوات الاولى للثورة استطاعت اسرائيل ان تكون عاملا مؤثرا في زعزعة هذه العلاقة .

ويضيف قائلا خصوصا اذا كنا نستجيب بسرعة للاحداث وتكون انفعالاتنا هي اساس سياستنا . ورسم زكريا محيي الدين سياسة الوزارة على اساس التهدئة بمعنى قبول بعض سخافات السياسة الامريكية وعدم

الرد عليها مؤثرا عدم المجابهة (على حد تعبيره) ويوضح ذلك بقوله انــه يمكن التسليم بحقائق يصعب على الانسان في المرحلة الآنية التغلب عليهــا فيؤجلها لمرحلة مستقبلة .. ساعيا وراء فائدة البلد على قدر الامكان .

وقد امكن لزكريا محيي الدين بهذه السياسة ان يمد اجل المعونة الامريكية لمدة ستة شهور فقط توقف بعدها امداد مصر بمعونة القمح ... ولم يجد جمال عبد الناصر من سبيل الا مطالبة الاتحاد السوفيتي بالقمح فكان ان حولت بعض المراكب السوفييتية مسارها لترسو في الموانيء المصرية بدلا من الموانيء السوفييتية .

وكانت نظرة زكريا محيي الدين للامور ترتكز على تحليل خاص فهو يرى الاهتمام بمصر اولا حتى تصل الى مستوى يساعدها على خلق علاقات سليمة بدول الوطن العربي ويقول ايضا انــه مع التأميم كسبيل لتعبئة الموارد لتحقيق مشاريع التنمية .. ولكنه ضد نزع الملكية بالكامل كما انه ايضا ضد الراسمالية الاحتكارية .

يذكر ان جمال عبد الناصر ناقشه يوما في موضوع النزول بالحد الاقصى للملكية عما كان مقررا في قانون الاصلاح الزراعي فقال لــه زكريا محيي الدين بأنه لا اعتراض عنده على نزول الحد الاقصى الى أي مساحة حتى ولو كانت ٢٥ فدانا على اساس ان يكون ذلك قرارا ، نهائيا حتى يتوفر الاستقرار المطلوب للحكم .

ويفسر زكريا محيي الدين وجهة نظره في التأميم المتصاعد بأنه يؤدي الى فقدان الحرية السياسية حيث تتجمع كل الخيوط في يــد الدولة التي يسيطر عليها مجموعة او فرد تبعا للظروف .

ومن هنا يتضح ان زكريا محيي الدين كان يتبنى اراء لا تتطابق تماما مع اراء جمال عبد الناصر .. ولكنه لم يحدث بينهما صدام فكري ولم يثر بينهما أي نوع من انواع الصراع الواضح .

وعندما بدات الوزارة تطبق اراء زكريا محيي الدين ، شاع بين الناس انها وزارة انكماش وتراجع عن الخطة وتوافق هذا مع اراء الدكتور مصطفى خليل الذي ولى وزارة الصناعة بعد الدكتور عزيز صدقي .

وتأجل تنفيذ عدد من المشروعات مثل بناء مصانع جديدة للسكر ...

بل ان زكريا محيي الدين الغى تعاقدا كان قد تـم الاتفاق عليـه مـع تشيكوسلوفاكيا .

وهو يبرر ذلك بأن المصانع القائمة لم تكن تعمل بطاقتها الكاملة وان المتوفر من زراعة القصب لا يكفي احتياجاتها ... ولذا فلم يكن هناك مبرر في رايه للتوسع في هذه الصناعة طالما هناك ظروف تحول دون استخدام المصانع بأقصى طاقتها .

ولكن الاحداث اثبتت فيما بعد ان هذا التوقف قد أدى الى ان تتعطل امكانية تحويل مصر من دولة مصدرة للسكر الـى دولة مستوردة لـه ، وتصرف في ذلك عشرات الملايين من الجنيهات بالعملة الصعبة .

وقرر زكريا محيي الدين ان يزيد من دخل مصر عن طريق تصدير الأرز ، وما ان اعلن جمال عبد الناصر ذلك في احدى خطبه بالسويس حتى هرع الناس الى المتاجر فورا ووقفوا امامها طوابيرا طويلة لحجز كميات أرز اضافية ... وان ارتفاع السعر قد أدى الى ارتفاع اسعار سلع اخرى مثل الزبد واللبن وبيع التجار للسلع المحددة ... بأسعار أغلى مثل البيرة والكوكاكولا .

ويقول زكريا محيي الدين ان مناقشة دارت بينه وبين عبد الناصر عن ظاهرة الطوابير التي تحتشد امام الجمعيات وانه قد تـم الاتفاق على زيادة سعر الارز من اربعة قروش الى ثمانية للكيلو الواحد ... وكانت هـذه الحادثة من المرات النادرة التي اقدمت فيها الثورة على رفع الاسعار لسلعة ضرورية تمس حياة الجماهير .

ويقول زكريا محيي الدين انه كان يستهدف زيادة الدخل القومي، وان زيادة اسعار الارز يقابلها ما تتحمله الدولة من ن فروق سعر القمح ... خاصة وان اسعار الارز في العراق وليبيا كانت اغلى منها في مصر .

ويقول ايضا ان العمالة كانت ٦٠٠٫٠٠٠٫٦ في عام ٥٩ — ١٩٦٠ ارتفعت الى ٧٣٣٣٤٠٠ تتحمل الدولة اجورهم .

ولكن اتجاهات زكريا محيي الدين وتصرفاته التي استهدف بها سلامة الاقتصاد من وجهة نظره لم تستقبل بالرضى من جمال عبد الناصر الذي كان يحرص دائما على الاحتفاظ بشعبيته ورصيده عند الجماهير .

ووصل الامر بجمال عبد الناصر الى الحد الذي لم يعد يقبل فيـه

استمرار هذه السياسة التي تؤدي الى انكماش في خطة التنمية وتحميل الجماهير مزيدا من الاعباء الاقتصادية ...

وعندما عرض زكريا محيي الدين وجهة نظره على اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي اتخذ جمال عبد الناصر قراره ... وشعر زكريا محيي الدين ان عمر وزارته قد انتهى .. فطلب مقابلته وتأخرت المقابلة عدة ايام ... وفي بدايتها اعلن زكريا رغبته في الاستقالة فظهرت الراحة على قسمات وجه جمال عبد الناصر – كما يقول زكريا محيي الدين – وقال له (لقد اعفيتني من حرج كبير ... فقد كنت مهموما خلال الايام الماضية حول ما يجب ان ... اصارحك به) .

واعلنت استقالة زكريا محيي الدين وتعيين صدقي سليمان رئيسا للوزراء وصحب ذلك بعض التنقلات في اعضاء طليعة الاشتراكيين فانتقل شعراوي جمعه من وزارة الدولة ليصبح وزيرا للداخلية ، ونقل امين هويدي من الاعلام ليصبح وزير دولة لشئون رئاسة الوزراء ، واصبح محمد فايق وزيرا للاعلام والثلاثة كانوا من اعضاء أمانة طليعة الاشتراكيين .

واعتبر تعيين صدقي سليمان عودة من جديد الى مبدأ ابعاد اعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين عن تولي المناصب التنفيذية العليا سواء كرؤساء أو وزراء .

علي صبري في الاتحاد الاشتراكي

وكان انتقال علي صبري من منصب رئيس الوزراء الى منصب الامين العام لتحاد الاشتراكي هو بمثابة تغيير في النظرة للعمل السياسي ، وتأكيد على اهمية الجهاز السياسي الجديد ومحاولة لبعث الحياة فيه .

بدأ علي صبري عمله في الاتحاد الاشتراكي باقرار مبدأ التفرغ للعمل السياسي وتكوين المكاتب التنفيذية التي كان معظم اعضائها من طليعة الاشتراكيين ... كما قرر مرتب نائب وزير الامين في كل محافظة ... مما نقلهم نقلة اجتماعية كبيرة ... وجعلهم يدخلون في دائرة المستفيدين من العمل السياسي .

حتى الذين كانوا ينتدبون من وظائفهم للعمل في الاتحاد الاشتراكي تقررت لهم نسبة مئوية اضافية تتراوح بين ١٠ ٪ وربع مرتب لمرتباتهم ، مما خلق تكالبا على الالتحاق به .

وهنا بدأت ظاهرة جديدة هي اختيار علي صبري لعناصر قيادية في

الاتحاد الاشتراكي من التابعين له شخصيا البعيدين عن رؤية جمال عبد الناصر او الصلة به .. واصبح علي صبري صاحب نفوذ فعلي داخل الاتحاد الاشتراكي ... نفوذ غير جماهيري لان طبيعة شخصيته المنطوية الهادئة كانت تتنافر مع ذلك ... ولكنه نفوذ شخصي في هذه العناصر التي كانت تتعلق بفكره المنظم .

وبدأت عجلة العمل في الاتحاد تدور بسرعة اكبر ... وظهر له نفوذ منافس للاجهزة الادارية والتنفيذية .

وفي كثير من الحالات نجح الاتحاد الاشتراكي في اداء دور الرقابة الشعبية ، ولكن لم تكن هناك صيغة سليمة لعمله في مواقع الانتاج ، مما يخلق الديموقراطية المستهدفة لتحقيق التحول الى الاشتراكية بنجاح .

المكاتب التنفيذية شكلت بطريقة لا توفر المضمون الصحيح لتحالف قوى الشعب العاملة ... التي يزيد فيها العمال والفلاحون بالملايين عن المثقفين والبرجوازية الوطنية ، ومع ذلك فان الفرصة لم تتح لهم للتعبير عن الوزن الحقيقي لطبقتهم في قيادات الاتحاد الاشتراكي .

نادرا ما كان الفلاح من زارعي الارض في تنظيمات الاتحاد ... ونادرا ايضا ما كان العامل من الذين وقفوا وراء الماكينة .

كان تعريف العامل والفلاح مطاطا يسمح بتسرب الفئات الاخرى الى مقاعدهم .

كانت البرجوازية الصغيرة هي المسيطرة ... وكان الحذر شديدا من وصول الطبقة العاملة الى مراكز السلطة الحقيقية في التنظيم .

وتشكلت خلال هذه الفترة منظمة الشباب التي جذبت اعدادا كبيرة منهم في مراكز تدريب اعدت لهم في مرسي مطروح وحلوان ، واشرف عليها زكريا محيي الدين خلال فترة وجود حسين الشافعي في منصب الامانة العامة . وعاونه في ذلك الدكتور محمد الخفيف ومن قبله كان طلعت خيري الذي عين وزيرا للشباب مسئولا عن تكوين جهاز للشباب من مختلف المحافظات في معسكر اقيم بوادي النطرون .

كان اعداد كوادر الشباب يتم بطريقة منتظمة ... ويجذب عقول الجيل الجديد الى السياسة .

وقد اسهمت امانة معهد الدراسات الاشتراكية بقسط كبير في اعداد المحاضرات والبحوث التي توجه الشباب توجيها تقدميا ملحوظا .

وزاد التزاوج بين الاتحاد الاشتراكي وطليعة الاشتراكيين عندما سحب من امانتها كل من الدكتور حسين كامل بهاء الدين ليعمل امينا

للشباب ، وامين عز الدين ليعمل امينا مساعدا للقاهرة ، واحمد شهيب ليعمل في الامانة العامة وعبد المجيد شديد .

وعين احمد كامل محافظا لاسيوط ، ومحمد المصري امينا للاتحاد الاشتراكي بالدقهلية .

واظهر جمال عبد الناصر مزيدا من الاهتمام بامانة طليعة الاشتراكيين فضم اليها بعض الضباط المقربين منه ... امين هويدي وزير الاعلام وحلمي السعيد وزير الكهرباء وعبد المجيد فريد امين القاهرة وسامي شرف سكرتيره للمعلومات ومحمد فايق سكرتيره لشئون افريقيا وعلي السيد علي ممثلا للعمال ، وذلك الى بقية الاعضاء السابقين الذين لم يعينوا في مناصب اخرى .

اصبحت الامانة مشكلة من ٧ ضباط خمسة منهم عملوا في المخابرات واربعة من المدنيين .

هذه التغييرات التي حدثت في قيادة الاتحاد الاشتراكي وفي جهازه السياسي عبرت عن اتجاه اكثر يسارية وتقدمية .

كان الضباط الذين اوكلت اليهم مسئوليات العمل السياسي من المتأثرين بفكر عبد الناصر شخصيا .. الذين انتقاهم من رجال الصف الثاني ليحملوا رسالته .

وكانت الظاهرة الواضحة ان احدا من اعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين لم يكن له دور في هذه التنظيمات الجديدة ...

ورغم حيوية هؤلاء الضباط والمدنيين المختارين ... ورغم صلاتهم التنظيمية المتعددة مع الاحزاب الشيوعية والاشتراكية في الخارج ... ورغم ذوبان الحساسية تدريجيا مع الافكار الماركسية ، ورغم اكتشاف عناصر مبشرة بين الشباب ... فان هذه التنظيمات الجديدة لم تستطع ان تسهم بالقدر الكبير في خلق تنظيم حزبي في الطليعة او جماهيري في الاتحاد الاشتراكي ... نتيجة ترددها في اتخاذ القرار ... ونتيجة خشيتها ايضا من فتح الابواب للقوى العاملة لتؤدي دورها الحقيقي .

امانة الاتحاد الاشتراكي لم تجتمع الا مرات معدودة بطريقة دورية منتظمة ... ثم توقفت عن الاجتماعات تماما ، واصبح علي صبري يتصل بالامناء شخصيا ... لوجود وجهات نظر متعارضة بين اعضاء الامانة كان يتجنب تصادمها في الاجتماعات ... وخاصة بينه وبين كمال رفعت امين الدعوة والفكر ، الذي حاول ان يخلق نشاطا داخليا خاصة في الاتحاد

الاشتراكي فيما عرف باسم (الدعاة) .. كان الخلاف ظاهرا يتمثل احيانا في دعوة اتحادات الطلبة لكمال رفعت ودعوة تنظيمات الشعب في الجامعة لعلي صبري لعقد ندوات معهم .

وخلاف آخر مستتر بين علي صبري وعباس رضوان المقرب من عبد الحكيم عامر ... الجيش يطل بعينه ونفوذه داخل التنظيم ... وخلافات الضباط تنعكس على العمل .

امانة طليعة الاشتراكيين كانت اكثر انتظاما وانضباطا في الاجتماعات الاسبوعية ... ولو انه لم يكن هناك جدول اعمال محدد لكل جلسة تتخذ فيه قرارات ملزمة ... المناقشات العامة كانت هي الطابع السائد للاجتماعات ... والعناصر الماركسية لم تعط لها فرصة او مسئولية الاشراف على تنظيمات المحافظات واقتصر عملها على الناحية التثقيفية وكتابة المنشورات ... وقد حاولت مناقشة ذلك وتغييره ولكن بلا طائل .

ترجع هذه الحالة اساسا الى ان كل هذه المستويات التنظيمية رغم تربعها على قمة العمل السياسي لم تكن تملك سلطة اصدار قرار ... كانت ترفع الرأي دائما الى جمال عبد الناصر صاحب القرار ... وقد اعتاد الضباط الذين عهدت اليهم مسئولية العمل السياسي او التنفيذي على ذلك فلم يغيروا من طبيعتهم التي بدأت من نشأة معظمهم في صفوف جهاز المخابرات الذي يجعلهم اقل كلاما واشد حرصا .

ونتيجة لسيادة هذا الجو الذي تتقوقع فيه الشخصيات وتضمر الطاقات ، وتعيد فيه التفكير على ارادة السلطة العليا نبتت تناقضات بين المسئولين عن العمل السياسي وبين علي صبري من جهة وشعراوي جمعة وسامي شرف من جهة اخرى رغم خلاف طبيعة الاثنين .

كانت كتابة التقارير لمركز السلطة هي السند الرئيسي للشخصيات المختلفة ولم يكن مهما .. بل لعله كان مطلوبا ان تقدم كل المعلومات والاخبار المتيسرة حتى لو اساءت الى المقربين .

وقد انعكست هذه الحالة داخل كل من الاتحاد الاشتراكي وطليعة الاشتراكيين ، وكادت تصبح كتابة التقارير عن اتجاهات الرأي العام هي اهم نشاط للاعضاء ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لتولي ضباط المخابرات السابقين المسئولية السياسية الجديدة وحجب اليسار عن المشاركة الحقيقية في العمل السياسي .

ومع ذلك كان الاتجاه الى اليسار يزداد وضوحا ، ولكن التنظيمات ما زالت ورقية غير حديدية ، جبهوية اكثر منها اشتراكية حقيقية ...

وجمال عبد الناصر يحاول ان يعطي للتنظيم دفعة قوية ، فيعلن انــه يمارس عمله من مكتبه في الاتحاد الاشتراكي ...

ولكنه ابدا لم ينفذ .

ومن الصدمات التي تعرض لها العمل السياسي اعتقال ثلاثة من اهم العناصر العاملة في حقل السياسة ... الدكتور ابراهيم سعد الدين عضو الامانة العامة والمسئول عن المعهد الاشتراكي ولطفي الخولى رئيس تحرير الطليعة وامين عز الدين المسئول التنظيمي في امانة القاهرة ، والتحقيق معهم بوساطة شعراوي جمعه وسامي شرف بتهمة الاتصال بعدد من الشباب الذين اعتقلوا لارتباطهم بتنظيم القوميين العرب .

قيل يومها ان الاعتقال والتحقيق تم على مستوى سياسي ... ولكن الحقيقة انه كان اعتقال بوليسي ... وان الشبــاب قد عوملوا معــاملة بوليسية وان بعضهم كان في غاية النضج والوعي ... والاخلاص لثورة يوليو وجمال عبد الناصر .

كان المسئول عن هذه المجموعة سمير حمزه الذي كان قد اعد تنظيما من الشباب تابعا للقوميين العرب ولكن سامي شرف اتصل به واستوعب تنظيمه في طليعة الاشتراكيين وضم سمير الى مجموعته ثم عين مسئولا للتثقيف في منظمة الشباب ، حتى قبض عليه وتشكلت معه ومع زملائه لجنة تحقيق من علي صبري وشعراوي جمعه وحسين كامل بهاء الدين .

قيل يومها ان هذه محاسبة سياسية ولكنها كانت في اسلوب تنفيذها بوليسية .

الاخوان المسلمون وزلزال كمشيش

عندما وضح موقف الاتحاد الاشتراكي سياسيا ، وتراجعت عنه قوة الضباط اليمينيين والرجعيين ، وبرز الصف الثاني من الضباط المتأثرين بفكر عبد الناصر شخصيا ، والذين يمكن احتسابهم على اليسار .

عندما وضح ذلك بدأ تكتل من العناصر الرجعية في المجتمع ... لـم تتحرك قوى الاحزاب السياسية القديمة ... كانت قد ذابت وتلاشت .

ولكن تحركت عناصر الاخوان المسلمين التي كان قد افرج عنها ، او تولدت في موجة عداء للاشتراكية واكتشفت حركة هذه العناصر اولا فــي محافظة الدقهلية بوساطة بعض اعضاء طليعة الاشتراكيين .

وابلغ الامر الى جمال عبد الناصر الذي حول المعلومات الــى وزارة الداخلية ، ولكن الوزير عبد العظيم فهمي مدير المباحث العامة السابق

افاد بعدم امكانية الاستدلال على نشاط حقيقي للاخوان ، واثار الشكوك حول صحة المعلومات .

وعندما أصر اعضاء طليعة الاشتراكيين على اقوالهم ، اعيد الامر من جديد الى وزارة الداخلية ... وجاء نفس الرد السابق ... واستمر اصرار اعضاء التنظيم على صدق معلوماتهم .

ولم يجد جمال عبد الناصر بدا من الاستعانة بالمباحث الجنائية العسكرية التي سبق ان ذكرنا بعض جوانب نشاطها التي ظهرت من جديد ... وامكن للمباحث ان تضع يدها على تنظيمات وخلايا جديدة للاخوان المسلمين ، قدم اعضاؤها للمحاكمة فيما بعد ، وصدرت عليهم الاحكام .

كانت عودة المباحث الجنائية العسكرية للعمل البوليسي ضرورة فرضها عجز اجهزة البوليس او تواطؤها مع عناصر الرجعية .

واراد جمال عبد الناصر ان يوجه الاهتمام الى جهاز البوليس الذي طالما ندد به واعتبره امتدادا للقديم ... فعين شعراوي جمعه امين التنظيم بالاتحاد الاشتراكي وامين امانة طليعة الاشتراكيين وزيرا للداخلية في محاولة لتسييس البوليس .

عدم التركيز على تكامل التنظيمات السياسية وتكوينها على اسس نضالية ، وعدم معاملة طليعة الاشتراكيين كحزب ثوري يحتاج في بنائه الى مواصفات خاصة ... هو ما سمح للاجهزة الادارية واجهزة الامن ان تمارس دورها بالاساليب القديمة .

وهو ما دفع جمال عبد الناصر الى الاستعانة بالجيش عند كل أزمة يتعرض لها النظام ... من المجمعات الاستهلاكية الى هيئة النقل الى اكتشاف خلايا الاخوان ...

وتفجر حدث عارض كان بمثابة زلزال اجتماعي .

صلاح الفقي احد افراد اسرة الفقي الاقطاعية في قرية كمشيش اتهم بقتل صلاح الدين حسين عضو لجنة الاتحاد الاشتراكي بقرية كمشيش يوم ٤ مايو ١٩٦٦ .

وعائلة الفقي سبق ان نشرت مجلة المصور تحقيقا عن تصرفاتها يوم ١٤ اغسطس ١٩٥٣ وما تفرضه على القرية من ضغط وارهاب وحظر تجول .

وكانت مجلة روز اليوسف قد قامت قبل ذلك بأسابيع بحملة قوية شملت عدة تحقيقات عن تهريب الارض اي الاحتفاظ بملكية تزيد عما ورد في قانون الاصلاح الزراعي بطرق احتيالية .

واثار مصرع صلاح حسين غضبا شديدا ، واصبح حديث المجتمع ... ووجد فيه البعض اعتداء على تنظيم الثورة .

وشكلت لجنة لتصفية الاقطاع ترأسها المشير عبد الحكيم عامر ، بعد تحقيق قامت به المباحث الجنائية العسكرية بعد تبليغ من حسين عبد الناصر شقيق الرئيس الذي كان اول من لفت الانظار الى الحادث ومدلوله السياسي كما قال الصاغ حسن خليل .

يقول زكريا محيي الدين انه قبلها انجرافا وراء اظهار السلطة ، خاصة وانه استخدم فيها قوات المباحث الجنائية العسكرية .

ويقول حسن خليل قائد المباحث الجنائية العسكرية ان المشير قد قبل ذلك لحماية الثورة واحساسا منه بالخطورة التي تهددها .

والواقع ان المشير كان متخما بكثير من المناصب ... كان رئيسا للجنة الاقتصادية العليا ورئيسا للجنة السد العالي ، ثم رئيسا للجنة تصفية الاقطاع الى جانب رئاسة اتحاد كرة القدم .

وظهر عامر والجيش على سطح المجتمع ، وطارد فلول الإقطاعيين في القرى ، واصدر الاوامر لهم بمغادرة الباقي من اراضيهم الى المدن ... ووضع البعض منهم تحت الحراسة ... واشاع بحركته مع قوات الجيش عند الاقطاعيين شعورا مشابها بما ساد في الفترة الاولى للثورة بل واحيانا اشد قسوة ... فعند تطبيق قانون الاصلاح الزراعي لم يستخدم الجيش ... ولكن لجنة تصفية الاقطاع لجأت اليه .

كانت إجراءات لجنة تصفية الاقطاع في غاية الحزم ... تأخذ طابعا عسكريا لا شك فيه .

نشرت مجلة آخر ساعة تحقيقا صحفيا عن احد ضحايا الاسر الاقطاعية في محافظة المنيا ، ونشرت تفاصيل الجريمة مشيرة الى اتهام اسرة اقطاعية معروفة .

وحضر الى دار المجلة احد ضباط المخابرات وهدد بقتل المحرر اذا جرؤ على الاستمرار في النشر ولجأ المحرر الى ادارة المباحث الجنائية العسكرية التي حقق قائدها الصاغ حسن خليل في الموضوع بسرعة ودقة شديدين وسأل رئيس التحرير صلاح حافظ ومدير التحرير سعد كامل ..
ولم تكد تمضي عدة ايام حتى كان ضابط المخابرات العامة قد نقل

من مكانه ، وبدأت النيابة العامة تحقيقا مع الاسرة الكبيرة .

وكانت التناقضات بين الرئيس والمشير تنعكس احيانا على اعمال هذه اللجنة .. ففي ليلة زواج ابنة شعراوي جمعه وزير الدولة وامين التنظيم في نادي ضباط الجيش بهليو بوليس ، فوجيء حسن خليل حسب روايته بعبد المجيد فريد يستدعيه لمقابلة المشير بعد توقف جمال عبد الناصر امامه لحظة مصافحته وفي عينيه نظرة غضب .

وابلغه المشير ان الرئيس تلقى شكوى من احد اهالي كمشيش وطلب منه السفر فورا للتحقيق فقام في منتصف الليل وصاحبه في ذلك الفريق عبد المحسن مرتجى كعنصر محايد ، واللواء عوض الاحول نائب احكام الجيش ، وحسن طلعت مدير المباحث العامة .

وثبت فعلا أن شخصا تعرض لاهانة غير ضرورية وقدم احد الصولات للمحكمة وحكم عليه بالسجن ٦ شهور .

ولعل وجود عبد الحكيم عامر على رأس هذه اللجنة يجيب على تساؤل البعض حول حقيقة اتجاهاته الفكرية والاجتماعية ... فهو رغم كل ما نبت من تناقضات بينه وبين عبد الناصر ، ورغم أصوله الطبقية التي تعتبر متميزة قليلا عن زملائه فهو وعبد اللطيف البغدادي هما الوحيدان من ابناء العمد .

رغم ذلك فان عبد الحكيم عامر كان مخلصا تماما لاتجاهات الثورة مؤمنا بتنفيذ خطتها ... لا يبذل جهدا كبيرا في مناقشة ما يتوصل اليه جمال عبد الناصر .

ولعل هذا هو ما دفع الاتحاد السوفيتي عند زيارة خروشوف لمصر قبل سنتين الى تقديم لقب بطل الاتحاد السوفيتي اليه والى جمال عبد الناصر .

اظهرت لجنة تصفية الاقطاع عيوب تطبيق قانون الاصلاح الزراعي وعجز المسئولين عن تطبيقه بما يخدم الاقتصاد القومي ويخدم الفلاح ايضا .

وكان تأميم الارض فكرة واردة في هذه المرحلة كخطوة لتنفيذ المزارع الجماعية .

ولكن جمال عبد الناصر لم يفكر في تأميم الارض .

قال (تأميم الارض في مصر غير وارد لان الستة ملايين فدان اللي عندنا لا تسمح بهذا ابدا ... ولما كل عيلة تأخذ ٥ الى ١٠ فدادين تبقى ساعدت على الاشتراكية) .

ومع ذلك كانت التناقضات في القرية هي التي أدت الى الصراع الطبقي الذي راح صلاح حسين ضحية له .

التناقض نوعان ... بين الفلاحين وبين الاقطاعيين والرجعيين وهو لا ينتهي بصدور قوانين الاصلاح الزراعي ، ولكن بالنضال ضد نفوذهم وآرائهم التي بثوها كاداة للقهر طوال آلاف السنين ... وهذا ما لم تحققه الثورة للفلاحين بتنظيمهم في وعاء تنظيمي فعال وقادر على التعبير عن آرائهم والدفاع عن مصالحهم .

وهناك تناقض آخر نبت في القرية المصرية بين عمال التراحيل (بروليتاريا الفلاحين) وبين ملاك الارض مهما كانت مساحة ملكيتهم .

الفلاحون في مصر ٧٠٪ من السكان ، ومساحة الارض المنزرعة هي ٤٪ من مساحة مصر .

وتمثيل الفلاحين والعمال بنسبة ٥٠٪ في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي وفي مجلس الامة برزت وجوه جديدة بين الفلاحين ... ولكن احدا منهم لا يمارس الفلاحة بيده كمهنة ، ولكنه دائما من ملاك الارض او المنتمين للاسر الكبيرة .

وعندما يدخل مجلس الامة ، او يقع عليه الاختيار عضوا في قيادات الاتحاد الاشتراكي ، يتغير موقعه الاجتماعي ، ويزداد ايراده ، ويصبح اقرب الى التهاون مع السلطة على حساب مصلحة طبقته .

الفلاح في عرف المؤتمر الاول للاتحاد الاشتراكي هو من تكون الزراعة حرفته ومصدر رزقه ، ومقيما اقامة مستقرة في منطقة عمله ، ولا يزيد ما يحرزه هو واسرته ملكا او ايجارا (زوج وزوجة واولاد قصر) عن ٢٥ فدانا ، والا يكون ممن حددت ملكيتهم طبقا لقوانين الاصلاح الزراعي ، والا يكون من الموظفين او المستخدمين العموميين .

الفلاح الذي يزرع بيديه ... الفقير الذي لا يملك الا قوت يومه ... ما زال امامه سد كبير للوصول الى المشاركة الحقيقية في قيادات الاجهزة السياسية .

التغيرات التي حدثت في حياة الفلاح وفي القرية ، هي اكبر مما حدث خلال ٧٠٠٠ عام ... ولكنها بعد ليست كافية لتحرير الفلاح تحريرا كاملا .

الفرصة ما زالت متاحة لمن يملك في حدود ٢٥ فدانا ... وهو في القرية لا شك سيد وقادر وبعيد اجتماعيا عن بقية الفلاحين ... اقرب اليهم من ساكن المدينة او عضو البرلمان السابق... ولكنه ليس منهم تماما . وحتى اذا كان قريبا منهم ، ويعيش حياتهم ، فانه مع دخوله مجلس

الامة ، او قيادات الاتحاد يتعرض لعملية جذب مادية تزيد من الفارق بينه وبين الفلاحين ... مرتب عضو مجلس الامة ٧٥ جنيها وصل بعد ذلك الى ١٢٥ ، واعطيت لهم اسبقيات في حجز عربات نصر بالتقسيط على سائر المواطنين ، كما اعطيت لهم شقق في مباني الدولة باسبقيات خاصة ، هذا الى جانب المرتبات الاضافية التي يحصل عليها المتفرغ للعمل السياسي .

قال كارل ماركس (عندما تصبح سلطة الدولة في ايدينا لن يكون بالامكان ان ننتزع ماكية الفلاحين الصغار بالعنف بتعويض او بغير تعويض ... مثلما سنكون مضطرين لان نفعل بالنسبة لكبار الملاك ... ان مهمتنا ستكون تجاه الفلاح الصغير قبل كل شيء هي توجيه اتجاهه الخاص ، وتوجيه ملكيته الخاصة في السبيل التعاوني لا بواسطة العنف ، ولكن عن طريق المثل ، وتقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض ومن المؤكد انه سيكون لدينا من الوسائل لاقناع الفلاح بجميع المزايا التي يتسم بها هذا التحول ، والتي لا بد من توضيحها له منذ الآن) .

التعاون في مصر لم ينجح ، والجمعيات التعاونية التي انشئت ، لم تستهدف اقامة تعاونيات تجمع ارض الفلاحين تحت ادارة فلاحية واعية ومنظمة وقادرة على اقناع الفلاح بأن ادخال ارضه في التعاونيات هو لمصلحته الذاتية اولا .

الجمعيات التعاونية التي انشئت تحولت الى ما يشبه دكان بنك التسليف ... ورغم انها تشكل بالانتخابات ، الا ان الفلاح البسيط يعتبر فريسة عندها تنهش من امواله ما وسعها ، لانه لا يجد سبيلا آخر للشراء، ولا يقتنع بجدوى الشكوى للجهات المسئولة لانه تاريخيا وخلال آلاف السنين يعرف ان الادارة هي يد الحاكم التي تقبض على الاعناق ... والشكوى لن ترفع يد الحاكم ... ولذا فهو يفضل ان يخسر بعض امواله على ان يخسر كل وقته ... ويدخل بعد ذلك في متاعب يعجز عن التخلص منها .

التجميع الزراعي الذي بدأ تطبيقه في محافظتي كفر الشيخ وبني سويف كان هدفه في رأي جمال عبد الناصر حسب ما قال في محادثات الوحدة (التجميع الزراعي معناه زراعة تعاونية مش مزارع تعاونية .. ده الحقيقة اقصى ما يمكن تطبيقه في مصر) .

اقصى ما يمكن تطبيقه في حدود قدرات البرجوازية الصغيرة الحاكمة ... او في حدود رغبتها انتظام الفلاحين في تعاونيات يفرض قوتهم

السياسية والاجتماعية ... وهو امـــر تحاشته الثـورة مـع العمال ، وتتحاشاه مع الفلاحين ايضا .

الدولة تباشر سيطرة غير مباشرة لاحتكارها التسليف والسماد ومواد الوقاية ، والمقاومة وآلات الري ... وشراء القطن .

ابعدت بذلك التاجر الجشع ... ولكنها قامت بدوره بصورة اخرى. تعمل من اجلهم ... وليس بهم ...

حتى عام ١٩٦٤ كانت جملة الارض التي وزعت على الفلاحين المعدمين ٩٤٤ر٥٧٤ فدانا كما قال جمال عبد الناصر في خطبة افتتاح مجلس الامة ، الذي ضم لاول مرة في حياة مصر ٥٠٪ من اعضائه عمالا وفلاحين حسب نصوص الميثاق .

ومع ذلك يقول تقرير البنك المركزي انه يوجد ٣ ملايين فلاح معدم عام ١٩٧١ (انظر الطليعة عدد فبراير ١٩٧١) .

وحادث كمشيش كـان زلزالا في المجتمـع الزراعي ... ولكن كـل الاجراءات استهدفت ضـرب فلول الاقطاعيين واضعــاف نفوذهم ، دون محاولة جادة لاطلاق الحرية لتنمية قوة الفلاحين واطلاق طاقاتهم ليواصلوا الدفاع عن انفسهم ... بدلا من الدفاع الاداري لاجهزة الدولة .

وهكذا ظل التطبيق الاشتراكي بعيدا عن قاعدته الجماهيرية ... يصل اليهم من فوق دون تفاعل حي مع الجموع .

ومع ذلك تميزت سنوات ما بعد ١٩٦٤ بأنها كانت اكثر السنوات وضوحا في مسألة التحول الاجتماعي ... وكانت التغيرات التي تمت في مجال التنظيم السياسي ، مبشرة بجدية المحاولة .

يقول ماكسيم رودنسون في كتاب (مصر منذ الثورة) لفاتيكيوتس (لم يعمد اعضاء الطبقات الدنيا في الحزب الى تحدي الدور المسيطر للنخبة الحديثة والقديمة ... ففي الحياة المصرية يرتضي الفقراء والاميون مركزهم المتواضع ... وهكذا لم يتبن الحزب عملية التجديد) .

لم تحدث تحديات فعلا داخل الحزب (الاتحاد الاشتراكي) لان اختيار معظم العناصر للمراكز القيادية على مختلف المستويات كان يتم اساسا عن طريق التأكد من ولائهم ، وبأنهم لا يحملون بذورا ثورية تدفع بهم الى مطالبة النظام بأكثر مما يطيق او يحتمل ... هذا الى جانب التغيرات الاجتماعية التي حدثت في حياة العمال والفلاحين ، والتي لـم تحررهم تحريرا كاملا من متاعبهم الاجتماعية ، ولم تصل بهم الى مرسى الاشتراكية

... الا انها غيرت من واقعهم القديم تغييرا كبيرا ، وجعلت لهم صوتا مسموعا ، وخففت عنهم قبضة الاستغلال .

وبالتأكيد زرعت الامل في قلوبهم لمستقبل افضل .

كان جمال عبد الناصر اكثر زملائه العسكريين اهتماما بالطبقات الفقيرة ... قال لزملائه اكثر من مرة (انا مش عاوز حد يكلمني عن واحد بياخد اكثر من ٣٠ جنيه على انهمسكين ... المساكين اللي بياخدوا اقل من كده) .

المعتقدات الشخصية جعلت منه حليفا للعمال والفلاحين ... وساعد على ذلك نشأته البسيطة في اسرة متواضعة ... ولكن هذه المعتقدات لم تتحول الى ايديولوجية ثابتة .

كل ما صدر عن الثورة خلال هذه الفترة حتى الميثاق رغم اهميته وايجابيته باعتباره اول وثيقة مكتوبة لم تشكل ايديولوجية متكاملة .

لعبة الصحافة

ظلت الاشتراكية رغم كل شيء كجسم الفيل يتلمسه العميان ... كل يراه حسب موضع يده .

ومع ذلك كانت تحدث تغييرات ايجابية في الافكار والمعتقدات يوما بعد يوم ... ساعد على ذلك اهتمام عبد الناصر بأن يتولى اجهزة الصحافة والاعلام عناصر اشتراكية واعية .

الصحافة كانت ترمومترا لا يخطىء ، ينبىء عن اتجاهات جمال عبد الناصر ... الذين يتولون المسئولية فيها يفسرون احتمالات المستقبل .

كل الذين عهد اليهم بمسئوليات رئاسة الدور الصحفية كانوا من الضباط ... انور السادات ، امين شاكر ، لطفي واكد ، محسن عبد الخالق ، خالد محيي الدين ، كمال الدين رفعت ، كمال الدين الحناوي ويوسف السباعي وكاتب هذه السطور ... ولكنهم جميعا غيروا مواقعهم، ولم يبق منهم واحد في ميدان الصحافة او منتميا للنقابة سوى خالد والحناوي والسباعي .

لم يكن اغلبهم صحفيين وكتابا بالمهنة ... وانما بالمسئولية .

وكان هناك تنافر واضح وشديد بين اتجاه الدولة الى تطبيق يصل الى الاشتراكية ... وبين افكار بعض المسئولين في دور الصحف .

الاهرام كانت تحت رئاسة محمد حسنين هيكل المقرب جدا من عبد الناصر ، والمعبر الى حد بعيد عن اتجاهاته الفكرية ، والصائغ دائما

لخطبه الهامة ومكاتباته الرسمية ... وهو الذي وافق واصدر عن الاهرام مجلة الطليعة التي رأس تحريرها احمد لطفي الخولي مع مستشاري تحرير من الدكاترة ابراهيم سعد الدين وعبد الرازق حسن وجمال العطيفي ولطيفة الزيات ورشدي سعيد ومحمد الخفيف والاستاذ امين عز الدين .

اربعة من هؤلاء كانوا معتقلين ...

وكان قد سبق صدور مجلة الطليعة ظهور صفحة الرأي في الاهرام، وهي صفحة عهد بتحريرها الى هذه المجموعة فنشرت مقالات جادة ، واسهمت في اعطاء ثقل فكري معين لصحافتنا اليومية ، وظهرت فيها بحوث ودراسات اشتراكية علمية .

دار الهلال كانت تحت رئاسة احمد بهاء الدين الكاتب التقدمي المعروف ، والمتفهم لطبيعة المرحلة وظروف التغيير .

اما اخبار اليوم فكانت تحت رئاسة الاخوين مصطفى وعلي امين ... المعروفين بصلاتهما الغربية الوثيقة ، المدانين بولائهما ودعايتهما المبالغ فيها للملك فاروق ، ثم التهجم المبالغ فيه ايضا على علاقاته الشخصية بعد سقوطه وتجاهل اخطائه السياسية .

وروز اليوسف كانت ما زالت تحت رئاسة صاحبها احسان عبد القدوس .

وحدث تغير مفاجىء في مواقع المسئولية .

استدعى جمال عبد الناصر اليه كلا من احمد فؤاد وخالد محيي الدين في نوفمبر ١٩٦٤ وصارحهما بوجود ثغرة واسعة بين ما يهدف اليه من تطبيق اشتراكي وبين ما تنشره الصحف من اثارة ، وقصص جنسية بعيدة كل البعد عن اهتمامات الجماهير .

وكلف احمد فؤاد بمسئولية الاشراف على دار اخبار اليوم ، وخالد محيي الدين برئاسة مؤسسة روز اليوسف ... ثم حدث تبادل بين المسئوليتين عندما ابدى خالد محيي الدين انه كلف سابقا بالعمل في الصحافة اليومية (المساء) .

واصدر جمال عبد الناصر قرارا بتعييني رئيسا لتحرير مجلة روز اليوسف .

يد عبد الناصر تلتقي من جديد مع ايدي الماركسيين ... بعد فترة اعتقال امتدت خمس سنين ... واتاح هذا التغيير لهم فرصة اللقاء مع الجماهير على صفحات الصحف بحرية اوسع ، واصبح هذا التيار الفكري الجديد عاملا مساعدا هاما في عملية التحول الاجتماعي .

واتجه الى الصحافة عدد كبير من الذين كانوا معتقلين خلال السنوات السابقة ... كانت هذه هي الاماكن الوحيدة التي وضع في مناصب الرئاسة فيها ماركسيون .

ولم يكن المشير عبد الحكيم عامر غائبا عن هذه التغييرات ... كان قد فرض قبل ذلك حلمي سلام رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير ورئيسا لتحرير جريدة الجمهورية في اغسطس ١٩٦٤ ومنحه دعما ماليا قدره ٣٥٠ الف جنيه رغم تعليمات جمال عبد الناصر بعدم دفع أي اعانات للمؤسسات الصحفية .

وحلمي سلام كاتب قريب من افكار الحزب الوطني الجديد وعلى صلة وثيقة ببعض رجاله ولكنه لم يكن عضوا في طليعة الاشتراكيين ... وقد بدأ حياته في المؤسسة بموقف اثار عليه الصحفيين ... اذ انه اشترط عند تعيينه تخفيف العمال في الدار بنقل بعض الصحفيين الى مؤسسات صحفية اخرى ...

استدعى الدكتور محمد عبد القادر حاتم وزير الاعلام محمد علي بشير العضو المنتدب للدار وضابط سابق .. وابلغه أن حلمي سلام قد سافر الى بور سعيد وانه سيعود بعد شهر ليجد هذه الاسماء — وقدم له قائمة بمائة وخمسين اسما — قد نقلوا الى مؤسسات اخرى ، وصدر الامر فعلا على انه تعليمات من الدكتور حاتم وهو الذي أراد ان يتم الامر سرا مما اثار غضبه .

نقل الصحفيون الى مؤسسات غير صحفية في ادارات الشئون العامة ... وكان من بينهم اسماء معروفة ... عبد الرحمن الخميسي ونعمان عاشور وعبد الرحمن الشرقاوي وسعد مكاوي وغيرهم (١٥٠ صحفيا وعاملا واداريا) .

ولم تمض الامور هادئة في مؤسسة دار التحرير ... وظهرت المباحث الجنائية العسكرية في ميدان الصحافة ايضا ... استدعاها حلمي سلام في ٤ يناير ١٩٦٤ للتحقيق فيما قيل عن وجود اختلاسات بالمؤسسة ... وهجم افراد المباحث على بعض الموظفين في مكاتبهم واعتقلوهم للتحقيق معهم ...

ورابط افراد المباحث الجنائية العسكرية في دار التحرير لا يغادرونها حتى وصل الامر بجمال عبد الناصر الى غايته ، وقرر فصل حلمي سلام بعد نشره محضرا لجلسة سرية عقدها رئيس الجمهورية في مجلس الامة ودعا اليها عددا محدودا من قادة القوات المسلحة والمحافظين ورؤساء

تحرير الصحف يوم ١٧ مايو ١٩٦٥ ... ودخل ذلك في باب الصراع الخفي بين الرئيس والمشير ... وتولى رئاسة المؤسسة من بعده مصطفى بهجت بدوي .

واصبح المسئولون عن الصحف جميعا اعضاء عاملين في طليعة الاشتراكيين ... محمد حسنين هيكل مع مجموعته بالاهرام وصلاته الخاصة بعبد الناصر ... خالد محيي الدين ، احمد فؤاد ، احمد بهاء الدين ، مصطفى بهجت بدوي ، كاتب هذه السطور .

وقد أدت طليعة الاشتراكيين دورا بارزا في حشد عدد من شباب الكتاب والصحفيين حتى اصبح التيار الوطني التقدمي سائرا في مجال الاعلام بصورة واضحة .

ازمة الثقافة

وحدث تغيير في الثقافة ايضا .

وبداية وزارة الثقافة كانت على يد فتحي رضوان اول وزير لها عام ١٩٥٦ يعاونه الدكتور حسين فوزي وكيلا للوزارة ، ويحيى حقي مديرا لمصلحة الفنون التي كانت تضم نجيب محفوظ وغيره من المثقفين .

بداية هذه الوزارة كانت مبشرة ... فقد ارست عدة مشروعات هامة مثل انشاء اوركسترا القاهرة السيمفوني، واقامة مدينة الفنون التي تضم الكونسرفتوار ومعهد الباليه ، ومعهد السينما ، والمعهد العالي للفنون المسرحية ... ونجح المسرح القومي ثم مؤسسة المسرح في اقامة نهضة مسرحية لم تشهدها مصر من قبل ، وفتحت الأبواب للكتاب التقدميين الشباب ... نعمان عاشور ويوسف ادريس وسعد الدين وهبه ، والفريد فرج وغيرهم من الذين واصلوا المسيرة معهم وكان توفيق الحكيم الذي حافظ على حيوية افكاره واستمر رائدا في المسرح بلا جدال .

وعندما استقال فتحي رضوان ، عين الدكتور ثروت عكاشه وزيرا يعاونه الكاتب الصحفي عبد المنعم الصاوي وكيلا للوزارة ... وفي عهدهما استمر التيار الثقافي في تدفقه ، وارتفع صرح الافكار التي تبناها فتحي رضوان ...

واصبحت الثقافة تلعب دورا رئيسيا في حياة الجماهير ... الى ان سقطت وزارة الثقافة في بداية عام ١٩٦٣ في يد عبد القادر حاتم وزير الارشاد ، فبدأت تفقد كيانها ومضمونها ، واختلطت الانظمة فيها بطريقة سخيفة مما جعل المسرح ينضم الى الاذاعة ويتولى مسئوليته الاشرافية

مدير الاذاعة ... والسينما تنضم الى هندسة التليفزيون ويتولى مسئولية الاشراف عليها مهندس بعد ان كانت مؤسسة عامة .

كان سقوط وزارة الثقافة في يد عبد القادر حاتم ناتجا عن صراع بينه وبين وزير الثقافة السابق ثروت عكاشة ، بدأ عندما انشأ التليفزيون ست فرق مسرحية دفعة واحدة ، تخصصت في تقديم التفاهات والمسرحيات المبتذلة ، ولم تحتمل اعصاب ثروت عكاشة هذا الموقف فانفجر غاضبا ومهاجما اسلوب عبد القادر حاتم .

كان عبد القادر حاتم من النوع الهادىء الخاضع ، وكان ثروت عكاشة من النوع العصبي المعتز باشتراكه في الضباط الاحرار وحركتهم ليلة ٢٣ يوليو ... وكان على علاقة شخصية وثيقة مع المشير عامر .

وبدأ التصادم بين الضابطين ...

ولم يكن عبد القادر حاتم قادرا على تنفيذ أي مشروع دون الحصول على تصديق وموافقة جمال عبد الناصر ... ولذا كان تصادم ثروت معه تعبيرا حتميا عن تصادمه مع جمال عبد الناصر ... وبدأ الامر في النهاية كما لو انه تصادم بين عامر وصديقه ثروت وبين جمال عبد الناصر ومنفذ توجيهاته عبد القادر حاتم .

وقدم ثروت عكاشة استقالته لانه فوجيء الى جانب خلافاته الفكرية مع حاتم باعتقال اثنين من سكرتيريته بشبهة الاتصال بالملحق العسكري المصري في لبنان (زغلول عبد الرحمن) الذي سلم نفسه الى سوريا والذي تربطه صلة نسب بعيدة مع ثروت عكاشة .

وتعين ثروت عكاشه رئيسا للبنك الاهلي ، وانضمت الثقافة الى الارشاد وتولاها عسكري آخر هو عبد القادر حاتم الذي كان قد اصبح دكتورا ايضا .

المؤسف انه خلال هذه الفترة استطاع حاتم ان يقسم جبهة اليسار باجتذابه لاحمد لطفي الخولى الذي رفضت له لجنة قراءة مؤسسة المسرح المشكلة من الدكتور محمد مندور والدكتور محمد القصاص مسرحية تسمى (الارانب) وكنت في ذلك الوقت مديرا لمؤسسة المسرح مع رئيسها الدكتور علي الراعي ، فهرع الى عبد القادر حاتم الذي احتضنه واعد له مشروعا يصادم به مؤسسة المسرح ، مستغلا اسم الكاتب الكبير توفيق الحكيم بانشاء ما سمي باسم مسرح الحكيم الذي قدم الارانب فسقطت سقوطا شديدا ، ثم ظهرت على خشبته مسرحيات مختلفة للدكتور رشاد رشدي صاحب الافكار الرجعية واستاذ الادب الانجليزي بجامعة القاهرة .

ولم يكن ممكنا في عهد بناء الاشتراكية ان تبقى الثقافة في انحدارها وضياعها ... فان اجهزة الثقافة يجب ان تتحلل من طغيان التفاهة والابتذال ، لتمارس دورها المؤثر في خدمة الجماهير .

كانت مسئوليات عبد القادر حاتم قد تعددت وتشعبت ، فشملت وزارة الارشاد والثقافة والسياحة ايضا .

كان الانجراف وراء الدعاية قد وصل الى حد الاعلان عن صدور كتاب كل ٦ ساعات وتقديم مسرحية جديدة كل اسبوع ، وبناء فندق جديد كل ١٥ يوما .

كانت الكتب تتدفق سطحية ومليئة بالاخطاء الى جانب سوء اختيارها وبعدها عن الفكر الاشتراكي الاصيل ... وكانت الفنادق تبنى على غير خطة ، فلا تجد بعد اتمامها ساكنا يدخلها لاخطاء في التصميم او في اختيار المكان ، كما بدأت المسرحيات الهابطة تطرد المسرحيات الجيدة .

ووصل الامر غايته .. واصبح اسلوب عبد القادر حاتم مثل النغمة النشاز في جو المجتمع المتجه في جدية لمحاولة تطبيق الاشتراكية وترسيخ دعائم ثقافة قومية .

الغريب في ذلك الوقت ان طليعة الاشتراكيين كانت تستوعب كلا من عبد القادر حاتم في مجموعة علي صبري وثروت عكاشة في مجموعة المشير ... ولكن هذا الانتماء لم يستطع ان يقرب بينهما او يوحد من افكارهما او يخلق لهما خطة وهدفا مشتركا .

ثم كانت الخطوة التالية هي اقصاء عبد القادر حاتم عن المنصب بعد تعيين صدقي سليمان رئيسا للوزراء ... وعاد الدكتور ثروت عكاشه من جديد .

الكرة يتبادلها العسكريون ... والمثقفون الحقيقيون متفرجون ...

عادت وزارة الثقافة في تنظيم مؤسساتها من جديد ... تحاول ان تستعيد انفاسها وتقدم للناس ما يفيد .

والثقافة هي التي تضيء الطريق لتقدم الافكار الانسانية والاشتراكية .

وثروت عكاشه يستعين في وزارته بالماركسيين ايضا ... سعد كامل مديرا لادارة الثقافة الجماهيرية ... ومحمود امين العالم رئيسا لمؤسسة النشر ثم مؤسسة المسرح ... ويضع على رأس مؤسسة السينما كاتبا ديموقراطيا تقدميا هو نجيب محفوظ . جميعا كانوا اعضاء في طليعة الاشتراكيين .

وكان هذا دليلا على ان طليعة الاشتراكيين لم تستطع ان تفرض ايديولوجيتها وقواعدها التنظيمية على اعضائها فوق مناصبهم الادارية .

كان الاهتمام الرئيسي بالمنصب الوزاري او الاداري .. ومن بعدد يأتي الانتماء الى طليعة الاشتراكيين كواجب اضافي (ثقيل) يفرضه نظام الدولة ، ولا يجد استجابة حقيقية في صدور كبار المسئولين .

ويمكن القول بأن القدرات القيادية في طليعة الاشتراكيين كانت اضعف احيانا من ان تفرض نفسها على بعض الشخصيات الى جانب عدم توفر ايديولوجية واضحة وقواعد تنظيمية حديدية .

الثقافة والاعلام استقرت في ايدي اكثر العناصر اقتناعا وقدرة على خدمة التطور نحو الاشتراكية .

وساعد ذلك على حسم قضية بقاء التنظيمات الشيوعية او حلها ... واصدرت الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني بيانا بلورت فيه نفسها في شخصية سكرتيرها العام كمال عبد الحليم ، الذي بقي رمزا للتنظيم ؛ ولكنه في نفس الوقت اصدر قرارا بحله .

وهنا أشير الى نقد وجه لي شخصيا في بيان الحل نتيجة مقال كتبته في روز اليوسف ونصحت فيه التنظيمات الشيوعية بحل نفسها والاندماج في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي حتى لا تتعرض لتصادم جديد مع الحكومة .

كنت اكتب من موقع الحرص على الاندماج وعدم تردي الامور الى درجة التصادم ... واخذ حديثي على انه نوع من التهديد ... وهو أمر لم أكن املكه ... ولكني لعلي اخطأت في التعبير ... بل لعلي اخطأت في الحماس لعملية الدمج ذاتها ، دون توفر شروط ضرورية لاستمرار نضال الطبقة العاملة خلف قيادة حزبها .

واصدر الحزب الشيوعي المصري بيانا ايضا يعلن فيه حل الحزب .

الامور تستقر على قاعدة عريضة من التحالف النسبي بين الطبقات المختلفة ... ومع ذلك فالخشية موجودة دائما من احتمالات ظهور تنظيمات سرية يمينية او يسارية .

هنا لا تعرف السلطة سوى قبضة جهاز الامن .

عندما حامت الشبهات حول بعض الشباب واتصاله بحركة القوميين العرب ، اعتقل الشباب ، واعتقل ايضا ابراهيم سعد الدين وامين عز الدين

ولطفي الخولي وحقق معهم شعراوي جمعه وسامي شرف ، كما سبق ان ذكرت .

وعندما حاول بعض اعضاء الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني التجمع من جديد ، اعتقل كمال عبد الحليم السكرتير السابق ومعه ثلاثة آخرون لمدة خمسة شهور .

الاتجاه الى اليسار لا يندفع بأكثر مما تسمح به السلطة التي كانت تدخل في تقديرها عدة عوامل منها :

١ ــ الادراك بتوافر نظرية متكاملة عند الماركسيين تؤثر وتنتشر دون صعوبة بين المشتغلين بالسياسة مما يمكن ان يشكل خطرا عليها .

٢ ــ غيبة التنظيمات الشيوعية بعد قرار حلها واختفاء علمها من الساحة السياسية .

٣ ــ الاتجاه الوسطي للقوات المسلحة وعدم الرغبة في تسييسها ، والحذر الدائم من حركتها .

٤ ــ تأثير السياسة الخارجية على الموقف الداخلي والحرص على اقامة علاقات متوازنة مع امريكا وروسيا .

٥ ــ عدم رغبة جمال عبد الناصر في استكمال التنظيم الحزبي على اسس نضالية حتى لا يقلل من انفراده المطلق بالسلطة ... ويتضاعف رفضه بالتالي لاي تنظيم خارج على اطار الاتحاد الاشتراكي .

٦ ــ نشاط الرجعية التي لم تصف ايديولوجيا ولا ديموقراطيا ، والتي ما زالت بعض عناصرها في السلطة تنفث سمومها .

ولكن هذا لا ينفي انه كانت هناك حركة شاملة لليسار ، يقودها جمال عبد الناصر من موقعه في قمة السلطة .

وكما كان يعمل من اجل الفلاحين والعمال ... وليس بهم او معهم ... فانه يبني الاشتراكية وحده ، وليس بتنظيم اصحاب المصلحة الحقيقية فيها تنظيما جادا ، ليسير معهم الى تحقيق الهدف .

وبقيت صورة الاشتراكية مهزوزة وغير مستقرة ... البعض يطلق عليها اسم (الاشتراكية العربية) والبعض يؤلف كتبا تدرس في الجامعة على انها كذلك .

وجمال عبد الناصر يقول في مؤتمر المبعوثين انه لا يعرف الا اشتراكية واحدة لها تطبيقات مختلفة .

يحسم القضية في كلمات ... اشتراكية علمية ، وتطبيق مصري او عربي .

ولكن هذا الاقتناع لا يستقر في عقول الكثيرين ... ليس الذين هم خارج اطار الحكم ، ولكن بعض الذين يشاركون فيه .

ويستقر في النفوس يقين بأن الوصول الى الاشتراكية عن هذا الطريق الذي تمضي فيه الامور عملية ممكنة ، ولكنها صعبة ومعقدة ، ومرتبطة بشرط هام ... هو بقاء جمال عبد الناصر شخصيا في قمة القيادة بالدولة ، لانه الضمان الوحيد لعدم انتكاس خطوات المسيرة في طريق التحول الى الاشتراكية .

وتزداد خطوات المسيرة بطئا وتثاقلا .

اجهزة الاتحاد الاشتراكي دخلت دائرة البيروقراطية ... خطط على الورق ، واجتماعات ، ومناقشات ، وينفض كل شيء ... والجماهير تفقد اهتمامها وشوقها للجهاز الكبير يوما بعد يوم .

طليعة الاشتراكيين ترزح تحت عبء الذين فرضوا على بعض اجهزتها القيادية ، فتحولت الى صورة مصغرة من الاتحاد الاشتراكي بلا فارق كبير ... والتزاوج بين امانة التنظيم ووزارة الداخلية لم يؤد الى تسييس البوليس ، ولم يؤد ايضا الى رفع قبضته عن الاشتراكيين ... البعض منهم ما زالوا مطاردين ... وقانون اسماعيل صدقي لمقاومة الشيوعية ما زال هو القانون السائد والمنفذ .

الجيش يواصل اهتمامه بلعبة السياسة عن طريق التدخل فيها كلما توافرت الظروف المناسبة ... وعبد الحكيم عامر يواصل توسيع دائرة نفوذه في مجالات العمل الداخلي ، يواصل ايضا حياته الناعمة اللاهية ... والفكر الاشتراكي الاصيل لا يدخل الجيش رغم ما ورد في الميثاق .

فلول الاقطاعيين والبرجوازية الكبيرة ما زالوا يقاومون الحركة في طريق التحول الاشتراكي ... يضخمون الاخطاء والانحرافات ... ويستغلون مهادنة جمال عبد الناصر لهم ، وسكوته ايضا على المنحرفين في الحكومة والقطاع العام ، ليواصلوا تجمعهم المعارض ، الذي قال عنه جمال عبد الناصر امام مجلس الامة (انه حزب رجعي منظم) .

الضغوط الامبريالية الخارجية تواصل دورها في الضغط على النظام في محاولة للوصول بالحالة الاقتصادية الى مستوى يثير الجماهير .

كل هذه العوائق تقف في طريق الاشتراكية التي حاولت الطبقة الوسطى بقيادة عبد الناصر ان تطبقها دون عقيدة شديدة الوضوح ، وفي غيبة تنظيم مناضل وموحد الفكر ، وفي وجود عناصر مضادة في مختلف الاجهزة الحكومية والسياسية من القمة الى القاع .

وكان الامر صعبا وعسيرا .
التطبيق المصري للاشتراكية ... يؤتي بعض الثمار ، ولكنه ما زال بعيدا عن ان يكون مستقرا او راسخ الجذور في المجتمع .
ومجتمع عبد الناصر لم يستكمل معالمه بعد .

السنوات الاربع الحاسمة

الامور لم تصل الى نهايتها .. والسياسة لا تعرف الجمود .. ومراحل الانتقال من نظام الى آخر هي اصعب المراحل .. وخاصة اذا اعتمدت على التجريبية ولم تقدر الايديولوجية تقديرا صحيحا .
والميثاق ليس ابديا .. قال جمال عبد الناصر في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في مايو ١٩٦٢ (ان الميثاق للجيل .. وانا كنت حريصا على الا احدد حاجة فيه لاكثر من ٨ سنين يمكن جددت سنة ١٩٧٠ او ١٩٧١ لانه جايز ييجي ناس بعد كده يحصل عندهم تطور فكري تقدمي اكثر من هذا الميثاق او يحبوا يضيفوا عليه حاجات جديدة او يعدلوه) .
تعديل الميثاق امر مقرر .. وصعوبات المسيرة هي التي تحدد صحة الاتجاه الجديد .
وكتبت في روز اليوسف بتاريخ ٤ يوليو ١٩٦٦ ست مقالات تحت عنوان (السنوات الاربع الحاسمة) ناقشت فيها الاخطار التي تعرض لها النظام قبل الوصول لتعديل الميثاق وهي الفترة التي يتم فيها اكتمال تنظيم طليعة الاشتراكيين ، وتتم خطة التنمية الثانية ، ويستقر النظام على اسس جديدة .
كانت لجنة تصفية الاقطاع قد كشفت ان الرجعية في الريف ما زالت تخفى كالحرباء ، وان في مقاومتها للتقدم شراسة وضراوة ، واثبتت قضايا الاخوان المسلمين ان هذا التنظيم الرجعي لم تتم تصفيته فكريا وأيديولوجيا وان تصفيته اداريا لم تكن وحدها كافية ، وتبين ان جيوب البرجوازية في القطاع العام تحاول ان تحطمه من الداخل بالفساد والاهمال والانحراف .
وظهرت في جريدة الجمهورية سلسلة من المقالات بقلم علي صبري في عام ١٩٦٦ وكان تغيرا قد حدث في ادارتها نزع مصطفى بهجت بدوي من موقعه كرئيس لمجلس الادارة بعد حلمي سلام ، وعين في مكانه فتحي غانم الذي كان رئيسا لتحرير مجلة صباح الخير ، ثم مديرا لوكالة انباء الشرق الاوسط .
اخذت هذه المقالات وجهة نظر يسارية ، واثار ظهورها علامات استفهام كثيرة ، وتساءل الناس عما اذا كان في ذلك محاولة لظهور منبر

منافس لجريدة الاهرام التي كانت دائما محل حظوة واهتمام الرئيس جمال عبد الناصر ... وحاول البعض معرفة حقيقة الدور الذي يلعبه علي صبري من سطور هذه المقالات .

وكان الامريكيون يتابعون في تركيز شديد بوساطة عملاء المخابرات المركزية الامريكية كما تبين في التحقيق في قضية مصطفى امين رئيس تحرير الاخبار الذي ضبط في منزله مع بروس اوديل الديبلوماسي الامريكي عميل المخابرات ... يتابعون حركة العناصر اليسارية والشيوعية (وقد صدر الحكم بالمؤبد على مصطفى امين) .

وبدأت موجات من الدعاية تلاحق علي صبري بعد هذه المقالات بأنه اصبح شيوعي النزعة .

ولكن محمد علي بشير الضابط السابق والعضو المنتدب لدار التحرير للطبع والنشر روى لي انه خلال مناقشة مع على صبري قال له ان القراء في حالة قلق من مدلول هذه المقالات .

وكانت دهشة بشير شديدة عندما فوجيء بعلي صبري يقول له (اعمل ايه .. المقالات تحضر لي .. وانا اوقعها) .

علي صبري لم يكتب هذه المقالات ولم يطالب بكتابتها .. بل ولم يكن حريصا على ذلك .. ومع هذا فقد ظل توقيعه يشكل واجهة يسارية لشخصيته .

ومثل هذا الموقف الذي ارتضاه علي صبري خلق تناقضات بينه وبين المشير عامر واعضاء مجلس الثورة، كما سبق توضيحه في الفصول السابقة. وبدأت خلال هذه الفترة تتأكد معالم رغبته في ان يكون له نفوذ وشخصيات تابعة في الاتحاد الاشتراكي ، وفي الصحافة التي كانت تابعة له من الوجهة النظرية .

وزادت شخصية علي صبري نفوذا بعد تغيير وزارة زكريا محيي الدين ، وتعيين صدقي سليمان رئيسا للوزراء .. ولكنها في نفس الوقت بدأت تتعرض لتناقضات مع عناصر الصف الثاني المتطلعين لسلطة ونفوذ الصف الاول مثل سامي شرف وشعراوي جمعه .

الشخصيات الرئيسية في مجتمع جمال عبد الناصر تتبدل وتتغير والاستقرار فيه ما زال بعيدا .. والآمال الطموحة للنظام تدخل مرحلة اربع سنوات حاسمة .

الامبريالية العالمية والامريكية لا تغمض عينيها .. والنظام يتعرض لضغوط ، بدأت تقطع المعونة الامريكية .

وكان عام ١٩٦٧ .

الفصل العاشر

مجتمع جمال عبد الناصر

(لن استطيع ان أقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان)

جمال عبد الناصر

ليس من شك في ان جمال عبد الناصر قد استطاع ان يغيبر وجه مصر .. وان يشق لها طريقا جديدا ..

وليس من شك ايضا في أن السنوات الاولى لحركة القوات المسلحة قد استنفدت جهده في مشاكل داخلية وصراع مع القوى السياسية القديمة، والعناصر المنافسة داخل القوات المسلحة .

وعندما استقرت الامور له ، وانتهى دور محمد نجيب وعقدت اتفاقية الجلاء ، وتمت تصفية القوى المعارضة من اليمين واليسار بوسائل ادارية، بدأت اتجاهات جمال عبد الناصر الحقيقية في الظهور .
استمرت هي الدافع الاكبر له في حركته .. فكانت معركته الصلبة ضد الاحلاف العسكرية ، ورفضه الخضوع مطلقا لمطالب الامبريالية بالانضواء الى معاهدات الدفاع المشترك او قبول مبدأ ايزنهاور .
كانت عقيدة عبد الناصر ان يكون مطلق السراح في حركته الوطنية بلا اية قيود .. وقد اثر عليه مؤتمر باندونج واهتمام قادة الدول الاسيوية والافريقية به باعتباره قائدا لحركة ثورية ضد النظام ملكي متعفن .. مما أدى الى شعوره بكيان مصر وقدرتها على ان تثبت وجودها وسط المجال الدولي .
وكان اهتمام جمال عبد الناصر وزملائه اعضاء مجلس القيادة كبيرا في ان يكون لمصر جيش وطني قوي .. فقد كان هذا هدفا من ابرز اهدافهم،

واشدها حساسية ، لان حركتهم انبعثت اساسا ضد فساد الملك وقيادة الجيش ، وكان اجراؤها الاول هو تطهير الجيش من كافة الضباط في رتبة اللواء والعميد عدا نفر محدود لا يتجاوز خمسة اشخاص .

ولذا فان جمال عبد الناصر لم يتردد لحظة في محاولة الاتصال بحكومة الولايات المتحدة لكسر القيود البريطانية على امداد الجيش .. ولكن حكومة الولايات المتحدة لم تقبل تسليح الجيش المصري طالما هو غير خاضع لاحلافها العسكرية ومواثيقها الدفاعية ، ولم يصل الى مصر من السلاح الامريكي الا مسدس مطلي بالذهب ارسله ايزنهاور هدية الى محمد نجيب .

ولم يقبل جمال عبد الناصر الخضوع للشروط الامريكية ، ولم يقبل الجمود ايضا .. وكان الاتصال مع السوفييت من اجل تسليح الجيش ، هو بداية الاتصال بين دولة من دول التحرر الوطني ودولة اشتراكية .

ولذا كان جمال عبد الناصر رائدا في هذا المجال ، الذي يتحرك فيه بحرية كاملة دون أي ارتباط سوى مصلحة وطنه كما هو مقتنع بها .

ولم يرتبط جمال عبد الناصر بايديولوجية معينة .. كان يخشى ان يقيد ذلك حركته .. ولكنه في نفس الوقت لم يكن جامحا في عدائه للنظريات والمبادىء المختلفة .

كان الوحيد من اعضاء مجلس قيادة الثورة غير الماركسيين الذي يتصل بأفراد من تنظيم قسم الجيش في الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) وهم يعرف هويتهم السياسية ، في وقت كانت الشيوعية فيه مطاردة بشراسة من جانب اجهزة الامن في النظام الملكي .

لم يأخذ جمال عبد الناصر جانب الرفض في خلق علاقة مع الشيوعيين قبل الثورة ، كما انه لم يكن المسئول الوحيد عن تمزق العلاقات بين الحركة الشيوعية وحركة الجيش بعد الثورة .

وكما كان جمال عبد الناصر منفتحا في علاقته مع الشيوعيين ، كان منفتحا ايضا على الاخوان المسلمين ومصر الفتاة وكافة القوى السياسية بدرجات متفاوتة .

كان مقتنعا بأن حركة الجيش يجب ان تتعرف وتتصل بكافة هذه القوى ، وتحاول الارتباط بها .. ولولا قناعته الشخصية بذلك لما امكن خلق أي نوع من الحوار بين الشيوعيين والضباط فقد كان الضباط بصفة عامة متأثرين الى حد بعيد بأفكار جماعة الاخوان المسلمين الذين ارتبط معظمهم بها ، او تغلب عليهم طبيعتهم العسكرية المحافظة غير المنفتحة على واقع الحياة .

كان جمال عبد الناصر ابرز زملائه في هذا الاتجاه .. اتجاه الاتصال بكافة القوى السياسية ومحاولة تجميعها في تنظيم جبهوي واحد ، الامر الذي نجح فيه تماما في تنظيم الضباط الاحرار .

استطاع بشخصيته ان يكتسب ثقتنا نحن اعضاء قسم الجيش في الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) ، والتقت افكاره مع افكارنا في السعي لتوحيد كافة القوى والعناصر الوطنية المعادية للاستعمار في جبهة واحدة .

ولكن جمال عبد الناصر في هذه الاتصالات كان حريصا على الا يربط حركة الجيش بأي حزب او تنظيم سياسي .. كان يطلب لها استقلالا خاصا متميزاً .

ولذا فقد فصل قائد الجناح عبد المنعم عبد الرؤوف من اللجنة القيادية للضباط الاحرار ، لانه كان مصرا على البقاء في الاخوان المسلمين وتجنيد الضباط لتنظيمهم .. ولكنه مع الشيوعيين لم يتخذ هذا الموقف لان تجنيد الضباط لقسم الجيش في حدتو كان يتم بعد فترة ترشيح يختبر فيها الانضباط خلال حركته في تنظيم الضباط الاحرار اذا كان عضوا فيه .. ولذا كان الضباط ، الشيوعيون العاملون في الضباط الاحرار يتصرفون كأعضاء فيه ولا يتجاوزون حدودهم الا بخطوات سرية لا تهدد الضباط الاحرار وانما تدعمهم .

وانتصار جمال عبد الناصر في تكوين هذه الجبهة العسكرية التي ضمت ضباطا تفكيرهم متطابق مع الاخوان المسلمين مثل كمال الدين حسين وضباطا ماركسيين مثل يوسف صديق ، وخالد محيي الدين خلق عنده شعورا بامكانية تحقيق ذلك في المجتمع بعد نجاح الثورة .

ولكن الموقف كان مختلفا .. وبدأت سنوات الصدام بين السلطة العسكرية الوليدة ، والقوى السياسية القديمة او التي لعبت دورا في التعاون مع حركة الجيش قبل ٢٣ يوليو .

وتصادمت حركة الجيش مع الوفد والشيوعيين والاخوان المسلمين ، وهي القوى الذي كان يمكن ان تشكل جبهة وطنية معادية للاستعمار .. ولم تستطع الحركة لغياب الايديولوجية من فرز العدو والصديق .

ولذا فقد انفردت هذه القوى بمحاولة تشكيل الجهة من عناصر وفدية وشيوعية وعناصر متقدمة في جماعة الاخوان المسلمين .. ولكن اجهزة الامن وصلت اليهم وقدمتهم للمحاكمة عام ١٩٥٣ فيما عرف باسم قضية الجبهة.

انصرفت القوى السياسية عن حركة الجيش تدريجيا ، واكتملت

السلبية بعد عزل محمد نجيب ومحاكمات الاخوان المسلمين .

وهنا يبدأ جمال عبد الناصر في تشكيل المجتمع المصري .

المواقف الوطنية التي اخذها جمال عبد الناصر في تتابع وايقاع سريع جعلت شخصيته تلمع وتصبح اكثر تأثيرا ، بعد ان كانت موجات النقد له قد وصلت غايتها ، ثم بدات تنحسر تدريجيا بعد اطلاق الرصاص عليه في ميدان المنشية بالاسكندرية في اكتوبر ١٩٥٤ من محمود عبد اللطيف عضو الاخوان المسلمين .

الانتصار في معركة الاحلاف ومؤتمر باندونج وصفقة السلاح وجلاء القوات البريطانية . واخيرا تأميم القناة ووقف العدوان الثلاثي ثم انسحاب قواته .

كل هذه الخطوات خلقت رصيدا شعبيا هائلا لجمال عبد الناصر كزعيم وطني .. ووسعت الفرق بينه وبين زملائه اعضاء مجلس قيادة الثورة .

واصبح الزعيم في قمة مجده ، يمارس تشكيل المجتمع بارادته .. مجلس الثورة لم يعد كيانا تنظيميا واعضاؤه يستمدون وجودهم من علاقتهم به .

ورؤية جمال عبد الناصر للمجتمع خالية من البعد الطبقي .. اعتقد انه قادر على حشد الجماهير من مختلف الطبقات دون تناقض أو صراع .

وغلبت عليه هذه النظرة المثالية ، وشجعه عليها عدة عوامل منها تجربته الناجحة في الجهة العسكرية للضباط الاحرار ، وعزله للقوى المتصارعة معه المؤمنة بمبادئها عن حلقة العمل السياسي ، ورصيده الهائل من انتصاراته الوطنية .

ولم يدرك جمال عبد الناصر ان الانتصارات الوطنية لا تلغي التناقضات والصراعات الطبقية وان روح الوئام والتسامح لا تخلق بين الطبقات الا على اسس موضوعية .. وان تعلق الجماهير بشخصيته لا يعني اهمالها لواقعها الاجتماعي والطبقي .

لم يدرك جمال عبد الناصر ذلك رغم انه كان يحمل مسئولية تشكيل المجتمع الجديد دون أن يكون هناك برنامج يسترشد به ، وحركة الضباط الاحرار اعتمدت على النقاط الست باعتبارها اهدافا عامة ، ولم تثبت تصورها في برنامج مكتوب يوضح موقف اول تنظيم لها وهو (هيئة التحرير) وكتاب فلسفة الثورة الذي حمل اسم جمال عبد الناصر لم يكن اكثر من خواطر شاب وطني وجد نفسه في قمة المسئولية .

ان جمال عبد الناصر قد كتب مقدمة لكتاب (حقيقة الشيوعية) الذي

كان يروي افكارا طموحة بعيدة عن أي مضمون اجتماعي — ورغم ان مؤلفه هو مدير مكتبه امين شاكر — متهجما في سطحية وباسلوب الدعاية الاستعمارية على الاشتراكية العلمية، الا ان ذلك لا يعبر عن محور اصيل في تفكير جمال عبد الناصر، اذ انه كثيرا ما كان يقع تحت ضغوط بعض زملاءه المعادين اصلا للتقدم والتفتح الفكري ، وما ورد في هذه المقدمة ليس اكثر من توقيع على مقدمة كتبت له بطريقة روتينية .

لم يكن جمال عبد الناصر من القادة الذين يبنون مستقبلهم بالهجوم على الشيوعية .. ورغم اعتقاله ومطاردته لاعضاء التنظيمات الشيوعية وتضييقه الخناق على حركتهم السياسية وتركه لقوانين النظام الملكي البالية ، الا انه لم يكن يطعم احاديثه ، وخطبه دائما بمهاجمة اليسار والشيوعية ولم تكن معاداة الشيوعية هي رأس رمح النظام بل انه كثيرا ما تعاون مع الشيوعيين وخاصة في مراحل المد الوطني مثل فترة العدوان الثلاثي كما ورد تفصيلا في الباب الاول .

كان جمال عبد الناصر قد بدأ يتفهم الدور الوطني الذي يؤديه الشيوعيون.. وكان كسره لستار منع التعامل مع الدول الاشتراكية ولقاؤه بقادتهم وزيارته لموسكو وربط تسليح الجيش المصري بهم ، ومقاومته الصلبة لضغوط الامبريالية دلالة على طريقه الوطني .. كل ذلك كان من العوامل التي طورت تفكير جمال عبد الناصر في هذه السنوات .. سنوات الصمود . وعبد الناصر ، الذي لم تلبث موجته ان انحسرت .. رغم بقاء الشيوعيين في المعتقلات .

وهكذا كانت هذه الفترة باحداثها وخلافاتها عامل جذب لجمال عبد الناصر ، وابتعدت به عن محاولة وضع برنامج لتنظيمه السياسي الثاني (الاتحاد القومي) الذي استورد خطوطه الرئيسية من تنظيم سالازار في البرتغال ، والذي طمع به الى توحيد صفوف الشعب المصري والشعب السوري على اساس غير طبقي ، تماما كما كانت الحال في (هيئة التحرير) .

استهدف جمال عبد الناصر من التنظيم ان يكون اداة في يد جهاز الحكم ، وليس تنظيما سياسيا يعبىء قوى الجماهير صاحبة المصلحة في انطلاق الثورة واستمرارها على اساس واقعها الطبقي .

وكانت الفرصة متاحة دائما امام جمال عبد الناصر لخلق هذا التنظيم، ولكنه في غمرة انتصاراته الوطنية وارتفاع مركزه الشعبي والعربي والعالمي، لم يجد في غيبة التنظيم ما يشكل خطرا على كيان نظامه او على موقعه في قمة النظام .

وكانت الافكار الاصلاحية التي يؤمن بها هي التي دفعته الى اعتبار ما اطلق عليه اسم (الاشتراكية الديموقراطية التعاونية) السبيل الى تطوير المجتمع بالكلمات الطيبة ، واحيانا بالاجراءات الادارية الحازمة التي تعتمد على جهاز دولة متخلف وبيروقراطي معاد للديموقراطية ومعاد للجماهير .

ولم يكن جمال عبد الناصر حتى هذه المرحلة قد اتخذ موقفا اجتماعيا واضحا ... فالبرجوازية الكبيرة تنمو ، والدعوة الى رؤوس الاموال الاجنبية نشيطة والقوانين تعدل لتصبح نسبة اسهام المصريين ٤٩٪ فقط بدلا من ٥١٪ .. ومع ذلك فقد كانت السلطة الجديدة التي تعتمد على الجيش بطريقة عملية تثير الفزع والخوف عند الرأسمالية المصرية التي ترددت واحجمت عن المشاركة في مشاريع تبني الاقتصاد القومي .

كانت السلطة الجديدة تدعم مواقعها بعيدا عن الارتباط بطبقة معينة ، معتمدة على الجيش ورغم ان جمال عبد الناصر كان معبرا عن مصالح البرجوازية الصغيرة التي اخذت تنمو وتنتشر الا انه ظل حريصا على ان يكون في موقع متميز ومنفرد داخل المجتمع .

وكما رفض الارتباط بايديولوجية قضية معينة ظل ايضا بعيدا عن الارتباط علنا بطبقة معينة . وخلال هذه الفترة اعتمد جمال عبد الناصر على زملائه من العسكريين ، وفتح لهم الابواب للوصول الى مراكز قيادية في ميادين العمل السياسي والثقافي والاقتصادي .

والصورة التي قدمناها في الفصل الخامس توضح ان العسكريين بعد زحفهم الى مراكز السلطة قد لعبوا دورا كبيرا في قيادة جهاز الدولة .. وانهم كانوا في يد الزعيم اكثر طواعية وموضع ثقة كاملة .

هذه الحقيقة الى جانب الاحداث السياسية والخلافات العربية التي حفلت بها هذه الفترة ارشدت اهتمام جمال عبد الناصر بعيدا عن التفكير المركز في وضع برنامج واضح لحركته ، وجعلته يستكين للاعتماد في معظم المواقع المؤثرة على العسكريين .

وهكذا مضت هذه الفترة دون ان تثمر تنظيما سياسيا قادرا على فرز المجتمع الى طبقات يمكن ان تلتحم في جبهة وطنية تقدمية ، وعزل الطبقات المعادية للتقدم .

ومضت الامور بهذا الاختيار السهل حتى وصلت الى طريق مسدود .

كانت نظرية (التصالح الطبقي) في السياسة الداخلية ، ونظرية

(الوسط والتوازن) في السياسة الخارجية هي النظرية السائدة .

لم يعد (التصالح الطبقي) مقبولا من اطراف الصراع .. البرجوازية الكبيرة تهتز سلطتها واموالها بعد تمصير الشركات والبنوك الانجليزية والفرنسية بعد العدوان .. وبعد صدور قانون الشركات الذي حدد العضوية في مجالس الادارات وسن العضو وتأميم بنوك مصر والبنك الاهلي .

ومن الجانب الاخر كانت الوحدة مع سوريا عاملا من عوامل التعطيل في تطبيق الديموقراطية في السياسة الداخلية .. فاستمرت الدولة بلا برلمان اكثر من سنتين .. وتوقفت اجراءات التقدم الاجتماعي ، وباركت البرجوازية السورية هذا الاتجاه المستقر الذي يحمي نشاطها في مصر وسوريا معا .. وبدأت البطالة تشكل خطرا اجتماعيا من خريجي الجامعات او العمال .

وقد بدأت سياسة (الوسط والتوازن) تعبر في مضمونها عن تحرك من اليمين الى اليسار اتفقت مصر على اقامة الشركات الغربية (كيما) للسماد في اسوان (وراكت للورق) وفيات (نصر) للسيارات الى غير ذلك من التعاقدات ، الى جانب الاتفاق على سياسة التصنيع مع الدول الإشتراكية التي عقدها الدكتور عزيز صدقي عام ١٩٥٨ .

وبدا هذا التوازن مقبولا في بدايته .. ولكن انتهاز القوى الامبريالية الخلافات المريرة التي تفجرت بين جمال عبد الناصر والشيوعيين في الشرق العربي عام ١٩٥٩ .. ورجحان كفة ميزان الغرب قد انتهت الى جمود السياسة المصرية وعدم انطلاقها فيطريق التحرر الوطني والتقدمالاجتماعي. واشتدت المعارضة ضد اسلوب عبد الناصر الجديد بين القوى التقدمية ، وخاصة بعد دخول علاقته مع حزب البعث العربي الاشتراكي في دائرة الخلاف ايضا .

ولكن جمال عبد الناصر القائد الوطني لم يرضخ لهذا الاتجاه الراكد، وامكن له بمرونته وحيويته ان يكتشف ان نظرية (التصالح الطبقي) هي نظرية مثالية غير واقعية .. وان القوى البرجوازية والرجعية قد انتهزت فرصة خلافه مع الشيوعيين وحاولت النفوذ الى مركز السلطة والسيطرة عليها .. الامر الذي دفع جمال عبد الناصر الى القول لاحمد فؤاد عند استدعائه ، له لمناقشة قضية تأميم بنك مصر (انني اشعر ان الراسماليين هم الذين يحكمون وليست الثورة) .

وكانت البنوك الاجنبية قد توقفت عن تمويل محصول القطن بعد

تأميم القناة كجزء من مخطط استعماري يستهدف احداث انهيار اقتصادي في البلاد ، وكان طبيعيا لجمال عبد الناصر وهو يحرص على التنمية ان يسيطر على قنوات التمويل من بنوك وشركات تأمين واعادة تأمين لتكون اداة مساندة للاقتصاد الوطني وخطة التنمية بعيدا عن السعي وراء الربح السريع والمضاربة .

واصدر جمال عبد الناصر قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية فكانت نهاية مرحلة الحيرة التي سادت بعد العدوان الثلاثي ، وانتهت الى حد بعيد سياسة (التصالح الطبقي) اما سياسة (الوسط والتوازن) في السياسة الخارجية فقد استمرت معبرة عن رؤية جمال عبد الناصر الوطنية ، وخشيته من الارتباط بأيديولوجية معينة ، او تكتلات سياسية عالمية .

وقد اثر صدور هذه القوانين تأثيرا سريعا في حركة القوى السياسية المختلفة ..

تحولت البرجوازية الكبيرة وبقايا الاقطاعيين الى اعداء مباشرين للثورة ولعبد الناصر ولم يمض وقت طويل قبل ان يتحركوا ضده في سوريا خلف الانقلاب الذي انتهى الى الانفصال وانتهاء تجربة الوحدة الاولى .

وادرك جمال عبد الناصر متأخرا ان نظرية (التصالح الطبقي) لا تنزع انياب البرجوازية الجشعة ، ولا تهدىء الفلاحين والعمال عن المطالبة بحقوقهم المشروعة ، ولا تروي عقول المثقفين الثوريين .

وكانت الايام التي اعقبت الانفصال حافلة بعبارات النقد الذاتي التي اطلقها جمال عبد الناصر واعترف فيها بأن الرجعية من داخل الاتحاد القومي قد انقضت على الثورة في سوريا .. وانه يوجد صراع طبقي لا شك فيه .

وتبع هذا الادراك العميق الذي انضجته الخبرة والتجربة تحولا في اسلوب الثورة ... صدر الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي العربي .. التنظيم الثالث للثورة .

وقد عبر جمال عبد الناصر عن ادراكه لاهمية الصراع الطبقي بقوله في الميثاق (الصراع الحتمي والطبيعي بين الطبقات لا يمكن تجاهله او انكاره وانما ينبغي ان يكون حله سلميا في اطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات) .

وقوله في الميثاق ايضا (ان ضراوة الصراع الطبقي ودمويته والاخطار الهائلة التي يمكن ان تحدث نتيجة لذلك هي في الواقع من صنع الرجعية التي لا تريد التنازل عن احتكاراتها وعن مراكزها الممتازة التي تواصل فيها استغلال الجماهير) .

ويؤكد الميثاق ايضا تخلي جمال عبد الناصر عن فكرة (التصالح الطبقي) بما جاء فيه من القول (ان الرجعية تتصادم في مصالحها مع مصالح مجموع الشعب بحكم احتكارها لثروته ولهذا فان سلمية الصراع الطبقي لا يمكن ان تتحقق الا بتجريد الرجعية اولا وقبل كل شيء من جميع اسلحتها) .

لم يعد هناك لبس في وجود صراع طبقي .. ولكن المحاولة كانت في محاولة تجنب انفجاره في شكل دموي .

واصبح واضح انه بعد صدور الميثاق وبعد اقرار قانون الاتحاد الاشتراكي الذي ينص على ان يكون نصف اعضاء مجلس الامة والمجالس الشعبية من العمال والفلاحين ... لم يعد هناك من سبيل لتغيير جديد بل اصبح هذا هو الاساس الذي ينهض عليه المجتمع .

وقد اثبتت مناقشات اللجنة التحضيرية التي انبثق الميثاق عن مؤتمرها القومي ان معظم اعضائها لم يكن عندهم الفهم العميق للحركة السياسية ، وان اغلبيتهم كانت بعيدة عن معرفة المضمون الصحيح للاشتراكية العلمية ، وان ابعاد الشيوعيين والمفكرين اليساريين عن عضويتها قد اضعفت من مستوى اللجنة .

ولذا جاء تقرير لجنة المائة التي اشرف عليها كمال الدين حسين متخلفا عن الميثاق ، متبينا نظرة محافظة .

ولكن طرح شعار الاشتراكية في المجتمع قد اثر في الجماهير تأثيرا كبيرا ، وبدأ يجذب اهتمامها وينمي ميولها الثورية ، ويحفزها الى معرفة حقيقة ابعادها .

كانت الاشتراكية قد انفردت وحدها كستار للمجتمع ، وتساقطت كلمتي (الديموقراطية والتعاونية) .. وبدأت الكلمة تستخدم في معظم المقالات والاحاديث السياسية تماما مثل ملح الطعام ..

وتعدلت ايضا كلمات جمال عبد الناصر واصبحت اكثر حسما ووضوحا في قضية الاصرار على التحول الاشتراكي .

ولم ينحرف جمال عبد الناصر وراء بعض الذين صوروا المجتمع في مصر مع بداية ظهور الميثاق بأنه مجتمع اشتراكي .. ولم يتردد في الاعلان بأن مصر ما زالت بعيدة عن الاشتراكية وانها تعبر سنوات التحول .

ولم يكن الاعلان عن الاشتراكية كافيا لخلق مجتمع اشتراكي .. الامر لم يكن بهذه البساطة ولن يكون .

خلق المجتمع الاشتراكي يحتاج الى جهد سنوات طوال في مجالات العمل والسياسة والثقافة .

ومن الظواهر المثيرة والمعطلة معا ان الشيوعيين الذين تبنوا التبشير بالاشتراكية من قبل الثورة ، والذين ناضلوا وضحوا في سبيل ذلك تضحيات جسيمة ، كانت اغلبيتهم العظمى معتقلين في جنوب مصر في صحراء الوادي الجديد ... افكارهم الواعية حبيسة الجدران ، وطاقاتهم الكثيرة محاطة بالقضبان ... ومع ذلك فانهم لم يترددوا لحظة في تأييد جمال عبد الناصر ... والذين تبنوا افكارا متطرفة عنه راجعوا تفكيرهم واستقروا على تأييد الاتجاه الوطني التقدمي للثورة والتحالف معه من موقعهم الخاص بهم .

ونمت مع اعلان الميثاق علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ، واستقرت سياسة (الوسط والتوازن) الى خلق علاقة وثيقة مع الدول الاشتراكية التي اسهمت في تصنيع مصر بعد اتفاق الاتحاد السوفيتي على انشاء السد العالي .

ولكن الظاهرة الملحوظة انه رغم ان العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتي كانت تتحسن عاما بعد آخر وتذوب فيها الشوائب ... الا ان جمال عبد الناصر لم يبلور هذه العلاقة في حدود اكثر من انها علاقات صداقة ... ولم يفسر مضمونها الحقيقي من ان الاتحاد السوفيتي انما يقدم هذه المعونات والمساعدات غير المشروطة لانه دولة اشتراكية عظمى تهتدي بالماركسية اللينينية .

لم يحاول جمال عبد الناصر ان يقضي على الحساسية من الماركسية، بل انه كان كثيرا ما يتحدث عن الفروق بين (التطبيق العربي للاشتراكية) وهو الاصطلاح الذي كان يصر عليه امام موجات بعض المحرفين والرجعيين الذين كانوا يتحدثون عن (الاشتراكية العربية) .

كان كثيرا ما يردد هذه الفروق ويجسمها فيما قاله من فروق في الدين وديكتاتورية البروليتاريا وعدم تحميل جيل واحد مسئولية بناء الاشتراكية .

وكان ترديد هذه الكلمات يزداد خلال بعض الازمات التي كانت تعكر صفاء العلاقات بين البلدين .

ولا شك ان جمال عبد الناصر كان حريصا على وجود حد فاصل بين زعامته وبين الافكار الماركسية والتنظيمات الشيوعية ... وانه اذا كان قد استعان ببعض الماركسيين في اماكن مسئولة من اجهزته فانما كان يستعين بهم بصفة شخصية وبعد تأكده من انهم لا يتبنون اراء معارضة لحركته السياسية او له شخصيا .

ويذكر انه قال لمحرري مجلة الطليعة اثناء زيارته للاهرام انه يطلب منهم ان يكونوا قديسين .

والفروق التي كان يغيرها جمال عبد الناصر لم تكن مطروحة من الشيوعيين فلم يكن هناك تنظيم شيوعي واحد يطلب عصيان الدين أو الخروج عنه ، وهم يعتبرون الاقتناع الديني من اسس الحرية الاجتماعية التي تدافع عنها الاشتراكية ... ولم تكن قضية ديكتاتورية البروليتاريا مثارة فقد تغيرت النظرة اليها مع تغير الظروف وتجاوزتها المرحلة ... اما قضية تحميل جيل واحد عبء بناء الاشتراكية فقد تراجع عنها جمال عبد الناصر فيما بعد عندما ادرك ان هذا العبء يعطي فرصة لاعداء الاشتراكية لتخريب محاولات التطبيق ، حتى تتغير خطط التنمية ويهبط الاقتصاد القومي وتصبح الاشتراكية هي مشجب الاخطاء والمبدأ .

ووصل اقتناع الشيوعيين بالدور التقدمي الذي يؤديه جمال عبد الناصر الى حد اتخاذ قرارات بحل تنظيماتهم ... بعدما قيل لهم ان هناك فرصة أكيدة للدخول في تنظيمات الاتحاد الاشتراكي كأعضاء عاملين ... وكانت هذه اول مرة في التاريخ تحل الاحزاب الشيوعية فيها لنفسها اختياريا .

وهكذا انتهت الفروق التنظيمية وانهارت سدود العزلة وفتح الاتحاد الاشتراكي ابوابه لبعض الماركسيين ، وتولى مسئولية بعض اجهزة الاعلام ماركسيين ايضا مثل الاخبار (خالد محيي الدين) اخر ساعة (سعد كامل وصلاح حافظ) روز اليوسف (احمد فؤاد وكاتب هذه السطور) الطليعة (لطفي الخولي) .

ولكن العلاقة لم تقم على اسس وجدانية مستقرة وانما قامت على اسس ذاتية ... فلم تفتح ابواب الاتحاد الاشتراكي لكل الشيوعيين السابقين .. ولم يعد الجميع الى وظائفهم التي فصلوا منها .. واصبح البعض منهم في مراكز مرموقة يتقاضون مرتبات عالية ، والبعض منهم محروما من فرصة العمل يكاد يتضور جوعا .

صحيح ان هذه الحالات كانت تقل شهرا بعد آخر .. ولكنها في جملتها تعبر عن ان رضاء اجهزة السلطة كانت في الغالب هي جواز المرور للعمل او المركز او المسئولية .

وطبيعي ان يكون ذلك هو المقياس في وقت يتشكل فيه المجتمع الجديد لعبد الناصر الذي ظلت كافة الخيوط تتجمع بين يديه .

واستمر تركيز السلطة في يد عبد الناصر باعتباره مرجعا رئيسيا في كل الامور سمة مميزة للمجتمع .

وقد أدى ذلك من جهة الى عدم تطبيق الديموقراطية تطبيقا سليما .. كما أدى من جهة اخرى الى ضمور الاجهزة التنفيذية وضياع المبادرة منها .

وكانت الاجهزة الادارية معتزلة ايضا عن الوقاية الشعبية الصحيحة .. وكثيرا ما نشأت الخلافات والتناقضات بين تنظيمات الاتحاد الاشتراكي ومسئولية الاداريين .

وقد ساعد على استمرار الاعتماد على قبضة السلطة العنيفة ، عجز الاجهزة المختلفة عن تحقيق الاهداف الطموحة للقيادة السياسية .. فكانت الخدمات تتعثر وتفرض نفسها على العمل السياسي الذي يستهدف (حل مشاكل الجماهير) .

وكان الاعتماد على اجهزة المباحث الجنائية العسكرية في مشاكل المواصلات والتموين واعتقال المخربين فوق انه ظاهرة عجز .. كان دليلا على تخلف العمل السياسي وضعف القدرة التنظيمية للاتحاد الاشتراكي .

ولكن هذا لا يلغي كثيرا من الايجابيات في حركة الاتحاد الاشتراكي السياسية ، فهو قد لعب قدرا من النشاط لا شك في مختلف المؤسسات والمصانع والقرى ، واستنبت عناصر جديدة تهتم بالعمل السياسي وتعتنق التطبيق الاشتراكي .

وعندما وجد جمال عبد الناصر انه يجابه كل صعوبات ومشاكل التطور ، وهو عاجز عن حلها سياسيا او اداريا .. ومضطر الى الالتجاء للشرطة العسكرية .. حاول ان يدعم بنيان التنظيم السياسي بتطبيق ما ورد في الميثاق من تكوين طليعة الاشتراكيين لتؤدي دور الجهاز الواعي المنشط لهذا البيان التنظيمي الكبير .

ولكن طليعة الاشتراكيين استغرقتها ايضا مشاكل المجتمع وانعكست عليها سلبيات القيادة والاتحاد الاشتراكي .

ولم يتحقق امل جمال عبد الناصر الذي اعلنه في خطابه يوم ١٦ مايو ١٩٦٥ (ليس هناك في الوقت الحاضر طريق آخر لتنظيم تحالف قوى الشعب العامل الا انشاء تنظيم سياسي قوي وكادر داخل الاتحاد الاشتراكي قادر على تجميع القوى المؤمنة بالاشتراكية) .

ولكن طليعة الاشتراكيين لم تملأ الفراغ السياسي الذي كان يؤرق جمال عبد الناصر .

وهنا يجدر بنا الاشارة الى قوله الذي لم ينفذ من رغبته في التفرغ للعمل في الاتحاد الاشتراكي .. ويجدر بنا ايضا القول بأنه لم يعط لتكوين التنظيم السياسي كل ما يستحقه من جهد وتركيز .. ولم يسمح

للديموقراطية الداخلية ان تتفاعل فيه لاكتشاف الكادر الثوري القادر على القيادة .

كان ضعف التنظيم المتوخى فيه ان يكون تنظيما حزبيا وغياب الديموقراطية فيه تصورا في النظرة الى اهمية المشاركة الحقيقية للجماهير في العمل السياسي .

ولم يكن كافيا العمل فقط من اجل الجماهير .. وانما كان ضروريا ان يكون العمل مع الجماهير وبها .

وهكذا كان مجتمع جمال عبد الناصر يحاول الدخول الى تطبيق اشتراكي بوسائل يصعب عليها ان تحقق ذلك بطريقة عملية .

ومع ذلك كانت شخصيته القيادية المتطورة وافكاره التي لا تتوقف او تجمد امام الازمات وانما تتحول دائما الى اليسار والتقدم .. كانت ضمانة لامكانية التغلب على المشاكل والعقبات التي تعترض الطريق .. وضمانه ايضا لمواصلة من العناصر الرجعية حتى تضعف قدرتها على الحركة وينتهي دورها .. وعنصر جذب للعناصر الماركسية واليسارية للاحتشاد حوله وتأييده والدفاع عنه رغم ملاحظاتهم الكثيرة على اسلوبه في الحكم ، ورغم ما لحق بهم من مآسي متعددة .

ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا .. فحياة الشعوب ومستقبلها لا يمكن مجموعة متميزة عن الطبقة التي تمثلها رغم ارتباطها بها استراتيجيا .

ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا .. فحياة الشعوب ومستقبلها لا يمكن ان تتجمع وتتبلور في النهاية عند فرد واحد منها تألقت شخصيته وارتقت زعامته واحتشد حوله الناس بثقة وحب .

وهكذا كان جمال عبد الناصر ... وكان ايضا مجتمع جمال عبد الناصر .

شكـر وعرفـان

ما كان لهذا الكتاب ان يظهر لولا هـؤلاء السادة الذيـن تفضلوا فمنحوني بعض وقتهم للبحث والمناقشة .

ومعذرة اذا كانت الاسماء قد ظهرت بلا ترتيب تقتضيه التقاليد المرعية فاني قد حرصت على تدوينها تبعا للوقت الذي سجلت فيه .

وكل الشكر والعرفان بالجميل لهم فردا فردا .

١ ـ العسكريون .

الاســم	آخر رتبة عسكرية	آخر منصب
محمد نجيب	لواء اركان حرب	رئيس جمهورية مصر
عبد اللطيف بغدادي	قائد جنـاح	نائب رئيس جمهورية
زكريا محيي الدين	بكباشي اركان حرب	نائب رئيس جمهورية
كمال الدين حسين	بكباشي اركان حرب	نائب رئيس جمهورية
حسن ابراهيم	قائد سـرب	نائب رئيس جمهورية
خالد محيي الدين	صـــاغ	عضو مجلس الثـورة ورئيس ادارة (اخبار اليوم)
يوسف صديق	قائمقـــام	عضو مجلس قيادة الثورة
عبد المنعم أمين	صاغ اركان حرب	عضو مجلس قيادة الثورة
كمال رفعت	صـــاغ	عضو مجلس رئاسة ثم سفير
ابراهيم الطحاوي	صـــاغ	رئيس جمعية الشبان المسلمـين
احمد لطفي واكد	صـــاغ	رئيس تحرير جريدة (الشعب)
احمد انـور	بكبـاشي	سفير بالخارجية
حسن فهمي عبدالمجيد	صـــاغ	سفير بالخارجية
حسني عبد المجيد	صاغ اركان حرب	لـواء بالجيش
حسن عرفة	صـــاغ	مدير المباحث الجنائية العسكرية
توفيق عبده اسماعيل	يوزبـاشي	مدير عام برئاسة الجمهورية
احمد المصري	يوزبـاشي	مؤسسة السينما
امال المرصفي	يوزبـاشي	مدير المسرح القومي

الاسم	آخر رتبة عسكرية	آخر منصب
توفيق عبد الفتاح	بكباشي اركان حرب	وزير شئون اجتماعية ثم سفير
أمين هويدي	صاغ	وزير حربية ووزير دولة
ثروت عكاشة	صاغ اركان حرب	مساعد رئيس جمهورية
محمد ابو الفضل الجيزاوي	صاغ	عضو مجلس امة
شوقي فهمي حسين	قائد سرب	وزارة الاسكان
محمد رياض	يوزباشي	مندوب حكومة قطر في مصر
سعيد حليم	يوزباشي	وزير مفوض بالخارجية
عبد المحسن وتجي	فريق بالقوات المسلحة	قائد القوات البرية
محمد التابعي	بكباشي	سفير بالسودان
عبد المنعم النجار	بكباشي	سفير بالعراق
فؤاد المهداوي	يوزباشي	محافظ مرسي مطروح
محمود الحمزاوي	لواء بالشرطة	مدير ادارة الجوازات
حامد محمود	يوزباشي	محافظ الجيزة
عبد الرؤوف نافع	قائمقام	عضو مجلس ادارة منتدب لدار الهلال
محسن عبد الخالق	صاغ	سفير باليابان
محمد البلتاجي	صاغ	محافظ بالسويس
زكريا العادلي امام	عميد	سفير بالهند
عبد الحميد صبور	بكباشي	سفير بليبيا
فؤاد هلال	صاغ	سفير بقطر
حسن حافظ فهمي	بكباشي	عضو مجلس امة
صدقي سليمان	قائمقام مهندس	رئيس وزراء ثم رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات
طلعت حسين	يوزباشي	رئيس مجلس مدينة الجيزة
حسن الدمنهوري	صاغ	اعمال حرة الجامعة العربية (ادارة التداول)
ابراهيم بغدادي	يوزباشي	محافظ القاهرة
فريد طولان	صاغ اركان حرب	نائب مدير المخابرات العامة
فؤاد حبشي	صول طيار	اعمال حرة
امين شاكر	صاغ	وزير سياحة

الاســم	آخر رتبة عسكرية	آخر منصب
عبد الفتاح ابوالفضل	صـــاغ	عضو الامانة العــامة للاتحـــاد الاشتراكـــي
وفـــاء حجازي	صـــاغ	سفير في بنجلاديش
عبد المجيد نعمان	قائد سرب	المحرر الرياضي لجريدة الاخبـــار
فتحالله رفعت	يوزباشي	رئيس مؤسسة الاقراض الزراعي
محمد ابو نـــار	يوزباشي	رئيس شركة الاخشاب
مجدي حسنين	صـــاغ	سفير في تشكوسلوفاكيا
عبد المجيد شديد	يوزباشي	امين تنظيم الاتحاد الاشتراكي
منير موافي	ملازم اول	مؤسسة روز اليوسف
صلاح الحديدي	فريق اول	رئيس المخابرات الحربية
محمد علي بشير	صـــاغ	رئيس مجلس ادارة الشركة الشرقيـــة للبتـــرول
ممدوح جبـــه	صـــاغ	سفير سوريـــا
عبد الحميد الدغيري	لواء جوي	قائد القوات الجوية بسيناء
حسن خليل	صـــاغ	قائد المباحث الجنائية العسكرية
مصطفى بهجت بدوي	صـــاغ	رئيس مجلس ادارة دار التحرير

٢ ـ السياسيون :

الاسم	آخر منصب
احمد فؤاد	رئيس مجلس ادارة بنك مصر
عز العرب عبد الناصر	رئيس مكتب الجمهورية بالاسكندرية
محمد رياض	وكيل وزارة الداخلية
فتحي رضوان	وزير الثقافة
محمد شطا	عامل
فؤاد السراج الدين	وزير داخلية سابق
فتحي خليل	صحفي بروز اليوسف
محمود امين العالم	رئيس مجلس ادارة اخبار اليوم
موسى صبري	رئيس تحرير الاخبار
سعد كامل	محرر بالاخبار
ابراهيم فرح	وزير دولة
زكي مراد	محامي
عزيز صدقي	مساعد رئيس جمهورية
حسين فهمي	رئيس تحرير الاخبار
محمد الفتيت	وكيل بنك الائتمان العقاري
مصطفى مرعي	محامي
محمود الشريف	وكيل وزارة الاعلام بقطر
كمال ناجي	وكيل وزارة التعليم بقطر
مراد غالب	وزير خارجية ثم سفير ليوغوسلافيا .
ابراهيم سعد الدين	عضو امانة الاتحاد الاشتراكي
احمد بهاء الدين	رئيس تحرير الاهرام
عبد المنعم الصاوي	نقيب الصحفيين المصريين
احمد سعيد	مدير صوت العرب
دكتور فؤاد موسى	وزير التموين السابق

المراجـع

العربية

الكتـاب	المؤلـف
● فلسفة الثورة	جما لعبد الناصر
● خطب جمال عبد الناصر	
● اسرار الثورة المصرية	انور الســادات
● اسرار معركة الحرية	حسن عـزت
● حقيقة الانقلاب الاخير في مصر	راشد البراوي
● الثورة العرابية	لورد كرومر
● حرب التحرير الوطنية	كمال رفعت
● النـاصرية	عبدالله امام
● ما الذي جرى في سوريا	محمد حسنين هيكل
● عبد الناصر والعـالم	محمد حسنين هيكل
● مذكرات ايـدن	
● صــلاح ســالم	الدكتور محمد المعتصم
● العالم الثالث (قضايا وآفاق)	س. جوكوف وآخرون
● تاريخ الاقطار العربية الحديث	لوتسكي
● من أسرار الساسة والسياسة	محمد التابعي
	الدكتـور محمـد
● انجلترا وقناة السويس	مصطفى صفوت
● عبد الناصر والحركة النقابية	محمد خالد
● ميـلاد ثـورة	محمد عـودة
● السياسة الاستعمارية بعد الحرب العـالمية الثانية	فاخرة شيف
● ثـورة ٢٣ يوليـو	عبد الرحمن الرافعي
● محاضر محادثات الوحدة	
● المشاكل المعاصرة للتحرر الوطني	لينين
● التورط السوفيتي في الشرق الاوسط	ميلز كوبلند وه. هانتر
● اسرار معركة بورسعيد	احمد حمروش
● قصة ملك واربع وزارات	موسى صبري
● ثـورة ٢٣ يوليـو	دكتور ثروت بدوي
● سنوات التحول الاشتراكي	علي صبري
	مترجم عن الانجليزية
● مصر منذ الثورة	فاتيكيوتس
● بيانات الجهاز المركزي للتصفية والاحصاء	

الاجنبيـة :

Army Officers in Arab Politics and Society	Eleiger Be'eri
Armée Et Politique Au Moyen Orient	Bernard Vernces
Egypt Since the Revolution	P.J. Vatikiotis
The Modern History Of Egypt	P.J. Vatikiotis
Game af Nations	Miles Copeland
Socialism and The Middle East	Andrew Grant
Nasser	Jean Lacouture
Middle East Politics	J.C. Hurcuritz
The Role of The Military In Underdeveloped Countries	John Johnson
The Military In African Politics	W. F. Cutteridge
The Role of The Military In the Emerging Countries	H. Dcadler
Nasser	Anthony Nutting
Egypt Under Nasir	R. Hrair Dekmejian

الجزء الثاني

مجتمع عبد الناصر

الباب الاول
سنوات الصعود

الفصل الاول **تحرير مصر ... والسودان**

خرج جنود الاحتلال البريطاني من السودان قبل مصر ، وعندما خرجوا من مصر بعدها بشهور قال جمال عبد الناصر (والآن يبقى علينا اعادة بناء بلدنا) .

الفصل الثاني **مع الحياد ضد الاحلاف**

(ان انتصار مصر في معركة الاحلاف انتصار للهند ايضا) .

جواهر لال نهرو
اثناء زيارة القاهرة فبراير ١٩٥٥

الفصل الثالث **السوفيت في المنطقة**

(صفقة الاسلحة المصرية السوفيتية اخطر اجراء منذ قيام حرب فيتنام) .

جون فوستر دالاس
وزير خارجية الولايات المتحدة

(ان هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها

بلا قيد ولا شرط لا تعتبر فتحا للنفوذ الروسي ولا للنفوذ الاجنبي ولكنها تعتبر قضاء على النفوذ الطويل الذي تحكم فينا وسيطر علينا) .

جمال عبد الناصر

الفصل الرابع القناة والعدوان

(أن رجلا له سجل ناصر يجب الا يسمح له بأن يطبق يده على رقبتنا) .

ايــدن

رئيس وزراء بريطانيا

(أن عبد الناصر يجب ان يلفظ القناة ولا يبتلعها)

جون فوستر دالاس

وزير خارجية الولايات المتحدة

(انا في القاهرة سأقاتل معكم ضد أي غزو الى آخر نقطة دم)

جمال عبد الناصر

من فوق منبر الازهر

الباب الثاني

العسكريون في مركز السلطة

الفصل الخامس زحف العسكريين ... نحو السلطة

(لا يمكن للقوات المسلحة ان تكون ولم تكن يوما ولن تكون ابدا محايدة) .

لينين

الفصل السادس الحيرة والاختيار

(لم يكن مطلوبا مني يوم ٢٣ يوليو ان اطلع ومعي كتاب مطبوع واقول ان هذا الكتاب هو نظرية ... مستحيل) !

جمال عبد الناصر

٢٥ نوفمبر ١٩٦١

الباب الثالث

مجتمع جمال عبد الناصر

الفصل السابع **محاولة لنظرية جديدة**

(لا بد لنا ان نقاتل الاستعمار في قصور الرجعية وان نقاتل الرجعية في احضان الاستعمار)

جمال عبد الناصر
اكتوبر ١٩٦١

الفصل الثامن **في كواليس القيادة**

كانت كواليس القيادة مليئة بالتناقضات والخلافات الشخصية ... ولكنها كانت محجوبة عن الجماهير بستار كثيف .

الفصل التاسع **طليعة الاشتراكيين**

(ان الحاجة ماسة الى خلق جهاز سياسي جديد داخل اطار الاتحاد الاشتراكي العربي يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ويتحسس احتياجاتها ويساعد على ايجاد الحلول الصحيحة لهذه الاحتياجات)

الميثاق .

الفصل العاشر **مجتمع جمال عبد الناصر**

(لن استطيع ان اقف الا اذا انتهى استغلال الانسان للانسان)

جمال عبد الناصر

فهرست

مقدمـــة	٥
الباب الاول ـ سنوات الصعود	
الفصل الاول	
تحرير مصر .. والسودان	١١
الفصل الثـــاني	
مع الحياد ضد الاحلاف	٣٩
الفصل الثالث	
السوفييت في المنطقة	٥٩
الفصل الرابع	
القنــاة .. والعدوان	٨٧
الباب الثاني ـ العسكريون في مركز السلطة	
الفصل الخامس	
زحف العسكريين ... نحو السلطة	١٢١
الفصل السادس	
الحيرة والاختيار	١٥٣
الباب الثالث ـ مجتمع جمال عبد الناصر	
الفصل السابع	
محاولة ... لنظرية جديدة	١٩٣

الفصل الثامن
في كواليس القيادة ٢١١

الفصل التاسع
طليعة الاشتراكيين ٢٣٧

الفصل العاشر
مجتمع جمال عبد الناصر ٢٧٨

شكر وعرفان ٢٩١

المراجــــع ٢٩٥

● وقع خطأ مطبعي في الصفحة **١٥٣** حيث ذكـر ان الفصل هــو الخامس ، والصحيح هو السادس ، فاقتضى التنويه ●

تنـــويـــه

حالت ظروف سرعة الطبـع دون اجراء بعض التعديلات التي ارسلها المؤلف من القاهرة وستضاف الى الجزء الرابـع من « خريف عبد الناصر »

النـــاشر

مطبعة المتوسط ش.م.م.

المؤلف والكتاب

مؤلف هذا الكتاب الاستاذ احمد حمروش احد كتاب مصر اليساريين وهو من الذين شاركوا في صنع ثورة ٢٣ يوليو اليسارية وهو ضابط بالجيش المصري قبل قيام الثورة وكان يعمل ايضا بالكتابة في جريدة الاهرام ومجلة الفصول وهو من اوائل الضباط الذين انضموا الى تنظيم الضباط الاحرار تحت قيادة جمال عبد الناصر .

اصدر وراس مجلة (التحرير) اول مجلة لحركة الجيش صدرت في ١٦ سبتمبر ١٩٥٢ ، ومن بعدها اصدر وراس تحرير مجلة (الهدف) عام ١٩٥٥ ، (الكاتب) عام ١٩٦١ ، (روز اليوسف) ١٩٦٤ ، وكذلك اصدر ١٢ كتابا في السياسة والقصة والمسرح والرحلات .

تعد دراسته عن ثورة ٢٣ يوليو التي تصدر في اربعة اجزاء اكبر اعماله حيث تتميز برؤيته كأحد جنود ثورة يوليو ، وهي حصيلة جلسات مناقشة طويلة مع زملائه الذين شاركوا في صنع الثورة، وتحملوا مسؤولية مسيرتها، ومع السياسيين الذين عايشوا احداثها الكبرى .

وفي الجزء الثاني يتعرض الاستاذ حمروش الى الدور الذي لعبه جمال عبد الناصر في تاريخ مصر الحديث والاسلوب الذي اتبعه في تشكيل المجتمع مع توضيح صورة واقعية للاحداث والاسرار التي صاحبت هذا التغيير .

انه تقييم صريح .. خطير وشيق ... لموضوع يحتاج الى الصراحة والموضوعية .



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب: ٥٤٦٠ - تلفون: ٢٥٦١١٠
بيروت - لبنان

السعر ٨ ل.ل. او ما يعادلها